
285
منصور عبد الحكيم
http://www.maktbtna2211.com/
الحجاج
بن يوسف
الثقفي
طاغية بني أمية
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
Ahmed Mady

الحجاج بن يوسف الثقفى أحد أمراء بني أمية البارزين استخدمه الخليفة عبد الملك بن مروان لإعادة دولة الأمويين وانتزاع الخلافة من عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما.

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن الحكم الثقفي في منازل ثقيف بمدينة الطائف، في عام الجماعة ٤١هـ. وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج. وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي الصحابي الشهيد.

وتقرأ فى الكتاب السيرة الموضوعية لهذا الحاكم والقائد الذى ارسى قواعد دولة بنى امية بعد معاوية بن ابى سفيان وابنه يزيد.

فتقرأ عن الأسباب التي دفعت الحجاج إلى اختيار الشام مكاناً ليبدأ طموحه السياسي منه رغم بعد المسافة بينها وبينالطائف، وقرب مكة إليه، وعداءه لابن الزبير الذى كان وقتها اميرا وخليفة للمسلمين.

في الشام، التحق بشرطة الإمارة التي كانت تعاني من مشاكل جمة، منها سوء التنظيم، واستخفاف أفراد الشرطة بالنظام، وقلة المجندين. فأبدى حماسة وانضباطاً، وسارع إلى تنبيه أولياء الأمر لكل خطأ أو خلل، وأخذ نفسه بالشدة، فقربه روح بن زنباع قائد الشرطة اليه، ورفع مكانته، ورقاه فوق أصحابه، فأخذهم بالشدة، وعاقبهم لأدنى خلل، فضبطهم، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمر.

وتقرأ عن ولايته وفترة حكمه القصيرة لمكه والمدينة المنورة وما فعله مع بعض الصحابة فيها. في ٧٥ هـ حج عبد الملك بن مروان، وخطب على منبر النبي، فعزل الحجاج عن الحجاز لكثرة الشكايات فيه، وأقره على العراق. دامت ولاية الحجاج على العراق عشرين عاماً، وفيها مات. وكانت العراق عراقين، عراق العرب وعراق العجم.

مات الحجاج ليلة الواحد والعشرين من رمضان عام ٩٥هـ وقبا[illegible] ديداً. وذلك بعد قتله للعالم الجليل سعيد بن جبير رحمه الله.

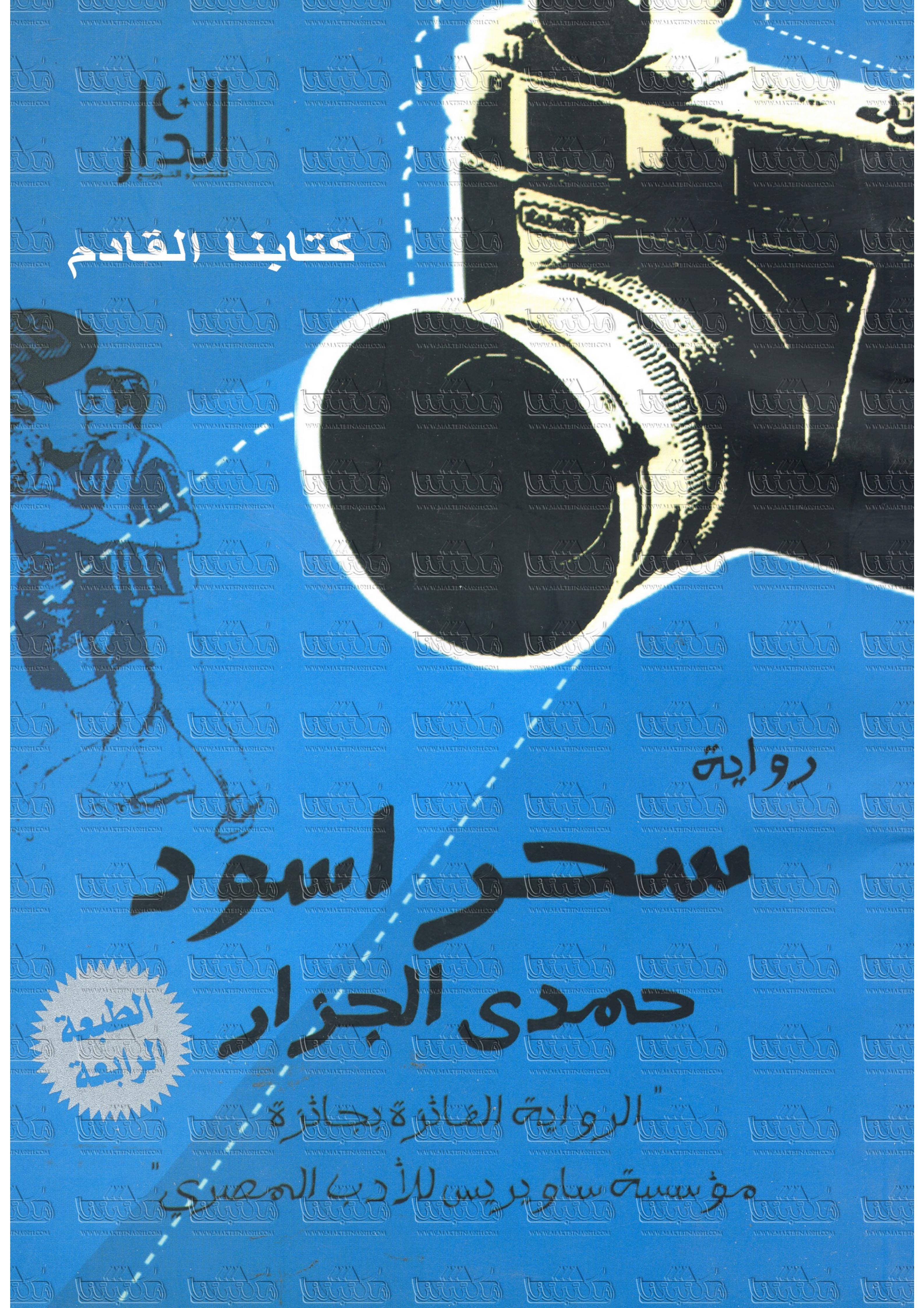
وتقرأ فى هذا الكتاب الكثير من المواقف عن الحجاج، والحكايات الشهيرة، والأقوال الفصيحة، والرسائل، والخطب، والتوقيعات، وله مجموعة أشغار متفرقة. فقصص الحجاج وأخباره كثيرة جداً، وموجودة في كتب التاريخ، ما يدل على عظم نفوذه، ولا زالت أقواله باقية إلى اليوم، ومذهبه في الحكم باق إلى اليوم. وقيلت فيه الكثير من الأبيات بعد موته، والتي تذمه، كما قيل في حياته.

انه كتاب جدير بك اتقرأه وتدعوا غيرك لقرأته اكثر من مرة وتضعه فى مكتبتك الخاصة.

I.S.B.N. 978-977-376-536-8






الدار
كتابنا القادم
رواية
سحر اسود
حمدى الجزار
الطبعة الرابعة
"الرواية الفائزة بجائزة
مؤسسة ساويرس للأدب المصري"



الحجاج بن يوسف الثقفى

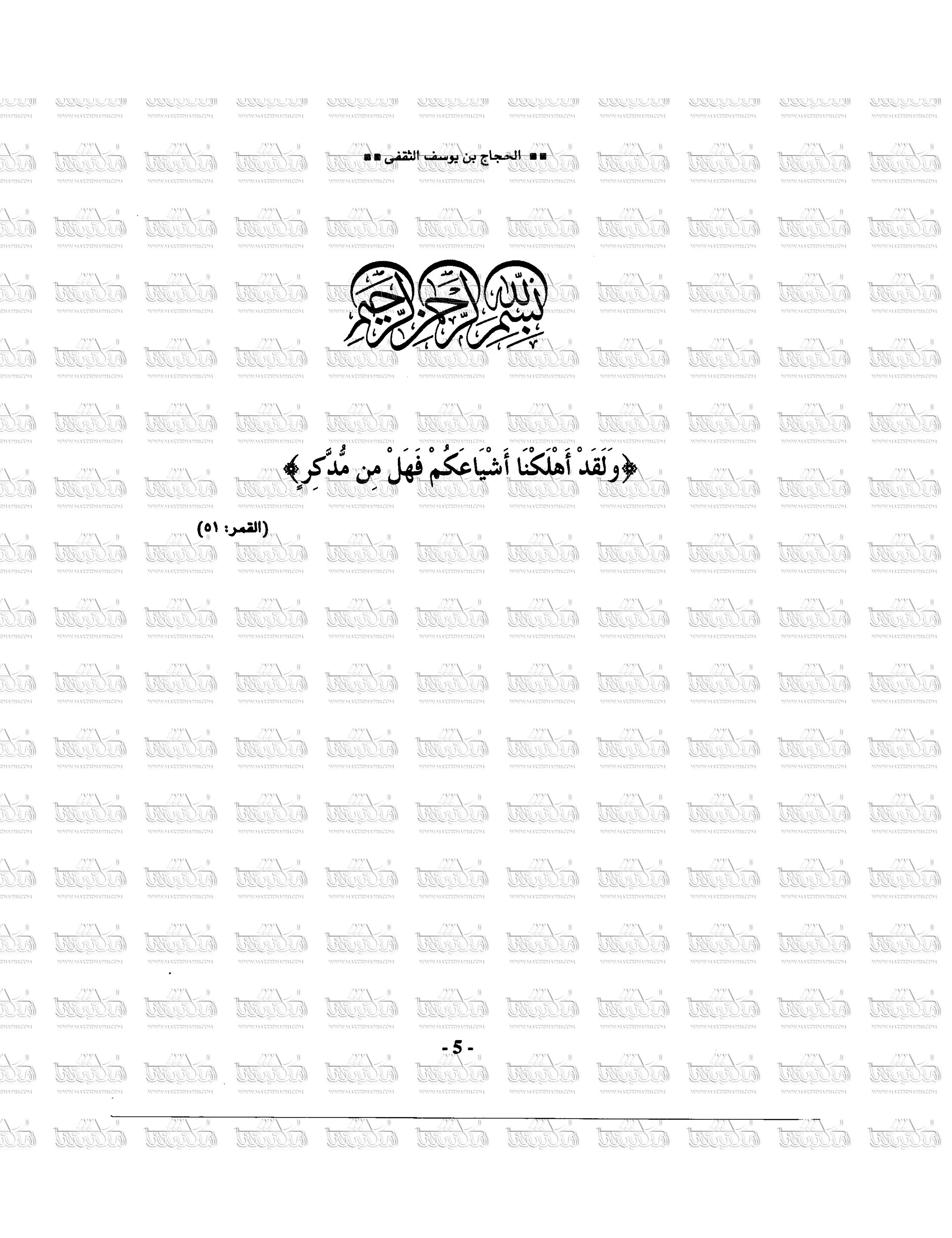
طاغية بنى أمية

منصور عبدالحكيم

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة



﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

(القمر: ٥١)

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له سبحانه وتعالى خلق الخلق وقدر الأرزاق فلم ينس أحداً من خلقه، فهو رب العالمين الرحمن الرحيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه أرسله الله على حين فترة من الرسل فكان خير من بلغ عن ربه عز وجل، وخاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

ثم أما بعد.. فإننا فى هذا الإصدار نتعرف على شخصية هامة أثرت فى التاريخ الإسلامى فى أهم فتراته وهو أحد ولاة بنى أمية الحجاج بن يوسف الثقفى.

وهو شخصية محيرة تجمع بين كل المتناقضات التى تجعل المحلل لها ولتلك الفترة من التاريخ الإسلامى تؤكد أنه (فى نظر من ولاه) الرجل المناسب فى المكان المناسب والزمان المناسب.

وتعددت الكتب التى تصدت لتاريخ هذا الرجل وأغلب ما كتب عنه كان بوصفه طاغية وأحد الولاة القساة لكثرة ما قتل من معارضى الدولة الأموية التى كان أحد قادتها السياسيين والعسكريين فى أحلك أزمانها بعد معاوية بن أبى سفيان مؤسس الإمبراطورية أو الدولة الأموية، فقد ظهر الحجاج بعد ثورة عبدالله بن الزبير بن العوام - رضى الله عنهما - على تلك الدولة وتوليه خلافة المسلمين قرابة ثمان سنوات.

فكان ظهور الحجاج الثقفى ليعيد كفة الميزان السياسى والعسكرى لتلك الدولة بعد أن عهد إليه عبدالملك بن مروان بتلك المهمة الصعبة وهى إعادة الاستقرار والهيمنة للأمويين على البلاد الإسلامية كأرض العراق وبلاد فارس والحجاز التى خضعت لسلطان ابن الزبير فكانت الحروب التى خاضها الحجاج وحصاره مكة وانتصاره على ابن الزبير ومن ثم توطيد سلطان الخليفة عبدالملك بن مروان فكان

كما ذكرنا الرجل المناسب فى الزمان المناسب من وجهة نظر الخليفة الأموى.

وتولى الحجاج ولاية حكم أخطر البلاد إثارة للفتن والتمرد وهى أرض العراق فقادها بحزم شديد طارت فى سنوات حكمها المئات من رقاب الخوارج والمعارضين لحكم بنى أمية حتى قال عنه الحسن البصرى رحمه الله تعالى: «إن الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٦).

وحمل الحجاج هذا اللقب «الحجاج» لكثرة ما حطم من العظام[١] واختلف من عاصروه ومن جاءوا بعده فى شخصيته حتى إن البعض كفروه وحطوا من قدره بوصفه عدوّاً للمسلمين ودين الله.

فقالوا عنه إنه كان ظلوماً غشوماً جباراً خبيثاً سفاكاً للدماء، وقال آخرون إنه ذو دهاء وفصاحة وتعظيماً للقرءان وأنه أول من بنى مدينة إسلامية بعد الصحابة وهى مدينة واسط العراقية.

قال عنه الإمام الذهبى - رحمه الله: كان الحجاج ظلوماً غشوماً، جباراً، خبيثاً سفاكاً للدماء وكان ذا شجاعة، وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيماً للقرءان.

ثم أضاف الذهبي: ونحن نسبه ولا نحبه بل نبغضه في الله فإن من ذلك أوثق عرى الإيمان وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله.

نعم إن أمر الحجاج والولاة والحكام والبشر إلى خالقهم سبحانه وتعالى، ولهذا فإننا حين نستعرض سيرته نفوض أمره إلى الله عز وجل.

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا إلى إخراج هذا العمل على الوجه الذى يرضيه ويقبله منا، وأن يجعل هذا العمل وغيره من الأعمال الصالحة فى ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم القيامة.

منصور عبد الحكيم

القاهرة ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٩

mansor_2455@yahoo.com

(١) اسم الحجاج هو كليب.



«ثقيف» بين الكذاب والمبير

- قبيلة «ثقيف» وقبيلة «هوازن» وأصولهما القديمة وفروعهما الحديثة.
- قبيلة ثقيف وتحالفها مع هوازن في قتال المسلمين بعد فتح مكة.
- إسلام قبيلة هوازن وثقيف.

قبيلة ثقيف وقبيلة هوازن هم أهل مدينة الطائف

الحجاج بن يوسف من قبيلة ثقيف وإليها ينتسب ويعرف، وهذه القبيلة تسكن الطائف المدينة الحجازية ذات الموقع الاستراتيجى التى عادت الإسلام ورسول الإسلام ﷺ حتى بعد فتح مكة وحاصرها ﷺ.

وأكثر سكان مدينة الطائف من قبيلة هوازن وقبيلة ثقيف وهما قبيلتان من أكبر قبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية وأعرقها وكان لدخولهما فى الإسلام الأثر الكبير فى نشر الإسلام واتساع رقعة أرضه.

أما هوازن قبيلة معروفة مشهورة تنتسب إلى فرع رئيسى من العرب وهو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وعلى كل فهم من العرب العدنانيين وتاريخهم وغزواتهم معروفة فى كتب التاريخ سواء قبل الإسلام أو بعده وخدماتهم جلية ولا تعد فى نصرة الإسلام وأهله.

ينتشرون اليوم بكثافة فى العالم العربى وأكبر قبائلهم «عتيبة» المشهورة ولهم تواجد ضعيف فى فلسطين.

وأما قبيلة ثقيف فهى من أكبر القبائل وأعرقها فى شبه الجزيرة العربية ولقد كان لهذه القبيلة دور مؤثر وفعال قبل الإسلام وبعده وتنتسب هذه القبيلة إلى جدها قسى وهو (ثقيف) بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة خصفة ابن قيس عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان.

وتعتبر قبيلة ثقيف من آخر القبائل التى دخلت فى الإسلام إلا أنها ثبتت عليه ومن أشهر الصحابة الذين ينتمون إلى هذه القبيلة الصحابى الجليل المغيرة بن شعبة الثقفى، وساهمت كل من ثقيف وقريش فى محاربة القبائل التى ارتدت عن

الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ كما كان لها دور كبير ومؤثر فى توطيد أركان الخلافة الأموية بأبنائها وفى مقدمتهم الحجاج بن يوسف الثقفى ومحمد بن القاسم الثقفى وينتشر معظم أفراد هذه القبيلة فى مدينة الطائف بالمملكة العربية السعودية حتى الآن(١).

وذكر ابن الأثير فى الكامل فى التاريخ أن ثقيف اسمه قسى بن منبه بن بكر... إلخ وأن قبائل هوازن يجمعها ثلاثة أجداد كلهم لبكر بن هوازن وهم:

١ ـ بنو سعد بن بكر.

٢ ـ بنو معاوية بن بكر.

٣ ـ بنو منبه بن بكر.

وسأل عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن نسب ثقيف وهل هم من أياد فقال الحجاج معاذ الله يا أمير المؤمنين: نحن من قيس ثابتة أصولنا باسقة فروعنا يعرف ذلك قومنا وقد قال شاعرنا:

وإنا معشر من جذم قيس فنسبتهم ونسبتنا سواء

همو آباؤنا وبنوا علينا كما بنيت على الأرض السماء

وزعم بعض النسابين أن ثقيفا من إياد.

وتروى كتب السيرة والتاريخ أن قبيلة خثعم قد جمعت جموعا من اليمن ـ أى جنوب الطائف ـ وغزت ثقيفا بالطائف، فخرج إليهم غيلان بن سلمة فى ثقيف، فقاتلهم قتالاً شديداً فهزمهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ومن أيامهم يوم وج، وادى بالطائف، كان بين ثقيف، وخالد بن هوذة، ومنها أن بنى عامر بن ربيعة، جمعوا جموعاً كثيرة من أنفسهم وأحلافهم ثم ساروا إلى ثقيف بالطائف، وكانت بنو نصر بن معاوية أحلافاً لثقيف، فلما بلغ بنى ثقيف مسير بنى عامر استنجدت بنى نصر،

(١) وقد ذكر الحافظ ابن عبدالبر فى الإنباه على قبائل الرواة أن أصل قبيلة ثقيف يرجع إلى قيس عيلان أما ابن الأثير فذكر أصلها إلى قسى بن منبه بن بكر بن هوازن... إلخ ذكره فى الكامل فى التاريخ.

فخرجت ثقيف إلى بنى عامر وعليهم يومئذ غيلان بن سلمة فلقوهم، وقاتلتهم قتالاً شديداً، فانهزمت بنو عامر، ومن كان معهم، وكثر القتل فى بنى عامر.

ومن أيامهم فى السيرة النبوية بعد فتح مكة أن النبى ﷺ أقام سنة ٨ هـ بمكة عام الفتح، نصف شهر لم يزد على ذلك، حتى جاءت هوازن وثقيف، فنزلوا بحنين (الشرائع الآن) يريدون قتال النبى ﷺ، وأقبلوا معهم بالنساء والصبيان والأموال، حتى نزلوا حنينا، وكان يرأس الجميع مالك بن عوف النصرى، فلما علم النبى ﷺ بذلك خرج إليهم فى جيشه الذى فتح به مكة، وجمع ممن أسلم بعد الفتح، فسار حتى دخل وادى حنين عند التقائه بيدعان فلم يرعهم إلا والنبل يرشقهم من كل جانب فانهزم المسلمون بادئ ذى بدء، وثبت رسول الله ﷺ فى قلة من شجعان المسلمين، وكان يرتجز فيقول: أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب.

ثم دارت الدائرة على ثقيف وهوازن فانهزموا وطاردهم الجيش الإسلامى إلى أوطاس، وغنم وأسر منهم كثيراً وساقوا النساء والصبيان والأموال إلى الجعرانة فقسمها النبى ﷺ، وخص من أسلم من قريش يوم الفتح.

ثم تجهز النبى ﷺ لغزول الطائف، فأخذ على نخلة اليمانية ثم على المليح ثم إلى بحرة الرغاء من لية فجاء الطائف من الشرق فحاصرها، ثم انصرف عنها، فقيل له: ادع على ثقيف.

فقال: اللهم اهد ثقيفا، وأت بهم.

وفى السنة التاسعة للهجرة قدم ثقيف المدينة بعد عودته من تبوك، فبايعوا وأسلموا، وكان فيما سألوا رسول الله ﷺ، أن لا يكسروا أوثانهم إلا بأيديهم. ووافق على ذلك، وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات فهدمت، ولم يعد أحد يعرف حتى موضعها إلا من الخاصة المؤرخين، وأبدل الله ثقيفا بها الإسلام.

وحاربت ثقيف سنة ٨٢ هـ مع الحجاج بن يوسف الثقفى، عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث، فانهزمت، وبعد ذلك أخلدت ثقيف إلى الراحة فى جو الطائف

البديع، ولم تكن من القبائل الغازية، ولكن القبائل كانت تهاب غزوها. وآخر أخبارها: اشتركت ثقيف فى جيش عبدالله بن الحسين فى مهاجمة الأتراك أثناء الثورة العربية الكبرى، ووقفت إلى جانب الأشراف ضد قوات خالد بن لؤى عندما هاجم الطائف سنة ١٣٤٣ هـ.

كان من بطون ثقيف القديمة: بنو جهم بن ثقيف، وبنو عوف بن ثقيف، ويعرفون بالأحلاف، ومنهم بنو مالك، ودارت حرب طاحنة بين بنى مالك والأحلاف فى (نخب) كثر فيها القتل فأُجلِيَ جُلُّ بنى مالك أو كلهم.

وتنقسم ثقيف اليوم إلى سبعة بطون هم: طويرق، والنمور، وعوف، وبنى سالم، وبنى سفيان، والحمدة، وثمالة.

ثقيف ترعة: وهم قسم كبير من قبيلة ثقيف، يقطن جنوب الطائف بين سراة بنى سعد، وبنى مالك، تنقسم ثقيف ترعة إلى:

١ ـ بنو جاهل: الحمدة، وآل مسعود، والقثاورة، والمغدة ـ بالغين المعجمة.

٢ ـ الندبة: آل يعلى، وآل محمد. ومن آل يعلى: المدان، وموبل، وقها. ومن آل محمد: الدارين أو أهل الدارين.

٣ ـ بنو يوسف: المجاورة، والعسلة، والبقمة ويقال لهم: الفرعين.

فثقيف سكان الطائف وما حولها الآن قبائل نذكرها بتقسيماتها:

أولاً ـ الحمدة والنسبة إليهم (الحميدى) على غير قياس كما يقول الصرفيون ويسكن أكثرهم قرى المليساء من وادى القيم شمال الطائف ويسكن بعضهم المثناه ومنهم العشائر التالية:

١ ـ الزربات ومنهم آل صالح وآل مسفر وآل سعد وآل أحمد وآل محمد على وآل دخيل الله.

٢ ـ العرافية ومنهم الزراريق وآل عيد وآل زائر.

٣ ـ الزواهره ومنهم آل عبدالسلام وآل محمد.

٤ ـ القواسم.

٥ ـ العقلان.

٦ ـ الجرشان.

٧ ـ المطالقة.

٨ ـ ذو هندى.

٩ ـ آل سميح.

ثانيا: بنو سفيان والنسبة إليهم (السفيانى) ويسكن أكثرهم بالسراة الجنوبية الغربية بالنسبة للطائف وهو ما يسمى بمنطقة الشفا وأشهر أوديتهم وادى الفرع.

وبنو سفيان اليوم ينقسمون إلى:

أولاً: آل شريف وينقسمون إلى قسمين:

١ ـ آل ساعد ومنهم آل منصور ـ آل عبيد ـ الواعدة ـ آل حسن ـ آل حرجل.

٢ ـ آل حجة ومنهم آل عيسى ـ آل منيف ـ آل أبوالدم ـ الخُمس ـ البهادلة.

ثانياً: بنو عُمر وينقسمون إلى:

١ ـ الخضرة.

٢ ـ آل تميم.

٣ ـ العسران.

ثالثاً: آل عايشة.

ثالثا. طويرق والنسبة إليهم (الطويرقى) ويقطنون السراة الشمالية الغربية بالنسبة للطائف وهم أهل قرى فمن قراهم مملكة ـ محشكة ـ والمبيرز ـ وغيرها وطويرق ينقسمون إلى قسمين:

(أ) طويرق الحضر ومنهم:

١ ـ الزحارية.

٢ ـ الفصل.

٣ ـ الخصافين.

٤ ـ السواويد.

٥ ـ الهناديه.

٦ ـ الدهاهين.

(ب) طويرق البدو ومنهم:

١ ـ الروسان.

٢ ـ العبدة.

٣ ـ الكلبة.

٤ ـ الظفارين.

٥ ـ الحُمران.

٦ ـ الجعيدات.

٧ ـ الزمتة.

٨ ـ السفارية.

رابعاً: النمور والنسبة إليهم (النمرى) ويقطنون منطقة الهدى وادى محرم.

وينقسمون إلى أربعة أقسام:

(أ) الغربة ومنهم: الكامل، البنى.

(ب) الخولة ومنهم: اللمظة، الحجران.

(ج) الخضرة ومنهم:

القبسة، المشاهبة، اللوامية، المشاييخ.

أهل الدار البيضاء ومنهم:

آل حربى، المصاريه، آل سلطان، البعارضة، آل حميد، الزنان.

خامساً: بنى سالم والنسبة إليهم (السالمى) ويقطنون جنوب وادى ليه وتعرف بلادهم ببلاد بنى سالم ومن أشهر قراهم النصبة وأبوغيل وينقسمون إلى:

المناحفة، الجرادات، الحوتة، آل منصور، العياسى، آل عمرين، آل أحمد، آل زايد، آل عتيق، آل عابد.

سادساً: عوف والنسبة إليهم (العوفى) ويقطنون وادى ليه وينقسمون إلى:

آل موسى، آل حسن، آل مسفر، الطوال، آل جلال، القفاعية.

سابعاً: ثمالة والنسبة إليهم (الثمالى) ويقطنون وادى جفن ويسمى وادى ثمالة وينقسمون إلى:

آل مقبل، الطباعين، السواعدة، آل عمراه، السودة، الطوال، المشايخ، آل مقيبل.

ثامناً: الصخيرة والنسبة إليهم (الصخيرى) ويقطنون وادى الصخيرة وهو شرق وادى ليه وينقسمون إلى:

العممة، الشتة، الخنافسة، آل مقبول، آل غازى، الثعابين.

تاسعاً: ثقيف ترعه والنسبة إليهم (الثقفى) وهم أصلاً من الطائف لكن لما حدثت حرب بين ثقيف نفسها بين عوف الأحلاف وبين بنى مالك وانتصر فيها بنو عوف ونزح بنو مالك من ثقيف إلى المنطقة المسماة الآن بثقيف ترعة ويتفرع ثقيف ترعة إلى:

١ ـ بنو جاهل ومنهم: آل مسعود ـ المغدة ـ الحمدة ـ الغثاورة ـ الأحلاف وغيرهم.

٢ ـ الندبة ومنهم آل محمد ـ وآل يعلى ـ والدارين.

٣ ـ بنى يوسف ومنهم المجاردة – العسلة.

تلك هى قبائل ثقيف المعروفة الآن وهناك من ثقيف من نزح عن الطائف منذ القدم وخرجوا فى الفتوحات الإسلامية فهناك من ثقيف مثلا فى المغرب العربى والشام واليمن والخليج وغيرها من البلاد.

قبيلة ثقيف وتحالفها مع هوازن فى قتال المسلمين بعد فتح مكة « غزوة حُنَيْن »

كانت قبيلة ثقيف من أشد القبائل عداوة لرسول الله ﷺ والمسلمين وكانت آخر القبائل دخولاً فى الإسلام.

وكان لفتح مكة فى رمضان سنة ٨ هـ أثر بالغ فى تحريك ضغائن القبائل العربية المنافسة لمضر عموماً وقريش خصوصاً، وكانت بطون قيس عيلان بالأخص فى حالة عداء تقليدية وقديمة مع بطون مضر، لذلك لما فتح المسلمون مكة، اجتمعت قبائل هوازن وثقيف وبنى هلال، وقررت محاربة المسلمين مدفوعة بعداوة الإسلام وعداوة القبلية والعصبية.

وقرر القائد العام لتحالف مشركى هوازن وثقيف «مالك بن عوف النصرى» أن يسوق مع الجيش الأموال والعيال والنساء ليزيد ذلك من حماس المشركين فى القتال ويجعلهم يقاتلون حتى الموت، إن لم يكن للنصر فللدفاع عن الحرمات، وسار جيش التحالف حتى وصل إلى وادى أوطاس وهو على مسيرة يوم من مكة تقريباً، ولم يعجب هذا الرأى أحدقادة الجيش المخضرمين ذوى الخبرة وهو «دُرَيْد بن الصمة» ولكن مالك بن عوف أصر عليه، فأطاعوه على سفاهة رأيه، ولُقب من بعدها بالأحمق المطاع.

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وكان جيشه يضم كثيراً من مسلمة الفتح الذين لم يستقر الإسلام فى قلوبهم، وكان الجيش كبيراً بصورة أعجبت كثيراً من المسلمين، وداخلهم الثقة الكاملة لحد الغرور وثقتهم فى النصر فقال بعضهم: «لن نُغلب اليوم من قِلة».

وقام «مالك بن عوف» بوضع جيشه على شكل كمائن فى مداخل ومضايق

وشعب وادى حنين وقد سبق المسلمين لهذا الوادى، ووضع خطته على مفاجأة المسلمين بالسهام القاتلة.

وفى يوم ١٠ شوال سنة ٨ هـ وعند السحر دخل المسلمون وادى حنين وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو، وفجأة انهالت السهام عليهم من كل مكان والعدو يهجم عليهم هجمة رجل واحد، فأصيب المسلمون بالدهشة المربكة وتراجعوا بدون نظام. وصاح بعض حديثى العهد بالإسلام مثل أبى سفيان بن حرب بما فى صدورهم وعندها قام الرسول ﷺ إذ انحاز إلى جهة اليمين ثم نادى على المسلمين، وخص النداء بالمهاجرين والأنصار وأهل بيعة الرضوان، حتى اجتمع عنده مائة من خاصة أصحابه، وأخذ حفنة من تراب الأرض ورمى بها فى وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» ولم تمر سوى ساعات قلائل حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وفروا إلى عدة أماكن مختلفة، فطائفة إلى «أوطاس» وأخرى «نخلة» ومعظم الفارين توجهوا إلى حصون الطائف.

وقام المسلمون بمطاردتهم حيث حصون الطائف واستطاعت فرق المطاردة القضاء على الفارين، وبعدها اتجه الرسول ﷺ إلى حصون ثقيف، وقد لجأ إليهم «مالك بن عوف» ومعظم الفارين، وضربوا على الطائف حصاراً شديداً ووقع خلاله مناوشات حامية بين المدافعين عن الحصن والمسلمين، حدثت خلالها إصابات كثيرة للمسلمين وحاول الرسول ﷺ الضغط على المحاصرين بقطع حدائق أعنابهم، فسألوه أن يدعها لله والرحم، فتركها لله، ثم أعلن أن من خرج من عبيد ثقيف للمسلمين فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً، ثم حاول الهجوم بشدة ولكن أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة.

واستمر حصار رسول الله ﷺ للطائف قرابة أربعين يوماً، تخللها العديد من المناوشات بين المسلمين والمشركين، ونادى منادى رسول الله ﷺ: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر»، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين ليقوم بشأنه واحتياجاته.

ولما طال الحصار، وأصيب عدد من المسلمين استشار الرسول ﷺ بعض

القوم، ثم قرر رفع الحصار والرحيل.

فعن عبدالله بن عمرو قال: حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، فلم ينل منهم شيئاً، فقال: «إنا قافلون إن شاء الله، قال أصحابه: نرجع ولم نفتتحه، فقال لهم رسول الله ﷺ: اغدوا على القتال، فغدوا عليه فأصابهم جراح، فقال لهم رسول الله ﷺ: إنا قافلون غدا، فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله ﷺ»(١).

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام ـ مالك بن عوف ـ وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة، فى الشهر نفسه ـ شوال سنة ٨ هـ.

ودام الحصار مدة غير قليلة، ففى رواية أنس عند مسلم: أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً، وعند أهل السير خلاف فى ذلك، فقيل: عشرين يوماً، وقيل: بضعة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر.

ووقعت فى هذه المدة مراماة، ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً، كأنه رِجْل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك.

ومما يستفاد من هذه الغزوة ما استخدمه الرسول ﷺ من أدوات القتال ونصب النبى ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة فى جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً.

وأيضاً ما أمر رسول الله ﷺ ـ كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام ـ أمر بقطع الأعناب وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألته ثقيفاً أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم.

(١) متفق عليه.

ولما طال الحصار واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة ـ وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة ـ استشار رسول الله ﷺ نَوْفَل بن معاوية الدِّيلى فقال: هم ثعلب فى جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى الناس، إنا قافلون غداً إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اغدوا على القتال»، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله يضحك.

ولما ارتحلوا واستقلوا قال: قولوا: «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون».

وقيل يا رسول الله، ادع على ثقيف، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً، وائت بهم».

وأنزل الله ـ عز وجل ـ قرءاناً يتلى إلى يوم القيامة فى غزوة حنين فى سورة التوبة حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ سورة (التوبة: ٢٥: ٢٦).

■■■

دخول قبيلة ثقيف وهوازن فى الإسلام

كانت قبيلة هوازن سابقة لثقيف فى دخول الإسلام بعد غزوة حنين حيث إنه بعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً، وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير ابن صُرَد، وفيهم أبو بُرْقانَ عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يمن عليهم بالسبى والأموال، فأشار إليهم أن يقولوا إنا نستشفع بالرسول إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا.

فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرَع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقال عُيَيْنَة بن حِصْن: أما أنا وبنو فزَارَة فلا. وقال العباس بن مِرْدَاس: أما أنا وبنو سُلَيْم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس ابن مرداس: وهنتمونى.

فقال رسول ﷺ: «إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سَبْيَهُمْ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده منهن شىء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا».

فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ.

فقال: «إنا لا نعرف من رضى منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرَفاؤكم أمركم».

فردوا ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله ﷺ السبى قبطية قبطية.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم فى الجعْرَانة أهلَّ معتمراً منها، فأدى العمرة، وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عَتَّاب بن أسيد، وكان رجوعه إلى المدينة ودخوله فيها لست ليال بقيت من ذى القعدة سنة ٨ هـ.

وبعد غزوة الطائف وحصاره ﷺ لثقيف ومن معها ثم عودته للمدينة ظلت ثقيف على عنادها وشركها حتى غزوة تبوك ودخول عروة بن مسعودالثقفى فى الإسلام.

وكان «عروة بن مسعود الثقفى» وهو أحد سادة ثقيف قد علم بانتصار المسلمين فى أرض تبوك، فقدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ قبل أن يدخل المدينة، وأسلم على يديه واستأذنه فى أن يذهب إلى الطائف، ليدعو قبيلته إلى دين التوحيد فحذره رسولُ الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من مخاطر هذا العمل لأنه ـ صلى الله عليه وآله ـ كان يعرف أنَّ فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم.

وقال له: «إنهم قاتلوك».

فقال عروة: يا رسول الله أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم، «أو من أبصارهم».

وكان فيهم كذلك محبَّباً مُطاعاً، إلا أن فيهم نخوة وكِبر يمنعانهم من الخضوع للحق، فكان ما تنبأ به النبى ﷺ من قيامهم بقتله حين دعاهم إلى الإسلام بأن رشقوه بالسهام.

وهكذا رشقوا بالنبال «عروة» فى الوقت الذى كان يدعوهم إلى الإسلام.

فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: كرامة أكرمنى الله بها، وشهادة ساقها الله إلىَّ[1]. ليس فىَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله مع رسول الله فادفنوني معهم.

وأصبح عروة رضي الله عنه بدعوته قومه ومقتله على أيديهم مثل صاحب يس الذى جاء ذكره فى سورة يس، حيث قال ﷺ حين جاءه خبر مقتله: «إن مثله في قومه كمثل صاحب «يس» في قومه إذ دعاهم إلي خير فقتلوه.

ثم ندم رجالُ ثقيف ـ بعد مقتل عروة ـ على فعلهم هذا بشدة وعرفوا بأن

(١) انظر المغازي للواقدي ـ والسيرة النبوية لابن هشام.

الحياة لم تعُد ممكنة وميُسرة لهم فى قلب الحجاز الذى رُفِعَت على جميع مناطقه ألوية التوحيد وخاصّة بَعد أن أصبحت جميع المراعى والطرق التجارية تحتَ سيطرة المسلمين، فقرّروا فى ندوة مشاورة عقدت لدراسة مشكلاتهم أن يبعثوا مندوباً من قِبَلهم إلى المدينة ليتفاوض مع رسول الله ﷺ ويعلن له عن استعداد قومه لاعتناق دين التوحيد ضمنَ شروط معيَّنة، واتفقوا على إيفاد «عبد ياليل» إلى المدينة وإبلاغ رسالتهم إلى رسول الله ﷺ.

ولكن عبد ياليل رفض القيام بهذه المهمّة وقال: لستُ فاعلاً ذلك حتى تُرسلوا مَعى رجالاً، لأنه كان لا يثق بثبات رأيهم، وكان يخشى أن يصنَعوا به ما صنَعوا بعروة بن مسعود. فاتفقوا أن يبعثوا معه خمسة رجال من ثقيف ليقوموا جميعاً بالقدوم على رسول الله ﷺ والتفاوض معه.

وتوجه هذا الوفد السداسىّ المدينة، ونزلوا بعد طى مسافة خارج المدينة فألفوا عندها المغيرة بن شعبة الثقفى يرعى خيولاً لأصحاب رسول الله ﷺ.

فلما رأى المغيرة زعماء قبيلته وعرف هدفهم ذهب مسرعاً إلى المدينة ليبشّر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بعد أن ترك الخيول عند الثقفيين، وليخبره بقرار قبيلة ثقيف التى طال عنادها، فلقيه أبو بكر قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ فأخبره المغيرة عن ركب ثقيف، فرجاه أبو بكر أن يسمح له بتبشير النبى ـ صلى الله عليه وآله ـ قبل أن يحدثه المغيرة بالأمر ففعل المغيرة فدخل أبو بكر على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فأخبره بقدومهم عليه وأنهم جاؤوا ليعتنقوا الإسلام بشروط، فأمر رسول الله ﷺ بإكرامهم، وضربَ لهم قبة فى ناحية مسجده، وكلّف خالد بن سعيد بالقيام بشئون ضيافتهم(١).

ثم حضر وفدُ ثقيف عند رسول الله ﷺ ومع أن المغيرة كان قد علّمهم كيف يُحيون رسول الله ﷺ فإنهم حيّوه بتحية الجاهلية تكبّراً منهم وغروراً ثم أخبروا رسول الله ﷺ برأى ثقيف وأضافوا أنهم مستعدون لاعتناق الإسلام ضمن شروط خاصة، سوفَ يُعرضونها عليه فى جلسة تالية!!

(١) السيرة النبوية.

واستمرت مفاوضات وفد ثقيف مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ عدة أيّام، وكان خالد بن سعيد رضي الله عنه هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ فى هذه المفاوضات.

وبعد مفاوضات دلت على عناد هذه القبيلة وتكبرهم وعلى صبر الرسول ﷺ عليهم، قبل رسول الله ﷺ كثيراً من شروط ثقيف حتى إنه ضمن لأهل الطائف ـ ضمن ذلك العهد أمن منطقة الطائف وما يرتبط بالطائفيين من أرض ورفض بعض شروطهم التى لا تصح مع دين الله وعدم صحتها ومن هذه الشروط المرفوضة ما ذكرته كتب السيرة أن وفد ثقيف قالوا للنبى ﷺ، إن قبيلة ثقيف مستعدة لأن تعتنق الإسلام شريطة أن يترك بيت أصنامهم على حاله، وأن يعبُدوا «اللات» وهو صنم القبيلة الأكبر مدة ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ.

فلما رأوا غضب النبى وإباءَه أخذوا يتنازلون عن المدة التى ذكروها سنة سنة وهو يأبى عليهم حتى سألوا شهراً واحداً، فأبى عليهم أن يدعها ولا يوماً.

ولهذا عندما عرف وفدُ ثقيف بقبح مطلبهم هذا بادَروا إلى التعلل والاعتذار بأنهم إنما أرادوا بذلك إرضاء نسائهم وذراريهم وسفهاء قبيلتهم، حيث إنهم يكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فإذا أبى رسول الله ﷺ عليهم ذلك فليبعث معهم شخصاً من غير قبيلتهم ليهدمَها، فوافق النبى ﷺ على هذا الشرط، لأنّ النبى ﷺ كان يريد محو وإزالة جميع المعبودات الباطلة عن الحياة البشرية سواء أتمّ هذا على أيدى الطائفيين أم على أيدى غيرهم.

وأما الشرط الآخر فهو أن يعفيهم رسولُ الله ﷺ من الصلاة.

فلقد كانوا يتصوَّرون أن رسول الله ﷺ يمكنه التصرّف فى الأحكام الإلهية كما يفعل أهل الكتاب، حسب زعمهم، حيث كانوا يكلّفون جماعة بهذه الأحكام، بينما يعفون جماعة أخرى منها.

وكشف هذا الشرط عن أنه لم يكن قد ترَسَّخت فى أفئدتهم روح التسليم المطلق بعد، وأنّ اعتناقهم للإسلام كان نتيجة ظروف ساقتهم إلى إسلام ظاهرى

سطحىّ، وإلا فلا داعى ولا مبرّر للإيمان ببعض ما جاء فى الإسلام دون بعض، فيقبلوا شيئاً ويرفضوا شيئاً آخر.

فالإسلام الحق هو التسليم المطلق لله ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ فى كل أمور الحياة.

ولهذا كان رد رسول الله ﷺ عليهم: «لا خير فى دين لا صلاة فيه»(١).

وعندما اتفق الطرفان على شروطهما نظمت معاهدة شاملة المواد والشروط المتَّفق عليها، وقع عليها رسول الله ﷺ، وحينئذ أذنَ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ لوفد ثقيف بالعودة إلى قومهم، واختار منهم أحدثهم سنا وهو عثمان بن أبى العاصى، الذى كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام، وتعلَّم القرآن خلال وجوده بالمدينة فجعله أميراً عليهم، فى قبيلة ثقيف وأوصاه بأن يصلِّىَ بالناس جماعة مراعياً أضعفهم قائلاً له: «يا عُثمان تجاوز فى الصَّلاة وأقدُر الناس بأضعفِهم فإنَّ فيهمُ الكبير والصغير والضعيفَ وذا الحاجة».

ثم كلَّف رسولُ الله ـ صلى الله عليه وآله «أبا سفيان بن حرب» و«المغيرة بن شعبة» بالتوجه إلى الطائف مع وفد ثقيف لهَدم الأصنام فيها، وهكذا دخلت ثقيف فى الإسلام بعد طول عناد فكانت آخر القبائل إسلاماً.

■ ■ ■

(١) انظر السيرة: ج ٢ وانظر «أسد الغابة» ج ١.



إعادة تأسيس الدولة الأموية

- الدولة الأموية صعوداً وهبوطاً.
- المرحلة الأولى في تأسيس الدولة الأموية.
- عبد الملك بن مروان وإعادة تأسيس الدولة باسترجاع البلاد التي كانت خاضعة للحكم الأموي.

الدولة الأموية صعوداً وهبوطـاً

لكل دولة مـرحلة صعـود وعلو ومـرحلة هـبوط وسقـوط وانتهاء، وهكذا كانت الدولة الأمـوية التى أسسها معـاوية بن أبى سفيان بعد صـراعه الطويل مع الإمـام على بن أبى طالب رضي الله عنه، ومع تولى مـعاوية أمـر الخـلافـة انتهى عـصـر الخـلافـة الراشدة والذى استمر قرابة ثلاثين عاماً وأصبح الحكم ملكيا وراثيا.

والأمـويون أو بنو أمية أولى الأسر المسلمة الحـاكمة وقد حكمت ما بين ٦٦٢م إلى ٧٥٠ م وكانت دمشق عاصمة الدولة الأموية.

وهم من البيوت الكبرى فى قـريش، وبيوت الرئاسة فيها، وأمية هو شمس بن عبد بن عبد مناف بن قصى بن كلاب الجد الأكبر للأمويين، وأشهر سـادات بنى أمية أبوسفيـان واسمه صخر بن حرب، وهو سيد قـريش فى عهد الرسول ﷺ والذى أسلم عام الفتح.

ومؤسس السلالة الأموية الحاكمة فى دمشق هو معاوية بن أبى سفيان وكان أخوه يزيد بن أبى سـفيـان والياً على الشام فى عهد الخليفـة الأول أبي بكر رضي الله عنه وبعد وفـاته بعث هو والياً عليها منذ ٦٥٧ م من قبل الخليفـة الثـانى عـمـر بن الخطاب رضي الله عنه.

تولى الخـلافة معاوية بن أبى سفيان بعد أن أجمع المسلمون بخلافة معاوية وتنازل له الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ فى عام الجماعة سنة ٤١ هـ، واتخذ معاوية من دمشق عاصمة للخلافة الإسلامية، وبذلك انتقلت الخلافة إلى الفرع السفيانى من بنى أمية، أسس معاوية الخلافة الأموية وأرسى كيانها كخلافة قوية جذب مخالفيه على طاعته وأرسى كيان الدولة وعمل على توحيد المسلمين.

وتميز حكمه بالحكمة والحلم ومما ينسب إليه نشأة أسطول بحرى إسلامى، ووصل شعاع الحضارة الإسلامية من دمشق إلى مناطق بعيدة من العالم لتكون الدولة الأموية أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ.

وبعد معاوية بن أبى سفيان انتقلت الخلافة إلى ابنه يزيد الأول بن معاوية استمر تطور الدولة الإسلامية فى عهده ووقعت واقعة كربلاء الشهيرة والتى استشهد فيها حفيد رسول الله ﷺ الإمام الحسين هو وأهله وأصحابه رضى الله عنهم حيث خرج على يزيد رافضاً خلافته، بعدها ثار عبدالله بن الزبير بن العوام على يزيد بن معاوية وبايعه أهل الحجاز واليمن والجزيرة والعراق وظلت ثورة ابن الزبير حتى بعد وفاة يزيد وإلى بداية عهد عبدالملك بن مروان.

ويعتبر مروان الأول بن الحكم هو المؤسس الحقيقى للخلافة الأموية الثانية، حيث توالى أبناؤه على الحكم من بعده استمرت الفتوحات فى عهدهم شرقاً وغرباً، ولم يستمر مروان فى الحكم سوى أشهر قليلة وتوفى وتولى الحكم من بعده ابنه عبدالملك.

وهو مؤسس الفرع المروانى فى الخلافة الأموية والمؤسس الفعلى لكيان الدولة الأموية القوية.

واستطاع الخليفة عبدالملك بن مروان من أن يسيطر على الأمور ويخضع الخوارج على يد المهلب بن أبى صُفْرَة وأن يخمد ثورات العراق والمتمردين على كيان الدولة أمثال عبدالله بن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفى بعد حصار لمكة دام ٦ شهور وإرساء الأمن فى أنحاء البلاد.

ازدهرت العلوم فى عهد عبدالملك بن مروان وصكت النقود الإسلامية الأموية، وأقام المكتبات وشجع العلماء واهتم بهم، وأنشأ فى دمشق الكثير من دور العلم والمدارس والفقه ودور العبادة واجتذب العلماء والمفكرين والفقهاء.

وتم فى عهد الخليفة عبدالملك تعريب الدواوين الحكومية بعدما كانت المراسلات والسجلات تكتب بالرومية وبناء مسجد قبة الصخرة على وضعه الحالى

حتى اليوم كما زادت فى عهد عبدالملك رقعة الدولة وامتدادها.

ومن بعد الخليفة (عبدالملك بن مروان) آلت الخلافة إلى ابنه البكر الوليد وتواصلت حركة الفتوحات والغزوات الإسلامية وفتح الأمويون مزيداً من البلاد فى آسيا شرقاً إلى أوروبا غرباً لتصبح الدولة الإسلامية أهم وأكبر إمبراطورية فى التاريخ على الإطلاق الدولة الأموية وعاصمتها دمشق، إذ وصلت سنة ٧١١ م غرباً حتى إسبانيا فى أوروبا، ثم شرقاً حتى تخوم الهند والصين فى وسط آسيا، ثم سنة ٧١٥ م كان غزو بخارى وسمرقند وتكملة فتح الأندلس وغيرها من البلاد فى كل اتجاه، وفى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك تم تطوير بناء الجامع الأموى - جامع دمشق الكبير واهتم بعمارته وزينه بالفسيفساء والزخارف والنقوش ليصبح الجامع الأموى بدمشق أهم معلم إسلامى، وكان للعلم والعلماء والأدباء والشعراء مساحة من اهتمام الويد وشجعهم واهتم بإنشاء العمائر فى عاصمة الدولة دمشق وفى المدن الإسلامية كافة وظهر فن العمارة الأموية الذى تميز به العصر الأموى بعد ذلك.

مما هو جدير بالذكر فى عهد الخلفاء الأمويين تقدمت وازدهرت الخلافة بكل مقوماتها وقوتها، وامتد النفوذ الأموى فى كل مكان شرقاً وغرباً وعملوا على تقوية أواصر الدولة الإسلامية التى وصلت إلى أكبر اتساع لها بشكل لم تصل إليه أى دولة إسلامية فى كافة العهود السابقة أو اللاحقة، وبرزت الدولة الإسلامية كإمبراطورية ضخمة بكل المقاييس وصل نورها إلى مناطق بعيدة من العالم، وازدهرت فى العهد الأموى العلوم والعمارة والأدب والشعر والفنون والصناعة.

تواصل الخلافاء الأمويون، فتولى الخلافة بعد ذلك الخليفة سليمان بن عبدالملك، والخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز بن مروان وهو الخليفة الأموى الذى لقب بخامس الخلفاء الراشدين وعرف بالعدل والزهد والسخاء على الرعية حتى لم يبق فى عهده من يستحق الزكاة ومات مسموما ومن بعده الخليفة يزيد بن عبدالملك والذى أراد أن يسير بالناس سيرة عمر لكنه لم يستطع بسبب حاشية السوء، ثم الخليفة هشام بن عبدالملك، ثم الوليد بن يزيد.

وقال ابن كثير رحمه الله عن الفتوحات الإسلامية:

فكانت سوق الجهاد قائمة فى بنى أمية، ليس لهم شغل إلا ذلك قد علت كلمة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها وقد أذلوا الكفر وأهله وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً. لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه وكان فى عساكرهم وجيوشهم فى الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين فى كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه.

وكان الأمويون أنفسهم يصطلون بنيران هذا الجهاد، ويقدمون بأنفسهم القدوة والمثل فى التضحية وقيادة الجيوش ومصادمة الأعداء فقد أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لحصار القسطنطينية وأرسل عبدالملك ابنه الوليد مرات للغزو فى بلاد الروم وكان ابنه الثانى مسلمة قائد جبهة الروم، وغزواته أكثر من أن تعد وحصاره مدينة الروم ـ القسطنطينية ـ وكان أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة يتولى الغزو فى أغلب الأحيان وأولاده الوليد بن عبدالملك وهم العباس وعبدالعزيز وعمرو ومروان يقودون الغزو فى بلاد الروم، ويساعدون عمهم مسلمة بن عبدالملك فى ذلك، كما أن سليمان بن عبدالملك كان ابنه داود على رأس قواته المجاهدة فى بلاد الروم.

وأما هشام بن عبدالملك فقد كان يفرض الغزو على بنى مروان جميعاً ومن يتأخر عن الغزو يمنع عنه العطاء وكان أولاده فى مقدمة الغزاة، ومنهم معاوية وسليمان ومسلمة وسعيد وغيرهم أما مروان بن محمد فكان بنفسه يقود الجيوش ويصبر فى القتال صبراً شديداً.

واتخذ بنو أمية دمشق عاصمة لهم كما ذكرنا وأصبحت منارة للعلم والعلماء والفقهاء واهتم الخلفاء الأمويون بالعمارة وإنشاء المساجد والتى تعد أهم المعالم الإسلامية اليوم، وفتحوا الكثير من البلاد فى حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً وأصبحت أكبر خلافة فى التاريخ الإسلامى امتدت سلطتها فى جميع الاتجاهات وأصبحت مدينة دمشق العاصمة أهم مدن العالم الإسلامى.

واهتم الخلفاء الأمويون بمدارس العلم والعمارة واهتموا ببناء المساجد مثل

الجامع الأموى بدمشق والمسجد الأقصى فى القدس والمسجد النبوى بالمدينة المنورة ومسجد قرطبة وغيرها فى أرجاء الخلافة التى اتسعت فى كل اتجاه.

ومن إنجازات الخلافة الأموية اتساع الخلافة الأموية وضعها للعديد من البلاد فى الشرق والغرب قدمت الخلافة الكثير من المعطيات للحضارة الإسلامية، اهتم الخلفاء بالحياة الاقتصادية لمختلف البلاد الإسلامية وبتعين الولاة والحكام ومحاسبة المقصرين منهم، وفى أرجاء الخلافة المترامية الأطراف كما فى العاصمة دمشق اهتموا بالصناعة والعلم والفقه والطب وأنشئوا المشافى وقدموا العلاج وشجعوا العلماء وافتتحوا المكتبات، وصكوا أول عملة إسلامية «الدينار الأموى».

وعمل الخلفاء الأمويون على جمع المسلمين والمساواة والحكم بالعدل واتخذوا من الكتاب والسنة مرجعاً فى إدارة شئون الخلافة، وساهم الأمويون فى نشر الدين الإسلامى بشكل كبير فى وسط آسيا وحتى مشارف باريس حيث موقعة بلاط الشهداء بعهد الخلافة الأموية فى الأندلس وقد تم بناء أول أسطول بحرى إسلامى فى عهد الخلافة الأموية.

جامع بنى أمية الكبير فى دمشق بناه الوليد بن عبدالملك جاء فى أطلس تاريخ الإسلام (ص: ٥١): «أن الخلافة العباسية لو تنبهت إلى حقيقة وظيفتها كخلافة إسلامية وهى نشر الإسلام لا مجرد المحافظة عليه كما وجدته، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الترك والمغول فى الإسلام، لأدت للإسلام والحضارة الإنسانية أجل الخدمات ولغيرت صفحات التاريخ.

وهكذا تكون الخلافة العباسية قد خذلت الإسلام فى الشرق والغرب.

فهى فى الشرق لم تتقدم وتدخل كل الأتراك والمغول فى الإسلام، كما تمكنت الخلافة الأموية من إدخال الإيرانيين ومعظم الأتراك فى الإسلام وفتحت أبواب الهند لهذا الدين.

وفى الغرب أمام هذه الأجناس أية ديانة سماوية أخرى يدخلونها. وهنا ندرك الفرق الجسيم بين الخلافة الأموية والخلافة العباسية فالأولى أوسعت للإسلام

مكاناً فى معظم أراضى الخلافة البيزنطية، وأدخلت أجناس البربر جميعاً فى الإسلام، ثم انتزعت شبه جزيرة أيبريا «الأندلس» من القوط الغربيين ثم اقتحمت على الفرنجة بلادهم بالإسلام وحاولت ثلاث مرات الاستيلاء على القسطنطينة.

وتعد الفترة التى تلت موت يزيد بن معاوية وزهد ابنه معاوية بن يزيد فى الخلافة ووفاته بعد أربعين يوماً من بيعته وعدم تعيينه لولى عهد فى حياته تعد هذه الفترة الفاصلة فى دولة بن أمية حيث أن عبدالله بن الزبير قد علا شأنه وسيطر على معظم بلاد الإسلام ولم يستطع الأمويون من التصدى له حتى جاء عبدالملك بن مروان الذى استعان بالحجاج الثقفى وابن المهلب للقضاء على ثورات الخوارج وعلى منازعة ابن الزبير له فى الخلافة.

فكان فترة تولى عبدالملك الخلافة نقطة فاصلة فى حياة الدولة الأموية التى كادت أن تنتهى كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

■■■

إعادة تأسيس الدولة الأموية بعد وفاة يزيد بن معاوية وابنه معاوية وأحوال العالم الإسلامى

بعد وفاة يزيد بن معاوية زات حدة الانقسامات فى الدولة الأموية حتى عقد الأمويون «مؤتمر الجابية» لمبايعة مروان بن الحكم واتفقوا على أن يخلفه «خالد بن يزيد بن معاوية» ثم «سعيد بن العاص» من بعده.

إلا أن مروان بن الحكم نقض ذلك العهد وعهد بالخلافة لابنه عبدالملك ومن بعده ابنه عبدالعزيز وراح يصرف الأنظار عن خالد بن يزيد الذى كان شاباً محدود الخبرات فى الإدارة بما أوتى من وسائل ولم تطل خلافته إلا شهورا وباتت الدولة الإسلامية الموحدة تتقاسمها خلافتان، الأولى: عليها عبدالله بن الزبير وتضم الحجاز والعراق، والثانية يتولاها عبدالملك بن مروان الذى تولى عقب وفاة أبيه ولم تعد تضم إلا الشام ومصر وقد نجح عبدالملك بن مروان فى ضبط الأمور والقضاء على الفتن فانتشل الدولة من الفوضى التى وصلت إليها، وأعاد الأمن والاستقرار إلى ربوعها.

وظهر بالكوفة المختار بن عبيد الله الثقفى، وجمع من حوله شيعة على رضى الله عنه وراح يتتبع قتلة الحسين هنا وقتل منهم الكثير وعلى رأسهم أمير الجيش الذى حارب الحسين عمر بن سعد بن أبى وقاص وقتل عبيد الله بن زياد أمير العراق الأموى، وشتت جيشاً قوامه ٤٠ ألفاً كما قتل الحصين من نمير واستولى على الموصل وراح يدعو لمحمد ابن الحنفية ابن الإمام على كرم الله وجهه ويناديه بالإمام المهدى يريد المهدى المنتظر وكان هذا العامل هو المعول الذى مهد لزوال الدولة الأموية على مر الزمن وقد عمد هؤلاء فى ذلك الوقت وعلى رأسهم المختار إلى الانتساب لمحمد ابن الحنفية ليستفيدوا من هذه النسبة فى اكتساب

مزيد من المؤيدين والناقمين على بنى أمية والثائرين من أجل المطالبة بدم الحسين رضي الله عنه.

والمعروف أن محمد ابن الحنفية كان عالماً زاهداً قد رفض أن يبايع لأحدمن الخليفتين ابنالزبير أو ابن مروان وقال لا، حتى يبايع الناس أجمعون فإن بايعوا بايعت، وهكذا فعل عبدالله بن عباس، ولم يكن له مطمع فى الخلافة، أو هدم البيت الأموى أو القضاء على ابن الزبير.

ولقد أغضب الدعوة باسم محمد ابن الحنفية عبدالله ابن الزبير فأرسل أخاه مصعب بن الزبير ليكون أميراً على العراق، وأمره بالقضاء على المختار الثقفى.

وقد نجح مصعب فى حصار المختار بالكوفة وقتله، وأصبح الحجاز والعراق لابن الزبير ومصر والشام لعبدالملك بن مروان.

وفى سنة ٧٠ هـ خرج عبدالملك بن مروان إلى العراق لأخذها من ابن الزبير، وجرت بينه وبين مصعب عدة معارك، وأخيراً تمكن عبدالملك بن مروان من القضاء على مصعب بن الزبير ودخل الكوفة التى كانت خاضعة ومبايعة لابن الزبير وأخذ البيعة من أهلها لنفسه وولى ولاة من قبله على العراق.

الحجاج وابن الزبير

ولم يبق إلا الحجاز يسيطر عليه عبدالله بن الزبير من مكة، وقد حانت الساعة الفاصلة، ساعة الحزم والحسم، فأمر عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف، الثقفى الذى يمكن أن يتخذ من الطائف مسقط رأسه قاعدة لعملياته الحربية، أن يتصدى لعبدالله بن الزبير المتحصن بمكة المكرمة.

وتحرك جيش الحجاج من الطائف إلى مكة فحاصرها كما فعل الحصين بن نمير من قبل، وقذف ابن الزبير بالمنجنيق وظل يضيق على ابن الزبير وأنصاره الخناق حتى تفرق عنه معظم أنصاره لكن ابن الزبير ظل يقاوم رافضاً أن يستسلم حتى قتل سنة ٧٣ هـ وكانت خلافته تسع سنين.

وبمقتل ابن الزبير دخلت الحجاز من جديد تحت حكم بنى أمية وكوفئ

الحجاج بأن ظل والياً على الحجاز من قبل عبدالملك بن مروان حتى سنة ٧٥ هـ.

وكان عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما قد بويع له فى الحجاز وفى العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفى مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضاً إلا بعض جهات منها، ففى دمشق بايع الضحاك بن قيس الفهرى لابن الزبير.

وفى حمص بايع النعمان بن بشير، وفى قنسرين زفر بن الحارث الكلابى وفى فلسطين بايع نائل بن قيس، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامى ولم يكن رافضاً بيعة ابن الزبير فى الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبى.

وتجمع المصادر على أن جميع الأمصار قد تابعت على بيعة ابن الزبير خليفة المسلمين، ولذلك صرح العديد من العلماء والمؤرخين بأن بيعة ابن الزبير بيعة شرعية وأنه أولى بها من مروان بن الحكم فيروى ابن عبدالبر عن مالك أنه قال إن ابن الزبير كان أفضل من مروان وكان أولى بالأمر منه، ومن ابنه عبدالملك.

ويقول ابن كثير: ثم هو - أى ابن الزبير - الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة وهو أرشد من مروان بن الحكم حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت البيعة له فى الآفاق وانتظم له الأمر.

ويؤكد كل من ابن حزم والسيوطى شرعية ابن الزبير ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عبدالملك باغيين عليه خارجين على خلافته كما يؤكد الذهبى شرعية ابن الزبير ويعتبره أمير المؤمنين.

وقد سارع أهل الحجاز إلى مبايعة ابن الزبير، ويروى ابن سعد أن من الأوائل الذين سارعوا إلى مبايعة ابن الزبير عبدالله بن مطيع العدوى، وعبدالله بن رضوان بن أمية الجمحى والحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة، وعبيد بن عمير، وعبيد الله بن على بن أبى طالب، وعبدالله بن جعفر.

وكان هناك بعض العناصر الذين امتنعوا عن بيعة ابن الزبير وعلى رأسهم

ثلاث شخصيات وهم عبدالله بن عمر بن الخطاب، وابن عباس ومحمد ابن الحنفية[1].

أما عبدالله بن عمر فقد بايع يزيد بالخلافة، والتزم بيعته وحاول إقناع ابن الزبير بذلك، ونهاه عن إثارة الفتنة والخروج على خلافة يزيد وبعد وفاة معاوية بن يزيد بويع ابن الزبير بالخلافة وطلب من ابن عمر أن يبايع له فرفض ابن عمر البيعة معللاً ذلك بقوله: لا أعطى صفقة يمينى فى فرقة ولا أمنعها فى جماعة.

ولم يحاول ابن الزبير إجبار ابن عمر على البيعة.

وكان لامتناع ابن عمر على بيعة ابن الزبير تأثير سلبى فقد كان ابن عمر يتمتع بمكانة عالية وبالأخص فى الحجاز وكان تأثيره على الناس بامتناعه عن البيعة يجعل البعض يقتدى به ويتخذ نفس الموقف ومما يزيد من تأثيره السلبى على حركة ابن الزبير أن ابن عمر كان يجبر من له طاعة عليهم أن يتخذوا الموقف نفسه الذى يتخذه ومع كل ذلك فلم يكن ابن عمر يشكل خطراً حقيقيا على ابن الزبير فهو لم يكن ذا طموح للخلافة.

وأما عبدالله بن عباس فكان يختلف موقفه عن ابن عمر فى مواقفه إزاء الفتن التى جرت فى عصره، حيث خاض فيها وشهد مع الإمام على صراعه ضد خصومه فى موقعتى الجمل وصفين ولما جاء الأمويون للحكم واستخلف معاوية يزيد بادر ابن عباس إلى بيعته والتزم بها ولم يعلن عداءه لابن الزبير وبدأت العلاقة بين الاثنين تدخل طوراً جديداً بعد وفاة يزيد بن معاوية حيث بويع ابن الزبير بالخلافة سنة ٦٤ هـ فى اجتماع الأمويين على اختيار مروان بن الحكم خليفة وعندما طلب بن الزبير من محمد بن الحنفية وابن عباس المبايعة قالا: حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس، ووعداه بعدم إظهار الخلافة له.

لم يحاول ابن الزبير فى بداية الأمر إجبارهما على البيعة، وبدأت العلاقة بين ابن الزبير وابن عباس فى تحسن تلمس ذلك فى العديد من الروايات التى تدلل على شعور ابن عباس تجاه ابن الزبير والمتمثل فى تأييده لبعض مواقفه، أو فى

(١) ابن الإمام على من امرأة من بنى حنيفة ولذلك كان يقال به ابن الحنفية

الثناء المباشر عليه والذى كان يستحقه.

ويروى عبدالرزاق فى مصنفه أن ابن عباس كان قاضياً لابن الزبير بمكة. انتهى الأمر بخروج ابن عباس إلى الطائف وبقى هناك إلى أن توفى وكان ابن عباس يثنى على ابن الزبير، فعندما ذكر عنده قال إنه قارئ لكتاب الله، عفيف فى الإسلام أبوه الزبير، وأمه أسماء وجده أبو بكر وعمته خديجة وخالته عائشة وجدته صفية.

وقرر محمد ابن الحنفية[1] بعد وفاة يزيد أن لا يبايع أحداً لا فى حالة اجتماع الناس عليه ولم يحاول ابن الزبير فى بداية الأمر إكراه ابن الحنفية على البيعة ولم يستمر ابن الزبير فى سياسته اللينة مع ابن الحنفية فبعد أن علا شأن ابن الزبير وجاءته بيعة الأمصار، وكادت الأمة أن تجتمع عليه أحس أن الوقت قد حان لأن يبايع ابن الحنفية بناء على وعده فعاود الكرة مرة أخرى ودعاه إلى البيعة سنة ٦٥هـ ولكن ابن الحنفية أبى أن يبايع فلجأ ابن الزبير إلى حبسه فى الشعب بمكة.

ويبدو أن ابن الزبير تخوف من دعوة المختار بن أبى عبيد الثقفى بالكوفة فقد كان المختار من أشد المدافعين عن ابن الزبير أيام حوصر فى مكة سنة ٦٤ هـ من قبل جيش الحصين بن نمير وكان المختار يتمتع بمكر ودهاء كبيرين ويحمل بين جنبيه طموحات عالية للزعامة.

واستطاع عن طريق ادعائه نصرة آل البيت ورفع شعار الأخذ بثأر الحسين أن يجمع حوله الأنصار والمؤيدين والناقمين على حكم بنى أمية واستطاع أن يستولى على الكوفة.

وكان المختار على علم بما جرى بين ابن الزبير وابن الحنفية وادعى أنه من قبل محمد ابن الحنفية للأخذ بثأر الحسين، ولكن ابن الحنفية تبرأ من المختار وأنكر أنه أرسله للعراق، وأرسل المختار عام ٦٦ هـ في موسم الحج لمكة جيشاً لإخراج ابن الحنفية من حبسه في الشعب ومنع ابن الحنفية الجيش من قتال ابن الزبير لكونه لا يستحل القتال فى الحرم.

---

(١) محمد بنالحنفية هو محمد ابن الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه من زوجة أخرى غير السيدة فاطمة بنت محمد ﷺ تزوجها بعد وفاتها واشتهر بابن الحنفية نسبة إلى قبيلة أمه بنى حنيفة.

وشعر ابن الزبير أن مصدر قوة ابن الحنفية يكمن فى مساندة المختار بن أبى عبيد له، ولذلك فكر فى القضاء عليه فأرسل أخاه مصعباً والياً على البصرة وأمره أن يقاتل المختار.

واستطاع مصعب بن الزبير أن يقضى على المختار فى رمضان سنة ٦٧هـ.

ويروى ابن سعد أن ابن الزبير أرسل إلى ابن الحنفية أخاه عروة يطلب منه أن يبايع وهدده بالحرب إن هو أصر على رفض البيعة ولاحت لابن الحنفية فى هذه الأثناء فرصة رأى فيها مخرجاً من ضغوط ابن الزبير تمثلت فى دعوة عبدالملك بن مروان له بأن يقدم إلى الشام فاغتنم هذه الفرصة وتوجه إلى الشام هو وأتباعه واختاروا المقام بأيلة وهذه البلدة وإن كانت من بلاد الشام منطقة نفوذ عبدالملك بن مروان إلا أنها فى أطرافها نحو الحجاز وأصبح تقريباً فى منطقة بعيدة عن الإثنين معاً.

ولكن عبدالملك بن مروان عرض عليه البيعة مقابل أموال وأعطيات سخية أو الخروج من بلاد الشام وآثر بن الحنفية عدم البيعة وأراد العودة إلى مكة ولكن ابن الزبير منعه من دخولها فتوجه بمن معه إلى الطائف وقيل المدينة وبقى بها إلى أن قتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ على يد الحجاج الثقفى.

أما الخوارج فقد تحالفوا فى البداية مع ابن الزبير فى الدفاع عن مكة حتى وفاة يزيد فلما زال الخطر دخل عليه قادتهم فأرادوا معرفة رأيه فى عثمان بن عفان رضى الله عنه فأجابهم فيه بما يسوؤهم وذكر لهم ما كان متصفاً به من الإيمان والتصديق والعدل والإحسان والسيرة الحسنة والرجوع إلى الحق، فعند ذلك نفروا منه وفارقوه واستحوذوا على كثير من البلدان وتصدر لقتالهم المهلب بن أبى صفرة فقد كتب ابن الزبير له بأن يتولى حربهم فاستجاب لذلك وكان على رأس الخوارج الأزارقة نافع بن الأزرق واستطاع المهلب أن يهزمهم وقتل أميرهم نافع بن الأزرق وانهزمت الخوارج نحو فارس.

أما فى الشام فقد بدأ مروان بن الحكم بعد أن تزعم المعارضة الأموية بتوحيد صفوفه والدخول فى صراع ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير فى

الحجاز وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة وذلك ليحسر نفوذه أولاً ومن ثم يتيسر له القضاء عليه وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية لأهل الشام واتفاق الأمويين عليه كخليفة كما ذكرنا على أن يكون خالد بن يزيد ولياً للعهد.

ظلت الأردن موطن الكلبيين على ولائها للأسرة الأموية وكان بعض زعماء الشام حريص على الاحتفاظ بالخلافة فى الشام دون غيرها حتى إن الحصين بن نمير عرض على ابن الزبير مبايعته بشرط الانتقال للشام وذلك بعد وفاة يزيد بن معاوية.

وبايع القيسيون فى شمال الشام ابن الزبير وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاك بن قيس الفهرى إليهم، وهو الذى كان فى خدمة معاوية وابنه يزيد، والذى كان يشرف آنذاك على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني.

وفى الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا فى أمر البيعة والخلافة، وكان مؤتمر الجابية مؤتمراً تاريخيا حضره أصحاب الشوكة والقوة والرأى من أهل الشام وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر أهل الشام المؤثرة فى القرار المصيرى.

رجحت كفة مروان لعوامل كما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامى أحد زعماء الشام حيث قال: أيها الناس إنكم تذكرون عبدالله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله وقدمه فى الإسلام وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف وليس بصاحب أمة محمد الضعيف وأما ما يذكر الناس من عبدالله بن الزبير ويدعون إليه من أمره فهو والله كما يذكرون إنه لابن الزبير حوارى رسول الله وابن أسماء ابنة أبى بكر الصديق ذات النطاقين وهو بعد كما تذكرون قدمه وفضله ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية بن يزيد وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس بصاحب أمر أمة محمد منافق.

وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الإسلام صدع قط إلا كان مروان بن الحكم ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، وهو الذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشبوا الصغير[١].

(١) يعنى بالكبير مروان بن الحكم والصغير خالد بن يزيد بن معاوية.

فاجتمع رأى الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد، فكانت تلك المعادلة هى التى جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات وقد دارت نقاشات كثيرة وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بنى أمية قد حضروا ومن هؤلاء الزعماء حسان بن مالك بن بحدل الكلبى والحصين بن نمير السكونى وروح بن زنباع الجذامى، ومالك بن هبيرة السكونى وعبدالله بن مسعدة الفزارى، وعبدالله بن عضاة الأشعرى وغيرهم من الشخصيات المؤثرة والمعارضة لابن الزبير وقد قلبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأى على مروان.

إلا أن عبدالله بن الزبير ظل هو الخليفة القوى الذى يسيطر على معظم البلاد الإسلامية فيما عدا الشام ومصر، ولم تتنقل الخلافة إلى بنى أمية إلا بعد مقتله.

إلا أن مؤتمر الجابية قد أدى إلى انتقال الخلافة الأموية من البيت السفيانى إلى البيت المروانى وانعقدت البيعة لمروان وكانت هذه خطوة حاسمة ولكن الأمر لم يكن سهلاً فلا زالت تعترضه صعوبات كبيرة ومشاكل وقتال من المعارضين له مثل الضحاك بن قيس زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير وقد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصارى والى حمص وزفر بن الحارث الكلابى، أمير قنسرين وكان واضحاً أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة والدفاع عنها وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك عنها.

ثم قام مروان بتجهيز أنصاره من قبائل اليمن فى الشام كلب وغسان والسكاسك والسكون وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد وعلى ميسرته عبيد الله ابن زياد واتجه إلى مرج راهط فدارت المعركة التى حسمت الموقف فى الشام لبنى أمية ومروان حيث انهزم القيسيون أنصار ابن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس فى الشام، واستمرت المعركة حوالى عشرين يوماً، وكانت فى نهاية سنة ٦٤هـ.

وأعادت هذه المعركة الملك لبنى أمية بعد أن كان مهدداً بالزوال وحولت

السلطة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى.

وتخلص الأمويون من الضحاك بن قيس الذى كان يعتبر معارضاً قويا للأمويين، وتابعاً مخلصاً لابن الزبير(١).

وسقطت قنسرين فى يدالأمويين وهرب وإليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا وكان عليها عياض الحارثى.

وسقطت فلسطين في أيدي الأمويين.

وسقطت حمص وقتل واليها النعمان بن بشير هو أحد ولاة ابن الزبير.

وقد مكن انتصار مروان فى معركة مرج راهط لدولته فى الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطواته التالية المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير ولم يكن استيلاؤه عليها صعباً.

دعا مروان شيعة بنى أمية بمصر سرّاً وثم سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد بن يزيد بن معاوية وحسان بن مالك ومالك بن هبيرة وابنه عبدالعزيز، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم ثم جاء إلى مروان طالباً العفو على أن يخرج إلى مكة فعفا عنه وكان نجاح مروان فى استرداد مصر من جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ وأقام فى مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها ولما عزم على العودة إلى الشام عين ابنه عبدالعزيز والياً عليها.

وبعد هذه الانتصارات عدل مروان اتفاقه فى الجابية بعقد البيعة لولديه عبدالملك بن مروان وعبدالعزيز بن مروان مجسداً لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين وبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأموى.

وتوفى مروان بن الحكم بدمشق عام ٦٥ هـ عن عمر يناهز الثلاثة والستين عاماً وتولى الحكم بعده ابنه عبدالملك.

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

عبدالملك بن مروان
وإعادة تأسيس الدولة الأموية

عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية أبو الوليد الأموى وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية.

كان مولده ومولد يزيد بن معاوية فى سنة ست وعشرين وقد كان عبدالملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد.

قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبدالملك بن مروان وقال الأعمش عن أبى الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسَيَّب، وعروة وقبيصة بن ذؤيب، وعبدالملك قبل أن يدخل الإمارة.

وعن ابن عمر أنه قال ولد الناس أبناء وولد مروان أباً يعنى عبدالملك أى أنه كان يفوق سنه وعن يحيى بن سعيد قال: أول من صلى ما بين الظهر والعصر عبدالملك بن مروان وفتيان معه فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر، فى أمر الله، والورع عن محارم الله.

وقال الشعبى: ما جالست أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبدالملك بن مروان فإننى ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ولا شعراً إلا زادنى فيه.

أما موقفه من ابن الزبير فكان قبل أن يتولى الخلافة يستعيذ بالله أن يبعث خليفة إلى مكة جيشاً ليقتل ابن الزبير ومن معه وكان يرى فى ذلك إثماً كبيراً.

قال يحيى الغسانى: لما نزل مسلم بن عقبة الذى أطلق عليه «مُسْرِف» المدينة، دخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست إلى جنب عبدالملك فقال لى عبدالملك: أمن هذا الجيش أنت؟

فقلت: نعم.

قال: ثكلتك أمك!! أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام وإلى ابن حوارى رسول الله ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين وإلى من حنكه رسول الله ﷺ أما والله لو جئته نهاراً لوجدته صائماً ولئن جئته ليلاً لوجدته قائماً فلو أن أهل الأرض أطبقوا على لأكبهم الله جميعاً فى النار.

وأما موقفه بعد الخلافة فقد جهز جيشاً يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى، وبعث به إلى مكة حيث كان يتحصن ابن الزبير بالكعبة وظل محاصراً مكة حتى قتل عبدالله بن الزبير، وهكذا حال الملك والدنيا.

كان أول حادث سياسى أثر فى حياته عندما كان عمره عشر سنوات، فقد شهد مقتل عثمان رضي الله عنه، وكان لهذا الحادث أثر فى سياسته لما تولى الإمارة فقد خطب فى إحدى خطبه: أيها الناس إنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن راية أو وثوب على منبر.

وأول منصب إدارى تولاه فى الدولة فى عهد معاوية بن أبى سفيان، فقد كان عاملاً على هجر ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت وشارك فى الجهاد وخرج على رأس حملة إلى أرض الروم فى سنة ٤٢ هـ.

كما أنه غزا إفريقية مع معاوية بن حديج وكلفه بفتح جلولاء فى بلاد الشمال الإفريقى وفى عهد يزيد كان يقول على ابن الزبير ما على الأرض اليوم خير منه كما أن علاقته بمصعب بن الزبير كانت حسنة.

وأما عن دوره السياسى فى عهد مروان بن الحكم فقد تولى حكم فلسطين، وكان يبعث نائباً عنه روح بن زنباع، ليبقى فى دمشق قريباً من والده هناك لاسيما أن الفترة التى تولى فيها والده الحكم كانت الدولة محاطة فيها بالأعداء من الداخل والخارج، وتولى إمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر.

بايع بعض العلماء لعبد الملك بن مروان بالشام فكان من المبايعين لعبد الملك وأحد المقربين إليه يزيد بن الأسود الجرشى.

وواجه عبدالملك المشاكل والمصاعب والتصدى للثورات وكانت أولها حركة

التوابين من منذ توليه الحكم والحركة ظهرت عندما عم الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيدالله بن زياد شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه إذ بعد استشهاد هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته والدفاع عنه معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة.

لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين، وأخذوا يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعى لدراسة الموقف وأسلوب العمل الذى سيتبعونه فى التوبة.

وثم شرعوا فى تجييش الناس وخرج التوابون من معسكرهم فى النخيلة فى شهر ربيع الأولى ٦٥هـ وهو الموعد الذى حددوه لخروجهم وكانت المحطة الأولى فى مسيرتهم الانتقامية فى كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحوا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم الكثير.

فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيدالله بن زياد باعتباره الرجل الذى أصدر الأمر بقتل الحسين ومر جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيسياء وكانت هذه المدينة هى أبعد المناطق فى هذا الاتجاه التى اعترفت ولو اسمياً ببيعة ابن الزبير، واستقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابى، جيش التوابين بحماسة خاصة وأنه قد جمعت الفريقين مصلحة مشتركة هى مقاتلة الأمويين واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن قبول اقتراحه واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى طريقهم.

والتقى التوابون بالجيش الأموى فى عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربى من صفين فى عام ٦٥هـ خاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموى، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذى تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة وعلق ابن كثير رحمه الله على جيش التوابين بقوله: لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين وكان عمر سليمان بن صرد رضي الله عنه يوم قتل ثلاثاً وتسعين سنة.

كان عددهم لا يتجاوز أربعة آلاف رجل وخاضوا هذه المعركة بإيمان صادق، وعقيدة راسخة وشجاعة نادرة وصبر فائق ضد عشرين ألف جندى من أهل الشام وأنزلوا بهم خسائر فادحة فى الأرواح، ولكنهم هزموا وقضى عليهم.

ثم كانت حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى كان والده الأمير أبو عبيد ابن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة الثقفى أسلم فى حياة النبى ﷺ استعمله عمر بن الخطاب على جيش، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبى عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوى الرأى، والفصاحة، والشجاعة والدهاء.

ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ وهو من الشخصيات التى كانت تسعى لها عن دور، وتسعى إلى السلطان بأى ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين فقد أشار على عمه سعد بن سمعود الثقفى بالقبض على الحسن بن على وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الحظوة عنده.

ثم حاول الاتصال بعبدالله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطاً، منها أن يكون أول داخل عليه وألا يقضى الأمور دونه وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله ولكنه لم يجد تجاوباً من ابن الزبير، فتوجه إلى الكوفة حيث الاضطرابات والمطالبة بدم الحسين رضي الله عنه وادعى أن لديه تفويضاً بذلك من محمد ابن على بن أبى طالب «محمد ابن الحنفية» وهو لم يكن صادقاً فى ذلك بل قرر أن يركب تيار أصحاب على ليصل إلى هدفه فى الحكم والسلطان.

وقد نجحت دعايته وتجمع حوله نحو ألفين وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد وكانت نتيجة معركة عين الوردة من مصلحة المختار بزعامة الشيعة ولجأ إليه الفارون من المعركة، فقويت حركته وكثر أتباعه.

ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعى إليه، وهو من زعماء الكوفة فثار على عبدالله بن مطيع العدوى، أمير الكوفة من قبل عبدالله بن الزبير فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها، وقويت بذلك شوكة المختار، وقام ومن معه بتعقب قتله الحسين رضي الله عنه فى الكوفة.

ثم أعد جيشاً جعل على قيادته إبراهيم الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيدالله،

فالتقى به عند نهرالخازر بالقرب من الموصل وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذى خر صريعاً فى ميدان المعركة سنة ٦٧ هـ وفرح المسلمون يومها لمقتله.

وقام المختار بتتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برءوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبى وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين، وشمر بن ذى الجوشن أمير الألف الذين تولوا قتل الحسين، وسنان بن أبى أنس، وخولى بن يزيد الأصبحى، وخلقاً غير هؤلاء وكان مقتل عبيد الله بن زياد فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين.

ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار، وتعاظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد وسيطر على شمال العراق والجزيرة وجعل يولى العمال من قبله على الولايات، ويجبى الخراج، وانضم إليه عدد كبير من الموالى لبغضهم لبنى أمية من ناحية، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية.

وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به فى العراق بين دولتى ابن الزبير فى الحجاز، وعبدالملك بن مروان فى الشام[1].

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبدالملك الذى أحزنه مقتل ابن زياد أبرز أعوانه ولكن عبدالملك كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير وإن كان قد أسعده ظهور المختار فى البداية وقهره لجيش عبدالملك إلا أنه لم يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته، للقضاء عليه فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار لأنه نتيجة المواجهة ستكون فى صالحه، فسوف يقضى أحدهما على صاحبه، ومن يبقى تكون قوته قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه، وقد حدث ما توقعه عبدالملك، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبدالملك وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة بل أخذ يعد نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذى أصبح والياً عليها من قبل أخيه عبدالله بعد أن بايعه أهلها.

وأصبح الصدام محتوماً بين المختار وبين ابن الزبير، فسار مصعب ابن الزبير بنفسه إلى قتال المختار فى جيش هائل فحاصره بالكوفة وضيق عليه واحتز رأسه،

(١) المصدر السابق.

وأمر بصلب كفه على باب المسجد حتى جاء الحجاج وتولى أمر العراق فأمر بنزعها.

وكان المختار يزعم أن الوحى ينزل عليه على يد جبريل.

وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحى يأتيه، فقال: صدق الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٢١).

وعن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى حتى كان يتعهد مبيتى بالليل، قال: فقال لى: اخرج فحدث الناس.

قال: فخرجت فجاء رجل فقال: ما تقول فى الوحى؟ فقلت: الوحى وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢).

قال فهموا بى أن يأخذونى، فقلت: ما لكم وذاك، إنى مفتيكم وضيفكم فتركونى.

قال ابن كثير: وذكر العلماء أن الكذاب هو المختار بن أبى عبيد، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة ويسر إلى أخصائه أنه يوحى إليه.

ثم كانت حركة عمرو بن سعيد بن العاص «الأشدق» والتى واجهها عبدالملك بن مروان وكان سببها إن مقررات مؤتمر الجابية نصت على أن تكون الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد مروان بعد الحكم وخالد بن يزيد بن معاوية، وتجاوز مروان عمراً وبايع لابنيه عبدالملك، وعبدالعزيز، الأمر الذى آثار نقمة عمرو، بعكس خالد بن يزيد الذى انصرف إلى العلم لاسيما الكيمياء.

وفى أول سنة ٦٩ هـ خرج عبدالملك بجنوده يريد قرقيسيا، ليحاصر فيها زفر بن الحارث.

واستخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن أبى العاص ولم يكد عبدالملك يخرج بجيشه من دمشق حتى تحصن بها عمرو بن سعيد، وأخذ ما فى بيت المال من الأموال.

وتذكر رواية أخرى أن عمرو بن سعيد كان مع عبدالملك حين خرج إلى قرقيسيا ولكنه استغل فرصة الليل، وانخذل هو وجماعة معه من الجيش، ورجعوا

إلى دمشق ففر والى دمشق من قبل عبدالملك عبدالرحمن بن أم الحكم الثقفى، ودخلها عمرو بن سعيد واستحوذ على ما فيها من الخزائن.

وبعث عمرو إلى عبدالرحمن أم الحكم فلم يجده، فأمر بهدم بيته واجتمع الناس وصعد عمرو المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه لم يقم أحد من قريش قبلى على هذا المنبر إلا زعم أن له جنة وناراً، يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه» وإنى أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إلى من ذلك شىء غير أن لكم على حسن المواساة والعطية».

وأصبح عبدالملك فسأل عن عمرو بن سعيد فلم يجده، فكر راجعاً إلى دمشق، فوجد عمراً وقد تحصن بها، ودارت بينهما معركة استمرت ستة عشر يوماً، ولكن عبدالملك قد رأى موقف عمرو قوياً حيث كان متحصناً بقلعة رومية منيعة، فعرض الصلح فتصالحا على ترك القتال.

وقد اشترط سعيد بن العاص على عبدالملك أن تكون له الخلافة من بعده، وأن يكون له عامل مع كل عامل لعبد الملك وأن يستشيره فى كل صغير وكبيرة ويوليه الديوان وبيت المال.

واضطر عبدالملك لقبول شروطه وذلك لانقسام قبيلة كلب ذات القوة والتأثير السياسى فى الأحداث آنذاك بين عبدالملك وعمرو بن سعيد الأشدق مما جعل كسب المعركة بالقوة يؤدى إلى خسائر فادحة لكلا الطرفين، ولم يكن لصالح كلب التى فرضت الصلح.

بالإضافة إلى سيطرة عمرو الأشدق على مدينة دمشق التى كانت العاصمة آنذاك وفيها بيت المال وديوان الجند اللذان يعدان عصب الحياد وكسب المؤيدين وكذلك وقوف أكثر القبائل اليمانية الأخرى على الحياة وعدم تدخلها فى الصراع مما يجعل القرار الفعلى للصلح بيد قبيلة كلب دون غيرها.

وكانت قوة عمرو الأشدق فى الشام وخاصة فى دمشق فقد أيدته دمشق فضلاً عن زعيم بجيلة عبدالله بن كريز القسرى الذى كان على شرطته.

وبعد عقد الصلح ودخول عبدالملك دمشق بأربعة أيام أرسل إلى عمرو أن يحضر إليه، فلما كان بعد الظهر لبس عمرو درعاً بين ثيابه، وتقلد سيفه فلما

نهض عثر فى البساط، فقالت امرأته وبعض من كان حاضراً عنده: إنا لا نرى أن تذهب إليه فلم يعبأ بكلامهم، ومضى فى مائة من عبيده.

وكان عبد الملك قد أمر بنى مروان بالحضور عنده، وأمر حاجبه أن يدخل ابن سعيد ويغلق الباب دون من معه، ثم غلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك فرحب به وأجلسه معه على السرير ثم جعل يحدثه طويلاً ثم إن عبدالملك قال: يا غلام، خذ السيف منه.

فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين.

فقال له عبدالملك: أو تطمع أن تتحدث معى متقلداً سيفك؟ فأخذ الغلام السيف نه.

ثم تحدثا ساعة، ثم قال له عبدالملك: يا أبا أمية.

قال لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: إنك حيث خلعتنى آليت بيمينى إن ملأت عينى منك وأنا مالك لك أن أجمعك فى جامعة فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمريم المؤمنين؟ قال: ثم أطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبى أمية؟ فقال بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين فقال عمرو: فأبر قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج عبدالملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه، ثم قال: يا غلام قم فاجمعه فيها فقام الغلام فجمعه فيها.

فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجنى فيها على رءوس الناس فقال عبدالملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لا ها الله إذا، ما كنا لنخرجك فى جامعة على رءوس الناس ولما نخرجها منك إلا صعدا.

ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته.

فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك كسر عظمى إلى ما هو أعظم من ذلك.

فقال عبدالملك: والله لو أعلم أنك إذا بقيت تفى لى وتصلح قريش لأطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان قط فى بلد على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه.

وجاء فى رواية: أن عبدالملك كلف أخاه عبدالعزيز بقتله.

وخرج لصلاة العصر ولما رجع من صلاته وجد أخاه لم يقتله فلامه وسبه وسب أمه ولم تكن أم عبدالعزيز أم عبدالملك فقال: إنه ناشدنى الله والرحم وكان ابن عمة عبدالملك بن مروان.

ثم إن عبدالملك قال: يا غلام ائتنى بالحربة، فأتاه بها فهزها وضربه بها فلم تغن شيئاً، ثم ثنى فلم تغن شيئاً، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك وقال: ودارع أيضاً إن كنت لمعدا، يا غلام ائتنى بالصمصامة فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصرع فجلس على صدره فذبحه وهو يقول:

يا عمرو إن لا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وانتفض عبدالملك بعد ما ذبحه كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جداً بحيث إنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولاً فوضعوه على سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قتلة، صاحب دنيا ولا طالب آخرة.

ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أم الحكم.

فخرج به للناس فألقاه بين أظهرهم وخرج عبدالعزيز بن مروان ومعه البدر من الأموال تحمل، فألقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها، ويقال: إنها استرجعت بعد ذلك إلى بيت المال، ويقال: إن الذى ولى قتل عمرو بن سعيد مولى عبدالملك أبو الزعيزعة بعد ما خرج عبدالملك فى الصلاة.

هكذا تخلص عبدالملك من منافس قوى له ولم يبالِ بنقض العهود، وسفك الدماء كما فعل بعد ذلك مع صديقه مصعب بن الزبير وأخيه عبدالله بن الزبير.

ونظراً للاضطرابات الداخلية فى دولته اضطر عبدالملك إلى مصالحة الروم على أن يدفع لهم ١٦٥ ألف قطعة ذهبية و٣٦٠ عبداً و٣٣٠ جواداً أصيلا سنويا وأن تقسم الدولة البيزنطية والدولة الأموية خراج قبرص وأرمينيا، وارتهن منهم

رهائن وضعهم فى بعلبك مقابل ذلك يسحب ملك الروم الجراجمة إلى وسط الإمبراطورية البيزنطية.

ولم يمتنع عبدالملك عن مصالحة الجراجمة فى جبل اللكام ووافق على أن يدفع لهم ألف دينار كل جمعة ولكن سرعان ما سنحت الفرصة لعبد الملك للتخلص من الجراجمة بعد أن عقد الصلح معهم.

أرسل أحد قادته الثقات سحيم بن المهاجر إلى القائد البيزنطى والذى كان على رأس الجراجمة ونجح فى كسب ثقته، ثم كاده بقوات دبرها لهذا الشأن فقتل القائد البيزنطى.

وهرب أصحابه وأمن الباقين فرجع العبيد إلى أسيادهم والأنباط إلى قراهم، كما أن الاتفاقية مع الدولة البيزنطية لم تدم طويلاً لأن الروم نقضوا العهد.

ظل القيسيون الموتورون فى مرج راهط على ولائهم لابن الزبير، وكان زفر بن الحارث الكلابى قد فر إلى قرقيسيا وتحصن بها وأصبح تجمعه هناك مركزاً لشن الغارات على كلب فى المناطق المجاورة له، مما كان يسبب إحراجاً بالغاً لعبد الملك الذى كان يطمح فى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامى تحت سلطانه وكان فى هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير وكان لابد لعبدالملك إذا أراد أن يضم إليه العراق وينهى سيطرة الزبيريين عليه، وأن يقضى على تمرد زفر بن الحارث فى قرقيسيا.

فسار إليه فى جيشه الذى كان جهزه لحرب مصعب بن الزبير فحاصره ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة وانتزعوا إعجاب عبدالملك الذى قال: لا يبعد الله رجال مضر، والله إن قتله لذل، وإن تركهم لحسرة.

ولجأ عبدالملك إلى المسالمة وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها ويهدده إن لم يقبل ذلك، وبعد جهود ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، ويشترط عليه أن يبقى له الخيار فى أن يظل مخلصاً لابن الزبير أو ينظم إلى عبدالملك ووافق على شرطه، وأعطاه الأمان وابنه وقائده الهذيل بن زفر، وجميع

أتباعهما، ولم يأخذ بمال أو دم أهدره.

بل أعطى عبدالملك الزعيم القيسى مبلغاً من المال يوزعه بين أتباعه، ثم اختتم ذلك العمل بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث لتأكيد الاتفاق بالمصاهرة.

كما أمر زفر ابنه الهزيل أن ينضم إلى جيش عبدالملك المتجه إلى حرب مصعب بن الزبير، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة ابن الزبير.

وحرص عبدالملك إلى تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية وجعل فى أصحابه زفر بن الحارث الكلابى وابنيه الهذيل وكوثرا وعبدالله بن مسعدة الفزارى وغيرهم من زعماء قيس، كما كان فى أصحابه حسان بن مالك الكلبى، وروح بن زنباع الجذامى ورجاء بن حيوة الكندى وغيرهم من زعماء اليمانية.

وأصبحت المواجهة محتومة بين عبدالملك ومنافسه على الملك عبدالله بن الزبير فكانت المرحلة الأولى الاستيلاء أولاً على العراق بنفسه وقال: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له، وإنى بصير بالحرب شجاع بالسيف إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب.. ومعه من يخالفه ومعى من ينصح لى.

وكان ذلك فى سنة ٧١هـ بعد أربع سنين من القضاء على المختار بعد أن وطد دعائم حكمه فى الشام.

وتوجه عبدالملك إلى العراق بجيشه وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان ونزل بمسكن وكان مصعب قد علم بمقدمه بجيش على مقدمته إبراهيم بن الأشتر ونزل باجميرا، وأخذ عبدالملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم.

وكتب أيضاً إلى ابن الأشتر فأخذ الكتاب مختوماً ودفعه إلى مصعب، فقال له: ما فيه فقال له: ما قرأته: فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب: إنه والله ما كان من أحد آيس منه منى، ولقد كتب إلى

أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلى، فأطعنى فيهم فاضرب أعناقهم.

قال: إذا لا تنصحنا عشائرهم.

قال: فأوقرهم حديداً وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك، ووكل بهم على عشائرهم.

فقال: يا أبا النعمان إنى لفى شغل عن ذلك يرحم الله أبا بحر - الأحنف بن قيس - إنه كان ليحذرنى غدر أهل العراق، كأنه ينظر إلى ما نحن فيه.

بل لقد صرح عبدالملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم ولم يكن هذا خافياً فى معسكر مصعب، فعندما استدعى المهلب بن أبى صفرة وكان من قواد مصعب يستشيره، قال له: اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبدالملك وكاتبهم، فلا تبعدنى عنك.

فقال له مصعب:

إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذاسار عبدالملك إلى أن لا أسير إليه، فاكفنى هذا الثغر.

فى الوقت الذى كان عبدالملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلى عنه والانضمام إليه كان حريصاً على ألا يقاتل مصعباً، للمودة والصداقة القديمة التى كانت بينهما فأرسل إليه رجلاً من كلب، وقال له: أقرئ ابن أختك السلام - وكانت أم مصعب كلبية - وقل له يدع دعاءه إلى أخيه، وأدع دعائى إلى نفسى، ويجعل الأمر شورى.

فقال له مصعب: قل له السيف بيننا.

ثم حاول عبدالملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمد ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان.

فقال مصعب إن مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً.

ثم دارت المعركة بينهما وأمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتاب بن ورقاء، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبدالملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدنى بعتاب، إنا لله وإنا إليه راجعون.

فانهزم عتاب بالناس، فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب لأنه كان شجاعاً ولذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح قائلاً: يا إبراهيم ولا إبراهيم لى اليوم.

وتخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال لكنه ظل يقاتل فى شجاعة وبسالة حتى أثخنته الجراح وقتل فى جمادى الآخرة عام ٧٢هـ[١].

فلما بلغ عبدالملك مقتله قال: واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة ولكن هذا الملك عقيم.

وبمقتل مصعب انتهت المعركة، فدخل عبدالملك الكوفة وبايعه أهلها، وعادت العراق إلى الدولة الأموية، وعين عبدالملك أخاه بشراً والياً عليها، وقبل أن يغادرها أعد جيشاً للقضاء على ابن الزبير بمكة وعلى رأس هذا الجيش الحجاج بن يوسف الثقفى.

وباستيلاء عبدالملك بن مروان على العراق أصبح سلطان عبدالله بن الزبير منحصراً فى مكة وكان القضاء على سلطانه سهلاً بمحاصرته كما سيأتى بيانه وقد قام بهذا الأمر الحجاج الثقفى الذى علا نجمه بهذا الحصار ونجاحه فى القضاء على ابن الزبير.

■ ■ ■

(١) اقرأ كتابنا «البداية فتن والنهاية ملاحم» الناشر دار الكتاب العربى.



ابن الزبير ثائراً وخليفة

- عبدالله بن الزبير ثائراً على الحكم الأموي الوراثي.
- ابن الزبير خليفة للمسلمين بعد وفاة يزيد بن معاوية ومبايعة غالبية المسلمين له.
- خروج مروان بن الحكم وابنه على خلافة ابن الزبير.

عبدالله بن الزبير بن العوام ثائراً وخليفة للمسلمين

بلغ الخلاف السياسى أوجه فى نهاية عصر الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وانتهى هذا الخلاف بفتنة كبير ومقتله وازداد الخلاف وعظمت الفتنة حيث انقسم المسلمون إلى فريقين متنازعين وثالث اعتزل الفتنة.

كل هذا فى القرن الأول الهجرى، ورغم انتهاء الخلاف بتنازل الحسن بن على رضى الله عنهما عن الخلافة لمنازعه وخصمه معاوية بن أبى سفيان عام ٤١هـ وأطلق على هذا العام عام الجماعة، إلا أن الخلاف عاد للظهور وبشدة حين أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد.

فقد خرج الحسين بن على رضى الله عنهما ثائراً على خلافة يزيد بن معاوية وانتهى الأمر بمقتله على يد جيش يزيد فى كربلاء واستشهد الحسين وأصحابه وهم يدافعون عن الشورى أو بمعنى أدق عودة الشورى إلى نظام الحكم الإسلامى.

أما عبدالله بن الزبير بن العوام فقد أعلن ثورته على يزيد بعد استشهاد الحسين رضي الله عنه ونادى بنفسه خليفة للمسلمين، فأرسل يزيد جيشه لقتاله وحصاره فى مكة إلا أن هذا الحصار انتهى بموت يزيد فى الشام مما أدى إلى تعاظم شأن عبدالله بن الزبير واستقراره على كرسى الخلافة لاسيما وأن معاوية بن يزيد الذى تولى الخلافة بعد أبيه يزيد بن معاوية كان زاهداً فيها ومات شابا بعد نحو أربعين يوماً من توليه الخلافة ولم يخرج من قصر الخلافة فى دمشق بالإضافة إلى أنه لم يختار وليا للعهد من بعده.

وأصبح أمر الخلافة مبسوطاً سهلاً أمام ابن الزبير.

فمن هو عبدالله بن الزبير بن العوام الثائر والخليفة؟

هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة،

أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ - يجتمع نسبته من النبي ﷺ فى قصى بن كلاب بن مرة وهو أيضاً ابن عمة النبى ﷺ صفية بنت عبدالمطلب وأحد العشرة المبشرين من النبى ﷺ بالجنة وقد أسلم وعمره ست عشرة سنة بمكة(١).

وأما حدة عبدالله بن الزبير لأمه فهو صديق الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من أسلم من الرجال وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول الخلفاء الراشدين وثاني اثنين فى الهجرة ومناقبه كثيرة ومعروفة.

وأما أم عبدالله فهى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين وخالته هى السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق أم المؤمنين وزوج النبى ﷺ.

كان عبدالله بن الزبير أول مولود يولد للمسلمين من الصحابة المهاجرين فى المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية إليها حيث ولدته أمه أسماء فى قباء وهى قادمة مهاجرة من مكة وقد أشاع اليهود أن المسلمين لن يولد لهم ولد بسبب ما صنعوه لهم من سحر، ففرح المسلمون حين وُلد.

عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت عن مولد ابنها عبدالله: فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء ثم اتيت به رسول الله ﷺ فوضعته فى حجره ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل فى فيه - فمه - فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه بالتمرة ثم دعا له، فبرك عليه، وكان أول مولود ولد فى الإسلام ففرحوا به فرحاً شديداً، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد

(١) انظر سير أعلام النبلاء - للذهبى.

سحرتكم فلا يولد لكم، وسماه عبدالله(1).

ومن مظاهر الفرح بمولده وإبطالاً لشائعة اليهود حمله جده أبو بكر الصديق وطاف به فى المدينة وكبر الصحابة لمولده وفرحوا به فرحاً شديداً(2).

وقد أمر أبوه الزبير وهو ابن سبع أو ثمان سنين أن يذهب إلى النبى ﷺ ويبايعه ففعل، وحين رآه النبى ﷺ مقبلاً عليه لمبايعته تبسم له(3).

وتصف كتب السيرة عبدالله بن الزبير بأنه كان آدم - أسمر اللون - نحيفاً ليس بالطويل وكان بين عينيه أثر السجود وأنه كثير العبادة لله فصيح اللسان، صواماً قواماً شديد البأس له همة عالية، وإنه كان عالماً وقوراً شديد الخشوع فى الصلاة وإنه أحد العبادلة الأربعة الذين تفقهوا فى الدين فى المدينة المنورة(4). وهو أحد رواة الحديث النبوى الشريف.

ومما يروى عن عبادته وخشوعه فى الصلاة إنه كان يصلى يوماً فسقطت حية من السقف فطوقت بطن ابنه هاشم، فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية، فقتلوها وسلم الولد، فعلوا هذا كله وابن الزبير فى الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى حتى سلم(5).

وكان فارساً شجاعاً مهاباً حتى إنه كان يقاتل بالسيف وقد تجاوز السبعين من عمره مثل الشباب لا يقدر عليه أحد.

قال عنه عثمان بن طلحة: كان ابن الزبير لا ينازع فى ثلاثة: لا في شجاعة

(1) رواه البخارى فى صحيحه.

(2) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

(3) انظر المستدرك للحاكم النيسابورى.

(4) العبادلة يقصد بهم: عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين.

(5) انظر البداية والنهاية - مصدر سابق.

ولا عبادة ولا بلاغة[١].

وعن هشام بن عروة بن الزبير قال: كان أول ما أفصح به عمى عبدالله بن الزبير وهو صغير: السيف، فكان لا يضعه من فيه - فمه - فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام[٢].

وكان رضي الله عنه من خطباء وفصحاء قريش يشبه فى خطبه جده أبا بكر الصديق رضي الله عنه فى حركاته وإشاراته ونبرات صوته، فكان من يراه ويسمعه كأنه يرى أبا بكر الصديق رضى الله عنهما[٣].

كان يشبه فى جوده وكرمه الخلفاء الراشدين، فلم يكن مبذراً ولا مقتدراً، وكان حريصاً على المال العام للمسلمين حين تولى الخلافة حتى إنه سجن ابنه حمزة لتوزيعه مالا كان لديه على قومه فقال له ابن الزبير:

ما ليس لك ولا لأبيك ثم سجنه[٤].

ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أن معاوية بن أبى سفيان سمع رجلاً ينشد:

ابن رقاش جد ما سميدع ... يأتى فيعطى عن يد أو يمنع

فقال له: ذاك عبدالله بن الزبير.

■ ■ ■

(١)، (٢) المصدر السابق.

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

(٤) المصدر السابق.

عبدالله بن الزبير ثائراً على حكم بنى أمية الوراثى

كما ذكرنا أن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه بعد توليه الخلافة على شرط أن يكون الحسن بن على رضي الله عنه وليا للعهد والخليفة من بعده، إلا أن الحسن رضي الله عنه قد مات مسموماً فى حياة معاوية جعل معاوية بمشورة المغيرة بن شعبة يدخل نظام الحكم الوراثى فى نظام الدولة الإسلامية وعين ابنه يزيد فى ولاية العهد ليكون الخليفة من بعده وأخذ له البيعة فى حياته إلا أن البعض مثل الحسين بن على وعبدالله بن الزبير قد رفضا إعطاء البيعة ليزيد والإصرار على استمرار نظام الحكم كما كان من قبل بالاختيار والبيعة من المسلمين.

تولى يزيد الأمر بعد أبيه فى رجب سنة ٦٠ هـ فأقر عمال أبيه على ولايتهم، فكان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وأمير الكوفة النعمان بن بشير، وأمير البصرة عبدالله بن زياد.

وركز يزيد فى أخذ البيعة من النفر الذين لم يبايعوه فى حياة أبيه وكان أهمهم عنده الحسين بن على، فكتب إلى أميرها الوليد بن عتبة كتاباً يخبره فيه بوفاة معاوية، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد ابن عتبة، أما بعد، فإن معاوية كان عبداً من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محموداً ومات براً تقياً والسلام.

ونظراً لتساهل الوليد بن عتبة بن أبى سفيان فى أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير لأنه كان يعرف قدر الحسين رضي الله عنه كان رجلاً رفيقاً كريماً كما أنه كان يخشى عذاب الله وعقابه فقد امتنع عن سجن الحسين أو قتله وقال: «والله ما أحب أن لى ما طلعت الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأنى قتلت حسيناً.. سبحان الله! أقتل حسيناً أن قال: لا أبايع؟ والله إنى لا أظن أمرءا يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة.

فقال مروان بن الحكم له:

فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت(١).

لقد كان إصرار يزيد على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير - رضى الله عنهما - هو الشرارة الأولى فى الفتنة التى اندلعت بين المسلمين، فقد شعر كل منهما بأنه مطلوب، وأنه إذا لم يبايع فسيكون ضحية طيش يزيد، وأن سيوف أعوان الخليفة الجديد أصبحت مسلولة عليهما فعاذا إلى البيت الحرام، ولجآ إلى مكة المكرمة يطلبان فيها الأمان ويحتميان بحمى الله.

قالوا إن هذه بدعة جديدة وهى أنه جعل الخلافة فى ولده، فكأنها صارت وراثة بعد أن كانت شورى وتنصيصاً على غير القريب، فكيف بقريب وابن مباشر فهم رفضوا مبدأ أن يكون الأمر وراثة، وأرادوا عودة الأمر كما كان فى عصر الخلفاء الراشدين.

اختار ابن الزبير عدم البيعة ليزيد وذهب للاستقرار بمكة ومعه الحسين رضي الله عنه ورغم أن مكة تابعة لسلطان يزيد بن معاوية وبها واليه إلا أنها كانت اجتمعت عدة أسباب جعلت مكة أنسب مكان يمكن أن يتجه إليه ابن الزبير - فى نظره - ومن أهمها ما يلى:

المكان الوحيد الذى يمكن اللجوء إليه فى هذه الفترة وذلك لأن الأقاليم الأخرى ليست مناسبة فالعراق مثلاً لا يمكن ضمان ولاء أهله لأى زعيم معارضة ضد بنى أمية، وما فعلوه مع الحسين خير دليل على ذلك، وكان ابن الزبير يعى ذلك تماماً حينما نصح الحسين بعدم الذهاب إلى العراق فقال له: أين تذهب؟! إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟

أما مصر واليمن فقد كانتا بعيدتين عن مسرح الأحداث، ولم يكن لابن الزبير فى هذين الإقليمين أنصار ومؤيدون يمكن أن يعتمد عليهم، وأما الشام فكما هو معروف كان معقل الأمويين.

وكان مقصد ابن الزبير ومن معه ومن بعض الصحابة والتابعين كالمسور بن مخرمة، وعبدالله بن صفوان، ومصعب بن عبدالرحمن بن عوف، وغيرهم هو تغيير الواقع بالسيف لما رأوا تحول الخلافة إلى وراثة وملك ولما أشيع حول يزيد من شائعات أعطت صورة سيئة للخليفة الأموى فى دمشق.

(١) انظر تاريخ الطبرى والبداية والنهاية.

لقد كان يهدف من وراء الثورة أن تعود الأمة إلى حياة الشورى ويتولى الأمة أفضلها، تحول الخلافة إلى ملك، وكان يرى أنه باستعماله للسيف وتغييره للمنكر بالقوة يتقرب إلى الله ويضع حداً لانتقال الخلافة إلى ملك ووراثة ولهذا لم يدع لنفسه حتى توفى يزيد بن معاوية.

وكان ابن الزبير يقول: والله لا أريد إلا الإصلاح وإقامة الحق، ولا.ألتمس جمع مال ولا ادخاره.

يقول: اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى، وجاهدت فيك عدوك فأثبني ثواب المجاهدين[1].

ولما خرج الحسين إلى الكوفة وقتل يوم عاشوراء من سنة إحدى وستين بكربلاء كان لذلك وقع كبير على ابن الزبير فالذى يخشاه ابن الزبير انفراد الأمويين به قد حدث.

ثم إن الرجل الذى كان يضفى مكانة ومنزلة على المعارضة قد قُتل. ومع ذلك لم يحدث تحرك من الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين.

أحس ابن الزبير بخطورة موقفه ولكنه حاول أن يستفيد من دوافع الكره والمقت التى تعتلج فى نفوس الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين.

وكان أول هجوم مباشر من ابن الزبير على يزيد عندما سمع ابن الزبير بمقتل الحسين قام خطيباً فى مكة وترحم على الحسين وذم قاتليه، وقال:

أما والله لقد قتلوا طويلاً قيامه، وكثيراً فى النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى بما هم فيه منهم، وأولى به فى الدين والفضل.

أما والله ما كان يبذل بالقرآن الغناء، ولا البكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام. ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى طلب الصيد فسوف يلقون غياً.

(١) انظر تاريخ دمشق ـ لابن عساكر.

لم يحاول يزيد فى بداية الأمر أن يعمل عملاً من شأنه أن يعقد النزاع مع ابن الزبير، ولهذا فلقد أرسل إليه رسالة يذكره فيها بفضائله ومآثره فى الإسلام.

وحذره من الفتنة والسعى فيها، وكان مما قال له: أذكرك الله فى نفسك فإنه ذو سن من قريش، وقد مضى لك سلف صالح، وقدم صدق من اجتهاد وعبادة.

فارأب صالح ما مضى ولا تبطل ما قدمت من حسن، وادخل فيما دخل فيه الناس، ولا تردهم فى فتنة، ولا تحل ما حرم الله فأبى أن يبايع(١).

لكن ابن الزبير لم يستجب لدعوة يزيد السلمية، ورفض بيعته وأقسم يزيد على أنه لا يقبل بيعة ابن الزبير حتى يأتى إليه مغلولاً.

حاول معاوية بن يزيد أن يثنى والده عن هذا القسم، وذلك لمعرفته بابن الزبير، وأنه سيرفض القدوم على يزيد وهو فى الغل، وكان معاوية بن يزيد صالحاً تقياً ورعاً يجنح للسلم ويخشى من سفك دماء المسلمين، وساند معاوية فى ورأيه عبدالله بن جعفر.

ولكن يزيد أصر على رأيه، وحتى يخفف يزيد من صعوبة الموقف على ابن الزبير، فقد بعث بعشرة من أشراف أهل الشام، وأعطاهم جامعة من فضة وبرنس خز.

وعند وصول أعضاء الوفد إلى مكة تكلم ابن عضاة الأشعرى، وقال يا أبا بكر قد كان من أثرك فى أمر الخليفة المظلوم - عثمان بن عفان - ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يجهل قد غضضب أمير المؤمنين بما كان من إبائك مما قدم عليك فيه النعمان بن بشير وحلف أن تأتيه فى جامعة خفيفة لتحل يمينه فالبس عليها برنساً فلا تُرى، ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذى لا يخالف فى ولاية ولا مال.

استأذن ابن الزبير الوفد بضعة أيام يفكر ويستشير فعرض الأمر على والدته أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما فقالت: يا بنى، عش كريماً ومت كريماً، ولا تمكن بنى أمية من نفسك، فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا.

---

(١) أنظر أنساب قريش.

وكان مروان بن الحكم قد بعث ابنه عبدالعزيز وقال له: قل لابن الزبير : إن أبى أرسلنى عناية بأمرك وحفظاً لحرمتك، فأبرر يمين أمير المؤمنين، فإنما يجعل عليك جامعة من فضة أو ذهب وتكسى عليه برنساً فلا تبدو إلا أن يسمع صوتها فكتب ابن الزبير إلى مروان يشكره والجامعة القيد.

وجاء رد ابن الزبير على الوفد بالمنع.

بعدما أجاب ابن الزبير على الوفد بالمنع قال لابن عضاة: إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة، أفكنت قاتلاً حماماً من حمام مكة؟

قال: نعم وما حرمة حمام مكة؟ يا غلام ائتنى بقوسى وأسهمى.

فأتاه بقوسه وأسهمه، فأخذ سهماً فوضعه فى كبد القوس ثم سدده نحو حمامة من حمام المسجد وقال: يا حمامة، أيشرب يزيد الخمر؟ قولى: نعم فوالله لئن فعلت لأرمينك، يا حمامة اتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد وتقيمين فى الحرم حتى يستحل بك؟ والله لئن فعلت لأرمينك.

فقال ابن الزبير: ويحك أو يتكلم الطائر؟

قال: لا ولكنك يا ابن الزبير تتكلم، أقسم بالله لتبايعن طائعاً أو مكرهاً أو لتعرفن راية الأشعريين فى هذه البطحاء، ولئن أمرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهدمنها أو لنحرقنها عليك، أو كما قال (نستغفر الله تعالى).

فقال ابن الزبير: أو تحل الحرم؟

قال: إنما يحله من ألحد فيه.

ثم قال ابن الزبير: إنه ليست فى عنقى بيعة يزيد.

فقال ابن عضاة: يا معشر قريش قد سمعتم ما قال، وقد بايعتم، وهو يأمركم بالرجوع عن البيعة.

وأخذ ابن الزبير يبسط لسانه فى تنقص يزيد وقال: لقد بلغنى أنه يصبح سكران ويمسى كذلك، ثم قال: يا ابن عضاة، والله ما أصبحت أرهب الناس ولا

البـأس، وإنى لعلى بينة من ربى، فإن أقتل فهو خير لى، وإن أمت حتف أنفى فالله يعلم إرادتى وكراهتى لأن يعمل فى أرضه بالمعاصى.

وأجاب الباقون بنحو جوابه(١).

ثم قال ابن الزبير: اللهم إنى عائذ ببيتك.

ولقب نفسه عائذ الله وكان يسمى العائذ(٢).

رأى يزيد أنه لابد من القيـام بعـمل عسكرى، يكون الهدف منه القبض أو القضاء على ابن الزبير ووضع الأغلال فى عنقه ولما حج عمرو بن سعيد بن العاص والى المدينة فى تلك السنة حج ابن الزبير معه فلم يصل بصلاة عمرو، ولا أفاض بإفاضته وهذا العمل من ابن الزبير يعنى المفارقة الواضحة لسلطة الدولة، وعدم الاعتراف بها خصوصاً أن إقامة الحج تمثل الدليل الأقوى على شريعة الدولة وقوة سلطانها، مثله مثل إقامة الجهاد فى سبيل الله.

ثم منع ابن الزبير الحارث بن خالد المخزومى من أن يصلى بأهل مكة وكان الحارث بن خالد المخزومى نائباً لعمرو بن سعيد على أهل مكة.

وكان ابن الزبير يتصرف وكأنه مستقل عن الدولة، وكان لا يقطع أمراً دون المسور بن مخرمة ومصعب بن عبدالرحمن بن عوف، وجبير بن شيبة وعبدالله بن صفوان بن أمية، وكان يريهم أن الأمر شورى فيما بينهم، وكان يلى بهم الصلوات والجمع ويحج بهم(٣).

فكتب يزيد إلى عمرو بن سعيد بن العاص واليه على المدينة أن يوجه له جنداً.

فعين عمرو بن سعيد بن العاص على قيادة هذه الحملة عمرو بن الزبير بن العوام أخا عبدالله بن الزبير، وكان عمرو بن الزبير قد ولى شرطة المدينة لعمرو

(١) انظر أنساب قريش.

(٢) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ـ وتاريخ الطبرى.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر.

ابن سعيد، وكان شديد العداوة لأخيه عبدالله، وقام بضرب كل من كان يتعاطف مع عبدالله بن الزبير، وكان ممن ضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر وعبدالرحمن بن الأسود بن عبديغوث وعثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام وخبيب بن عبدالله بن الزبير وفر منه عبدالرحمن بن عثمان وعبدالرحمن بن عمرو بن سهيل وغيرهما إلى مكة فالتجأوا إلى ابن الزبير(١).

وكان تعيين عمرو بن الزبير على قيادة الجيش المتجه لمحاربة عبدالله بن الزبير جاء بناء على طلب من عمرو بن الزبير نفسه واتجه جيش عمرو بن الزبير إلى مكة قوامه ألف رجل، وجعل على مقدمته أنيس بن عمرو الأسلمى فى سبعمائة من الجند فسار أنيس بن عمرو الأسلمى حتى نزل بذى طوى، وسار عمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح(٢).

وأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه عبدالله بن الزبير يطلب منه الامتثال ليمين يزيد بن معاوية، وحذره من القتال فى البلد الحرام وكان عمرو بن الزبير يخرج من معسكره فيصلى بالناس خلال المفاوضات مع أخيه عبدالله.

وكان عبدالله يسير معه ويلين له، ويقول: إنى سامع مطيع وأنت عامل يزيد، وأنا أصلى خلفك، وما عندى خلاف، فأما أن تجعل فى عنقى جامعة، ثم أقاد إلى الشام، فإنى نظرت فى ذلك فرأيت أنه لا يحل لى أن أحله بنفسى فراجع صاحبك وأكتب إليه.

ولكن عمرو بن الزبير اعتذر من عدم الكتابة ليزيد، وذلك لأنه جاء فى مهمة محددة مطلوب منه تنفيذها، وكان عبدالله بن الزبير قد أرسل عبدالله بن صفوان الجمحى ومعه بعض الجند وأخذوا أسفل مكة وأحاطوا بأنيس بن عمرو الأسلمى، ولم يشعر بهم أنيس إلا وقد أحاطوا به فقتل أنيس وانهزم أصحابه.

وفى الوقت الذى قتل فيه وانهزم جيش أنيس بن عمرو الأسلمى، كان مصعب ابن عبدالرحمن بن عوف، يقود طائفة أخرى من الجند نحو عمرو بن الزبير، الذى

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) تاريخ الطبرى.

كان معسكراً فى الأبطح فانهزم عمرو بن الزبير، ودخل دار رجل يقال له علقمة فجاءه أخوه عبيدة بن الزبير فأجاره فأخذه إلى عبدالله وذكر له أنه أجاره فقال عبدالله: أما حقى فنعم، وأما حق الناس فلأقتصن منه لمن آذاه فى المدينة(١).

وأقام عبدالله عمرو بن الزبير ليقتص الناس منه، فكل من ادعى على عمرو بأنه فعل به كذا وكذا، قال له عبدالله بن الزبير: افعل به مثلما فعل بك وتذكر المصادر أن عمرو بن الزبير تعرض لتعذيب شديد من جراء ذلك ومات تحت الضرب.

ولم تحقق معارضة ابن الزبير أى نجاح يذكر فخلال سنتين أو أكثر من معارضته ليزيد لم يحدث أى تغير بشأن هيمنة الدولة على الحجاز فضلاً عن غيره من الأقطار ولكن ابن الزبير يهدف من التحرش بالأمويين إلى إيقاع يزيد فى مأزق المواجهة وارتكب يزيد خطأ فادحاً عندما أقسم أن يأتيه ابن الزبير إلى دمشق فى جامعة أى قيد فى العنق واليدين فكيف بصحابى جليل تجاوز الستين من عمره أن يرضخ لطلب يزيد بن معاوية.

ولقد استطاع ابن الزبير أن يظهر يزيد أمام أهل الحجاز بأنه شخص متسلط ليس أهلاً لولاية المسلمين، وجعلت هذه الحادثة من ابن الزبير فى نظر الكثير طالب حق يواجه خليفة يحمل الظلم فى أحكامه والتعسف فى قراراته.

ثم كان الخطأ الكبير الذى وقع فيه عمرو بن الزبير، الذى تصفه الروايات أيضاً بأنه عظيم الكبر شديد العجب، ظلوم قد أساء السيرة وعسف الناس، وأخذ من عرفه بموالاة عبدالله والميل إليه فضربهم بالسياط ولهذا حرص أخوه عبدالله ابن الزبير أن يقتص الناس منه ومما أثار مشاعر الناس والى المدينة من قبل يزيد قد أعلن فى المدينة حين رقى المنبر فى أول يوم من ولايته على المدينة فقال عن ابن الزبير: تعوذ بمكة فوالله لنغزونه ثم والله لئن دخل الكعبة لنحرقنها عليه، على رغم أنف من رغم (عياذا بالله من قوله).

ولما جهز الحملة التى سيوجهها لابن الزبير فى مكة نصحه بعض الصحابة

(١) الطبقات لابن سعد.

وحذروه وذكروه بحرمة الكعبة وبحديث رسول الله ﷺ فى بيان حرمتها، ولكنه رفض السماع لنصحهم.

وكان مروان بن الحكم ـ وهو الأمير المحنك والسياسى الداهية ـ قد حذر عمرو بن سعيد من غزو البيت وقال له: لا تغز مكة ولا تحل حرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر هذا له بضع وستون سنة، وهو رجل لجوج والله لئن لم تقتلوه ليموتن، فقال له عمرو: والله لنقاتلنه ولنغزونه فى جوف الكعبة على رغم أنف من رغم، فقال مروان: والله إن ذلك يسوؤنى.

وكان عبدالله بن الزبير قد اختار لقباً مؤثراً حين أطلق على نفسه العائذ بالله فأصبح المساس بحرمة مكة أمراً لا يوافق عليه الصحابة والتابعون، وكان لابد من الدفاع عن مكة، فى وجه جيش يريد استحلال حرمتها، وحتى الذى لا يستطيع أن يدافع عن مكة فسوف يكون متعاطفاً مع ابن الزبير بصفته يدافع عن بيت الله.

وتدافع الناس نحو ابن الزبير من نواحى الطائف يعاونونه ويدافعون عن الحرم.

هكذا دل يزيد عن عدم حنكته السياسية وقلة عقله وغروره، فقد أرسل بعد ذلك جيشاً استحل المدينة المنورة وحاصر الكعبة فأهلكه الله عز وجل، فقد هلك قائد جيشه بعد إغارته على المدينة وهو فى طريقه لابن الزبير، وتولى القيادة من بعده الحصين بن نمير السكونى، ووصل إلى مكة قبل انقضاء شهر المحرم بأربع ليال[1].

وعسكر الحصين بن نمير بالحجون بئر ميمون، وبذلك فقد عمل الحصين بن نمير على نشر جيشه على مسافة واسعة والذى دفعه إلى ذلك طبيعة الحرب التى ستدور فى مكة.

وقام ابن الزبير بحث الناس على قتال جيش أهل الشام، وانضم المنهزمون من

(١) كان قائد جيش يزيد بن معاوية لغزو المدينة المنورة لخلع أهلها لبيعته هو مسلم بن عقبة قبحه الله الذى استحل المدينة بناء على تعليمات يزيد وسماه الناس مسرف بن عقبة فأهلك الله هذا القائد وأيضاً يزيد الذى هلك بعده مباشرة ألا لعنة الله على الظالمين.

معركة الحرة فى المدينة المنورة إلى ابن الزبير وقدم على ابن الزبير أيضاً نجدة بن عامر الحنفى فى ناس من الخوارج، وذلك لمنع البيت من أهل الشام.

وكان عدد المقاتلين الذين اشتركوا مع ابن الزبير أقل بكثير من المقاتلين الذين اشتركوا فى معركة الحرة، ولم تكن القوات متكافئة وتحول الوضع لصالح الحصين ابن نمير، بعد أن منى ابن الزبير بفقد خيرة أصحابه، مثل أخويه المنذر وأبى بكر ابنى الزبير، ومصعب ابن عبدالرحمن وحذافة ابن عبدالرحمن بن العوام، وعمرو ابن عروة بن الزبير.

فى ربيع الأول ٦٤ هـ قام الحصين بن نمير بنصب المنجنيق على جبل أبى قبيس - وهو جبل مطل على الصفا وجبل قعيقعان وانكشفت مواقع ابن الزبير أمام الحصين بن نمير، ولم يبق مأمن لابن الزبير من أحجار المنجنيق ولم يعد يملك إلا المسجد الحرام فقط بعد أن فقد مواقعه المتقدمة فى الأبطح وفى أثناء المعارك بين ابن الزبير والحصين بن نمير احترقت الكعبة.

إلا أن يزيد بن معاوية مات فى منتصف شهر ربيع الأول ولم يعلم أحد بموته نظراً لبعد المسافة بين مكة ودمشق وجاء الخبر بموت يزيد إلى مكة فى أول شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين.

ولم تكن الكعبة مقصودة فى ذاتها بالإحراق، والدليل على ذلك ما أحدثه حريق الكعبة من ذهول وخوف من الله فى كلتا الطائفتين فقد نادى رجل من أهل الشام بعد أن احترقت الكعبة وقال: هلك الفريقان وأما أصحاب الزبير فقد خرجوا كلهم فى جنازة امرأة.

وفى صبيحة ليلة الحريق خوفاً من أن ينزل العذاب بهم، وأصبح ابن الزبير ساجداً ويقول: اللهم إنى لم أتعمد ما جرى فلا تهلك عبادك بذنبى، وهذه ناصيتى بين يديك.

ولما وصل الحصين خبر موت الخليفة بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة الأبطح، وكان يريد أن يجتمع به وفاوضه فى الخلافة فالتقيا وتحادثا

طويلاً واشتد بينهما الجدل، وكان فيما قال الحصين لابن الزبير وهو يدعوه للخلافة: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك ثم أخرج معى إلى الشام، فإن هذا الجند الذى معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك والتى كانت بيننا وبين أهل هذه الحرة.

فقال عبدالله: أنا أهدر تلك الدماء؟ أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم.

وكان الحصين يكلمه سرّاً وهو يجهر جهراً ويقول: لا والله لا أفعل.

فقال له الحصين: قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أريباً قد كنت أظن لك رأياً ألا أرانى أكلمك سرّاً وتكلمنى جهراً وأدعوك للخلافة وتعدنى للقتل والهلكة.

بعد أن افترقا أدرك عبدالله خطأه فى موقفه مع الحصين عندما عرض عليه الخلافة ومرافقته إلى بلاد الشام وأراد أن يصحح هذا الموقف وكان الحصين يستعد للعودة بجنده إلى دمشق فأرسل إليه يقول: أما أن أسير إلى الشام فليس فاعلاً وأكره الخروج من مكة ولكن بايعوا لى هناك فإنى مؤمنكم وعادل فيكم.

فرد الحصين بقوله: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس، فما أنا صانع[1]؟

ولعل رفض ابن الزبير لما عرضه عليه قائد جيش الشام هو عدم ثقته به ولاسيماً أنه كان يدعوه سراً بالإضافة لكراهية أصحاب ابن الزبير لهذا القائد وجيش الشام لأنهم استحلوا المدينة المنورة وفعلوا فيها الأفاعيل من قتل الكثير من أهلها وهم صحابة رسول الله ﷺ وأبناؤهم واستحلوا حرمات الله فكيف يأمن لهم ابن الزبير ويتوجه بهم للشام!!

■ ■ ■

(١) تاريخ الطبرى.

عبدالله بن الزبير خليفة للمسلمين بعد أخذ البيعة له من غالبية بلاد المسلمين

توفى يزيد بن معاوية وكانت وفاته بقرية من قرى حمص يقال لها حوارين من أرض الشام ربيع الأول سنة ٦٤ هـ وهو ابن ٣٨ سنة فى قول بعضهم وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر فى قول بعضهم ويقال ثمانية أشهر(١).

وتولى الخلافة بعده ابنه معاوية وكان تقيا ورعاً زاهداً كما ذكر ذلك أهل السير والتاريخ(٢).

ولد سنة ٤٤ هـ ونشأ فى بيت الخلافة وبويع له.

يختلف المؤرخون فى المدة التى حكمها معاوية بن يزيد، ويتراوح الخلاف بين عشرين يوماً وثلاثة أشهر ويرجح بعض المؤرخين مدة الأربعين يوماً، وكان مريضاً مدة ولايته، ولهذا لم يؤثر له عمل ما مدة خلافته، حتى الصلاة فإن الضحاك بن قيس هو الذى كان يصلى بالناس، ويسير الأمور، وظل الضحاك يصلى بالناس حتى بعد وفاة معاوية، حتى استقر الأمر لمروان بالشام.

ولما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادى فى الناس: الصلاة جامعة وخطب فيهم، وكان مما قال: أيها الناس إنى قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه فإن أحببتم تركتها لرجل قوى، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى فى ستة كما تركها عمرو بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقد تركت أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم.

---

(١) انظر تاريخ الطبرى.

(٢) انظر البداية والنهاية.

ثم نزل ودخل منزله، فلم يخرج حتى مات(١).

وفى رواية أخرى للخطبة عن ابن الأثير قال فيها: أما بعد فإنى ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا لها من أحببتم ثم دخل منزله وتغيب حتى مات(٢).

واعتبر هذا الموقف منه دليلاً على عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة فقد رفض أن يعهد لأحد من أهل بيته حينما قالوا له: اعهد إلى أحد من أهل بيتك، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إني بريء منها، متخل عنها(٣).

وجاء فى رواية: قيل له: ألا توصى؟ فقال: لا أتزود مرارتها وأترك حلاوتها لبنى أمية(٤).

وهكذا مات معاوية بن يزيد رحمه الله فى ريعان الشباب عن إحدى وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرين سنة أو أقل من ذلك ولم يوص لأحد من بعده بالخلافة وتركها شورى بين المسلمين كما كانت من قبل.

وكان له أخ صغير هو خالد بن يزيد، فرأى فريق من جند الشام المبايعة لابن الزبير بالخلافة ومنهم الضحاك بن قيس أمير الشام لكن الغالبية كانت من جند الشام مثل حسان بن مالك زعيم القبائل اليمنية وهم أخوال يزيد بن معاوية أن يظل الأمر فى بنى أمية وإن كان ذلك فى الفرع المروانى لعدم وجود من يصلح من الفرع السفيانى، فكان مؤتمر «الجابية» الذى أقر اختيار مروان بن الحكم خليفة كما ذكرنا.

وكان عبدالله بن الزبير قد بويع له بالخلافة فى الحجاز والعراق وفى مصر

(١) انظر البداية والنهاية.

(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير.

(٣) انظر مروج الذهب للمسعودي.

(٤) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

وأقصى بلاد المغرب وبعض جهات الشام.

ففى دمشق بايعه الضحاك بن قيس الفهرى وفى حمص بايعه النعمان بن بشير وفى قنسرين بايعه زفر بن الحارث الكلابى وفى فلسطين بايعه ناتل بن قيس وأخرج منها روح بن زنباع الجذامى.

وكانت بيعته كما ذكر ابن كثير فى عام ٦٤ هـ واستمرت حتى مقتله عام ٧٣ هـ ولم يبايع لابن الزبير بالخلافة سوى دمشق وأعمالها من بلاد الأردن لأنهم بايعوا مروان بن الحكم بعد ذلك.

وبتلك البيعات من الشام واليمن وخراسان والعراق ومصر والحجاز أصبح عبدالله بن الزبير الخليفة الشرعى للمسلمين وبهذا صرح العلماء والمؤرخون(١).

قال ابن كثير فى البداية والنهاية إن ابن الزبير بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة وهو أرشد من مروان بن الحكم حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت البيعة له فى الآفاق وانتظم له الأمر.

وبهذا بعد مروان وابنه من بعده باغين خارجين على خلافه ابن الزبير الشرعية حتى وفاة ابن الزبير ويعتبر العلماء عبدالله بن الزبير خليفة للمسلمين عقب وفاة معاوية بن يزيد وأن مروان بن الحكم ومن بعده ابنه عبدالملك كما ذكرنا بغاة لم تعقد لهما لواء الخلافة لعدم حصولهما على الإجماع إلا بعد مقتل عبدالله ابن الزبير.

وبالتالى لا يعد عبدالملك خليفة إلا بعد أن استطاع القضاء على ابن الزبير ودخول بلاد الإسلام فى طاعته وحدوث الإجماع على خلافته.

ورغم حصول ابن الزبير على مبايعة غالبية البلاد الإسلامية كما ذكرنا إلا أنه لم يستطع الحصول على بيعة محمد ابن الحنفية ابن الإمام على رضي الله عنه وأيضاً ابن عمر رضى الله عنهما.

فقد بايع ابن عمر يزيد بن معاوية بالخلافة وحاول إقناع ابن الزبير بعدم

---

(١) انظر الاستيعاب ـ لابن عبدالبر.

الخروج عليه وعدم إثارة الفتنة بذلك.

وبعد وفاة معاوية بن يزيد لم يبايع ابن عمر عبدالله بن الزبير رغم طلب ابن الزبير البيعة منه حيث علل الرفض بقوله: لا أعطى صفقة يمينى فى فرقة - أى اختلاف - ولا أمنعها فى جماعة.

ولم يجبره ابن الزبير على البيعة كما يفعل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس، رغم أن امتناع ابن عمر عن البيعة له تأثير سلبى على خلافة ابن الزبير فى بلاد الحجاز إلا أنه لم يشكل خطراً على الخلافة لعدم طمعه فيها.

أما ابن عباس رضي الله عنه وابن الحنفية فإنهما لم يبايعا ابن الزبير وقالا له حين بايعه الثانى عام ٦٤ هـ وطالب منهما البيعة حتى تجتمع له البلاد ويتسق له الناس وأخبراه أنهما لن يظهر الخلاف[1].

لكن كتب السيرة تذكر تعاون ابن عباس رضي الله عنه مع ابن الزبير فى حكمه وخلافته حيث عمل قاضياً له فى مكة ولكن العلاقة توترت بينهما وأدت إلى خروج ابن عباس من مكة إلى الطائف.

وأما بالنسبة لابن الحنفية فإن ابن الزبير لم يحاول فى البداية إكراه ابن الحنفية على البيعة ولكنه لم يستمر فى سياسة عدم الإكراه معه بعد أن جاءته البيعة من الأمصار وصارت غالبية البلاد تحت إمرته، فأدرك أن الأمة قد اجتمعت عليه وبالتالى تحقق شرط ابن الحنفية ووجبت له البيعة منه، فلما رفض حبسه ابن الزبير فى الشعب حتى أرسل المختار الثقفى جيشاً لإخراجه من الشعب عام ٦٦ هـ إلا أن ابن الحنفية قد تبرأ من المختار وأنكر أن يكون قد أرسله للعراق كما ادعى المختار ذلك وذكرنا.

وحين أرسل المختار جيشاً فى عام ٦٦ هـ إلى مكة فى موسم الحج، يخلص ابن الحنفية من سجنه، ومنع ابن الحنفية الجيش من قتال ابن الزبير لكونه لا يستحل القتال فى الحرم.

---

(١) الطبقات لابن سعد والبداية والنهاية.

والواقع أن ابن الحنفية أصبح يشكل خطراً على ابن الزبير بعد وصول نجدة العراق وتروى المصادر أنه كان لابن الحنفية لواء فى الحج ينافس فيه لواء ابن الزبير.

أما بالنسبة لابن الزبير فقد أحس أن مصدر قوة ابن الحنفية يكمن فى مساندة المختار بن أبى عبيد له، ولذلك فكر فى القضاء عليه فأرسل أخاه مصعباً والياً على البصرة، وأمره أن يقاتل المختار وفعلاً استطاع مصعب بن الزبير أن يقضى على المختار فى رمضان سنة ٦٧ هـ.

وأدى مقتل المختار إلى تضعضع موقف ابن الحنفية بمكة ويروى ابن سعد أن ابن الزبير أرسل إلى ابن الحنفية أخاه عروة يطلب منه أن يبايع وهدده بالحرب إن هو أصر على رفض البيعة(١).

ولاحت لابن الحنفية فى هذه الأثناء فرصة رأى فيها مخرجاً من ضغوط ابن الزبير، تمثلت فى دعوة عبدالملك بن مروان له بأن يقدم إلى الشام، فاغتنم ابن الحنفية هذه الفرصة وتوجه إلى الشام هو وأتباعه، واختاروا المقام بأيلة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام، وهذه البلدة وإن كانت من بلاد الشام منطقة نفوذ عبدالملك بن مروان إلا أنها فى أطرافها نحو الحجاز وأصبح تقريباً فى منطقة بعيدة عن الاثنين معاً، ولكن اتضح أن نوايا عبدالملك لم تكن تختلف عن نوايا ابن الزبير، فعرض عليه البيعة مقابل أموال وأعطيات سخية أو الخروج من بلاد الشام، وآثر ابن الحنفية الخروج على البيعة، حيث اشترط ذلك على ابن الزبير من قبل.

وأراد ابن الحنفية العودة إلى مكة ولكن ابن الزبير منعه من دخولها فتوجه بمن معه إلى الطائف، وقيل المدينة، وبقى بها إلى أن قتل ابن الزبير(٢).

أما موقف الخوارج من بيعة ابن الزبير فقد مرت بمرحلتين حيث إن الخوارج قد تحالفوا مع ابن الزبير فى الدفاع عن مكة حتى وفاة يزيد فلما زال الخطر دخل عليه قادتهم فأرادوا معرفة رأيه فى عثمان بن عفان فأجابهم فيه بما

(١)، (٢) الطبقات لابن سعد.

يسوءهم وذكر لهم ما كان متصفاً به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسيرة الحسنة والرجوع إلى الحق إذا تبين له فعند ذلك نفروا منه وفارقوه وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا فيها(١).

وتصدى لقتالهم المهلب بن أبى صفرة فقد كتب ابن الزبير له بأن يتولى حربهم فاستجاب لذلك، وكان على رأس الخوارج الأزارقة نافع بن الأزرق واستطاع المهلب أن يهزمهم وقتل أميرهم نافع بن الأزرق وانهزمت الخوارج نحو فارس.

أما مروان بن الحكم فقد انحصر أمره على دمشق فى بداية الأمر حين أعلن ابن الزبير نفسه خليفة للمسلمين وبايعه معظم المسلمين والولاة كما ذكرنا ويرى ابن سعد أن مروان بن الحكم كان قد عزم أمره على مبايعة ابن الزبير إلا أن عبيدالله بن زياد والأمويين فى الشام قد أشاروا عليه بعدم البيعة فاستجاب لهم ولاسيما وقد عقدا مؤتمر الجابية وتم ترشيحه إلى منصب الخلافة وكان أكبر بنى أمية سنا.

أصبح مروان ومن معه من المعارضين لحكم ابن الزبير، وأول ما قام به مروان هو محاولات استعادة الأقاليم التى كانت تابعة لدولة بنى أمية لحكمه وكأن الدول الإسلامية أصبحت إرثا لبنى أمية وبهذا يعد مروان قد شق عصا الطاعة على خليفة المسلمين ابن الزبير.

وحل مؤتمر الجابية مشكلة الخلافة بين بنى أمية، وكانت هذه خطوة حاسمة، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً، فما زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك ابن قيس زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصارى والى حمص وزفر بن الحارث الكلابى أمير قنسرين وكان واضحاً أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسؤلية وحمل أعباء الخلافة والدفاع عنها، وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك منها وكان أول فتح على بنى أمية(٢).

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

(٢) الكامل في التاريخ ـ مصدر سابق.

وعبأ مروان أنصاره من قبائل اليمن فى الشام كلب وغسان والسكاسك والسكون وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد وعلى ميسرته عبيدالله بن زياد، واتجه إلى مرج راهط فدارت المعركة الشهيرة التى حسمت الموقف فى الشام لبنى أمية ومروان، حيث هزم القيسيون أنصار ابن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس فى الشام، واستمرت المعركة حوالى عشرين يوماً، وكانت فى نهاية سنة ٦٤ هـ وقيل: فى المحرم سنة ٦٥ هـ[١].

وأعادت هذه المعركة الملك لبنى أمية بعد أن كان مهدداً بالزوال وحولت السلطة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى أى من نسل معاوية بن أبى سفيان إلى نسل مروان بن الحكم، وكذلك تخلص الأمويون من الضحاك بن قيس الذى كان يعد معارضاً قوياً للأمويين، وتابعاً مخلصاً لابن الزبير.

وسقطت قنسرين فى يد الأمويين وهرب واليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا، وكان عليها عياض الحارثى.

وأيضاً سقطت فلسطين وهرب ناتل بن قيس الجذامى إلى ابن الزبير بالإضافة إلى سقوط حمص فى أيدى مروان، وقتل واليها النعمان بن بشير ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة، وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيون فقد كان نصراً مؤقتاً، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية.

وكانت سقوط تلك البلاد بداية النهاية لابن الزبير.

بينما اعتمد مروان على رجال دهاة خبراء فى الحرب من أمثال حصين بن نمير وعمرو بن سعيد، كان لابن الزبير سياسة أخرى بعدم اشتراك أتباع فى المعركة مما أدى إلى ترك الضحاك مدينة دمشق دون قوة تستطيع المحافظة عليها رغم أهميتها، وهذا سهل للأمويين الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من أموال.

وروى أن مروان بن الحكم لما جىء برأس الضحاك إليه ساءه ذلك وقال: الآن

---

(١) انظر تاريخ الطبرى.

حين كبرت سنى ودق عظمى، وصرت فى مثل ظمء الحمار.

وقال: أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك(١).

وفى رواية عن مالك قال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة ثم أصبحت فيما أنا فيه من إهراق الدماء وهذا الشأن(٢).

واستطاع مروان بعد تلك المعركة من الاستيلاء على مصر التى كانت تابعة لحكم ابن الزبير حيث سقطت فى يديه عام ٦٥ هـ وأقام بها شهرين ثم عاد إلى الشام وعين ابنه عبدالعزيز والياً عليها أى أن أهم الأمصار قد خرجت من خلافة ابن الزبير وحكمه.

وقام مروان بتجهيز حملتين ضد ابن الزبير لاستعادة العراق والحجاز منه ولكه لم يحقق أى تقدم فى استرداد العراق والحجاز حيث وافته المنية وتوفى والحملة فى طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث فى «قرقيسيا» بالشام.

تولى الحكم والخلافة بعد مروان ابنه عبدالملك حيث عهد إليه والده بالملك من بعده بعد أن نقض مروان قرارات مؤتمر الجابية التى تقضى بتولية العهد لعمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد بن معاوية وذلك بعد نجاحه فى إعادة مصر للحكم الأموى.

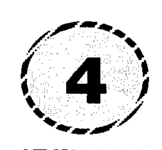
واستطاع عبدالملك بن مروان استعادة تأسيس الدولة الأموية كما ذكرنا بمعارك عديدة قبل قيامه بإرسال حملته الأخيرة لاسترداد مكة والمدينة من ابن الزبير وهى الحملة الشهيرة التى زاع فيها شهرة الحجاج الثقفى وعلا فيها نجمه.

■ ■ ■

---

(١) انظر تاريخ الطبرى.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى.



الحجاج بن يوسف الثقفى والخليفة ابن الزبير

- بداية ظهور الحجاج بن يوسف الثقفى قبل قتال ابن الزبير فى مكة.
- حصار الحجاج الثقفى لابن الزبير فى مكة وضربه للبيت الحرام بالمنجنيق.
- بين الحجاج وأسماء بنت أبى بكر رضى الله عن أبيها وعنها.

بداية ظهور أمر
الحجاج بن يوسف الثقفى

الحجاج بن يوسف الثقفى من مواليد الطائف حيث قبيلة ثقيف ولد عام ٤١ هـ وهو العام الذى اجتمعت فيه الأمة على خلافة معاوية بن أبى سفيان بعد تصالحه مع الحسن بن على رضي الله عنهما، وكان اسمه «كليب» ثم بدله بالحجاج واشتهر به.

أمه هى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى وعروة هو الصحابى المعروف والذى ذكرنا قصة إسلامه ومقتله على يد قومه وهو يدعوهم للإسلام.

وسلسلة نسبه كما ذكرها المؤرخون: الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن متعب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف ابن ثقيف(١).

قال الشافعى: سمعت من يذكر أن المغيرة بن شعبة دخل على امرأته وهى تتخلل ـ أى تخلل أسنانها ليخرج ما بينها من أذى ـ وكان ذلك فى أول النهار.

فقال: والله لئن كنت باكرت الغذاء إنك لرغيبة دنية، وإن كان الذى تخللين منه شىء بقى فى فيك من البارحة إنك لقذرة.

ـ فطلقها.

فقالت: والله ما كان شىء مما ذكرت ولكننى باكرت ما تباكره الحرة من السواك فبقيت شظية فى فمى منه فحاولتها لإخراجها.

فقال المغيرة ليوسف أبى الحجاج: تزوجها فإنها لخليقة أن تأتى برجل يسود، فتزوجها يوسف أبو الحجاج.

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير، وذكر البعض أنه ولد عام ٣٩ هـ، وقيل ٤٠ هـ.

قال الشافعى: فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام، فقيل له فى النوم: ما أسرع ما ألقحت بالمبير(١).

قال ابن خلكان واسم أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى، وكان زوجها الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب، وذكر عنه هذه الحكاية فى السواك.

وذكر صاحب «العقد» أن الحجاج كان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف، ثم قدم دمشق فكان عند روح بن زنباع وزير عبدالملك، فشكا عبدالملك إلى روح أن الجيش لا ينزلون لنزوله ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندى رجل توليه ذلك، فولى عبدالملك الحجاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد فى النزول والرحيل حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فضربهم وطوف بهم، وأحرق الفسطاط فشكا روح ذلك إلى عبدالملك فقال للحجاج: لم صنعت هذا؟

فقال: لم أفعله، إنما فعله أنت، فإن يدى يدك وسوطى سوطك، وما ضرك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه، وبدل الغلام غلامين، ولا تكسرنى فى الذى وليتنى؟

ففعل ذلك وتقدم الحجاج عنده(٢).

قال ابن كثير فى البداية والنهاية عن شخصية أبى الحجاج والحجاج نفسه:

وكانت فيه شهامة عظيمة وفى سيفه رهق وكان كثير قتل النفوس التى حرمها الله بأدنى شبهة وكان يغضب غضب الملوك، وكان ـ فيما يزعم ـ يتشبه بزياد ابن أبيه، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب، فيما يزعم أيضاً، ولا سواء ولا قريب.

وقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة سليم بن عتر التجيبى قاضى مصر، وكان من كبار التابعين، وكان ممن شهد خطبة عمر بن الخطاب بالجابية، وكان من الزهادة والعبادة على جانب عظيم، وكان يختم القرآن فى كل ليلة ثلاث ختمات فى الصلاة وغيرها، والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه بمصر فى جامعها، فاجتاز بهما سليم ابن عتر هذا، فنهض إليه أبو الحجاج فسلم عليه، وقال له: إنى ذاهب إلى أمير

---

(١)، (٢) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

المؤمنين، فهل من حاجة لك عنده؟

قال: نعم، تسأله أن يعزلنى عن القضاء.

فقال: سبحان الله! والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك.

ثم رجع إلى ابنه الحجاج، فقال له ابنه: يا أبه، أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفى؟

فقال له: يا بنى والله إنى لأحسب أن الناس إنما يرحمون بهذا وأمثاله.

فقال الحجاج: والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله.

فقال: ولم يا بنى؟

قال: لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبى بكر وعمر فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئاً عند سيرتهما، فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ولا يرون طاعته، والله لو خلص إلى من الأمر شىء لأضربن عنق هذا وأمثاله.

فقال له أبوه: يا بنى، والله إنى لا أظن أن الله عز وجل خلقك شقيا.

وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجاهة عند الخليفة، وأنه كان ذا فراسة صحيحة، فإنه تفرس فى ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك.

وأضاف: ثم نشأ شاباً لبيباً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن، قال بعض السلف: كان الحجاج يقرأ القرآن فى كل ليلة.

وقال أبو العلاء: ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصرى، وكان الحسن أفصح منه.

وقال الدارقطنى: ذكر سليمان بن أبى شيخ، عن صالح بن سليمان قال: قال عتبة بن عمرو: ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا الحجاج وإياس ابن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس.

روى أبو بكر بن أبى خيثمة عن يحيى بن أيوب، عن عبدالله بن كثير - ابن

أخى إسماعيل بن جعفر المدينى ـ ما معناه أن الحجاج بن يوسف صلى مرة بجنب سعيد بن المسيب ـ وذلك قبل أن يلى شيئاً ـ فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله فى السجود فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه ـ وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة ـ فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره.

ثم أقبل عليه سعيد فقال له: يا سارق يا خائن، تصلى هذه الصلاة! لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك.

فلم يرد عليه، ثم مضى الحجاج إلى الحج، ثم رجع فعاد إلى الشام ثم جاء نائباً على الحجاز، فلما قتل ابن الزبير كر راجعاً إلى المدنية نائباً عليها، فلما دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيب فقصده الحجاج فخشى الناس على سعيد منه، فجاء حتى جلس بين يديه، فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال: نعم.

قال: فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك، ثم قام ومضى.

كان المولد والنشأة فى الطائف ولكن الانطلاقة والصعود فى الشام، فقد كانت الطائف تحت حكم ابن الزبير والصراع على أشده بين ابن الزبير وعبدالملك بن مروان فقرر الحجاج الانطلاق إلى الشام التى أصبحت حاضرة الخلافة الأموية حيث يحاول عبدالملك استعادة ملك الأموية الذى تبعثر وأصبح فى حكم ابن الزبير وسيطرته.

وفى الشام التحق الحجاج بشرطة الإمارة وكانت تعانى من مشاكل جمة من سوء التنظيم وزعزعة الاستقرار وعدم حماس الشرطة والجيش للطاعة والانضباط العسكرى فسارع الحجاج إلى تنبيه أولى الأمر للخلل الواقع فى صفوف الجند، فقربه الوزير روح بن زنباع وهو الوزير المقرب للخليفة الأموى عبدالملك.

وقدمه الوزير للخليفة عبدالملك الذى ولاه أمر الجنود فقام بضبط أمور الشرطة فى الإمارة وأعجب به عبدالملك وصار له شأن عنده وأصبح من كبار

قواده فى الجيش.

ووصل من سطوة الحجاج وعلو كلمته عند الخليفة الضبط والربط الذى امتاز به الحجاج ونفذه وسيره على الجند فى الجيش والشرطة قد قام بتنفيذه أيضاً على جنود الوزير روح بن زنباغ الذى قدمه للخليفة فقد قام الحجاج بحبس جنود الوزير حينما رفضوا إطاعة أوامره وأحرق عليهم سرادقهم فشكاه الوزير للخليفة، فدعا الحجاج وسأله عما حمله على فعله هذا فقال: إنما أنت من فعل يا أمير المؤمنين، فأنا يدك وسوطك.

وأشار عليه بتعويض روح بن زنباع دون كسر أوامره.

وضم عبدالملك الحجاج إلى جيشه وجعله من كبار القواد واشترك معه فى حروبه التى خاضها لاسترداد العراق من ابن الزبير، وسلطه عبدالملك على الجنوب فضبط أمرهم، وأعلن الحجاج فى بلاد الشام أن أيما رجل قادر على حمل السلاح لم يخرج معه قتله وأحرق داره، وأمهلهم ثلاثة أيام، ثم طاف بالبيوت باحثاً عن المتخلفين، فانضم إليه جيش كبير وأطاعه الجميع بالجبر لا بالاختيار كل ذلك قبل صدور أمر عبدالملك له بقيادة الجيش لقتال ابن الزبير فى مكة عام ٧٣ هـ.

▪▪▪

الحجاج وحصار ابن الزبير فى الكعبة

استطاع عبدالملك بن مروان من استرداد الأقاليم التى كانت تابعة لخلافة عبدالله بن الزبير، ولم يبق إلا بلاد الحجاز وقد هرب أتباعه وأنصاره إلى معسكر عبدالملك.

وبعد سقوط بلاد العراق العربى والعجمى فى قبضة عبدالملك كما ذكرنا ومقتل مصعب بن الزبير أرسل عبدالملك جيشاً على مقدمته الحجاج إلى الحجاز لانتزاع آخر معاقل ابن الزبير.

وكانت محاولات عبدالملك لإخضاع الحجاز قد بدأت بحملة يقودها عروة بن أنيف فى ستة آلاف إلى المدينة المنورة وأمرهم أن يعسكروا خارجها بالعرصة وهى أرض واسعة بين الدور لا بناء فيها بنواحى المدينة بالعقيق.

وسار عروة وعسكر بالعرصة وهرب عامل ابن الزبير وهو الحارث بن حاطب منها وظل عروة بن أنيف شهراً خارج المدينة يدخلها ليصلى صلاة الجمعة ثم يعود إلى معسكره ولم تحدث أى مواجهة عسكرية ثم عاد هذا الجيش إلى الشام.

ثم كانت الحملة الثانية لعبدالملك حيث أرسل عبدالملك بن الحارث بن الحكم وكانت الحملة قوامها أربعة آلاف إلى المدينة مهمتها الحفاظ على المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة وقد عسكرت تلك الحملة بوادى القرى وأرسل عبدالملك بن الحارث بفرقة قوامها خمسمائة جندى إلى عامل المدينة من قبل ابن الزبير وهو سليمان بن خالد وقتلوه.

وولى ابن الزبير جابر بن الأسود على المدينة حيث استطاع صد تلك الحملة وهزيمتها.

وأرسل عبدالملك بن مروان حملة ثالثة للسيطرة على المنطقة الواقعة فيما بين

آيلة ووادى القرى لسد تحركات ابن الزبير وتكون مدداً لمن يحتاج من عمال عبدالملك واستطاع ابن الزبير التصدى لتلك الحملة حيث أرسل إليه والى البصرة ألفى رجل لحماية المدينة بقيادة ابن رواس.

ولكن بعد سقوط العراق فى أيدى مروان وانحصرت ولاية وخلافة ابن الزبير فى مكة والمدينة أرسل عبدالملك حملته الأخيرة للحجاز بقيادة الحجاج كما ذكرنا للقضاء على ابن الزبير ومن تبقى معه من الأنباع وهم قليل بعد الهزائم التى منيت بها جيوش ابن الزبير.

يجمع المؤرخون أن هزيمة مصعب بن الزبير أمام جيوش الشام بقيادة عبدالملك بن مروان كانت نهاية دولة وخلافة عبدالله بن الزبير حيث انفك عقد الخلافة الزبيرية ولهذا اكتفى عبدالملك بإرسال جيش بقيادة الحجاج ولم يذهب بنفسه إلى الحجاز فقد استقر الأمر له فهو يدرك أن ابن الزبير لن يستطع الصمود لافتقاره إلى العدة والعدد.

وتوجه الجيش الأموى إلى الحجاز واستقر فى الطائف معقل ثقيف قبيلة الحجاج.

وذكر ابن جرير أن سبب اختيار عبدالملك بن مروان للحجاج الثقفى لقتال عبدالله بن الزبير دون غيره أن عبدالملك لما أراد الرجوع للشام بعد قتله مصعباً وأخذه العراق، ندب الناس إلى قتال عبدالله بن الزبير بمكة فلم يجبه أحد إلى ذلك، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا له.

وقص عليه مناماً زعم أنه رآه، قال: رأيت يا أمير المؤمنين كأنى آخذ عبدالله ابن الزبير فسلخته، فابعث بى إليه فإنى قاتله.

فبعثه فى جيش كثيف من أهل الشام وكتب معه أماناً لأهل مكة إن هم أطاعوا.

فخرج الحجاج فى جمادى من عام ٧٢ هـ ومعه ألفان فارسى من أهل الشام، فسلك طريق العراق ولم يعد للمدينة المنورة حتى نزل الطائف وجعل يبعث البعوث إلى عرفة - بالمشاعر المقدسة بمكة - ويرسل ابن الزبير الخيل فيلتقيان فينهزم خيل ابن الزبير وتظفر خيل الحجاج.

ثم كتب الحجاج لعبدالملك يستأذنه فى دخول مكة ومحاصرة ابن الزبير وسأله أن يمده بالرجال.

فكتب عبدالملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق ومن معه بالحجاج.

وهكذا نال الحجاج الإذن من عبدالملك بحصار مكة واقتحامها للقضاء عليه.

وضرب الحجاج حصاراً اقتصاديّاً على مكة وقطع عنها المياه والطعام وقد أثر هذا الحصار على أهل مكة مما اضطر الكثير من أعوان ابن الزبير للهرب والانضمام للحجاج.

واضطر ابن الزبير وأصحابه للجوء إلى الكعبة والتحصن بها وكان ابن الزبير قد بلغ ثلاثة وسبعين سنة إلا أنه كان شجاعاً قوياً ومقاتلاً شرساً رضي الله عنه.

ولأن الحجاج من الشخصيات التى تقف عن أى حد من الحدود وأن مبدأه الغاية تبرر الوسيلة فقد قام بحصار الكعبة واقتحام مكة المكرمة للقضاء على ابن الزبير وقد دخل موسم الحج.

وأرسل الحجاج قبل اقتحامه لمكة وحصار البيت العتيق إلى ولى أمره ونعمته عبدالملك يستأذنه فى ذلك فأذن له وقال له: افعل ما ترى.

وبالفعل توجه الحجاج بكل جيشه نحو مكة المكرمة ونصب المنجنيق على جبالها والمنجنيق هى آلة حرب فى ذلك الزمان تشبه المدفع فى زماننا هذا ولكنها تقذف الحجارة.

وبدأ الحجاج يضرب الكعبة المشرفة التى تحصن بها ابن الزبير وأعوانه بالمنجنيق ضرباً متواصلاً.

وكانت وفود الحج وقد جاءت إلى مكة من جميع الأقطار الإسلامية، وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان فى ذلك تعطيلاً لركن من أركان الحج فقد تدخل فى الأمر ابن عمر فكتب إلى الحجاج بقول له: اتق الله فإنك فى شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً.

فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعمال المنجنيق حتى ينتهى الناس من الحج، وقال لهم: والله إنى لكاره لما ترون ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت.

وكف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف وبعدما انتهى موسم الحج نادى الحجاج فى الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيستأنف ضد ابن الزبير.

وروى البلاذرى أن العديد ممن كانوا مع ابن الزبير حاولوا إقناعه بقبول أمان الحجاج بن يوسف، فلم يستجب ابن الزبير لمحاولاتهم وأصر على القتال وقد سطرت الروايات مواقف بطولية رائعة لابن الزبير فى مواجهة كتائب الحجاج ولم يمنعه خذلان من حوله، من الثبات على مبادئه من عودة عدم توارث الحكم لبنى أمية وغيرها من العائلات أو القبائل.

وعاد الحجاج إلى ضرب الكعبة بالمنجنيق مرة أخرى بعد موسم الحج.

وقتل الحجاج خلقاً كثيراً من جراء قذف مكة والكعبة بالمنجنيق وكان معه خمسة مجانيق بل وحبس عن ابن الزبير وأنصاره الماء والطعام فكانوا يشربون من ماء زمزم.

وكانت الحجارة تسقط على الكعبة والحجاج يشجع جنوده من أهل الشام فيقول:

يا أهل الشام الله الله فى الطاعة.

وهذا هو مبدأ الحجاج الذى أوصله إلى أعلى المناصب فى الدنيا طاعة ولى الأمر وإن كان مخالفاً لله ورسوله!!

وكان ابن الزبير يشد عليهم ويقاتلهم ويخرج لهم وهو شيخ طاعن فى السن ولكنه مثل الشباب فى القوة ويقول: هذا وأنا ابن الحوارى.

وقيل له ألا تكلمهم فى الصلح !!

فقال: والله لو وجودكم فى جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً والله لا أسألهم صلحاً أبداً.

قال ابن كثير فى البداية والنهاية وذكر غير واحد أنهم - أى أهل الشام - لما رموا بالمنجنيق جاءت الصواعق والبروق والرعود حتى جعلت تعلو أصواتها على صوت المنجنيق، ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثنى عشر رجلاً فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة.

فلم يزل الحجاج يشجعهم ويقول: إنى خبير بهذه البلاد وهذه بروق تهامة ورعودها وصواعتها وإن القوم يصيبهم مثل الذى يصيبكم.

وجاءت صاعقة من الغد فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضاً فجعل الحجاج يقول: ألم أقل لكم إنه يصابون مثلكم وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة.

أراد الحجاج أن يهون أمر ضرب الكعبة بالمنجنيق على جنوده بعدما رأوا من آيات وغضب جنود الله من الصواعق والبرق على كلا الطرفين المحاصر والمحتمى.

ولكن الأمر الذى جعل أهل الشام جنود الحجاج أن يتوقفوا عن الرمى بالمنجنيق أن صاعقة نزلت على أحد المجانيق فأحرقته.

لكن الحجاج خطبهم فقال: ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم؟ فلولاً أن عملكم مقبولاً ما نزلت النار فأكلته.

فعادوا إلى المحاصرة والرمى مرة أخرى(١).

وهذا القول للحجاج من المواقف المضحكة التى تشير إلى شخصية بعض القادة وقلبه للحق وتشير إلى اطلاعه وثقافته وكيفية استخدامها لصالح أهدافه.

فقد كان فى الأقوام السابقة أن المرء حين يريد معرفة قبول الله عمله يقدم قرباناً فإذا نزلت عليه نار من السماء وأتلفته تماماً أى أكلته كان دليلاً على رضا الله عن هذا العمل، وشتان بين أن تأكل النار المنجنيق وهو آلة العمل وبين القربان،

(١)، (٢) البداية والنهاية - مصدر سابق.

إضافة أن الحجاج ومن معه لم يقدموا قرباناً بالإضافة إلى أن ذلك كان فى الأقوام السابقة.

وقد جاء ذكر تقديم القرابين لله عز وجل وأكل النار لها كدليل على قبول الله لهذا القربان الذى هو دليل على قبوله من صاحبه ورضاه عنه فى قصة ابنى آدم قابيل وهابيل فى قوله تعالى فى سورة المائدة:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢٧ ـ ٣٠).

أما ما استشهد به الحجاج من أكل النار لمنجنيقه فهو استدلال فى غير محله وهو دليل على مدى ذكاء هذا الطاغية الذكاء في الشر.

وأمام هذا الحصار والدمار الذى ألحقه الحجاج بمكة والبيت الحرام كان أهل مكة يخرجون إليه طلباً للأمان الذى بعثه معه عبدالملك لأهل مكة ويتركون ابن الزبير أميرهم وخليفتهم وقد ذكر ابن كثير أن نحوا من عشرة آلاف رجل من أهل مكة خرج إلى الحجاج طالباً للأمان.

وممن خرج إلى الحجاج طالباً الأمان وخالعاً لابن الزبير حمزة وخبيب ابنا عبدالله بن الزبير نفسه، فأخذا الأمان لأنفسهما فأمنهما الحجاج فكانت مأساة بمعنى الكلمة، فقد انفض الأعوان والأصدقاء والأبناء والأهل عن عبدالله ولم يبق معه إلا اليسير لا يطيقون صبر ساعة أمام جيش الحجاج وهذا ما دفع ابن الزبير للذهاب إلى أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما يشكو إليها ما حدث ويطلب منها المشورة وقد سجل المؤرخون هذا المشهد بين الأم والابن وكلاهما لا مثيل له فى التاريخ.

وكانت أسماء رضى الله عنها حينها قد قاربت أو بلغت المائة من عمرها وقيل وقد ذهب بصرها.

ومازال التاريخ يذكر كلماتها تلك كما يذكر كلماتها فى مواجهة الحجاج بعد مقتل ابن الزبير.

دخل عبدالله بن الزبير على أمه فقال لها: يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى، فلم يبق معى إلى اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

فقالت: أنت - والله - يا بنى أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس من فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الدنيا، القتل أحسن.

فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيى والذى قمت به داعياً إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتينى بصيرة مع بصيرتى، فانظرى يا أمه بأنى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر لله فإن ابنك لم يتعمد منكراً ولا عمل بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى.

اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى، أنت أعلم بى ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى.

فقالت أمه: أنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى وإن تقدمتك ففى نفسى اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك.

قال: جزاك الله يا أمه خيراً فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد.

فقالت: لا أدعه أبداً.

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبى، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأتنى فى عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين.

فتناول يديها ليقبلها فقال: هذا وداع فلا نبعد.

فقال لها: جئت مودعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى فى الدنيا.

قالت: امض على بصيرتك وادن منى حتى أودعك.

فدنا منها فعانقها وقبلها فوقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد.

فقال: ما لبسته إلا لأشد منك.

قالت: فإنه لا يشد منى.

فنزعها ثم أدرج كميه وشد أسفل قميصه وجبة خز تحت القميص، فأدخل أسفلها فى المنطقة وأمه تقول: البس ثيابك مشمرة، ثم انصرف ابن الزبير وهو يقول:

إنى إذا أعــرف يومى أصــبـــر إن بعـضــهم يعــرف ثم ينكر(١)

فسمعت والدته قوله فقالت: نصبر والله إن شاء الله، أبو أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبدالمطلب(٢).

وظلت أسماء رضى الله عنها تذكره بأبيه الزبير وجده أبى بكر الصديق وجدته صفية بنت عبدالمطلب وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ وترجوه القدوم عليهما إذا هو قتل شهيداً، ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها رضى الله

(١) تاريخ الطبرى والبداية والنهاية لابن كثير، وصفية بنت عبدالمطلب هى جدة عبدالله لأبيه الزبير والجدة بمقام الأم عند العرب.

(٢) البداية والنهاية مصدر سابق.

عنهما.

وكان ابن الزبير يخرج يقاتل من باب المسجد فيحمل على خمسمائة فارس وراجل فيتفرقون عنه يميناً وشمالاً وقد تجاوز عمره الثلاثة والسبعين وكان يردد:

إنى إذا أعــرف يومى أصــبــر ... إن بعضــهم يعــرف ثم ينكر(١)

وكان آخر أيام ابن الزبير وهو اليوم الذى قتل فيه قد قام طيلة الليل يصلى لله عز وجل وكان ذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من شهر جمادى الأول عام ٧٣ هـ وكان ذلك فى المسجد الحرام حيث تحصن به ومعه من تبقى من أعوانه، ثم أذن المؤذن لصلاة الفجر عند المقام فتوضأ ابن الزبير ثم صلى ركعتى سنة الفجر ثم صلى الفجر بأصحابه بسورة «ن» ثم سلم من صلاته وخطب فى أصحابه قائلاً:

- اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم(١).

فكشفوا وجوههم وعليهم المغافر - وهو ما يلبس تحت القنسوة، فحرضهم وحثهم على القتال والصبر ثم نهض وقاتل جيش الحجاج حتى اضطرهم إلى الانسحاب إلى الحجون، وألقى عليه آجرة فأصابته فى رأسه فارتعش لها وسال الدم على وجه فأنشد:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم سقط على الأرض فأسرع إليه جنود الحجاج فقتلوه وجاؤوا بجثمانه إلى قائدهم الحجاج الذى فرح لمقتله وسجد لله قبحه الله(٢).

ويروى ابن جرير الطبرى فى تاريخه وابن كثير فى البداية موقف الحجاج وأحد قواد عبدالملك حين جاؤوا بجسد ابن الزبير إليهما:

وسار الحجاج وطارق بن عمرو حتى وقعا عليه فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا.

(١) قيل إن أصحاب ابن الزبير كانوا يلقون بالحجارة على جنود الحجاج فسقطت واحدة على رأس ابن الزبير فأصابته إصابة بليغة.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

فقال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟

قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، أنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو فى غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا، بل يفضل علينا.

فبلغ كلامهما عبدالملك فصوب رأي طارق ولما صلب ابن الزبير ظهرت منه رائحة المسك.

وقال الذهبى فى سير أعلام النبلاء إن ابن الزبير قال يوم مقتله:

ما أرانى اليوم إلا مقتولاً لقد رأيت فى ليلتى كأن السماء فرجت لى، فدخلتها، فقد ـ والله ـ مللت الحياة وما فيها.

وذكروا أيضاً أنه لما قتل عبدالله خرجت إليه أمه حتى وقفت عليه، وهى على دابة، فأقبل الحجاج فى أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها فقال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟

قالت: ربما أديل الباطل على الحق.

فقال: إن ابنك ألحد فى هذا البيت، وقد قال الله تعالى: **﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** (الحج: ٢٥).

وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم.

قالت: كذبت، كان أول مولود فى الإسلام بالمدينة، وسر به رسول الله ﷺ وحنكه بيده وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذ خير منك ومن أصحابك وكان مع ذلك براً بالوالدين صواماً قواماً بكتاب الله معظماً لحرم الله، يبغض أن يعصى الله عز وجل ودافعت عن ابنها دفاعاً مجيداً، فانكسر الحجاج وانصرف، فبلغ ذلك عبدالملك، فكتب إليه يلومه فى مخاطبته أسماء وقال: مالك ولابنة الرجل الصالح[١]. يقصد أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

ومر عبدالله بن عمر على ابن الزبير بعد صلبه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ـ ما علمت ـ صواماً قواماً وصولاً للرحم، أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير، ثم نفذ عبدالله بن عمر فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه وقوله، فأرسل إليه فأنزله عن جذعه[1].

وبعد مقتل واستشهاد ابن الزبير لم يبق أحد إلا وبايع عن الملك حتى ابن عمر رضي الله عنه الذى كتب إلى عبد الملك:

أما بعد فإنى قد بايعت لعبدالملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت وإن بنى قد أقروا بذلك.

وجاء فى رواية أن ابن عمر كتب إلى عبدالملك بن مروان فبدأ باسمه فكتب إليه أما بعد **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ (النساء: ٨٧).**

وقد بلغنى أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك، وقد دخلت فيما دخل فيه المسلمون والسلام.

وحاول بعض بطانة الخليفة أن يوغروا صدره على ابن عمر لأنه بدأ باسمه قبل اسم الخليفة فقال عبدالملك: إن هذا من أبى عبدالرحمن كثير الطبقات.

وكان مما كتب به عبدالملك إلى الحجاج بن يوسف ألا يخالف عبدالله بن عمر فى الحج[2].

وروى ابن عساكر فى ترجمة الحجاج أنه لم قتل ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء على عبدالله بن الزبير، فقام الحجاج خطيباً فى أهل مكة فقال:

يا أيها الناس إن عبدالله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازعها أهلها وألحد فى الحرم فأذاقه من عذابه الأليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير وكان فى الجنة وهى أشرف من مكة فلما خالف أمر

---

(١) الطبقات لابن سعد.

(٢) انظر الطبقات لابن سعد ـ والبداية والنهاية.

الله وأكل من الشجرة التى نهى عنها الله أخرجه من الجنة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

وقيل إنه قال: يا أهل مكة إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب فى الدنيا ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله وألحد فى حرم الله، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، وأن ابن الزبير غير كتاب الله.

فقال عبدالله بن عمر له: لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت، والله إن ابن الزبير لم يغير كتاب الله، بل كان قواماً به صواماً عاملاً بالحق[1].

وأرسل الحجاج برأس ابن الزبير إلى عبدالملك بن مروان فى الشام وأرسل أيضاً رأس كل من صفوان وعمارة بن حزم وأمر جنوده إذا مروا بالمدينة المنورة أن ينصبوا الرءوس بها ثم يكملوا السير إلى الشام ففعلوا ما أمرهم به، وقد أرسك الرءوس مع رجل من الأزد فأعطاه عبدالملك مكافأة خمسمائة دينار وفرح عبدالملك بمقتل ابن الزبير وعبر عن فرحته بقص نواحى رءوس أولاده.

ثم أمر عبدالملك الحجاج بصلب جثمان ابن الزبير عند الحجون بمكة وهذا من أخبث الأعمال التى سجلها تاريخ الإسلام ووصمة عار تضاف إلى سجل عبدالملك وتابعه الحجاج بل وسجل أمثاله من الخلفاء والطغاة.

وبالفعل فعل الحجاج ما أمره به سيده عبدالملك كعادة الحجاج فى طاعته أولى الأمر وإن خالف أمرهم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فطاعة أولى الأمر عنده مقدمة على كل شىء.

وكان للحجاج قبحه الله مع أسماء بنت أبى بكر مواقف ذكرها التاريخ أهمها بعد مقتل ابن الزبير نذكر منها ما رواه أحمد فى المسند:

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

لما مات ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء، فأمر الناس فجمعوا فى المسجد، ثم صعد المنبر، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: يا أهل مكة بلغنى إكباركم قتل ابن الزبير، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها أهلها. فنزع طاعة الله واستكن بحرم الله ولو كان شىء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله، إن الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وأباح له كرامته، وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة، اذكروا الله يذكركم.

عن أبى الصديق الناجى أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبى بكر بعدما قتل ابنها عبدالله فقال: إن ابنك ألحد فى هذا البيت، وإن الله أذاقه من عذاب أليم، وفعل به وفعل.

فقالت: كذبت، كان براً بوالديه، صواماً قواماً، والله لقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه يخرج من ثقيف كذابان، الآخر منهما شر من الأول، وهو المبير.

روى أبو يعلى بمسنده عن قيس بن الأحنف عن أسماء بنت أبى بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ نهى عن المثلة وسمعته يقول «يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير» قالت: فقلت للحجاج: أما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فأنت هو يا حجاج.

وروى أبو يعلى أيضاً عن العوام بن حوشب قال: حدثنى من سمع أسماء بنت أبى بكر الصديق تقول للحجاج حين دخل عليها يعزيها فى ابنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذاب» فأما الكذاب فابن أبى عبيد - تعنى المختار - وأما المبير فأنت.

وتقدم فى صحيح مسلم من وجه آخر.

وقال الشافعى: أنبأ مسلم بن خالد، عن ابن جريج عن نافع أن ابن عمر اعتزل ليالى قتال ابن الزبير والحجاج بمنى، فكان يصلى مع الحجاج.

وقال الثورى: عن محمد بن المنكدر، عن جابر أنه دخل على الحجاج فلم يسلم عليه ولم يكن يصلى وراءه.

وقال إسحاق بن راهويه أنبأ جرير عن القعقاع بن الصلت قال: خطب الحجاج، فقال: إن ابن الزبير غير كتاب الله.

فقال ابن عمر: ما سلطه الله على ذلك، ولا أنت معه ولو شئت أن أقول: كذبت، لفعلت.

وروى عن شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطال الخطبة فجعل ابن عمر يقول: الصلاة الصلاة، مراراً ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس، فصلى الحجاج بالناس.

فلما انصرف قال لابن عمر: ما حملك على ذلك؟

فقال: إنما نجىء للصلاة فصلِّ الصلاة لوقتها، ثم بقبق ما شئت بعد من بقبقة[1].

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى نوفل قال: «رأيت عبدالله بن الزبير على ثنية الحجون مصلوبا» فجعلت قريش تمر عليه والناس حتى مر عليه عبدالله بن عمر فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب، والسلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، وأما والله إن كنت ما علمت صواماً قواماً وصولاً للرحم، أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير.

فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه وقوله ما قال، فأرسل إليه فأنزله عن جذعه وألقى فى قبور اليهود[2].

ثم أرسل الحجاج إلى أسماء رضى الله عنها. فأبت أن تأتيه فأعاد عليها الرسول لتأتينى أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك.

فأبت وقالت: والله لا آتيه حتى يبعث إلىَّ من يسحبنى بقرونى.

فأخذ نعليه ثم انطلق يسرع الخطى إليها، فلما دخل عليها قال لها: كيف

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

(٢) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

رأيتنى صنعت بعدو الله؟

قالت: رأيتك فسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، بلغنى أنك تقول: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبى بكر، وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه، أما أن رسول الله ﷺ حدثنا أن فى ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير ـ أى كثير القتل ـ فلا أخالك إلا إياه.

فقام الحجاج عنها ولم يراجعها(١).

وذكر الواقدى أن أسماء أرسلت إلى عبدالملك كى تدفن ابنها فى مقابر الحجون فوافق عبدالملك على طلبها، وذكروا أنه كان يشتم من عند قبره ريح المسك.

وماتت أسماء رضى الله عنها بعد مقتل ابنها عبدالله بأيام قيل عشرة وقيل خمسة وقيل بعد مائة يوم وهو المشهور، وقد بلغت المائة عام ولم تسقط لها سن. وقيل إن بصرها قد ذهب فى أواخر أيامها وقيل لا لم يذهب بصرها(٢).

وروى الطبرانى عن إسحاق بن أبى إسحاق قال: أنا حاضر مقتل عبدالله بن الزبير فى المسجد الحرام، يوم قتل جعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد، وكلما دخل قوم من باب حمل عليهم حتى يخرجهم، فبينما هو على تلك الحال إلا جاءت شرفة من شرفات المسجد فوقعت على رأسه فصرعته وهو يتمثل بهذه الأبيات:

أسماء أسماء لا تبكين

لم يبق إلى حسبى ودينى

وصارم لانت به يمينى

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه.

(٢) البداية والنهاية ـ مصدر سابق، وقد ذكر ابن كثير أنه قيل إن عبدالله بن الزبير قد غسلته أمه أسماء وكفنته وصلت عليه وحملته إلى المدينة المنورة ودفنته السيدة صفية بنت حُيىًّ بن أخطب إحدى زوجات النبى ﷺ ثم أن هذا الدار قد زيدت ودخلت فى المسجد النبوى كغيرها من حجرات زوجات النبى ﷺ، فهو مدفون مع النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وقد ذكر ذلك غير واحد والله أعلم.

وهذا هو الأصح وأنه لم يقدر عليه أحد من جيش الحجاج رغم أنه كان شيخاً مسناً إلا أنه كانت به قوة عظيمة كما ذكر أهل السير والتاريخ، وقالوا إن سبب تلك القوة أن النبى ﷺ أعطاه دم محاجمه كى يهرقه فتحساه - أى شربه - ودم محاجمه هو الدم الذى يخرج من جسد الإنسان بعد عمل الحجامة له.

فلما رجع إلى النبى ﷺ قال: ما صنعت يا عبدالله بالدم؟

قال له: جعلته فى مكان ظننت أنه خاف على الناس.

قال: فلعلك شربته؟

قال: نعم.

قال: ومن أمرك أن تشرب الدم؟ ويل لك من الناس وويل للناس منك.

وفى رواية أن ابن الزبير قال: أحببت أن يكون دم رسول الله فى جوفى.

فقال له ﷺ: ويل لك من الناس، وويل للناس منك، لا تمسك النار إلا تحلة القسم[1].

وممن قتل مع ابن الزبير من الصحابة: عبدالله بن صفوان بن أمية وعبدالله ابن مطيع بن الأسود بن حارثة القرشى العدوى وعوف بن مالك رضى الله عنهم.

قال الأصمعى: سمعت عمى يقول: بلغنى أن الحجاج لما فرع من ابن الزبير وقدم إلى المدينة لقى شيخاً خارجاً من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة فقال: بشر حال قتل ابن حوارى رسول الله ﷺ.

فقال الحجاج: ومن قتله؟

قال: الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته من قليل المراقبة لله.

فغضب الحجاج غضباً شديداً ثم قال: أيها الشيخ أتعرف الحجاج إذا رأيته؟

قال: نعم، فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضرا.

---

(١) رواه الطبرانى وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية.

فكشف الحجاج عن لثامه، وقال: ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة.

فلما تحقق الشيخ الجد قال: والله إن هذا لهو العجب يا حجاج، لو كنت تعرفنى ما قلت هذه المقالة، أنا العباس بن أبى داود يصرع كل يوم خمس مرات.

فقال الحجاج: انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه(١).

أما موقف أهل العلم من خلافة عبدالله بن الزبير للمسلمين بعد يزيد بن معاوية لحصوله على بيعة معظم البلاد الإسلامية كما ذكرنا وأن مروان بن الحكم وابنه عبدالملك كانا خارجين على خلافته وأن قتال عبدالملك والحجاج له تعد عليه وعلى الشرعية وأنه قُتل مظلوماً رضي الله عنه.

■ ■ ■

(١) المصدر السابق.

موقف ابن عمر رضى الله عنه من الفتن ومن الحجاج

بعد مقتل ابن الزبير عين عبدالملك قائده الحجاج الثقفى والياً على مكة وكان عبدالله بن عمر يأتى مكة حاجّاً أو معتمراً من المدين فيرى من أفعال الحجاج ما لا يعجبه فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر بكل شجاعة.

فكانت له مواقف عديدة مع الحجاج حتى إن بعض المؤرخين يرون أن ابن عمر مات مقتولاً بتدبير من الحجاج.

فقد أنكر ابن عمر على الحجاج تهاونه فى إشاعة حمل السلاح فى مكة وتركه لرجال جيشه يضايقون به المسلمين ويعرضون حياتهم بذلك للخطر، ففى الصحيح عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح أخمص قدمه، فلزقت قدمه بالركاب، فنزت وذلك بمنى، فبلغ الحجاج فجعل يعوده.

فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك!

فقال ابن عمر: أنت أصبتنى.

قال: وكيف.

قال: حملت السلاح فى يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم.

وفى رواية عن إسحاق بن سعيد عن أبيه.

قال: دخل الحجاج على ابن عمر وأنا عنده.

فقال: كيف هو؟

فقال: صالح. فقال: ما أصابك؟

قال: أصابنى من أمر بحمل السلاح فى يوم لا يحل فيه حمله.

- يعنى الحجاج.

ولما خرج الحجاج قال ابن عمر: ما آسى على شىء من هذه الدنيا إلا على ثلاث، وذكر منها: ألا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية التى حلت بنا(١).

ويروى الإمام الذهبى أن الفئة الباغية هى عبدالملك وجيشه وقد مات ابن عمر من هذه الإصابة.

ولم يكن ابن عمر بمنأى عن الأحداث السياسية من حوله، بل كانت له نظراته وتحليلاته لتلك الأحداث، وتميز ابن عمر بمواقفه فى الفتن تميزاً واضحاً، فقد عايش عدداً من الفتن التى ابتليت بها الأمة الإسلامية آنذاك.

قال سفيان الثورى: يقتدى بعمر فى الجماعة وبابنه فى الفرقة.

ومن أبرز ما يميز منهج ابن عمر فى التعامل مع الفتن:

تجنب القتال والحرص على حقن دماء المسلمين، وقد وردت عدة روايات توضح موقف ابن عمر رضى الله عنهما من ذلك القتال الدائر فى الفتنة الأولى والثانية، فعن القاسم بن عبدالرحمن قال: قالوا لابن عمر فى الفتنة الأولى: ألا تخرج فتقاتل؟

فقال: قد قاتلت والأنصاب ـ الأوثان ـ بين الركن والباب حتى نفاها الله عز وجل من أرض العرب فأنا أكره وأنا أقاتل من يقول: لا إله إلا الله.

قالوا: والله ما رأيك ذلك ولكنك أردت أن يفنى أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم بعضا، حتى إذا لم يبق غيرك قيل: بايعوا لعبدالله بن عمر بإمارة المؤمنين.

(١) انظر سير علام النبلاء.

قال: والله ما ذلك فى، ولكن إذا قلتم: حى على الفلاح أجبتكم، وإذا افترقتم لم أجامعكم، وإذا اجتمعتم لم أفارقكم(١).

وجاءه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر وصاحب رسول الله، فما يمنعك أن تخرج؟

فقال: يمنعنى أن الله حرم علىَّ دم أخى المسلم، قال: ألم يقل الله ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ (البقرة: ١٩٣).

فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله.

فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يرد قال: فما قولك فى على وعثمان؟

قال ابن عمر: ما قولى فى على وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن تعفوا عنه، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه.

وأشار بيده، وهذا بيته حيث ترون.

ولم يكتف ابن عمر بالحرص على كف نفسه وتجنيبها إراقة دماء المسلمين، بل سلك بعض السبل التى تؤدى إلى تجنب المسلمين إراقة الدماء فيما بينهم، ومن ذلك محاولته الجادة خلال الخلاف بين ابن الزبير وعبدالملك بن مروان، لإنهاء القتال بينهما حقناً لدماء المسلمين.

فقد روى المدائنى أن عبدالله بن عمر كتب إلى عبدالملك بن مروان يأمره بتقوى الله وأن يكف نفسه، فكتب إليه عبدالملك أنه سيخرج نفسه ويجعل الأمر شورى، فلما كتب ابن عمر إلى ابن الزبير بذلك لم يلتفت إليه(٢).

هكذا كان منهج ابن عمر رضي الله عنه فى الفتن منذ بدايتها فى عصر عثمان رضي الله عنه فقد قال ابن عمر رضى الله عنهما: جاءنى رجل فى خلافة عثمان، فإذا هو

---

(١) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ لأبى نعيم الأصفهانى.

(٢) أنظر أنساب الأشراف ـ أحمد بن يحيى البلاذرى.

يأمرنى أن أعتب على عثمان، فلما قضى كلامه قلت له: إنا كنا نقول ورسول الله ﷺ حى: أفضل أمة محمد بعده: أبو بكر وعمر ثم عثمان وإنا ما نعلم عثمان قتل نفساً بغير حق، وجاء من الكبائر شيئاً ولكنه هذا المال، إن أعطاكموه رضيتم وإن أعطاه قرابته سخطتم إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون أميراً إلا قتلوه، ففاضت عيناه بأربع من الدمع ثم قال: اللهم لا ترد ذلك.(١)

وتصدى ابن عمر للقول الذى نادى به الخوارج على خلافة عثمان رضي الله عنه بخلعه حتى لا تكون سنة، لما كان يعلم من خطورة مثل هذا المنحى وما يؤدى إليه من النيل من الخليفة من فساد وفرقة لذا فإن عثمان منحه ثقته فكان يستشيره إبان محنته مع الغوغاء فحين دخل عليه ابن عمر قال له عثمان: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك.

قال له ابن عمر: أمخلد أنت فى الدنيا؟

قال: لا.

قال: هل يزيدون على أن يقتلوك؟

قال: لا.

قال: هل يملكون لك جنة أو نارا؟

قال: لا.

قال: فلا تخلع قميص الله عليك فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه(٢).

وهناك دلائل وحقائق تاريخية تثبت أن ابن عمر، عندما رأى ما يقوم به الحجاج من مظالم عظيمة فى الحرم المكى، وسفك الدماء به، والتعدى على حرمته غير رأيه فى اعتزال الفتنة، بل وندم على أنه لم يقاتل فى جيش على بن أبى

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير.

(٢) العواصم من القواصم أبو بكر بن العربى.

طالب ضد معاوية الذى كان فى نظره خارجاً عن شرعية على وباغياً عليه، فقد روى حبيب بن ثابت أن ابن عمر عندما حضرته الوفاة قال: ما أجد فى نفسى شيئاً إلا أنى لم أقاتل الفئة الباغية مع على[1].

فقد امتنع ابن عمر عن البيعة لعبدالله بن الزبير لوجود نزاع على الخلافة بين ابن الزبير ومروان ثم ابنه عبدالملك ورأى أن الكلمة لم تجتمع على رجل واحد، فلما قتل ابن الزبير واجتمعت الكلمة على عبدالملك بايعه.

وقد توفى ابن عمر رضي الله عنه عام ٧٤ هـ وعمره ست وثمانون سنة.

■■■

(١) انظر سير أعلام النبلاء ـ للذهبى.



الحجاج والياً

- الحجاج والياً على مكة والمدينة المنورة والطائف واليمن ثم العراق.
- أول ثورة للناس على الحجاج تخرج من البصرة.
- مواقف وأيام للحجاج فى ولايته وحكمه تدل على شخصيته.

الحجاج والياً على مكة والمدينة المنورة

كان من الطبيعى أن يتولى الحجاج ولاية مكة المكرمة بعد نجاحه فى القضاء على عبدالله بن الزبير أمير المؤمنين الشرعى كما ذكرنا، وأخذ الحجاج البيعة من أهل مكة لعبدالملك بن مروان بعد مقتل ابن الزبير.

وفى السنة التالية لمقتل أمير المؤمنين ابن الزبير عام ٧٤ هـ عزل عبدالملك بن مروان الذى أصبح أميراً للمؤمنين بقوة السلاح وبطش وطغيان الحجاج والى المدينة طارق بن عمر وكان أحد عماله وقواده وشارك الحجاج فى قتال ابن الزبير ولكنه امتدح ابن الزبير حين جاؤوا برأسه للحجاج وقال:

ما ولدت النساء أذكر من هذا.

فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين.

قال: نعم، هو أعذر لنا ولولا هذا ما كان لنا عذر، إنا محاصروه وهو فى غير خندق ولا حصن ولا منعة سبعة عشر شهرا ينتصف منا، بل يفضل علينا فى كل ما التقينا نحن وهو.

فبلغ كلامه عبدالملك، فصوب طارقاً(١).

وقد ولى طارق بن عمرو المدينة المنورة عام ٧٣ هـ خمسة أشهر بأمر عبدالملك الذى عزله أيضاً وضم المدينة لولاية الحجاج.

فكانت ولاية الحجاج بمكة والمدينة أسوأ سنوات شهدها أهلها، فلما يراعى الحجاج حرمة ولا كرامة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا على قيد الحياة مثل عبدالله بن جابر وأنس بن مالك وسهل بن سعد رضى الله عنهم.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ونقله عنه ابن كثير فى البداية والنهاية.

ومن استخفاف الحجاج بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة أنه ختم فى أعناقهم وأيديهم وقد ذكر ذلك ابن جرير فى تاريخه وابن كثير فى البداية والنهاية وكان السبب الذى ذكره ابن كثير أن الحجاج شتم جابراً وسهل بن سعد وقرعهما لأنهما لم ينصرا عثمان بن عفان رضى الله عنه وخاطبهما خطاباً غليظاً وأنه ختم على عنقيهما إذلالاً لهما أذله الله وأذاقه عذابه.

ذكر محمد بن عمران حدثه عمن رأى جابر بن عبدالله مختوماً فى يده(١). وأيضاً رأى أنس بن مالك مختوماً فى عنقه يريد أن يذله بذلك وكانت تلك سياسة الحجاج مع من يرى ويظن أنه لا يحب الأمويين فما بالك بمن قاتلهم؟!

وحين ولى الحجاج المدينة قدمها وأقام بها عدة أشهر ثم خرج معتمراً ثم عاد إليها فى شهر صفر فأقام بها ثلاثة أشهر وبنى فى بنى سلمة مسجداً وذلك عام ٧٤ هـ.

وحج الحجاج بالناس فى عام ٧٤هـ.

وكان عبدالملك قد قسم الأمصار بين قواده فولى الحجاج مكة والمدينة والطائف ـ الحجاز ـ وعلى الكوفة والبصرة ـ عراق العرب ـ بشر بن مروان ـ أخو عبدالملك على خراسان ـ وعلى عراق الفرس أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد(٢).

■ ■ ■

(١) تاريخ الطبرى.

(٢) المصدر السابق، وقد توفى بشر بن مروان عام ٧٤هـ فولى عبدالملك العراق للحجاج عام ٧٥هـ.

الحجاج والياً وحاكماً على العراق

فى عام ٧٥هـ ولى عبدالملك عمه يحيى بن الحكم بن العاص المدينة المنورة والحجاج العراق دون خراسان وسجستان وذلك بعد وفاة بشر بن مروان أخى عبدالملك بن مروان وحاكم العراق.

وحين كتب عبدالملك للحجاج بولاية العراق سار الحجاج إليها ومعه اثنا عشر راكباً حاشية له، ودخل الكوفة عاصمة العراق حينها فى حين غفلة من أهلها وقد لبس ثيابه وتقلد بسيفه وألقى عذبة العمامة بين كتفيه ثم سار إلى دار الإمارة وكان اليوم يوم الجمعة وقد أذن المؤذن لصلاة الجمعة.

وكان من الطبيعى أن يتوجه الحجاج إلى المسجد الجامع فى الكوفة بوصفه الأمير على البلاد فدخل المسجد وهم لا يعلمون، فصعد المنبر وجلس عليه ولم يتكلم ولزم الصمت طويلاً وكان من عادة أهل العراق أن يقذفوا أمراءهم بالحصى وهكذا فعلوا مع الأمير السابق عليهم وكان أخو الخليفة.

فلما سكت الحجاج أثار فضولهم وقد جلس كل منهم على ركبتيه وأمسكوا الحصى فى أيديهم استعداداً لقذفه بها، فكان لسكوته الأثر الفعال فى نفوسهم ثم تكلم فقال كلماته التى سجلها له التاريخ لأهل العراق.

ـ يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، والله إن كان أمركم ليهمنى قبل أن آتى إليكم.

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

(٢) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بى، ولقد سقط منى البارحة سوطى الذى أؤدبكم به، فاتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - ثم قال:

والله لآخذن صغيركم بكبيركم، وحركم بعبدكم، ثم لأرصعنكم رصع الحداد الحديدة، والخباز العجينة(١).

فلما سمعوا كلامه تساقط الحصى من أيديهم وكأن على رؤوسهم الطير.

وذكر الطبرى فى تاريخه أن الحجاج خرج من المدينة حين أتاه كتاب عبدالملك بن مروان بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مروان وأنه دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة فبدأ المسجد فدخله وصعد المنبر وهو متلثم بعمامة حمراء فقال: علىَّ بالناس، فحسبوه من الخوارج وهم أصحابه فهموا به، حتى إذا اجتمع الناس إليه كشف عن وجهه وقال:

أنا ابن جـلا وطلاَّع الثَّنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

هذا أوان الشَّد فاشتدى زيم

قد لفها الليل بسوَّاقٍ حطم

ليس براعى إبل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر وضمْ

قد لفَّهَا الليل بعصبلَىَّ

أَرْوَعَ خرَّاج من الدوِّىّ(٢)

مهاجر ليس بأعرَبِىَّ

---

(١) البداية والنهاية مصدر سابق.

(٢) معنى أنا ابن جلا أى ابن جلا الصبح لأنه يجلو الظلمة والثنايا: ما صغر من الجبال ونتأ، وأينع الثمر: أى طاب أكله، وقوله فاشتدى زيم: هى اسم للحرب والحطم: الذى يحطم كل شىء يمر عليه والوضم: ما وقى به اللحم من الأرض والعصلبى: الشديد، والدوية: الأرض الفضاء التى يسمع فيها صوت الإبل.

ليس أوان يكره الخـــــلاط

جـــاءت به والقلص الأعـــلاط(١)

تهـــوى هوى ســـابق الغطاط

أما والله إنى لأحمل الشر محمله، واحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى.

وإنى والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين، ولا تقعقع لى بالشّنان ولقد فُرزت عن ذكاء، وجَرَيت إلى الغاية القصوى.

إن أمير المؤمنين عبدالملك نشر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمَرَّها عوداً وأصلبها مكسراً، فوجهنى إليكم فإنكم طالما أوضعتم فى الفتن وسننتم سنن الغىّ(٢).

أما والله لألُوحونكم لَحْو العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.

إنى والله لا أعد إلا وفيت، ولا أخلُق إلا فريت(٣).

فإياى وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً، وما يقول وفيم أنت وذاك؟

والله لتسقيمن على سبل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً فى جسده.

من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب(٤) سفكت دمه وانهبت ماله(٥).

---

(١) الأعلاط: الإبل التى لا أرسان عليها.

(٢)، (٣) أمرها عوداً أى أصلبها وقوله لأعصبنكم عصب السلمة أى أقطعكم كما تقطع الشجرة العضاة القوية.

وقوله لا أخلق إلا فريت، فالخلق هو التقدير، كقوله: **﴿من مُضْغَة مُخَلَّقَة وَغَيْرِ مُخَلَّقَة﴾ (الحج: ٥).** أى مقدرة وغير مقدرة يعنى ما يتم خلقه ومالم يتم ويكون سقطاً.

ويقال فريت الأديم إذا أصلحته، وأفريت بالألف إذا أنت أفسدته.

(٤) كان المهلب بن أبى صفرة قد أرسله بشر بن مروان لقتال الخوارج الحرورية.

(٥) أى من وجده من الرجال بعد ثلاثة أيام ولم يخرج للقتال مع المهلب قتله وأخذ ماله وهذا مذهب الحجاج لجمع الناس للقتال مع جيش الخليفة مجبرين ضد أعداء خلفاء بنى أمية.

ثم دخل منزله ولم يزد على ذلك.

وذكر أيضاً ابن جرير الطبرى أنه لما طال سكوته تناول محمد بن عمير حصى فأراد أن يحصبه بها وقال: قاتله الله، ما أعياه وأدماه، والله إنى لأحسب خبره كروائه.

فلما تكلم الحجاج جعل الحصى ينتثر - يقع - من يده ولا يعقل به، أى لا يدرى به وهو يقع من يده من الخوف الذى أصابه.

وأن الحجاج قال فى خطبته أيضاً:

شاهت الوجوه، **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** **(النحل: ١١٢)**.

وأنتم أولئك وأشباه أولئك، فاستوثقوا الإنصاف ولتدعن الإرجاف وكان وكان وأخبرنى فلان عن فلان والصبر وما الصبر.

أو لأهبرنكم بالسيف هبراً يدع النساء أيامى، والولدان يتامى، وحتى تمشوا السُّمُّهى وتقلعوا عن هواها(١).

إياى وهذه الزرافات(٢)، لا يركبن الرجل منكم إلا وحده.

ألا إنه لو سائغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبى فىء وما قوتل عدو، ولعُطلت الثغور، ولولا أنهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً، وقَد بَلغنى رفضكم المهلب(٣)، وإقبالكم على مصركم عصاة مخالفين، وإنى أقسم لكم بالله لأجد أحداً بعد ثالثة إلا ضربت عنقه.

ثم دعا عرفاء الجند فقال: ألحقوا الناس بالمهلب وأتونى بموافاتهم، ولا يغلقن

(١) السُّمُّهى: الباطل.

(٢) الزرافات أى الجماعات.

(٣) المهلب: يقصد المهلب بن أبى صفرة قائد الجيش الذى خرج لقتال الخوارج وامتنع الكثير من أهل العراق القتال معه.

أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى تنقضى هذه المدة.

وهكذا عالج الحجاج أول تمرد لأهل العراق حيث امتنعوا عن الخروج مع جيش المهلب بن أبى صفرة لقتال الخوارج وأمهلهم ثلاثة للخروج إليه.

وقد أتى التهديد الحجاجى ثماره حين تدافع الناس للحاق بجيش المهلب خوفاً من بطش الحجاج.

قال ابن جرير: فلما كان اليوم الثالث سمع تكبيراً فى السوق، فخرج حتى جلس على المنبر فقال:

ـ يا أهل العراق، وأهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، إنى سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد الله به فى الترغيب، ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف(١).

يا بنى اللكيعة وعبيد العصا، وأبناء الأيامى ألا يربع رجل منكم على ظلعه، ويحسن حقن دمه، ويبصر موضع قدمه(٢)!!

فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها، وأدباً لما بعدها.

فقام إليه عمير بن جناب التميمى فقال: أصلح الله الأمير، أنا فى هذاالبعث، وأنا شيخ كبير عليل ـ مريض ـ وهذا ابنى وهذا أشب ـ أى شباب ـ منى.

قال الحجاج له: ومن أنت؟

قال: عمير بن ضابئ التميمى.

قال الحجاج: أسمعت كلامنا بالأمس؟

قال: نعم.

قال: ألست الذى غزا أمير المؤمنين!

---

(١) تحتها قصف: أى شدة الريح.

(٢) واللكعاء: هى الحمقاء من النساء، والظلع: أى الضعيف والوهن من شدة السير.

قال: بلى.

قال: وما حملك على ذلك؟

قال: كان حبس أبى، وكان شيخاً كبيراً.

قال الحجاج: أوليس يقول:

همـمت ولم أفـعل وكـدت وليـتنى تركت على عثـمـان تبكى حـلائله

إنى لأحتسب فى قتلك صلاح المصرين، قم يا حربى فاضرب عنقه.

فقام إليه رجل فضرب عنقه وأنهب ماله.

ويقال: أن عنبسة بن سعيد قال للحجاج:

أتعرف هذا؟

قال: لا.

قال: هذا أحد قتلة أمير المؤمنين عثمان.

فقال الحجاج: يا عدو الله، أفلا إلى أمير المؤمنين بعثت بديلاً.

ثم أمر بضرب عنقه وأمر منادياً فنادى فى الناس: ألا أن عمير بن ضابئ أتى بعد الثالثة وقد كان سمع النداء، فأمرنا بقتله، ألا فإن ذمة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب.

فخرج الناس فازحموا على الجسر وانضموا إلى جيش المهلب بن أبى صفرة وهو برامهرمز فقال المهلب: قدم العراق رجل ذكر، اليوم قوتل العدو.

وانضم إلى المهلب وقتها أربعة آلاف مقاتل من العراق.

ذكر أيضاً ابن الطبرى قصة أخرى لقتل الحجاج عمير بن ضابئ، عن عمرو ابن سعيد قال: لما قدم الحجاج الكوفة خطبهم فقال: إنكم قد أخللتم بعسكر المهلب، فلا يصبحن بعد ثلاثة من جنده أحد، فلما كان بعد ثالثة أتى رجل يستدمى - أى جرح وأصيب - فقال: ما بك؟

قال: عمير بن ضابئ البرجمى، أمرته بالخروج إلى معسكره فضربنى وكذب عليه.

فأرسل الحجاج إلى عمير بن ضابئ فأتى به شيخاً كبيراً فقال له من خلفك عن معسكرك؟

قال: أنا شيخ كبير لا حراك بى، فأرسلت ابنى بديلاً هو أجلد منى جلداً وأحدث منى سناً، فسل عما أقول لك، فإن كنت صادقاً وإلا فعاقبنى.

قال: فقال عنسبة بن سعيد: هذا الذى أتى عثمان ـ يقصد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ قتيلاً، فلطم وجهه ووثب عليه فكسر ضلعين من أضلاعه.

فأمر به الحجاج فضربت عنقه.

وكان قدوم الحجاج للكوفة فى عام ٧٥ هـ واستمر حكم الحجاج للعراق نحو عشرين عاماً فكتب له التاريخ أنه الوحيد الذى استطاع ضبط هذه البلاد فى العصر الأموى والعباسى ويقابله فى العصر الحديث الرئيس الراحل صدام حسين لأن أرض العراق تشمل مذاهب وطوائف مختلفة ومتناحرة فيما بينها حتى أطلق عليها أنها أرض الفتن والاضطرابات والاغتيالات السياسية.

واستقر الحجاج فى عمله فى العراق بعد أن عزله الخليفة عبدالملك من حكم المدينة ومكة والطائف واليمن والتى لم يستمر فيها طويلاً وقد اشتكى أهلها له من سطوة الحجاج وبطشه إضافة إلى احتياج إقليم كالعراق الذى يشمل بلادا كثيرة تمتد إلى عراق العجم أرض فارس وبلاد تعج بالفتن بالاضطرابات السياسة والصراعات والخروج على سلطة الخليفة.

ولم يكن حكم الحجاج وسيطرته على بلاد العراق سهلاً فقد واجهته ثورات شعبية عديدة من فئات الشعب من الخوارج وغيرهم وكان يدفعها ببطشه وقوة السلطان والقتل وقطع الرءوس وتعليقها إلا أن هذا لم يوقف تلك الثورات حتى نهاية الحجاج فى آخر الأمر بعد قتله للعالِم التابعى سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

(١) اقرأ كتابنا «العراق أرض الفتن والنبوءات» الناشر دار الكتاب العربى.

أول ثورة للناس على الحجاج فــى البصـــــرة

بعد أن استقر الأمر للحجاج فى الكوفة وقتله لابن ضابئ وتخويفه للناس هناك توجه إلى مدينة البصرة فقام فيها بخطبة مثل تلك الخطبة التى قالها فى مسجد الكوفة وتوعد أهلها وأتى برجل من بنى شكر فقيل: هذا عاص فقال: إن بى فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرنى، وهذا عطائى مردود فى بيت المال.

فلم يقبل منه الحجاج عذره وقتله.

وآثار مقتل هذا الرجل فزع أهل البصرة، وخرجوا على الحجاج معترضين بقنطرة برامهرمز.

وخرج الحجاج حتى نزل رستقباذ فى أول شعبان ٧٥ هـ وقد ثار الناس عليه بقيادة عبدالله بن الجارود، ولكن تلك الثورة قمعها الحجاج بسهولة وقتل ابن الجارود وأصحابه وكانوا ثمانية عشر رجلاً ونصب رءوسهم فى برامهرمز لإرهاب الناس.

وكان سبب خروج ابن الجارود هو القسوة التى استعملها الحجاج لإجبار الناس على الخروج للقتال مع المهلب بن أبى صفرة، بالإضافة إلى أن الحجاج حين نزل رستقباذ قال للناس: إن الزيادة التى زادكم ابن الزبير فى عطياتكم زيادة فاسق منافق ولست أجيزها فقام إليه عبدالله بن الجارود العبدى فقال:

إنها ليست زيادة فاسق منافق ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبدالملك قد أثبتها لنا.

فكذبه الحجاج وتوعده، وانضم إلى ابن الجارود جماعة من الناس واقتتلوا مع الحجاج وانتهى الأمر بمصرعهم ونصب رءوسهم كما ذكرنا وانصرف الحجاج إلى

البصرة وكتب إلى المهلب بن أبى صفرة وعبدالرحمن بن مخنف أن يستمرا فى قتال الخوارج.

وخرج على الحجاج بنواحى البصرة داود بن النعمان المازنى توجه إليه الحجاج أميراً على سرية من الجيش واقتتل معه فقتله.

وخلال فترة حكم الحجاج للعراق والحجاز واليمن وغيرها من البلاد أقام حروباً كثيرة للخارجين عليه جماعات وفرادى قتل فيها الحجاج الألوف من معارضيه وسجلت كتب التاريخ الكثير من هذه القصص التى توضح طغيان هذا الرجل وقوة بطشه وحبه لسفك الدماء من أجل السلطان.

قال ابن كثير رحمه الله عن ولاية الحجاج للعراق:

- وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم والافتيات عليهم.

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو صالح عبدالله بن صالح، حدثنى معاوية بن صالح، عن شريح بن عبيد عن من حدثه، قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم فخرج غضبان، فصلى لنا صلاة فسها فيها حتى جعل الناس يقولون: سبحان الله سبحان الله، فلما سلم أقبل على الناس فقال: من هاهنا من أهل الشام؟

فقام رجل، ثم قام آخر، ثم قمت أنا ثالثاً أو رابعاً فقال: يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ، اللهم إنهم قد لبسوا عليهم فالبس عليهم، وعجل عليهم بالغلام الثقفى يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنهم، ولا يتجاوز عن مسيئهم، وقد رويناه فى كتاب مسند عمر بن الخطاب من طريق أبى عذبة الحمصى، عن عمر مثله(١).

وقال عبدالرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، عن الحسن قال: قال على بن أبى طالب اللهم كما أئتمنتهم فخانونى ونصحت لهم فغشونى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال يأكل خضرتها، ويلبس فروتها ويحكم فيها حكم الجاهلية.

قال: يقول الحسن: وما خلق الحجاج يومئذ.

ورواه معتمر بن سليمان، عن أبيه، عن أيوب، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن على أنه قال: الشاب الذيال أمير المصرين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ويقتل أشراف أهلها يشتد منه الفرق ويكثر منه الأرض، ويسلطه الله على شيعته.

وذكر الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة: حبيب بن أبى ثابت، قال: قال على بن أبى طالب لرجل: لا مت حتى تدرك فتى ثقيف.

قيل له: يا أمير المؤمنين، وما فتى ثقيف؟

قال: ليقالن له يوم القيامة: أكفنا زاوية من زوايا جهنم رجل يملك عشرين أو بضعاً وعشرين سنة، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها يقتل بمن أطاعه ممن عصاه(١).

وذكر الطبرانى، عن أم حكيم بنت عمر بن سنان الجدلية قالت: استأذن الأشعث بن قيس عَلَى عَلِيٍّ بن أبى طالب فر ، قنبر فأدمى أنفه، فخرج على بن أبى طالب فقال: ما لك وله يا أشعث أما والله لو بعبد ثقيف تمرست لاقشعرت شعيرات استك.

قيل ل يا أمير المؤمنين ومن عبد ثقيف؟

قال: غلام يليهم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلا.

قيل: كم يملك؟

قال: عشرين إن بلغ(٢).

وذكر البيهقى: عن هشام بن يحيى الغسانى قال: قال عمر بن عبدالعزيز لو

---

(١)، (٢) المصدر السابق.

جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم.

وقال أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبى النجود أنه قال: ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج.

قال ابن كثير رحمه الله:

وقد تقدم الحديث: إن فى ثقيف كذاباً ومبيراً وقد ذكرنا شأن المختار بن أبى عبيد، وهو الكذاب المذكور فى هذا الحديث، وقد كان يظهر الرفض أولاً ويبطن الكفر المحض، وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف هذا، وقد كان ناصبياً يبغض عليا وشيعته فى هوى آل مروان بنى أمية وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة.

وقد روى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر كما قدمنا.

فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق فى عهدتها ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن بعض الناس كانوا يبغضونه جدا لوجوه وربما حرفوا عليه بعض الكلم وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات.

وقد روينا عنه، أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن، ويتجنب المحارم، ولم يشتهر عنه شىء من التلطخ بالفروج وإن كان متسرعاً فى سفك الدماء، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسائرها وخفيات الصدور وضمائرها(1).

وما أراده ابن كثير رحمه الله أن الله سلط على أهل العراق الحجاج لظلمهم وهكذا سلط الله عز وجل الظالمين على الظالمين وكما قيل من أعمالكم سلط عليكم، وقوله تعال: ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾.

(آل عمران: ١٨٢).

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير.

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧).

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: ١١٨).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦).

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (ق: ٢٩).

والآيات من هذا المعنى كثيرة وهى تعبر عن سنن الله فى الكون.

■ ■ ■

مواقف وأيام للحجاج
فى ولايته وحكمه

الإنسان ما هو إلا مواقف وأحداث تسطر فى كتاب عمره الطويل أو القصير يحصيها الله عليه ويحاسبه عليها يوم القيامة.

ويمكن تحديد ملامح وشخصية الحجاج أو أى إنسان من خلال ما يسطر ويحكى عنه خلال عمره، فالشخصية تحدد على المحك العملى وليس النظرى.

وللحجاج مواقف كثيرة وحكايات قد تكون طريفة أو مقبضة أو محزنة أو تدعو للغضب قد سطرت بها كتب التاريخ نذكر منها بعضها لعلها توضح شخصية الرجل العجيب الذى حملت شخصية كل المتناقضات.

عن نظرة الحجاج للدنيا وفلسفته فيها يذكر عنه:

ابن أبى الدنيا فى مسنده عن عبيدالله بن محمد التميمى سمعت شيخاً من قريش يكنى أباً بكر التيمى، قال: كان الحجاج يقول فى خطبته ـ وكان لسناً ـ أى ذا لسان فصيح، فقال: خلق الله آدم وذريته من الأرض فأمشاهم على ظهرها فأكلوا ثمارها وشربوا أنهارها وهتكوها بالمساحى والمرور، ثم أدال الله الأرض منهم فردهم إليها، فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها، وقطعتهم فى جوفها وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحى والمرور.

ومما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال فى خطبته فى المواعظ: أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، رجل حطم نفسه وزمها فقادها بحطامها إلى طاعة الله وكفها بزمامها عن معاصى الله.

رحم الله امرأ رد نفسه، امرأ اتهم نفسه، امرأ اتخذ نفسه عدوه، امرأ حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرأ نظر إلى ميزانه، امرأ نظر إلى

حسابه، امرأ وزن عمله، امرأ فكر فيما يقرأ غداً في صحيفته ويراه في ميزانه، وكان عند قلبه زاجراً وعند همه آمراً، امرأ أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جمله فإن قاده إلى طاعة الله تبعه وإن قاده إلى معصية الله كف، امرأ عقل عن الله أمره، امرأ فاق واستفاق وأبغض المعاصى والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق.

فما زال يقول امرأ امرأ حتى بكى مالك بن دينار ومالك هذا من كبار التابعين الزاهدين، ولكنه تأثر بموعظة الحجاج وكلامه ولا عجب فى ذلك فإن للكلام سحره كما قال ﷺ إن من البيان لسحرا أو كما قال.

وقال المدائنى، عن عوانة بن الحكم قال: قال الشعبى: سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد، فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل.

وقال المدائنى، عن أبى عبدالله الثقفى، عن عمه قال: سمعت الحسن البصرى يقول: وقذتنى كلمة سمعتها من الحجاج سمعته يقول على هذه الأعواد(١): إن امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ما خلق له لحرى أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة.

وقال شريك القاضى، عن عبدالملك بن عمير قال: قال الحجاج يوماً: من كان له بلاء أعطيناه على قدره.

فقام رجل فقال: أعطنى فإنى قتلت الحسين.

فقال: وكيف قتلته؟.

قال: دسرته بالرمح دسراً وهبرته بالسيف هبراً وما أشركت معى فى قتله أحداً.

فقال: اذهب فوالله لا تجتمع أنت وهو فى موضع واحد، ولم يعطه شيئاً.

وقال الهيثم بن عدى جاء رجل إلى الحجاج فقال: إن أخى خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمى فى الديوان ومُنعت العطاء، وقد هُدمت دارى.

(١) يقصد بالأعواد المنبر الذى يخطب عليه.

فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

حنانيك من يجنى عليك وقــــد تُعدي الصحــاح مبــارك الجــرب

ولرب مــأخــوذ بذنب قــريبــه ونجــا المقــارف صــاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إنى سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق من هذا.

قال: وما قال؟

قال: **﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾**

(يوسف: ، ٧٨٧٩).

قال: يا غلام أعد اسمه فى الديوان وابن داره وأعطه عطاءه، ومر منادياً ينادى: صدق الله وكذب الشاعر(١).

وقال الهيثم بن عدى، عن ابن عياش كتب عبدالملك إلى الحجاج أن ابعث إلى برأس أسلم بن عبدالبكرى، لما بلغنى عنه فأحضره الحجاج، فقال: أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ وما بلغه عنى فباطل وإنى أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى وهن بالباب، فأمر الحجاج بإحضارهن.

فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته، وهذه: أنا عمته،. وهذه أنا أخته. وهذه أنا ابنته، وهذه: أنا زوجته.

وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة فقال لها الحجاج: من أنت؟

فقالت: أنا ابنته، ثم قالت: أصلح الله الأمير وجثت على ركبتيها وقالت:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

أحـجــاج لم تشــهــد مـقــام بناته ... وعـمـــاته يندبنه الليل أجــمــعــا

أحــجــاج كم تقــتل به إن قــتلتــه ... ثمـــانا وعــشـــرا واثنتين وأربعــا

أحــجــاج من هذا يقــوم مـقــامــه ... علينا فمهلا إن تزدنا تضعضعا

أحــجــاج إمـــا أن تجــود بنعــمــة ... علينا وإمـــا أن تقــتلنا مـــعــا

قال: فبكى الحجاج وقال: والله لا أعنت عليكن ولا زدتكن تضعضعا.

ثم كتب إلى عبدالملك بما قال الرجل وبما قالت ابنته هذه فكتب عبدالملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته، بالإحسان إلى هذه الجارية وتفقدها فى كل وقت.

وقيل: إن الحجاج خطب يوماً فقال: أيها الناس، الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله.

فقام إليه رجل فقال له: ويحك يا حجاج ما أصفق وجهك وأقل حياءك تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام؟ خبت وضل سعيك.

فقال للحرس: خذوه فلما فرغ من خطبته قال له: ما الذى جرأك على؟

قال: ويحك يا حجاج أنت تجترئ على الله ولا أجترئ أنا عليك! ومن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئ على الله رب العالمين؟

فقال: خلوا سبيله فأطلق.

وقال المدائنى: أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث[1]، فأمر بقتلهما فقال أحدهما: إن لى عندك يدا.

قال: وما هى؟

قال: ذكر ابن الأشعث يوماً أمك، فرددت عليه.

فقال: ومن يشهد لك؟

قال: صاحبى هذا فسأله.

(١) ابن الأشعث كان من قواد بنى أمية ثم خرج عليهم وقاتله الحجاج وانتصر عليه كما سيأتى.

فقال: نعم.

فقال: ما منعك أن تفعل كما فعل؟

قال: بغضك.

قال: أطلقوا هذا لصدقه، وهذا لفعله، فأطلقوهما.

وحكى الواقدى أن الحجاج نادى فى البلد، أن من خرج بعد العشاء الآخرة من بيته قتل، فأتى ليلة برجل، فقال: ما أخرجك من بيتك فى هذه الساعة من بعد ما سمعت المنادى؟

فقال: أما والله إنى لا أكذب الأمير، إن أمى مريضة هالكة وأنا عندها منذ ثلاثة أيام، فلما كانت الساعة أفاقت، وقالت: يا بنى إنى أعزم عليك بحقى عليك إلا مضيت إلى أهلك وأولادك، فإنهم مغمومون بتخلفك عنهم.

فخرجت من عندها فأخذنى العسس وأتوا بى إليك.

فقال الحجاج: ننهاكم وتعصوننا، ثم أمر فضربت عنقه.

قال: ثم أتى بآخر، فقال له الحجاج: ما أخرجك هذه الساعة؟

فقال: والله ما أكذبك، إنه كان عندى لرجل دراهم فأقعدنى على بابه ولزمنى، وقال: لا أفارقك إلا بحقى فلما كان هذه الساعة دخل إلى منزله وأغلق بابه وتركنى على بابه، فجاءنى طائفك فأخذنى إليك.

فقال الحجاج: اضربوا عنقه.

قال: ثم أتى بآخر، فقال له: ما أخرجك هذه الساعة؟

فقال: كنت أشرب مع قوم، فلما سكرت خرجت من عندهم وأنا لا أدرى، فأخذونى إليك.

فقال الحجاج لرجل كان عنده: ما أراه إلا صادقاً. ثم قال: خلوا سبيله. فخلو سبيله[1]!!

---

(١) المصدر السابق.

وذكر محمد بن زياد بن الأعرابى فيما بلغه أنه كان رجل من بنى حنيفة يقال له: جحدر بن مالك وكان فاتكاً بأرض اليمامة فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه فما زال نائبها فى طلبه حتى أسره وبعث به إلى الحجاج.

فقال له الحجاج: ما حملك على ما كنت تصنعه؟

فقالب: جراءة الجنان، وجفاء السلطان، وكلب الزمان، ولو اختبرنى الأمير لوجدنى من صالح الأعوان وبُهم الفرسان ولوجدنى من أصل رعيته وذلك أنى ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه فى نفسى مقتدر.

فقال له الحجاج: إنا قاذفوك فى حائر فيه أسد عاقر فإن قتلك كفانا موتك، وإن قتلته خلينا سبيلك.

ثم أودعه السجن مقيداً مغلولة يده اليمنى إلى عنقه وكتب الحجاج إلى نائبه بكسكر أن يبعث إليه بأسد عظيم ضار، وقد قال جحدر هذا فى محبسه هذا أشعارا يتحزن فيها على امرأته سليمى أم عمرو، يقول فى بعضها:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تدانى

بلى وترى الهلال كما نراه ... ويعلوها النهار إذا علانى

إذا جاوزتما نخلات حجر ... وأودية اليمامة فانعيانى

وقولوا جحدر أمسى رهينا ... يحاذر وقع مصقول يمانى

فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام، ثم أبرز إلى حائر - وهو البستان - وأمر بجحدر فأخرج فى قيوده ويده اليمنى مغلولة بحاله، وأعطى سيفاً فى يده اليسرى، وخلى بينه وبين الأسد، وجلس الحجاج وأصحابه فى منظرة، وأقبل جحدر نحو الأسد، وهو يقول:

ليث وليث فى مجال ضنك ... كلاهما ذو أنف ومحك

وشدة فى نفسك فتك ... إن يكشف الله قناع الشك

فهو أحق منزل بترك

فلما نظر إليه الأسد زأره زأرة شديدة وتمطى وأقبل نحوه، فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة، فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة حتى خالط ذباب السيف لهواته، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح، من شدة الضربة وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد، وشدة موضع القيود عليه فكبر الحجاج وكبر أصحابه وأنشأ جحدر يقول:

يا جمل إنك لو رأيت كريهتى ... فى يوم هول مسدف وعجاج

وتقدمى لليث أرسف موثقاً ... كيما أثاوره على الأحراج

شثن براثنه كأن نيوبه ... زرق المعاول أو شباه زجاج

يسمو بناظرتين تحسب فيهما ... لهباً أحدهما شعاع سراج

وكأنما خيطت عليه عباءة ... برقاء أو خرق من الديباج

لعلمت أنى ذو حفاظ ماجد ... من نسل أقوام ذوى أبراج

ثم التفت إلى الحجاج فقال:

علم النساء بأننى لا أنثنى ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

وعلمت أني إن كرهت نزاله ... أنى من الحجاج لست بناج

فعند ذلك خيره الحجاج إن شاء أقام عنده، وإن شاء انطلق إلى بلاده، فاختار المقام عند الحجاج، فأحسن جائزته وأعطاه أموالاً.

وقد كان الحجاج مع فصاحته وبلاغته يلحن فى حروف من القرآن أنكرها يحيى بن يعمر منها أنه كان يبدل «إن» المكسورة بـ «أن» المفتوحة، وعكسه وكان يقرأ: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم﴾ إلى قوله: ﴿أحب إليكم﴾ فيقرؤها برفع «أحب».

وأنكر يوما أن يكون الحسين من ذرية رسول الله ﷺ، لكونه ابن بنته، فقال له يحيى بن يعمر: كذبت.

فقال الحجاج: لتأتينى على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك.

فقال: قال الله: ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ إلى قوله: ﴿وزكريا ويحيى وعيسى﴾ فعيسى من ذرية إبراهيم وهو إنما ينسب إلى أمه مريم والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ.

فقال الحجاج: صدقت.

ونفاه إلى خراسان.

وقال الأصمعى وغيره:كتب عبدالملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغد،ا فقال للرسول: أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده؟

قال: نعم.

فكتب الحجاج إلى عبدالملك: أما أمس فأجل، وأما اليوم فعمل، وأما غدا فأمل.

وقال ابن دريد، عن أبى حاتم السجستانى، عن أبى عبيدة معمر بن المثنى قال: لما قتل الحجاج ابن الأشعث، وسع على الناس فى العطاء فكتب إليه عبدالملك: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق فى اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين فى الأسبوع وتنفق فى الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين فى الشهر ثم قال منشداً:

عليك بتقوى الله فى الأمر كله — وكن لوعيد الله تخشى وتضرع

ووفر خراج المسلمين وفيأهم — وكن لهم حصناً تجير وتمنع

فكت إليه الحجاج:

لعمرى لقد جاء الرسول بكتبكم — قراطيس تملى ثم تطوى فتطبع

كتاب أتانى فيه لين وغلظة — وذكرت والذكرى لذى اللب تنفع

وكانت أمور تعترينى كثيرة — فأرضخ أو أعتل حيناً فأمنع

إذا كنت سوطاً من عذاب عليهم — ولم يك عندى بالمنافع مطمع

أيرضى بذاك الناس أو يسخطونه — أم احمد فيهم أم الام فأقذع

وكانت بلاد جئتها حين جئتها — بها كل نيران العداوة تلمع

فقاسيت منها ما علمت ولم أزل أصارع حتى كدت بالموت أصرع

وكم أرجفوا من رجفة قد سمعتها ولو كان غيرى طار مما يروع

وكنت إذا هموا بإحدى قناتهم حسرت لهم رأسى ولا أتقنع

فلو لم يزد عنى صناديد منهم تقسم أعضائى ذئاب وأضبع

قال: فكتب إليه عبدالملك أن اعمل برأيك.

عن محمد بن المستورد الجمحى قال: أتى الحجاج بسارق، فقال له: لقد كنت غنيّاً أن يأتيك الحكم، فيبطل عليك عضواً من أعضائك.

فقال الرجل: إذا قل ذات اليد سخت النفس بالمتالف.

قال: صدقت، والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنت له موضعاً يا غلام سيف صارم ورجل قاطع.

فقطع يده.

وقال أبو بكر بن مجاهد عن محمد بن الجهم عن الفراء قال: تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن عبدالملك فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ فقال: يا أمير المؤمنين الحلال ما أحللت، ولكنى أنهى عنه أهل عملى، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

وقال عمر بن شبة، عن أشياخه قال: كتب عبدالملك إلي الحجاج يعتب عليه في إسرافه في صرف الأموال وسفك الدماء ويقول له: إنما المال مال الله ونحن خزائن وسيان منع حق وإعطاء باطل وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها وتطلب رضائى فى الذى أنا طالبه

وتخشى الذى يخشاه مثلك هارباً إلى الله منه ضيع الدار جالبه

فإن تر منى غفلة قرشية فيا ربما قد غص بالماء شاربه

وإن تر منى وثبة أموية فهذا وهذا كله أنا صاحبه

فلا تعد ما يأتيك منى فإن تعد تقم فاعلمن يوماً عليك نوادبه

فلما قرأه الحجاج كتب: أما بعد فقد جاءنى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الأموال والدماء، فوالله ما بالغت فى عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حق أهل الطاعة فإن كان ذلك سرفاً فليحد إلى أمير المؤمنين حداً انتهى إليه ولا أتجاوز، وكتب فى أسفل الكتاب:

إذا أنا لم أطلب رضاك واتقى — أذاك فيومى لا توارت كواكبه

إذا قارف الحجاج فيك خطيئة — فقامت عليه فى الصباح نوادبه

أسالم من سالمت من ذى هوادة — ومن لم تسالمه فإنى محاربه

إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه — وأقص الذى تسرى إلى عقاربه

فمن يتقى يومى ويرجو إذا غدى — على ما أرى والدهر جم عجائبه

وعن الشافعى أنه قال: قال الوليد بن عبدالملك للغاز بن ربيعة أن يسأل الحجاج فيما بينه وبينه، هل يجد فى نفسه مما أصاب من الدماء شيئاً؟

فسأله كما أمره، فقال: والله ما أحب أن لى لبنان أو سنيرا ذهباً أنفقه فى سبيل الله مكان ما أبلانى الله من الطاعة(١).

ومن خطب الحجاج التى تدل على جراءته وأن لسانه يسبق عقله، وكيف أنه كان جريئاً على الله:

قال أبو داود: ثنا محمد بن العلاء، ثنا أبو بكر، عن عاصم قال: سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول: اتقول الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا لأمير المؤمنين عبدالملك والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم.

والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالاً، وما عذيرى من عبد هذيل يزعم أن قرآنه من عند الله والله ما هى إلا رجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه ﷺ وعذيرى من هذه الحمراء، يزعم أحدهم يرمى بالحجر

---

(١) المصدر السابق.

فيقول: إلى أن يقع الحجر حدث أمر.

فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر.

قال: فذكرته للأعمش، فقال: وأنا والله سمعته منه.

وروى أبو بكر بن أبى خيثمة، عن محمد بن يزيد، عن أبى بكر بن عياش، عن عاصم بن أبى النجود والأعمش، أنهما سمعا الحجاج ـ قبحه الله ـ يقول ذلك وفيه والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب، فخرجتم من هذا الباب، لحلت لى دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير.

وروى غير واحد عن أبى بكر بن عياش بنحوه وفى بعض الروايات: والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه.

وقال ابن كثير: وهذا من جراءة الحجاج ـ قبحه الله وإقدامه على الكلام السىء والدماء الحرام، وإنما نقم على قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لكونه خالف القراءة على المصحف الإمام الذى جمع الناس عليه عثمان، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقته، والله أعلم.

وقال على بن عبدالله بن مبشر، عن عباس الدورى، عن مسلم بن إبراهيم، ثنا الصلت بن دينار، سمعت الحجاج على منبر واسط يقول: عبدالله بن مسعود رأس المنافقين، ولو أدركته لأسقيت الأرض من دمه.

قال: وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية ﴿وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى﴾ قال: والله إن كان سليمان لحسوداً. (نستغفر الله).

قال ابن كثير: وهذه جراءة عظيمة تقضى به إلى الكفر قبحه الله وأخزاه وأبعده وأقصاه[1].

قال ابن كثير رحمه الله: ومن الطامات أيضاً ما رواه أبو داود ثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقانى حدثنا جرير. وحدثنا زهير بن حرب حدثنا جرير عن المغيرة،

(١) المصدر السابق.

عن بزيع بن خالد الضبى، قال: سمعت الحجاج يخطب فقال فى خطبته: رسول أحدكم فى حاجته أكرم عليه أم خليفته فى أهله؟

فقلت فى نفسى: لله على أن لا أصلى خلفك صلاة أبداً، وإن وجدت قوماً يجاهدونك لأجاهدنك معهم.

زاد إسحاق فى حديث: فقاتل فى الجماجم حتى قتل، فإن صح هذا عنه فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة، أو أراد أن الخليفة من بنى أمية أفضل من الرسول(١).

وقال الأصمعى: حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا أبو حفص الثقفى، قال: خطب الحجاج يوماً فأقبل عن يمينه فقال: ألا إن الحجاج كافر، ثم أطرق فقال: إن الحجاج كافر، ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال: ألا إن الحجاج كافر، فعل ذلك مراراً ثم قال: كافر يا أهل العراق باللات والعزى.

وقال حنبل بن إسحاق: بسنده، عن مالك بن دينار قال: بينما الحجاج يخطبنا يوماً إذ قال: الحجاج كافر.

قلنا: ما له؟ أى شىء يريد؟

قال: الحجاج كافر بيوم الأربعاء والبغلة الشهباء.

وقال الأصمعى: قال عبدالملك يوماً للحجاج: إنه ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه فصف لى عيب نفسك.

فقال: اعفنى يا أمير المؤمنين فأبى.

فقال: أنا لجوج حقود حسود.

فقال عبدالملك: ما فى الشيطان شر مما ذكرت.

وفى رواية أنه قال: إذاً بينك وبين إبليس نسب(٢).

وقال ابن كثير وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم

---

(١)، (٢) المصدر السابق.

من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم والافتيات عليهم.

هكذا حملت شخصية الحجاج فى طياتها كل المتناقضات كى تعطى انطباعاً واحداً وهو أنه كان مثل الطغاة من أولى الأمر والحكام فصحاء اللسان قد تملك منهم شيطانهم فأغواهم حتى ظنوا أنهم أعقل وأعدل الناس.

فقد كان الحجاج يتقرب إلى الله بقراءة القرءان وعدم شرب المسكرات وقتل الناس بالظنة والشبهة لصالح الخليفة، فكل من خرج عن الخليفة عنده كافر يستوجب القتل فوراً.

فقد كان جريئاً على سب الصحابة وإيذائهم أحياء وأموات، وقد نقلت لنا كتب التاريخ كيف أنه أذى عبدالله بن جابر رضي الله عنه وأنس بن مالك وسهل بن سعد وكذلك قوله عن ابن مسعود رضي الله عنه ونقمته منه لأنه خرج على الخليفة عثمان فى قراءته للقرءان.

إنه الحجاج بن يوسف الثقفى.

■■■



خادم رسول الله ﷺ والحجاج الثقفى

- تجرأ الحجاج علي الصحابى الجليل أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ
- شكوى أنس رضي الله عنه لعبدالملك من إيذاء وتهديد الحجاج له.

تهديد الحجاج الثقفى للصحابى أنس بن مالك وإيذاؤه له

أنس بن مالك بن النضر الخزرجى الأنصارى هو صحابى جليل، ولد بالمدينة، وأسلم صغيراً وكناه الرسول محمد ﷺ بأبى حمزة.

خدم الرسول عليه الصلاة والسلام فى بيته ١٠ سنين.

دعا له النبى ﷺ: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له، وأدخله الجنة» فعاش طويلاً، ورزق من البنين والحفدة الكثيرين وروى كثيراً من الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

أما أمه فهى أم سُلَيم الغميصاء بنت ملحان الأنصارية رضي الله عنها.

ويقال: الرميصاء.

ويقال: سهلة بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار الأنصارية، الخزرجية.

مات زوجها مالك بن النضر، ثم تزوجها أبو طلحة زيد بن سهل الأنصارى، فولدت له أبا عمير، وعبدالله شهدت حنيناً وأحداً.

وأم سليم من أفاضل النساء روت: أربعة عشر حديثاً اتفق البخارى ومسلم لها على حديثين وانفرد البخارى بحديث، ومسلم بحديثين.

يشرها النبى بالجنة فقال: «دخلت الجنة فسمعت خشفة «حركة» بين يدى، فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان»(١).

كانت أم سليم مؤمنة مجاهدة تشارك المسلمين فى جهادهم لرفع راية الجهاد

---

(١) متفق عليه.

والحق فكانت مع أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ يوم أحد فكانتا تحملان الماء وتسقيان العطشى وفى يوم حنين جاء أبو طلحة يضحّك رسول الله «من أم سليم، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر؟ فقالت: إن دنا منى مشرك بقرت به بطنه[1].

يقول أنس: «أخذت أمى بيدى وانطلقت بى إلى رسول الله، فقالت: «يا رسول الله إنه لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا وقد أتحفتك بتحفة، وإنى لا أقدر على ما أتحفك به إلا ابنى هذا، فخذه فليخدمك ما بدا لك».

فخدمت رسول الله ـ عشر سنين، فما ضربنى ضربة، ولا سبنى سبة، ولا انتهرنى، ولا عبس فى وجهى.

كان قد استعمله أبو بكر ثم عمر بن الخطاب على عمالة البحرين وشكراه فى ذلك، وقد انتقل بعد النبى فسكن البصرة، وقد ناله أذى من جهة الحجاج وذلك فى فتنة ابن الأشعث، توهم الحجاج منه أنه له مداخلة فى الأمر، وأنه أفتى فيه، فختمه الحجاج فى عنقه، الذى يعرف باسم عنق الحجاج وتلك مهزلة كبرى وحماقة وسوء أدب منه، وقد شكاه أنس إلى عبدالملك بن مروان، فكتب إلى الحجاج يعنفه، ففزع الحجاج من ذلك وصالح أنساً.

خرج أنس مع النبى إلى بدر وهو غلام يخدمه، وقد سأل إسحاق بن عثمان موسى بن أنس: كم غزا رسول الله؟

قال سبع وعشرين غزوة، ثمان غزوات يغيب فيها الأشهر، وتسع عشرة يغيب فيها الأيام.

فقال: كم غزا أنس بن مالك؟

قال ثمان غزوات.

كان أنس ـ قليل الحديث عن الرسول ﷺ، فكان إذا حدث يقول حين يفرغ: أو كما قال رسول الله، وقد حدث مرة بحديث عن رسول الله فقال رجل: «أنت سمعته

---

(١) الطبقات لابن سعد.

من رسول الله» فغضب غضباً شديداً وقال: والله ما كل ما نحدثكم سمعناه من رسول الله، ولكن كان يحدث بعضنا بعضاً ولا نتهم بعضنا.

كان أنس بن مالك أحد الرماة المصيبين، ويأمر ولده أن يرموا بين يديه، وربما رمى معهم فيغلبهم بكثرة إصابته.

لما مات أنس قال مؤرق العجلى: ذهب اليوم نصف العلم.

فقيل له: وكيف ذاك يا أبا المغيرة؟

قال: كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا فى الحديث عن رسول الله قلنا له: تعال إلى من سمعه منه.

يعنى أنس بن مالك.

قال أنس بن مالك لبنيه: «يا بنى قيدوا العلم بالكتاب».

دخل ثابت البنانى على أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: رأت عيناك رسول الله؟!

فقال: نعم.

فقبلهما ثم قال: فمشت رجلاك فى حوائج رسول الله؟

فقال: نعم.

فقبلهما ثم قال: «فصببت الماء بيديك»؟!

قال: نعم.

فقبلهما ثم قال له أنس: «يا ثابت، صببت الماء بيدى على رسول الله لوضوئه فقال لى: يا غلام أسبغ الوضوء يزد فى عمرك، وأفش السلام تكثر حسناتك، وأكثر من قراءة القرآن تجئ يوم القيامة معى كهاتين.

وقال بأصبعيه هكذا السبابة والوسطى.

لقد قام أنس بن مالك إلى دمشق فى عهد معاوية والوليد بن عبدالملك حين استخلف سنة ست وثمانين، وفى أحد الأيام دخل الزهرى عليه فى دمشق وهو

وحده، فوجده يبكى فقال له: ما يبكيك؟

فقال: ما أعرف شيئاً مما أدركنا إلا هذه الصلاة.

اختلف فى سنة وفاته فقيل توفى سنة تسعين للهجرة وقيل اثنتين وتسعين أو ثلاث وتسعين للهجرة.

وهو آخر من توفى بالبصرة من الصحابة، وكان موته بقصره بالطف ودفن هناك على فرسخين من البصرة، وصلى عليه قطن بن مدرك الكلابى.

وقد عاش أنس أيام الحجاج وثورة ابن الجارود وأهل البصرة عليه كما سيأتى ذكر ذلك واشترك ابنه عبدالله بن أنس فى تلك الثورة وقتل فيها، واعتبر الحجاج أن أنس من أنصار ابن الجارود ولهذا أغلظ له القول والفعل وصادر ماله وهدده بالقتل، كما سيأتى ذكره فى الصفحات التالية.

■■■

شكوى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعبدالملك من إيذاء وتهديد الحجاج له

ذكر ابن كثير عن عوانة بن الحكم الكلبى، قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال له: إيه إيه يا أنيس، يوم لك مع على ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة.

فقال أنس: إياى يعنى الأمير أصلحه الله؟

قال: إياك، سك الله سمعك.

قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أى قتلة قتلت، ولا أى ميتة مت.

ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبدالملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج، فلما قرأ عبدالملك كتاب أنس استشاط غضباً، وصفق عجباً وتعاظم ذلك من الحجاج(١).

وقد كتب أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعبدالملك يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك أما بعد، فإن الحجاج قال لى هجرا وأسمعنى نكرا، ولم أكن لذلك أهلاً فخذ لى على يديه، فإنى أمت بخدمتى رسول الله ﷺ وصحبتى إياه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فبعث عبدالملك إلى إسماعيل بن عبيدالله بن أبى المهاجر - وكان مصادقاً

(١) كما ذكرنا أن سبب غضب الحجاج من أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ابن أنس اشترك مع ابن الجارود في ثورته ضد طغيان الحجاج.

للحجاج ـ فقال له: دونك كتابىَّ هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ، فادفع كتابى إليه وأبلغه منى السلام وقل له: يا أبا حمزة، قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً، إذا قرأه كان أطوع لك من أَمَتك.

وكان كتاب عبدالملك إلى أنس بن مالك ما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها اكتب إلى بذلك أنزل به عقوبتى وتحسن لك معونتى والسلام.

فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين على خبرا وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة فهذا كان ظنى به والرجاء منه.

فقال: إسماعيل بن عبيد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى ولا بأهل بيتك ولو جعل لك فى جامعة ثم دفع إليك لقدر أن يضر وينفع، فقاربه وداره تعش معه بخير وسلام.

فقال أنس: أفعل إن شاء الله.

ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج فلما رآه الحجاج قال: مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه.

فقال إسماعيل: أنا والله كنت أحب لقاءك فى غير ما أتيتك به فتغير لون الحجاج، وقال: ما أتيتنى به؟

قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً، ومنك بعدا. فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نقضه قال: قم بنا إلى أبى حمزة

نعتذر إليه ونترضاه.

فقال له إسماعيل: لا تعجل.

فقال: كيف لا أعجل وقد أتيتنى بآبدة.

وكان خطاب عبدالملك للحجاج ما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها، وعدوت طورك وجاوزت قدرك وركبت داهية إذ أردت أن تبورنى فإن سوغتكها مضيت قدما، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى فلعنك الله عبدا أخفش العينين، منقوص الجاعرتين.

أنسيت مكاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم فى المناهل؟

يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا فلم تقبل له إحسانه ولم تجاوز له إساءته، جرأة منك على الرب عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد.

والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عزير بن عزرا وعيسى ابن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثمانى سنين، يطلعه على سره ويشاوره فى أمره ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه.

فإذا قرأت كتابى هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك منى سهم منكل بحتف قاض، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

وروى الإمام أحمد: عن الزبير - يعنى ابن عدى - قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا فإنه لا يأتى عليكم عام أو يوم إلا والذى بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم عز وجل سمعته من نبيكم ﷺ.

وقد قال سفيان الثورى عن إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبى قال: يأتى على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج عن أبى السفر قال: قال الشعبى: والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج.

وقال الأصمعى: قيل للحسن: إنك تقول: الآخر شر من الأول، وهذا عمر بن عبدالعزيز بعد الحجاج.

فقال الحسن: لابد للناس من تنفيسات.

وقال ميمون بن مهران بعث الحجاج إلى الحسن البصرى وقد هم به فلما قام بين يديه قال: يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب؟

قال: كثير.

قال: فأين هم؟

قال: ماتوا.

قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن.

وقال أيوب السختيانى إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه.

وقد ذكر له معه مناظرات على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك وإنما خرج معهم مكرهاً وكان الحسن يقول إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع.

عن ابن عائشة قال: أتى الوليد بن عبدالملك رجل من الخوارج فقيل له: ما تقول فى أبى بكر وعمر؟

فأثنى خيراً.

فقال: فعثمان؟ فأثنى خيراً، حتى قيل له: فما تقول فى عبدالملك بن مروان؟ فقال: الآن جاءت المسألة ما أقول فى رجل الحجاج خطيئة من خطاياه؟[1]

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

وقال الأصمعى، عن على بن مسلم الباهلى، قال: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً فقال لها بعض الشرط يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه؟

فقالت: إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

عن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟

قال: إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر.

ويقال: إنه لم يقتل بعده إلا رجلاً واحداً اسمه ماهان، وكان قد قتل قبله خلقاً كثيراً أكثرهم ممن خرج مع ابن الأشعث.

عن هشام بن حسان، قال: أحصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً.

قال الأصمعى: ثنا أبو عاصم، عن عباد بن كثير، عن قحذم، قال: أطلق سليمان بن عبدالملك ـ الخليفة ـ فى غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب وكان فى من حبس أعرابى وجد يبول فى أصل ربض مدينة واسط وكان فى من أطلق فأنشأ يقول:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرينا وصلينا بغير حساب[1]

■■■

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.



الحجاج وقتال الخوارج

- الخوارج.. ظهورهم وإثارتهم الفتن على مر العصور.
- المهلب بن أبى صفرة وقتال الخوارج الأزارقة.
- الحجاج وقتال الخوارج الصفرية.

«ثورة شبيب بن يزيد الشيبانى» وهى أخطر حركات الخوارج رغم قلة عددهم.

الخوارج.. ظهورهم وإثارتهم الفتن على مر العصور

الخوارج فرقة إسلامية ظهرت فى عهد الخليفة الراشد على بن أبى طالب كرم الله وجهه نتيجة صراعه مع معاوية بن أبى سفيان بعد انتصار الإمام على ﷺ فى معركة صفين، وكانوا من أنصار الإمام ثم خرجوا عن طاعته لقبوله التحكيم رغم أنهم قد كانوا من وراء وقف القتال.

تتصف هذه الفرقة التى تفرعت إلى فرق كثيرة فيما بعد بالتعصب لآرائها وكانوا من حفظة القرآن وقد بايعوا الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

وبعد هزيمة معاوية فى صفين سارع جنود الشام ومعاوية برفع المصحف على أسنة حرابهم ثم طلبوا التحكيم وقبل الإمام على ﷺ تحكيم كتاب الله عز وجل.

وخرج بعض أتباع الإمام على ﷺ عن طاعته ورفعوا شعار أن الحكم إلا لله، وكان رد الإمام عليهم قائلاً: أنها كلمة حق يراد بها باطل ورفضوا نتيجة التحكيم وطالبوا باستمرار القتال ولكن الإمام رفض مطالبهم وقال لهم: ويحكم أبعد الرضا والعهد والميثاق ارجع! أبعد أن كتبناه ننقضه إن هذا لا يحل.

وأطلق على هذه الجماعة اسم الخوارج واختاروا أميراً لهم هو الصحابى عبدالله بن وهب الراسبى من الأزد.

وأطلقوا على أنفسهم المؤمنون ـ جماعة المؤمنين ـ الجماعة المؤمنة، وأطلق عليهم خصومهم الفكريون والسياسيون اسم الخوارج لخروجهم فى رأى خصومهم على أئمة الحق والعدل، وثوراتهم المتعددة ولما شاع هذا الاسم، قبلوا به ولكنهم فسروه على أنه خروج على أئمة الجور والفسق والضعف وأن خروجهم هو جهاد فى سبيل الله.

وأطلق عليهم الحرورية أو الحروريين: انتساباً لإحدى المواقع التى خاضوا فيها ثوراتهم أيضاً، وكذلك المحكمة لأنهم رفضوا حكم عمرو والأشعرى وقالوا «لا حكم إلا لله» وسموا أنفسهم الشراة، كمن باعوا أرواحهم فى الدنيا واشتروا النعيم فى الآخرة.

وهم يشترطون فى الخلافة الصلاح والصلاحية لتولى المنصب بصرف النظر عن نسبه وحسبه ولونه وكونه من قريش أو غيرها.

وأجمع الخوارج على وجوب الثورة على أئمة الجور والفسق والضعف ويجب، الخروج إذا بلغ عدد المنكرين على أئمة الجور أربعين رجلاً ويسمون هذا «حد الشراة» أى الذين اشتروا الجنة بأرواحهم: لا يجوز للثائرين القعود إلا إذا نقص العدد عن ثلاثة رجال، فإن نقصوا عن الثلاثة جاز لهم القعود وكتمان العقيدة.

يعترف الخوارج بخلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وخلافة عثمان ابن عفان حتى ما قبل السنوات الست الأخيرة فهم يبرءون منه فيها فقد آثر قرابته وولاهم الأعمال وأغدق عليهم الأموال من بيت المال، ويكفرون الإمام على بن أبى طالب بعد واقعة التحكيم.

واختلفوا فى نوع هذا الكفر، بعضهم كفروه «كفر شرك» فى الدين والبعض الآخر كفروه «كفر نعمة» فقط أى جحود النعم الإلهية فى واجبات الخلافة، وكذا يبرءون من خصوم على سواء أصحاب موقعة الجمل «الزبير وطلحة وعائشة» وأصحاب صفين «معاوية ومن والاه».

ويتبنى الخوارج الاختيار والبيعة ويرفضون من قالوا أن الإمامة شأن من شئون السماء، والإمامة عندهم من «الفروع» وليست أصلاً من أصول الدين.

يحكم الخوارج على مرتكبى الكبائر الذين يموتون قبل التوبة، بالكفر والخلود فى النار وهذا هو خلافهم الأساسى مع أهل السنة - بالإضافة إلى قتال على - وقد تبلورت تلك الفكرة فى صراعهم الفكرى والمسلح ضد بنى أمية، عندما ظهرت قضية الحكام الذين ارتكبوا الكبائر واقترفوا المظالم».

وأتفق الخوارج على «نفى الجور عن الله سبحانه وتعالى»، بمعنى ثبات القدرة والاستطاعة المؤثرة للإنسان ومن ثم تقرير حريته واختياره.

أجمع الخوارج على تنزيه الذات الإلهية عن أى شبه بالمحدثات بما فى ذلك نفى مغايرة صفات الله لذاته أو زيادتها عن الذات، وانطلاقاً من هذا الموقف قالوا «بخلق القرآن».

وقالت الخوارج بصدق وعد الله للمطيع وصدق وعيده للعاصى، دون أن يتخلف عن وعده أو وعيده لأى سبب من الأسباب.

وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جعل الخوارج لهذا الأصل صلة وثيقة بتغيير الظلم والجور والثورة على الحاكم الفاسد.

اشتهر الخوارج بقدراتهم القتالية وزهدهم عن الثروة وعدم حرصهم على الاقتناء كما اشتهروا بكثرة التعبد لله والشجاعة وقد سجلها لهم خصومهم فى كتاباتهم.

وقف الخوارج أنفسهم لنصرة العدل ومقاومة الظلم وحماية المستضعفين، وفى ذلك فجروا الثورات ضد الأمويين وعمالهم، وانضموا إلى الموالى من الفرس والأمازيغ من أهل شمال إفريقية، وكان الخوارج يشترطون فى زعمائهم الشجاعة والتقوى ويبايعونهم على الموت ويلقبونهم بأمير المؤمنين وكان قتالهم لمخالفيهم من الأشواق التى كانت تجذبهم إلى مزيد من التضحية والاستشهاد وهم يعتبرون أنفسهم المسلمين حقّاً دون سواهم أما من عاداهم فكفار يبيحون قتلهم.

ومن أشهر قادة الخوارج على مر التاريخ

- عبدالله بن وهب الراسبى من الأزد.
- حوثرة بن وداع بن مسعود. من أسد.
- المستورد بن علقة بن زيد مناة من تيم الرباب.
- زحاف الطائى من طيء.

● قريب بن مرة من الأزد.

● حبان بن ظبيان السلمى.

● أبو بلا مرداس بن أدية المربعى الحنظلى. من تميم.

● الزبير بن على السليطى. من تميم.

● نجدة بن عامر الحنفى من بكر بن وائل.

● ثابت التمار من الموالى.

● أبو فديك، عبدالله بن ثور بن قيس بن ثعلبة بن تغلب.

● أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيبانى.

● أبو نعامة قطرى بن الفجاءة الكنانى المازنى. من تميم.

● عبد ربه الصغير. أحد موالى قيس بن ثعلبة.

● أبو سماك، عمران بن حطان الشيبانى الوائلى.

● عبدالله بن يحيى بن عمر بن الأسود. من كندة.

وكانت لهم ثوراتهم وانتفاضاتهم الدائمة ضد الأمويين، ومن قبله على رضي الله عنه.

وأما حروبهم ضد جيش الإمام على رضي الله عنه:

١ ـ معركة النهروان ـ رمضان ٣٧ هـ: بقيادة أول أمرائهم: عبدالله بن وهب الراسبى، وهزموا فيها.

٢ ـ الدسكرة «بخرسان» ـ ربيع ثان ٣٨ هـ: بقيادة أشرس بن عرف الشيبانى، وهزموا فيها.

٣ ـ ماسبذان «بفارس» ـ جمادى الأولى ٣٨ هـ: بقيادة هلال بن علفة، وهزموا فيها.

٤ ـ جرجرايا «على نهر دجلة» ـ ٣٨ هـ بقيادة الأشهب بن بشر البجلى.

٥ ـ على أبواب الكوفة ـ رمضان ٣٨ هـ: بقيادة أبو مريم ـ من بنى سعد تميم ـ وهزموا فيها.

وقاموا بتدبير مكيدة لاغتيال الإمام على واغتيال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان نجا عمرو ومعاوية وقتل على بن أبى طالب على يد عبدالرحمن بن ملجم.

وبعد مقتل على وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية بدأت حرب الخوارج لأهل الشام وكادوا يهزمون جيش معاوية فى أول لقاء لولا أنه استعان عليهم بأهل الكوفة».

وقاموا بثورات مستمرة على حكم بنى أمية وكانوا سبباً رئيسيا فى إسقاط حكمهم.

ومن أشهر هذه الثورات ضد الدولة الأموية:

١ ـ تمرد داخلى ضد بنى أمية بدأ سنة ٤١ هـ بقيادة سهم بن غالب التميمى والخطيم الباهلى حتى سنة ٤٦ هـ حيث قضى على هذا التمرد زياد بن أبيه.

٢ ـ فى أول شعبان ٤٣ هـ خرج الخوارج بقيادة المستورد بن علفة وكان أميرهم، لملاقاة جيش معاوية.

٣ ـ فى سنة ٥٠ هـ ثار بالبصرة جماعة بقيادة قريبى الأزدى.

٤ ـ فى سنة ٥٨ هـ ثار الخوارج من بنى عبدالقيس واستمرت ثورتهم حتى قضى عليهم جيش عبدالله بن زياد.

٥ ـ فى سنة ٥٩ هـ ثاروا بقيادة حبان بن ظبيان السلمى وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً عند «بانقيا» قرب الكوفة.

٦ ـ فى سنة ٦١ هـ وقعت المعركة التى قتل فيها أبو بلال مرداس بن أدية، وكان مقتله سبباً فى زيادة عدد أنصار الخوارج.

٧ ـ ثم خرجوا بالبصرة بقيادة عروة بن أدية.

٨ ـ وخرجوا بالبصرة بقيادة عبيدة بن هلال.

٩ ـ فى أواخر شوال سنة ٦٤ هـ بدأت الثورة الكبرى للخوارج الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق وبدأت تلك الثورة بكسر أبواب سجون البصرة متجهين للأهواز.

١٠ ـ فى سنة ٦٥ هـ ثاروا باليمامة بقيادة أبى طالوت.

١١ ـ فى شوال ٦٦ هـ حاربوا ضد جيش المهلب بن أبى صفرة شرق نهر دجيل.

١٢ ـ فى سنة ٦٧ هـ ثاروا بقيادة نجدة بن عامر فاستولو على أجزاء من اليمن وحضرموت والبحرين.

١٣ ـ فى أوائل سنة ٦٨ هـ ثار الخوارج الأزارقة وهاجموا الكوفة.

١٤ ـ فى سنة ٦٩ هـ استولوا على نواح من أصفهان وبقيت تحت سلطانهم وقتاً طويلاً.

١٥ ـ فى سنة ٦٩ هـ ثارورا بالأهواز بقيادة قطرى بن الفجاءة.

١٦ ـ فى آخر شعبان سنة ٧٥ هـ حاربوا المهلب بن أبى صفرة ولما هزمهم انسحبوا لفارس.

١٧ ـ فى صفر ٧٦ هـ ثاروا فى «داريا» بقيادة الصالح بن مسرح وقاتلوا فى أرض المدبح من أرض الموصل.

١٨ ـ وفى سنة ٧٦ هـ وسنة ٧٧ هـ تمكنوا بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم من إيقاع عدة هزائم ضد جيوش الحجاج بن يوسف الثقفى.

١٩ ـ ثم تكررت ثورتهم بقيادة شوذب وحاربوا فى الكوفة على عهد يزيد الثانى.

٢٠ ـ وفى عهد هشام بن عبدالملك ثاروا وحاربوا فى الموصل بقيادة بهلول بن بسر ثم بقيادة الصحارى بن شبيب حيث حاربوا عند مناذر بنواحى خراسان.

٢١ ـ فى سنة ١٢٧ هـ حارب الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس الشيبانى وكان

عددهم مائة وعشرين ألفاً من المقاتلين وحاربت فى هذا الجيش نساء كثيرات وانتصروا على الأمويين فى الكوفة «رجب ١٢٧ هـ» وبواسط «شعبان ١٢٧ هـ».

٢٢ ـ فى سنة ١٢٩ هـ ثاروا باليمن بقيادة عبدالله يحيى الكندى واستولوا على حضرموت واليمن وصنعاء وأرسلوا جيشاً بقيادة أبى حمزة الشارى فدخل مكة وانتصر فى المدينة إلى أن هزمه جيش أموى جاءه من الشام فى جمادى الأولى ١٣٠ هـ.

وانقسم الخوارج فى بعض المسائل والفروع وأن ظلوا مجتمعين على أصولهم الفكرية، فانقسموا إلى:

١ ـ الأزارقة وهم أتباع نافع بن الأزرق قرروا أن ديار المخالفين هى ديار كفر فمن أقام بها فهو «كافر»، وقالوا إن أطفال الكفار سيخلدون فى النار، وأنكروا رجم الزانى وأقروا الحد لقذف المحصنة دون قذف المحصن، وسووا فى قطع يد السارق بين أن يكون المسروق قليلا أو كثيرا.

٢ ـ النجدات وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى قالوا إن الدين أمران:

أ ـ معرفة الله ومعرفة رسوله وتحريم دماء المسلمين وأموالهم.

ب ـ الإقرار بما جاء من عند الله جملة.

وما عدا ذلك من الحلال والحرام والشرائع فالجاهل بها معذور لأنها ليست من الدين وقالوا بكفر المصر على الذنب والمعصية كبيرة كانت أم صغيرة.

٣ ـ الإباضية وهم أتباع عبدالله بن إباض، هم أقل الخوارج غلوا، وأكثرهم اعتدالاً، فعندهم أن كفر مرتكب الكبائر هو «كفر نعمة» وليس «كفر شرك» ولم يقولوا إن أطفال الكفار مخلدون فى النار.

٤ ـ الصفرية وهم أتباع زياد الأصفر أو النعمان بن الأصفر أو عبدالله بن صفار، وهم مثل الأزراقة، خالفوهم فقط فى امتناعهم عن قتل أطفال المخالفين لهم فى الاعتقاد(١).

(١) انظر كتاب تيارات الفكر الإسلامى د. محمد عمارة.

وفرق الخوارج كثيرة جداً أعدت لها المصنفات ومازالت الخوارج تخرج علينا بفرق جديدة تقاتل الحكومات وتزعزع استقرار البلاد الإسلامية حتى الآن.

قامت الخوارج بثورات كثيرة فى عهد الخلافة الأموية، وكانت كلما أخمدت ثورة شبت أخرى، ولم تقتصر على أقاليم المشرق، بل امتدت إلى إفريقية والأندلس، وقد انتهت كلها بالقمع ومقتل زعمائها، أهمها فى عهد الخلفاء الأمويين وفى عهد ابن الزبير:

١ - وفى عهد معاوية بن أبى سفيان ثارت الخوارج فى الكوفة عام ٤٣ هـ بزعامة المستورد بن علقة ثم ثاروا فيها سنة ٥٢ هـ بزعامة خراش العجلى، وثاروا أيضاً سنة ٥٨ هـ بزعامة عروة بن أدية.

وفى البصرة ثاروا سنة ٤٥ هـ بزعامة يزيد بن مالك الباهلى المعروف باسم الخطيم الباهلى وسهم بن خالد الهجيمى.

وفى الأهواز ثاروا سنة ٥٩ هـ بزعامة مرداس بن حدير.

٢ - وفى عهد عبدالله بن الزبير انضم الخوارج إلى عبدالله بن الزبير وجاهدوا ضد بنى أمية، ولكنهم انفضوا عنه وقاتلوه حين علموا أنه يخالف رأيهم فى عثمان وعلى، وتجمعوا فى الأهواز وأعلنوا الثورة عليه بزعامة نافع بن الأزرق فأرسل مصعب بن الزبير والى العراق، جيشاً بقيادة المهلب بن أبى صفرة فقاتلهم فى معركة جرت عند نهر «دجيل» سنة ٦٥ هـ.

وفيها قتل زعيمهم نافع بن الأزرق وخلفه فى زعامة الخوارج الزبير بن الماحوز فأعلن الثورة فى الرى سنة ٦٨ هـ وحاصر أصبهان فقاتله أميرها عتاب بن ورقاء فى معركة قتل فيها ابن الماحوز فخلفه فى زعامة الخوارج قطرى بن الفجاءة.

٣ - وفى عهد عبدالملك بن مروان ثار الخوارج مع بداية تولية الحجاج الثقفى حكم العراق وقبله أيضاً وتولى قتالهم المهلب بن أبى صفرة وأولاده كما سيأتى.

وفى البحرين ثاروا بزعامة عبدالله بن قيس المعروف بأبى فديك سنة ٧٣ هـ، وأخرجهم منها المغيرة بن المهلب بن أبى صفرة بعد معركة قتل فيها أبو فديك.

فى الجزيرة ثاروا بزعامة صالح بن مسرح ومعه شبيب بن يزيد الشيبانى وأخوه مصاد سنة ٧٦ هـ، فوجه إليهم محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً قاتلهم فى معركة قتل فيها صالح وبويع من بعده شبيب بزعامة الخوارج.

فقام شبيب يتابع الثورة ويدخل الكوفة ويهزم الجيش الذى أرسله الحجاج بقيادة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ثم تحول شبيب إلى الأهواز، فأرسل إليه الحجاج جيشاً بقيادة سفيان بن الأبرد، فلما عبر شبيب جسراً على نهر دجيل اضطربت فرسه وسقط فى النهر ومات غرقاً «سنة ٧٧ هـ».

وفى طبرستان ثاروا بزعامة قطرى بن الفجاءة سنة ٧٧ هـ فأرسل الحجاج جيشاً بقيادة سفيان بن الأبرد فقاتله، فانفض عنه أصحابه وسقط فى شعب من الشعاب فاغتاله رجل من أهل طبرستان وأرسل رأسه إلى الحجاج.

٤ ـ قل خطر الخوارج نسبياً فى عهد الوليد بن عبدالملك وفى عهد أخيه سليمان، فلما تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز ثار فى «جوخى» بين خانقين والأهواز خارجى يدعى بسطام اليشكرى ويلقب بـ «شوذب» والتف حوله ثمانون فارساً من عرب ربيعة، فطلب عمر من أمير العراق أن يوجه إليه منهم رجلين ليناظراه، فاختار بسطام رجلين حازمين من رجاله وأرسلهما إلى عمر، وفى المناظرة رجحت حجة عمر، فطلب الخارجيان منه أن يعودا إلى «شوذب» ليعلماه نتيجة المناظرة، ولم يلبث عمر أن توفى بعد فترة خلافة راشدة قصيرة.

٥ ـ فى عهد يزيد بن عبدالملك بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز أرسل أمير الكوفة جيشاً لحرب شوذب وأصحابه فردوه فلما تولى مسلمة بن عبدالملك إمارة العراق سنة ١٠١ هـ أرسل جيشاً بقيادة سعيد الحرشى فرأى شوذب وأصحابه ما لا قبل لهم باحتماله، فقال لأصحابه: من كان يريد الشهادة فقد جاءته، ومن كان يريد الدنيا فقد ذهبت، فكسروا أغماد سيوفهم وحملوا على جيش سعيد، فقتلوا فى المعركة.

فى البحرين ثار الخوارج بزعامة مسعود بن أبى زينب العبدى سنة ١٠٥ هـ وأخرج منها أميرها الأشعث بن عبدالله بن الجارود، ثم سار إلى اليمامة فخرج

إليه أميرها سفيان بن عمرو العقيلى، وفى المعركة التى جرت بينهما قتل مسعود، وقتل هلال بن مدلج الذى تولى زعامة الخوارج من بعده.

وقيل إن مسعوداً غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلى.

أما فى الموصل ثار الخوارج بزعامة مصعب بن محمد الوالبى، فسير إليهم خالد القسرى أمير العراق، سنة ١٠٥ هـ جيشاً، فقاتلهم فى معركة قتل فيها مصعب كثيرا من أصحابه.

٦ ـ فى عهد هشام بن عبدالملك ثار الخوارج فى الأهواز بزعامة صحارى بن شبيب بن يزيد الشيبانى سنة ١١٩ هـ ومقتله فى معركة جرت بينه وبين جيش أرسله خالد القسرى أمير العراق.

وفى الجزيرة ثار ثورة الخوارج بزعامة بهلول بن بشر الشيبانى الملقب «كثارة» سنة ١١٩ هـ وانتهت بمقتله.

وفى المغرب الأقصى ثار الخوارج فى سنة ١١٦ و١٢٢ هـ على عبيد الله بن الحبحاب أمير إفريقية، لظلم عماله.

وفى الأندلس ثاروا سنة ١٢٤ هـ على عبدالملك بن قطن أمير الأندلس، فقمع ثورتهم بلج بن بشر القشيرى.

٧ ـ تولى الخلافة بعد هشام بن عبدالملك ثلاثة خلفاء هم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويزيد بن الوليد بن عبد الملك وأخوه إبراهيم، ولم تتجاوز مدة خلافتهم الستة أشهر، وتولى الخلافة من بعدهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وفى عهده كثرت عليه ثورات الخوارج.

ففى الجزيرة ثار الخوارج بزعامة سعيد بن بهدل الشيبانى ومعه الضحاك بن قيس الشيبانى سنة ١٢٧ هـ وتولى مروان بن محمد قمعها.

وفى اليمن ثار الخوارج بزعامة يحيى الكندى الملقب بطالب الحق ومعه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى، واستولوا على المدينة، وجهز مروان بن محمد جيشاً

بقيادة عبدالملك بن عطية السعدى فقمع ثورتهم.

وفى الموصل ثار الخوارج بزعامة شيبان بن عبدالعزيز اليشكرى سنة ١٢٩ هـ فقام مروان بن محمد بقمعها.

وفى إفريقيا قامت ثورتهم سنة ١٣١ هـ بزعامة عبدالجبار المرادى، ثم ثورتهم سنة ١٣٢ هـ بزعام إسماعيل بن زياد النفوسى.

وإلى جانب هذه الثورات التى قام بها الخوارج فى عهد مروان بن محمد فقد ثار عليه سليمان بن هشام بن عبدالملك وانتفض عليه أهل حمص ومعهم الكلبيون بزعامة ثابت بن نعيم الجذامى، وثار عليه أهل الغوطة وأهل فلسطين وتولى مروان قمعها.

وقد أضعفت هذه الثورات قوة مروان وانهارت أمام الجيش العباسى الذى كان يقوده عبدالله بن على العباسى وانتهى الأمر بهزيمة مروان فى وقعة «الزاب» سنة ١٣٢ هـ وبها كانت نهاية الحكم الأموى وبداية حكم جديد للعباسية ثار فيه الخوارج ثورات كثيرة لم تنته حتى الآن فقد بدأت ثورات الخوارج السياسية الدينية ضد الحكام أياً كان نوعها حديثاً وقديماً.

■ ■ ■

قتال الحجاج فرق الخوارج التى ظهرت بثورات فى عهده

حين قدم الحجاج إلى العراق والياً خطب خطبته الشهيرة فى الكوفة ثم البصرة وأرهب الناس هناك ودعاهم للخروج واللحاق بالمهلب بن أبى صفرة الذى قاد جيش الخلافة الأموية ومن قبله جيش الخلافة الزبيرية لقتال الخوارج الذين قادوا ثورة وتمردا على الخليفة عبدالله بن الزبير بعد أن تحالفوا معه ثم بعد مقتل ابن الزبير وتولى عبدالملك الخلافة استمر المهلب فى مهمته فى قتال الخوارج.

كانت أول مهام الحجاج جمع الجنود من العراقيين للانضمام إلى المهلب لقتال الخوارج الأزارقة.

فالذى قاد قتال الخوارج فى عصر الحجاج هو المهلب بن أبى صفرة وهو أحد أشراف البصرة من الأزد[1]، اشتهر بالكرم والجود وقد ولد عام فتح مكة وكان قومه ينزلون فيما بين عمان والبحرين وقد ارتدوا فى عهد أبى بكر الصديق فقاتلهم عكرمة بن أبى جهل فظفر بهم وبعث ببعضهم إلى الصديق أبى بكر وفيهم أبو صفرة وابنه المهلب غلام لم يبلغ الحنث.

وولى المهلب أرض الجزيرة بالعراق فى عهد خلافة عبدالله بن الزبير عام ٦٨ هـ، ثم تولى حرب الخوارج فى بداية عهد الحجاج حيث عهد إليه ذلك منذ ولاية بشر بن مروان[2]، وقد تولى المهلب وأبناؤه قتال الخوارج.

بعد قيام الخوارج بالقتال مع ابن الزبير حين حاصره جيش يزيد بن معاوية بقيادة الحصين بن نمير.

وبعد انسحاب الجيش اختلفوا مع ابن الزبير فى مسائل فقهية وحاربوه،

---

(١) المهلب بن أبى صفرة ظالم أبو سعيد الأزدى، انظر البداية والنهاية.

(٢) توفى المهلب غازياً بمرو الروذ وعمره ست وسبعون سنة وله عشرة أولاد، وخلفه ابنه يزيد وتوفى عام ٨٣ هـ.

وانصرف الخوارج إلى العراق مركز تواجدهم وأصلهم فعاد فريق إلى العراق تزعمهم نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر وعبدالله بن صفار وعبدالله بن إباض بن بهيس، وذهب فريق منهم إلى اليمامة، ثم رحل نجدة بن عامر إلى اليمامة إثر خلافه مع نافع بن الأزرق وأسس فرقة النجدات وهذا دأب الخوارج دوماً.

واستقر ابن الأزرق فى الأهواز بعد أن اعتبر البصرة دار كفر ولا يجوز الإقامة فيها وتبعه ثلثمائة من أصحابه.

وبقى كل من عبدالله بن صفار الذى أسس فرقة الخوارج الصفرية وعبدالله ابن إباض الذى ينتسب إليه الخوارج الإباضية.

وكانت فرقة الخوارج تنتهى كما سنرى بمقتل مؤسس الفرقة وزعيمها.

والفرق التى قادت ثورات ضد حكم بنى أمية حتى عصر الحجاج وقاتلهم، كانوا الأزارقة والصفرية والإباضية:

أولاً: ثورة الخوارج الأزارقة وقتال الحجاج لهم:

بدأ قتال الخوارج الأزارقة الذين استقروا فى الأهواز بعد أن استفحل أمرهم واستطاعوا السيطرة عليها ووصلوا إلى نهر الفرات، وفى عام ٧٣ هـ أمر الخليفة عبدالملك بن مروان أخاه والى العراق بشر بن مروان بقتال الخوارج وأمرهم بتكليف المهلب بن أبى صفرة بهذه المهمة.

ويذكر الطبرى فى تاريخه أن الخليفة عبدالملك كتب إلى بشر بن مروان: أما بعد، فابعث المهلب فى أهل مصره - أى بلده - إلى الأزارقة ولينتخب من أهل مصر وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم، فإنه أعرف بهم، وخله ورأيه فى الحرب، فإنى أوثق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين، وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً.

وابعث عليهم رجلاً معروفاً شريفاً حسيباً صليباً - أى قويا صلبا - يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب، ثم أنهض إليهم أهل المصرين - أى البلدين - فليتبعوهم إلى وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم، والسلام عليكم[٢].

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى، وتاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ.

(٢) تاريخ الطبرى.

واختار بشر بن مروان عبدالرحمن بن مخنف ليرأس جيش الكوفيين وأمره أن ينتخب أولى الفضل والنجدة كما أمر المهلب أن ينتخب من شاء.

واستدل ابن جرير الطبرى على أن بشر بن مروان كان يكره قيادة المهلب لهذا الجيش وأنه ولاه لرغبة أخيه الخليفة عبدالملك من حديث لعبدالرحمن بن مخنف حين قال له:

دعانى بشر بن مروان فقال لى: إنك قد عرفت منزلتك منى وأثرتك عندى، وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش للذى عرفت عن جزئك وغنائك وشرفك وبأسك، فكن عند أحسن ظنى بك، انظر إلى الكذا كذا ـ يقصد ـ المهلب ـ فاستبد عليه الأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً وتنقصه وقصر به.

وقال ابن مخنف: فترك أن يوصينى بالجند، وقتال العدو والنظر لأهل الإسلام وأقبل أن يغرينى بابن عمتى ـ المهلب ـ كأنى من السفهاء أو من يستصبى ويستجهل[1].

وقام المهلب بطرد الأزارقة من الأهواز وهزمهم وأقصاهم إلى بلاد فارس ومكث هو فى برامهرمز، حيث مكث فيها عشرة ثم جاءت الأنباء بموت بشر بن مروان واضطربت أحوال الجنود واجتمعوا بسوق الأهواز حتى إن أهل البصرة أرادوا الانسحاب ـ من جيش المهلب الذى خطبهم قائلاً: أنكم تذبون عن مصركم ـ أى بلدكم ـ وحرمكم وفيئكم»[2].

وتلك هى إحدى أحوال أهل العراق فى العصر الماضى، وبالفعل هرب جماعة من الجند وعادوا إلى البصرة، ولهذا فقد أشار المهلب فى كتابه للحجاج عند ثورة ابن الأشعث ومبايعة أهل البصرة والكوفة له بأنهم لن يستمروا على القتال معه وأنهم سوف يخرجون عليه[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر تاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ.

(٣) سيأتى ذكر الخطاب فى الفصل الخاص بثورة ابن الأشعث في هذا الكتاب.

ولكن الأمر تغير حين وصل الحجاج إلى كرسى الحكم فى العراق وخطبته الشهيرة وتهديده لمن لا يخرج للقتال مع جيش المهلب بالقتل وسلب أمواله وهدم داره، فخرج أهل البصرة والكوفة أفواجاً كى يلحقوا بجيش المهلب خوفاً من بطش الحجاج حتى قال المهلب حين جاءته الجموعة تنضم إلى جيشه:

قدم العراق اليوم رجل ذكر، اليوم قوتل العدو[1].

وفى رواية عند المسعودى أنه قال:

من هذا الذى استعمل على العراق؟ من هذا الذى ذكر الرجال؟ فويل والله للعدو إن شاء الله.

وخرج الحجاج بنفسه إلى رستقباذ ليشرف بنفسه على جيش المهلب وأرسل إليه عبدالرحمن بن مخنف ومعه كتاب يحرضه على قتال الخوارج جاء فيه:

«إذا جاءكم كتابى هذا فناهضوا الخوارج، والسلام»[2].

وقد قام المهلب بحرب الأزارقة برامهرمز واضطرهم بالجلاء والانسحاب من غير قتال شديد ونزل الخوارج سابور بأرض يقال لها كازرون وسار إليهم المهلب وابن مخنف فى رمضان وأمر المهلب بحفر خندق لمعسكر جنوده حماية له، إلا أن عبدالرحمن بن مخنف لم يأمر جنوده بحفر خندق كما فعل المهلب لاستهانته بأمر الخوارج.

فذكر أهل البصرة أن المهلب قال لعبدالرحمن بن مخنف: إن رأيت أن تخندق عليك فافعل.

وإن أصحاب عبدالرحمن أبوا عليه وقالوا: إنما خندقنا سيوفنا[3].

وكانت نتيجة هذه الاستهانة بالخصم أن هجم الخوارج على معسكرهم ليلاً فقاتلوهم وهزموهم وقتلوا منهم الكثير وقتل ابن مخنف نفسه.

وقال الشاعر فى هذه الواقعة:

---

(١) انظر البداية والنهاية والكامل فى التاريخ ومروج الذهبى اللمسعودى.

(٢) تاريخ الطبرى.

(٣) تاريخ الطبرى.

لمن العــسكر المكلل بالصــرعى فـــهم بين مــــيت وقـــتــيل

فـتـراهم تَسْـفِى الرياح عليـهم حـاصب الرَّمْل بعـد جَـرٌ الذيول

واستمر قتال المهلب للخوارج بعد مقتل ابن مخنف، وظل يقاتلهم نحو سنة بسابور.

ولكن أهل الكوفة ذكروا رواية أخرى تختلف عن الرواية السابقة التى ذكرها أهل البصرة فقالوا إن الخوارج هجموا على معسكر المهلب واضطروه إلى اللجوء لمعسكره وأرسل إلى ابن الأخنف يطلب منه المدد قائلاً له:

إن عدونا واحد وقد ترى ما لقى المسلمون فامدد إخوانك يرحمك الله(١).

واستجاب ابن المخنف لنداء المهلب له بالمدد وأرسل له ما لديه من جنود على رأسهم ابنه جعفر.

ونتيجة لهذا قام الخوارج بالالتفاف على معسكر ابن المخنف الذى لم يكن به الكثير من الجنود فانكشف ابن المخنف وقاتل قدر استطاعته حتى قتل.

وبالتالى تكون هزيمة ابن المخنف ومقتله بسبب نصرته للمهلب، ويرى البعض أن من هذه الرواية يتضح أن عدد جيش البصرة الذى يقوده المهلب كان أقل عدداً من جيش الكوفة الذى يقوده ابن المخنف.

ولما علم الحجاج بمقتل عبدالرحمن بن المخنف أرسل عتاب بن ورقاء قائداً لجيش الكوفة على أن يسمع ويطيع للمهلب.

ولكن عتاب بن ورقاء وقع بينه وبين المهلب خلاف أدى إلى أن عتابا أرسل إلى الحجاج وأعلمه بالأمر وكيف أن المهلب أغرى بعض سفهاء الكوفة فى جيش الكوفة بقائدهم عتاب، وفى تلك الأثناء كانت ثورة عبدالله بن الجارود قد وقعت فأرسل الحجاج إلى عتاب كى يأتى إليه ليساعده فى قمع الثورة عنده، وترك قتال الخوارج للمهلب.

---

(١) المصدر السابق.

وبعد انتهاء الحجاج من القضاء على ثورة ابن الجارود وقتل ابن الجارود أرسل رءوس زعماء الثورة وعلى رأسهم ابن الجارود إلى المهلب كى يحفزه على قتال الخوارج وترتفع الروح المعنوية لجنوده، ويدب الرعب فى قلوب الخوارج.

واستطاع المهلب بعد قتال مرير مع الخوارج دام نحو سنة أن يجعلهم ينسحبون إلى خارج أرض فارس التى أصبحت تحت سيطرته وصدر أمر الخليفة عبدالملك بترك خراج فارس له وأن يعين عماله من جهته عليه.

ونظر لطول الحرب التى خاضها المهلب فى حربه مع الخوارج أرسل الحجاج رسالة إلى المهلب يتهمه فيها بالجبن ويطلب منه سرعة الانتهاء من العدو.

وكان المهلب يرى أن طول الحرب لمصلحته وقال للحجاج إنى منتظر لهم إحدى ثلاث: موت ذريع أو جوع مضر، أو اختلاف فى أهدائهم.

وقد تحقق ما كان يرجوه المهلب حيث وقع الخلاف والاختلاف فى صفوف الأزارقة قضى عليهم!! فكيف حدث ذلك؟

تذكر كتب التاريخ الإسلامى أن المهلب بن أبى صفرة حيث فشل فى القضاء على ثورة الأزارقة عسكريا حاول حصارهم والتضييق عليهم حتى ألجأهم إلى كرمان وطردهم من فارس وبعدت عنهم ديارهم، وظل القتال بين الطرفين لا يأتى بالحسم، فانتظر المهلب أن تقع العداوة بينهم فخالف بعضهم «قطريا» زعيم الأزارقة وخرجوا عليه وبايعوا عبدربه الكبير فكان هلاكهم.

وقد ذكر ابن جرير ملخص ما جرى بين المهلب والأزارقة خلال عام من القتال الشديد. فقال:

ذكر هشام عن أبى مخنف: عن يوسف بن يزيد أن المهلب أقام بسابور فقاتل قطريا وأصحابه من الأزارقة بعد ما صرف الحجاج عتاب بن ورقاء عن عسكره نحواً من سنة.

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالاً شديداً وكانت كرمان فى أيدى الخوارج وفارس فى أيدى المهلب، فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذى هم به لا

يأتيهم من فارس مادة وبعدت ديارهم عنهم، فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت ـ وجيرفت مدينة كرمان ـ فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالاً شديداً وحازهم عن فارس كلها.

فلما صارت فارس كلها فى يدى المهلب بعث الحجاج عليها عماله وأخذها المهلب، فبلغ ذلك الخليفة عبدالملك فكتب إلى الحجاج:

«أما بعد، فدع بيد المهلب خراج فارس، فإنه لابد للجيش من قوة ولصاحب الجيش من معونة ودع له كورة فساودرابجرد، وكورة إصطخر».

فتركها للمهلب، فبعث المهلب عليها عماله، فكانت له قوة على عدوه وما يصلحه(١).

لكن الحجاج لما استبطأ، النصر أرسل إلى المهلب أحد رجاله وهو البراء بن قبيصة ومعه رسالة جاء فيها: «أما بعد، فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطدمت هذه الخارجة المارقة، ولكنك تحب طول بقائهم لتآكل الأرض حولك.

وقد بعث إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم، فانهض إليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين، ثم جاهدهم أشد الجهاد، وإياك والملل والأباطيل، والأمور التى ليست لك عندى بسائغة ولا جائزة، والسلام».

فخرج المهلب وكل أبنائه والمسلمين لقتال الخوارج وقاتلهم قتالاً شديداً حتى جاء البراء بن قبيصة إلى المهلب وقال له: لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا بأس، أنت والله المعذور».

واستمر المهلب يقاتل الأزارقة ويشد عليهم، وقال للبراء: كيف رأيت؟

قال: رأيت قوماً والله ما يعينك عليهم إلا الله فأحسن المهلب إلى البراء وحمله وكساه وأمر له بعشرة آلاف درهم ثم انصرف البراء عائداً إلى الحجاج وأخبره بما رأى وأرسل المهلب كتاباً إلى الحجاج يقول فيه:

---

(١) انظر تاريخ الطبرى.

«أما بعد، فقد أتانى كتاب الأمير أصلحه الله، واتهامه إياى فى هذه الخارجة المارقة، وأمرنى الأمير بالنهوض إليهم، وإشهاد رسوله ذلك، وقد فعلت، فليسأله عما رأى، فأما أنا فوالله لو كنت أقدر على استئصالهم وإزالتهم عن مكانهم ثم أمسكت عن ذلك لقد غششت المسلمين، وما وفيت لأمير المؤمنين ولا نصحت الأمير فمعاذ الله أن يكون هذا من رأى، ولا مما أدين الله به، والسلام.

ثم ظل المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر على استئصالهم حتى دب الخلاف بينهم وقد ذكر ابن جرير الطبرى بداية هذا الاختلاف وكيفية ظهور ودور المهلب فى إذكائه فقال:

ثم إن رجلاً منهم كان عاملاً لقطرى زعيم الأزارقة على ناحية من كرمان خرج من سرية لهم يدعى المقعطر من بنى خبتة فقتل رجلاً قد كان ذا بأس من الخوارج ودخل منهم فى ولاية، فقتله المقعطر فوثبت الخوارج إلى قطرى، فذكروا له ذلك وقالوا: أمكنا من الضبى ـ القاتل ـ نقتله بصاحبنا.

فقال لهم: ما أرى أن أفعل، رجل تأول فأخطأ فى التأويل، ما أرى أن تقتلوه، وهو من ذوى الفضل منكم، والسابقة فيكم.

قالوا: بلى.

قال لهم: لا.

فوقع الاختلاف بينهم، فولوا عبد ربه الكبير، وخلعوا قطريًّا، وبايع قطرياً منهم عصابة نحواً من ربعهم أو خمسهم، فقاتلهم نحواً من شهر غدوة وعشية.

وفرح المهلب لهذا الخلاف والقتال الذى حدث فى الخوارج وكان ينتظره بعد عدم استطاعته تحقيق النصر العسكرى عليهم أو حصارهم، وأرسل المهلب إلى الحجاج يعلمه بالأمر فيكتب له:

ـ أما بعد فإن الله قد ألقى بأس الخوارج بينهم فخلع عظمهم ـ أكثرهم ـ قطريًّا وبايعوا عبد ربه وبقيت عصابة منهم مع قطرى، فهم يقاتل بعضهم غدوا وعشيا، وقد رجوت أن يكون ذلك من أمرهم سبب هلاكهم إن شاء الله، والسلام.

فرد عليه الحجاج برسالة جاء فيها:

أما بعد، فقد بلغنى كتابك تذكر فيه اختلاف الخوارج بينها، فإذا أتاك كتابى هذا فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا فتكون مؤونتهم عليك أشد، والسلام.

فرد عليه المهلب فى رسالة أخرى قائلاً:

أما بعد، فقد بلغنى كتاب الأمير، وكل ما فيه قد فهمت، ولست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتل بعضهم بعضاً وينقص بعضهم عددا بعض، فإن تموا على ذلك فهو الذى نريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقق بعضهم بعضاً، فأناهضهم على تفيئة ذلك وهم أهون ما كانوا وأضعفه شوكة، إن شاء الله، والسلام.

وكان رأى المهلب هو الصواب، لأنه لو استمع لنصيحة الحجاج وبادر الخوارج وهم فى حال اختلافهم واقتتالهم لأدى ذلك إلى وحدتهم ضده، وأراد كذلك أن يريح هذه من عناء قتالهم طالما هم يقومون بذلك ويقتل بعضهم بعضاً حتى يهلكوا.

وإذا انتهى الخلاف بينهم والقتال، عاد إلى قتالهم وهم فى حالة معنوية وقتالية سيئة فيتحقق له النصر عليهم أسهل ما كان فى حالة قوتهم ووحدتهم التى أعيته كثيراً فى الماضى.

وهذا ما تحقق للمهلب فى نهاية الأمر، فقد ترك المهلب الخوارج يقتتلون فيما بينهم شهراً، حتى إن زعيمهم قطريا قد خرج بمن معه نحو طبرستان، وبقى من تبقى منهم مع الزعيم الجديد لهم عبدربه الكبير، فنهض إليهم المهلب وقاتلهم قتالاً شديداً، فقضى عليهم ولم ينج منهم إلا قليل وتحقق له النصر عليهم وقتل زعيمهم الجديد عبدربه وهرب الزعيم القديم قطرى.

ولم يكتف الحجاج بذلك بل أرسل جيشاً آخر بقيادة سفيان بن الأبرد وعامة الجيش من أهل الشام ودعمه بجيش من الكوفة كان بقيادة محمد بن الأشعث فى طبرستان كى يطاردوا الزعيم الفار «قطريا» حتى لحقوه فى شعب من شعاب

طبرستان فقاتلوه وتفرق عنه أصحابه ووقع هو عن دابته فى أسفل الشعب فجاءه أحد أبناء البلدة وهو لا يعرفه فقال له قطرى: اسقنى.

وقد اشتد به العطش، فقال الرجل: أعطنى شيئاً حتى أسقيك.

فقال قطرى: ويحك، والله ما معى إلا ما ترى من سلاحى، فأنا مؤتيكه إذا أتيتنى بماء.

قال: لا بل إعطينه الآن.

قال قطرى: لا، ولكن ائتنى بماء قبل.

وحينها قام الرجل بضرب «قطرى» بحجر كبير أصاب إحدى ركبيه فأوهته وصاح بالناس فأقبلوا نحوه فقتله جيش الكوفة وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى الحجاج.

ولم يتبق من الخوارج الأزارقة إلا مجموعة بايعوا عبيدة بن هلال وقد تحصنوا فى قصر بقومس، فحاصرهم سفيان بن الأبرد، وأمر منادياً ينادى فيهم: أيما رجل قتل صاحبه ثم خرج إلينا فهو آمن.

فأنشد عبيدة بن هلال:

لعمرى لقد قام الأصم بخطبة ... لذى الشك منها في الصدور عليلُ

لعمرى لئن أعطيت سفيان بيعتى ... وفارقت دينى إننى لجهول

إلى الله أشكو ما ترى بجيادنا ... تَساوكَ هزلى مُخهُن قليلُ

تعاورها القُذَّافُ من كل جانب ... بقومس حتى صَعْبُنَّ ذلولُ

فإن يكُ أفناها الحصار فربما ... تشحط فيما بينهنَّ قتيل

وقد كنَّ مما إن يُقَدْنَ على الوجى ... لهنَّ بأبواب القباب صهيل

فحاصرهم سفيان حتى جهدوا وأكلوا دوابهم ثم خرجوا إليه فقاتلوه حتى قتلوا جميعاً فبعث برؤوسهم إلى الحجاج وذلك عام ٧٧ هـ ودخل إلى دُنباوند

وطبرستان وظل فيها واليا حتى عزله الحجاج قبل واقعة دير الجماجم التى سيأتى ذكرها مع ذكر ثورة ابن الأشعث على الحجاج والخليفة.

وبمقتل عبيدة بن هلال ومن معه من الأزارقة انتهت ثورتهم وتخلص منهم الحجاج بعد قتال مرير وشديد وطويل ليس أطول منه الاقتال مع عبدالرحمن بن الأشعث الذى قام بثورته ضده كما سيأتى ذكره فى حينه إن شاء الله.

■■■

قتال الحجاج الخوارج الصفرية

الخوارج الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر وقيل عبدالله بن صفار وأيضاً قيل عبيد الله بن قبيصة وهى إحدى فرق الخوارج الرئيسة وقيل إن سبب التسمية أيضاً لكثرة عبادتهم وصلاتهم حتى اصفرت وجوههم والأرجح أن سبب التسمية تعود إلى مؤسس الفرقة كعادة تسمية الخوارج.

ومن الخوارج الصفرية خرجت فرقة أخرى تسمى الخوارج الصالحية نسبة إلى صالح بن مسرح التميمى أحد علماء الخوارج وكان يعيش فى «دارا» بين نصيبين «وماردين» وأرض الموصل والجزيرة وله أصحاب يقرئهم القرءان ويفقههم فى الدين وكان يقص القصص ولم يتعجل الخروج على الخليفة.

قال أبو مخنف: فحدثنى عبدالله بن علقمة قال: بينا أصحاب صالح يختلفون إليه إذ قال لهم ذات يوم: ما أدرى ما تنتظرون حتى متى أنتم مقيمون، هذا الجور - أى الظلم - قد فشا وهذا العدل قد عفا، ولا تزداد هذه الولاة على الناس إلا غلواً وعتواً وتباعداً عن الحق، وجرأة على الرب.

فاستعدوا إلى أخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذى تريدون، فيأتوكم فنلتقى وننظر فيما نحن صانعون، وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون[1].

وكان ذلك عام ٧٦ هـ.

وتراسل أصحابه فيما بينهم واجتمعوا فيما هم فى ذلك إذ قدم عليه ابن وائل اليشكرى برسالة من شبيب[2] إلى صالح بن مسرح جاء فيها:

(١) تاريخ الطبرى.

(٢) هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت بن شراحيل بن صبرة بن ذهل بن شيبان الشيبانى.

«أما بعد، فقد علمت أنك كنت أردت الشخوص وقد كنت دعوتنى إلى ذلك فاستجبت لك، فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين، ولن نعدل بك منا أحداً وأن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتنى، فإن الآجال غادية ورائحة.

ولا آمن أن تخترمنى المنية ولما أجاهد الظالمين فيا له غبناً ويا له فضلاً متروكاً.

جعلنا الله وإياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه، والنظر إلى وجهه، ومرافقة الصالحين فى دار السلام، والسلام عليكم.

وجاء رد صالح عليه بالموافقة:

أما بعد، فقد كان كتابك وخبرك أبطأ عنى حتى أهمنى ذلك، ثم إن امرأ من المسلمين نبأنى مخرجك ومقدمك، فنحمد الله على قضاء ربنا.

وقد قدم علىَّ رسولك بكتابك، فكل ما فيه قد فهمته، ونحن فى جهاز واستعداد للخروج، ولم يمنعنى من الخروج إلا انتظارك، فأقبل إلينا، ثم أخرج إلينا متى أحببت، فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه، ولا تقضى دونه الأمور، والسلام عليك.

وهكذا اجتمع رأى شبيب وصالح على الخروج على الحجاج والخليفة الأموى، وخرج شبيب إلى صالح فلما لقيه قال: اخرج بنا رحمك الله: فوالله ما تزاد السُّنة إلا دروساً، ولا يزداد المجرمون إلا طغياناً.

وأعلم صالح أتباعه أنه سوف يخرج فى هلال شهر صفر ليلة الأربعاء ٧٦ هـ، فاستعدوا لهذا الخروج وأعدوا العدة.

قال أبو محنف: فحدثنى فروة بن لقيط الأزدى قال: والله إنى لمع شبيب بالمدائن إذ حدثنا عن مخرجهم قال: لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج، فكان رأيى استعراض الناس لما رأيت من المنكر والعدوان والفساد فى الأرض، فقمت إليه فقلت: يا أمير المؤمنين - يقصد صالح بن مسرح - كيف ترى فى السيرة فى هؤلاء الظلمة؟

أنقتلهم قبل الدعاء، أم ندعوهم قبل القتال؟

وسأخبرك برأيى فيهم قبل أن تخبرنى فيهم برأيك، أم أنا فأرى أن نقتل كل من لا يرى رأينا قريباً كان أو بعيداً، فإنا نخرج على قوم غاوين طاغين قد تركوا أمر الله واستحوذ عليهم الشيطان.

فقال: لا بل ندعوهم، فلعمرى لا يجيبك إلا من يرى رأيك وليقاتلنك من يزرى عليك، والدعاء أقطع لحجتهم، وأبلغ فى الحجة عليهم.

قال: فقلت له: فيكف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به؟

ما تقول فى دمائهم وأموالهم؟

فقال صالح: إن قتلنا وغنمنا فلنا، وإن تجاوزنا عفونا فموسع علينا ولنا.

قال: فأحسن القول وأصاب، رحمة الله عليه وعلينا[1].

وقال صالح بن مسرح لأصحابه ليلة خروجه:

اتقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم، وينصبون لكم، فإنكم إنما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه، وعُصى فى الأرض، فسفكت الدماء بغير حلها، وأخذت الأموال بغير حقها، فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها، فإن كل ما أنتم عاملون عنه مسئولون، وإن عُظْمَكم رجالة، وهذه دواب لمحمد بن مروان فى هذا الرستاق، فأبدؤوا بها، فشدوا عليها فاحملوا أراجلكم وتقووا بها على عدوكم.

وكان عددهم فى تلك الليلة مائة وعشرة أو مائة وعشرين رجلاً، وقد نصحهم صالح بعدم القتال إلا إذا اضطروا لذلك، وكان قد أخذوا دواب وخيلا لمحمد بن مروان نائب الجزيرة وأخى الخليفة عبدالملك فأعطاها لهم ليركبوها، وأقاموا بأرض «دارا» ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل «دارا» ونصيبين وسنجار.

ولما علم نائب الخليفة محمد بن مروان بأمرهم استهان بهم وأرسل إليهم ألف فارس عليهم عدى بن عدى بن عميرة فساروا إليهم وكأنهم يساقون إلى الموت خوفاً من قتالهم ولعلمهم جلد الخوارج وشدتهم فى القتال، فلما التقوا مع الخوارج

(١) تاريخ الطبرى ـ مصدر سابق.

استطاعت الخوارج رغم قلة عددهم هزيمة جند نائب الخليفة هزيمة شنيعة بالغة وغنم الخوارج ما لديهم.

وعاود محمد بن مروان الكرة فأرسل إليهم سرية من ألف وخمسمائة فارس بقيادة الحارث بن جعونة وسرية أخرى من ألف وخمسمائة فارس عليهم خالد بن الحر، وقال لهما: أيكما سبق إليهم فهو الأمير على الناس.

فساروا إليهم فى ثلاثة آلاف فارس مقاتل، والخوارج كما ذكر عن خروجهم كاوا مائة رجل مقاتل وعشرة أو عشرين.

وتقاتل الطرفان فى «آمد» واشتد القتال حتى الماء، وقتل من الخوارج نحو سبعين، وقتل من جيش ابن مروان نحو الثلاثين وهربت الخوارج فى الليل وخرجوا من منطقة الجزيرة وعبروا الموصل ومضوا حتى قطعوا «الدسكر»ة فبعث الحجاج ثلاثة آلاف عليهم الحارث بن عميرة لقتالهم ولحق بهم بأرض الموصل ولم يكن مع صالح سوى تسعين رجلاً.

ورغم قلة عدد الخوارج إلا أنهم صبروا فى القتال صبراً شديداً.

وقتل فى هذه المعركة زعيم الخوارج الصفرية صالح بن مسرح وجرح «شبيب» فاحتمله زملاؤه ودخلوا به حصناً هنالك وقد بقى معهم سبعون رجلاً، فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأمر جنوده أن يحرقوا باب المكان الذى تحصن به الخوارج ففعلوا ورجعوا إلى معسكرهم وهم مطمئنون على أن الخوارج سوف يسلمون أنفسهم.

لكن الخوارج خرجوا من المكان الذى تحصنوا به وهاجموا جيش الحارث بن عميرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذ الخوارج بقيادة شبيب ما فى معسكرهم وهرب باقى الجند إلى المدائن وكان هذا أول نصر يحرزه شبيب بعد توليه زعامة الخوارج كما ذكر ابن كثير فى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة عام ٧٦ هـ.

واجتمعت الخوارج على «شبيب» وبايعوه ويذكر البغدادى أن مبايعة «شبيب» جاءت بوصية من صالح بن مسرح بعد أن جرح فى المعركة وأشرف على الموت وأنه

قال لأصحابه: قد استخلفت عليكم شبيباً لأنه رجل شجاع مهيب فى عدوكم فخليفته الفقيه منكم بفقهه. ثم مات فبايعوا شبيباً(١).

ويروى غيره أن مبايعة الخوارج لشبيب جاءت بعد مقتل زعيمهم صالح ودخول الحصن وأحاط بهم جيش الحجاج وأراد إجبارهم على التسليم بحرق الباب فقال شبيب لأصحابه: «ما تنتظرون فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه لهلاككم».

فقالوا له: مرنا بأمرك.

فقال: إن الليل أخفى للويل، بايعونى أو من شئتم منكم ثم أخرجوا بنا نشد عليهم فى عسكرهم فإنهم لذلك منكم آمنون، وأنا أرجو أن ينصركم الله عليهم.

قالوا له: أبسط يدك نبايعك.

فبايعوا وكانوا نحو السبعين أو الثمانين رجلاً(٢).

وقام الخوارج بإحضار اللبود فبلوها بالماء لإطفاء النار التى أضرمت بباب الحصن، واستطاعوا اطفاءها وانطلقوا قاصدين معسكر جيش الحارث فباغتوهم بالقتال فقتلوا منهم الكثير وجرح الحارث وحمله أصحابه وهرب الباقون وانهزموا وغنم الخوارج ما فى المعسكر ثم ساروا إلى المدائن.

وهكذا أصبح للزعيم الجديد شبيب شأن حيث انتصر فى أول معاركه رغم قلة عدد من معه، فمن هو «شبيب»؟

لم يكن شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى فقيهاً وإنما مقاتلاً شرساً لم يستطع الحجاج وقواده من هزيمته، وكانت قبيلته تسكن على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات فى صحراء الكوفة وفى بداية أمره ذهب إلى الوزير المقرب من الخليفة عبد الملك وهو روح بن زنباع والتمس منه أن يسأل الخليفة عطاءه مثل عطاء أهل الشرف، وبالفعل سأل الوزير الخليفة، فكان رد عبدالملك: رجل لا أعرفه.

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى.

(٢) انظر تاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ.

فأبلغ روح بن زنباع، ذلك لشبيب فقال له شبيب: يوشك أن يعرفنى[1].

وفى عام ٧٥ هـ عندما ذهب الخليفة عبدالملك للحج كان شبيب وأستاذه صالح فى مكة يحجان وهمَّ شبيب باغتيال الخليفة، وعلم عبدالملك بتلك المحاولة فأمر الحجاج بالقبض على شبيب وصالح، مما جعل شبيب يستعجل شيخه صالح بالخروج لقتال الأمويين.

فاجتمع الإثنان لقتال الأمويين أحدهما صاحب علم وفقه وهو صالح بن مسرح والثانى صاحب قوة وبأس ودراية بالقتال والمعارك وهو شبيب بن يزيد الشيبانى.

وبعد أن تولى شبيب زعامة الخوارج بعد مقتل صالح اشتد أمرهم وأصبحوا قوة لا يستهان بها فى القتال.

ارتحل شبيب ومن معه بعد انتصاره الأول ومضى بهم فى أرض الموصل وجوخى ثم أذربيجان كى يجمع الأنصار حوله وانضمت إليه زوجته غزالة وكذلك أمه فأذاق هذا الثلاثى الحجاج مرارات الهزيمة فى معارك كثيرة حتى إن غزالة زوجة شبيب طلبت مبارزة الحجاج فى إحدى المعارك فخاف من مبارزتها فقال الشاعر عمران بن قحطان قولته الشهيرة وأنشد فى الحجاج:

أسد علىَّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

وكانت غزالة فقيهة وخطيبة وتحب زوجها وتقاتل إلى جواره فى بسالة وشجاعة الأبطال حتى إنها ذات يوم قالت لشبيب: يا شبيب.. لقد نذرت لله نذراً سألتك أن تعيننى على الوفاء به، أن أصلى فى مسجد الكوفة الجامع ركعتين، أقرأ فى الأولى سورة البقرة، وفى الثانية سورة آل عمران!!

وكانت الكوفة حاضرة الحجاج الثقفى، لكن شبيب صاحب البأس والجرأة حقق لزوجته ما أرادت فزحف بجيشه نحو الكوفة وقاتل جنود الحجاج وقتلهم

---

(١) تاريخ الطبرى.

ودخل الكوفة وفيها الحجاج وجنده وسار فى شوارعها وبجواره زوجته غزالة حتى دخلت المسجد لتصلى فيه وتوفى نذرها ووقف جنود الخوارج لحراستها عند باب المسجد حتى فرغت من صلاتها.

جمعت غزالة حولها كتيبة من نساء الخوارج كن أشد بأساً من الرجال كانت تهاجم بهن المدن حتى قال فيها الشاعر خزيمة بن فاتك الأسدى:

أقامت غزالة سوق الضرار لأهل العراقين حولاً قميطا

سمت للعراقين فى جيشها فلاقى العراقان منها أطيطا[1]

وكانت غزالة تستمد قوتها وشجاعتها من زوجها الذى هو قدوتها حتى إنها قتلت فى المعارك الأخيرة لزوجها مع الحجاج وظل خوف الحجاج منها فى بيت الشاعر يذكره التاريخ والناس حتى الآن:

«أسد علىَّ وفى الحروب نعامة».

ونعود إلى معارك شبيب التى خاضها ضد الحجاج والأمويين وكيف انتهت به الحال.

سار شبيب بأصحابه بعد أن بايعوه عقب مقتل زعيمهم صالح ورحل إلى أرض الموصل ليجمع الأتباع فلقى سلامة بن سيَّار بن المضماء التيمى تيم شيبان فدعاه شبيب للخروج معه.

فاشترط عليه سلامة أن يختار له ثلاثين فارساً من الخوارج لثلاثة أيام كى ينطلق بهم إلى عنزة لأخذ الثأر منهم لقتلهم أخاه فضالة.

وذلك أن أخاه فضالة خرج ومعه ثمانية عشر رجلاً ونزلوا عند ماء يقال له الشجرة، وكانوا يريدون الخروج على بنى أمية، فقامت عنزة بقتلهم وجاءوا برءوسهم للخليفة عبدالملك طمعاً فى عطائه وكان خروج فضالة قبل خروج صالح ابن مسرح وشبيب.

وبالفعل وافق شبيب على شرط سلامة وأرسل معه سرية من ثلاثين رجلاً من

---

(١) الأطيط هو الصوت الشديد وهو حنين الإبل إلى معاقلها أى أن العراقيين لقوا منها الويل فى الحروب.

أنصاره لقتال عنزة فجعل يقتل المحلة منهم بعد المحلة حتى أنهم قتلوا الأطفال الرضع، وحتى قتل سلامة ابن خالته وهو طفل رضيع.

وبعد هذه الواقعة خاف الناس من بطش شبيب وأتباعه فكانوا يهربون منهم، أما المقاتلة منهم فلم يستطيعوا قتاله، فقد أقبل شبيب فى أصحابه نحو راذان فخرجت طائفة من بنى تيم بن شيبان ومعهم ناس من غيرهم هاربين من مواجهة شبيب وكانوا نحو ثلاثة آلاف وشبيب ومن معه نحو سبعين رجلاً.

وسار شبيب فى اثنى عشر فارساً من أصحابه إلى أمه فى سفح ساتيدما، فأحضرها فظلت معه حتى مقتله.

وانضم إلى شبيب الأتباع فخرج معه إبراهيم بن حجر المحلمى أبو الصقير وكان مع بنى تميم بن شيبان، ومضى شبيب فيما أدنى أرض الموصل وتخوم أرض جوخى ثم ارتفع نحو أذربيجان.

أرسل الحجاج إلى قائده سفيان بن أبى العالية الخثعمى وكان أرسله لقتال حاكم طبرستان فى سرية مكونة من ألف فارس، أمره بالعودة ومصالحة صاحب طبرستان والتوجه لقتال الخوارج وكتب له:

أما بعد، فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك، ثم أقم حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة الهمدانى بن ذى المشعار، (وهو الذى قتل صالح بن مسرح وقيل المناظر)، ثم سر إلى شبيب حتى تناجزه.

وبالفعل توجه الحارث وجيشه إلى الدسكرة وجارته خيل المناظر وكانوا خمسمائة عليهم سورة بن أبجر التميمى من أبان بن دارم.

وتعجل سفيان فى قتال الخوارج فخرج إليهم فلحقهم من خانقين فى سفح جبل، فتصدى لهم شبيب بمكر وخداع وارتفع عنهم كأنه لا يريد مواجهتهم وهو يجرهم نحو كمين أعده لهم بواسطة أخيه «مصاد» ومعه خمسون فارساً.

فلما رأى سفيان وجنوده شبيب يهرب أمامهم قالوا: هرب عدو الله فاتبعوه.

فقال البعض ومنهم عدى بن عميرة الشيبانى: أيها الناس، لا تعجلوا عليهم

حتى نضرب فى الأرض ونسير بها، فإن يكونوا قد أكمنوا كميناً كنا قد حذرناه وإلا فإن طلبهم لن يفوتنا.

لكن الناس مع سفيان لم يسمحوا لهذه النصيحة وأسرعوا فى اللحاق بشبيب ومن معه فلما رأى شبيب أنهم تجاوزوا الكمين هجم عليهم وحمل عليهم من أمامهم وصاح بهم الكمين من ورائهم فكانت الهزيمة المنكرة لجيش سفيان.

وأرسل سفيان بن أبى العالية إلى الحجاج يخبره بالهزيمة فجاء فى كتابه:

«أما بعد، فإنى أخبر الأمير أصلحه الله أنى اتبعت هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم فبينا نحن كذلك إذ آتاهم قوم غُيب عنهم، فحملوا على الناس فهزموهم، فنزلت فى رجال من أهل الدين والصبر فقاتلتهم حتى خررت بين القتلى، فحملت مرتثا، فأتيت بى بابل مهروذ، فها أنا بها والجند الذين وجههم إلىَّ الأمير وافوا إلا سورة بن أبجر فإنه لم يأتنى ولم يشهد معى حتى إذا ما نزلت بابل مهروذ أتانى يقول ما لا أعرف ويعتذر بغير العذر والسلام.

ورغم هزيمة سفيان إلا أنه قاتل بشجاعة حتى سقط فى أرض المعركة جريحاً فأعجب الحجاج بشجاعته وقال: من صنع كما صنع هذا، وأبلى كما أبلى فقد أحسن؟

وأرسل إليه يقول:

«أما بعد، فقد أحسنت البلاء، وقضيت الذى عليك فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورا إلى أهلك، والسلام.

ثم كتب إلى سَوَرة بن أبجر يؤنبه على عدم الإسراع فى اللحاق بسفيان:

«أما بعد، فيا ابن أم سورة، ما كنت خليقاً أن تجترئ على ترك عهدى وخذلان جندى، فإذا أتاك كتابى فابعث رجلاً ممن معك صليباً إلى الخيل التى بالمدائن، فلينتخب منهم خمسمائة رجل، ثم ليقدم بهم عليك ثم سر بهم حتى تلقى هذه المارقة واحزم أمر عدوك، فإن أفضل الحرب حسن المكيدة، والسلام[1].

(١) المصدر السابق.

وبالفعل أنفذ «سورة» ما أمره الحجاج وبعث عدى بن عميرة إلى المدائن وكان بها ألف فارس فاختار منهم خمسمائة ثم عاد إلى سورة بن أبجر ببابل مهروذ ثم خرج فى طلب شبيب.

وجاء شبيب إلى المدائن وتحصن منه أهلها فأصاب بها دواب كثيرة لفرسانه، وقتل من وجده فى شوارعها، ولما علم أن سورة بن أبجر قادم إليه سار بأصحابه إلى النهروان وهناك تذكروا إخوانهم الخوارج الذين قاتلهم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فاستغفروا لهم وتبرءوا من على وأصحابه ثم قطعوا بحر النهروان ونزلوا الجانب الشرقى من النهر.

وجاء سورة ونزل «بقطراثا» وأخبرته جواسيسه وعيونه بوجود شبيب ومن معه بالنهروان فقال لأصحابه: أنهم قلما يلقون مصحرين أو على ظهر إلا انتصفوا منكم وظهروا عليكم، وقد حدثت أنهم لا يزيدون عن مائة رجل إلا قليلاً، وقد رأيت أن انتخبكم فأسير فى ثلاثمائة رجل منكم من أقويائكم وشجعانكم فأتيهم الآن إذ هم آمنون لبياتكم، فوالله إنى لأرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم الذين صرعوا منهم بالنهروان من قبل.

فقالوا له: اصنع ما أحببت.

لقد أراد «سورة» أن يقاتلهم عند النهروان وقد تفاءل بالمكان حيث إن الإمام على رضي الله عنه قد قاتل الخوارج الأوائل عند ذلك النهر وظفر بهم وقتلهم بالإضافة إلى أنه نظر إلى قلة عددهم، فاختار من رجاله ثلاثمائة رجل أشداء وهاجم بهم شبيب ومن معه، إلا أن سورة وجنوده هزموا وانتصر عليهم شبيب وهرب سورة بمن بقى معه إلى معسكره واتبعه شبيب وهو يريد هزيمته فى معسكره ودخل شبيب المدائن فرماهم الناس بالنبل ورموا من فوق البيوت بالحجارة.

فخرج منها حتى مر على «كلواذا» فأصاب منها دواب كثيرة للحجاج ثم خرج يسير فى أرض جوخى ثم مضى نحو تكريت وهرب من أمامه جند الحجاج حتى لحقوا به بالكوفه.

(١) تاريخ الطبرى والبداية والنهاية

ولما علم الحجاج بما فعل وحدث لسورة قال: قبح الله سورة ضيع المعسكر والجند وخرج يبيت الخوارج أما والله لأسوءنه[1].

وهكذا استطاع شبيب فى قلة من الفرسان لا يتجاوز عددهم المائة وستين فارسا أن يلقى الرعب فى قلوب الناس وجنود الحجاج الذى أرسلهم إليه وقد تجاوز تعدادهم الثلاثة آلاف فارس، وهذا من عجائب الخوارج إلا أن الحجاج أصر على القضاء عليهم والسير فى محاربتهم.

وقد تعجب ابن كثير من قلة عدد الخوارج وعدم قدرة جيوش الحجاج بإلحاق الهزيمة بهم، فقد كان عددهم نحو مائة وستين فارسا وجيوش الحجاج بالآلاف[1].

ولكن المتتبع لخطط شبيب العسكرية يرى أنه كان يستخدم المكر والفر وعدم الاستقرار فى مكان وكذلك استعماله لخطط الخداع التى عرف بها التتار المغول فى حروبهم.

وكان الحجاج قد دعا بالجزل وهو سعيد بن عثمان وطلب منه تجهيز جيش لقتال شبيب والخوارج وأمره أن لا يعجل عليهم.

فطلب منه الجزل ألا يضم إليه أياً من الجنود الذين انهزموا أمام الخوارج فأجابه الحجاج وجمع له جيشاً قوامه نحو أربعة آلاف.

وخرج جيش الجزل لمطاردة شبيب وفرسانه المائة والستين، وخطة شبيب كالعادة هى الفرار أولاً والظهور بمظهر الخوف وعدم الاستقرار فى مكان.

ولكن الجذل قلد طريقة المهلب بن أبى صفرة فى القتال فأخذ يطلبهم بالنهار ويتحصن منهم بالليل.

وجمع شبيب أصحابه وفرقهم أربع فرق وجعل على كل فرقة رجلاً من أصحابه وأمر كل قائد من القادة أن يهاجم الجزل من جهة عينها له، ولكنهم لم يقدروا منه على شىء.

ومع طول الوقت وعدم حدوث الحسم أرسل الحجاج كتاباً للجزل يقول له فيه:

---

(١) انظر البداية والنهاية، وأمر الحجاج بحبس سَوْرة ثم عفا عنه.

«أما بعد، فإنى بعثتك فى خرسان أهل المصر ووجوه الناس وأمرتك باتباع هذه المارقة الضالة المضلة حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها فوجدت التعريس فى القرى والتخييم فى الخنادق أهون عليك من المضى لما أمرتك به من مناهضتهم ومناجزتهم، والسلام».

ثم أعقب الحجاج تلك الرسالة بعزل الجزل وأرسل بدلاً منه سعيد بن المجالد الحمدانى وطلب منه أن يقاتل الخوارج دون انتظار كما فعل الجزل فى مكانهم الذى استقروا فيه مؤخراً بالنهروان.

وجاء سعيد ودخل عسكر أهل الكوفة وخطبهم وحثهم على الخروج لمناجزة الخوارج فقال له الجزل: أقم أنت فى جماعة من الناس فارسهم وراجلهم وأبرز إليهم فوالله ليقدمن عليك ولا تفرق أصحابك.

ولم يعجبه رأيه وتشتت أمر جيش الكوفة فى حين كان شبيب فى طريقه إلى رامهرمز وكان يأكل هو وأصحابه وجاءه النذير بأنه محاط بالعدو من جميع الجهات فأتم طعامه ثم خرج وحمل على الناس وجعل سعيد يدلف بالخيل نحوه وصاح شبيب فى أصحابه: استعرضوهم فوالله لأقتلن أميرهم أو يقتلنى.

وهجم شبيب عليهم وبمن معه عن الرجال فهزمهم وحمل على قائدهم سعيد فضربه بالسيف فقتله وقاتل الجزل بضراوة وشجاعة حتى جرح وحمل إلى المدائن.

وكتب الجزل إلى الحجاج يعلمه ويخبره بما حدث، فكتب إليه الحجاج يثنى عليه ويعلن رضاه عليه وعلى سعيد بن المجالد الذى قتل فى المعركة.

قال ابن كثير تعليقاً على ما فعله شبيب: «والحجاج يلح فى طلبه ويجهز إليه السرايا والبعوث والمدد وشبيب لا يبالى بأحد وإنما معه مائة وستون فارساً، وهذا من أعجب العجب[1].

وتوجه شبيب وأصحاب إلى الكوفة لحصارها فخرج إليه جيش الحجاج

---

(١) البداية والنهاية وفى تاريخ الطبرى تفصيلاً للمعارك التى خاضعها شبيب وانتصر فيها على جند الحجاج وأنه لم يصل أتباعه فى نهاية الأمر إلا إلى نحو ثمانمائة فارس.

بكماله إلى السبخة لقتاله، وشبيب لا يبالى بهم بل أن أهل الكوفة انزعجوا منه وخافوا حتى هم جيش الحجاج بدخول الكوفة للتحصن بها.

ونزل شبيب المدائن بأحد الأديرة وهو لا يلقى بالا بأمر جيش الحجاج الذى أرسله لتتبعه ولا يكترث بهم وقد أمر بإعداد الطعام والشواء له، فقيل له: قد جاءك الجند فأدرك نفسك.

فجعل لا يلتفت إلى ذلك ويقول للرجل الذى يضع الطعام: أجده[1] وأنضجه ولا تعجل به.

فلما استوى الطعام أكله ثم توضأ وصلى بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمأنينة ثم لبس درعه وتقلد سيفين وأخذ عمود حديد ثم قال: أسرجوا لى البغلة.

فركب بغلته وقال لأخيه مصاد: اركب فرساً.

فقال: لا، حارس كل امرئ أجله.

فركبها ثم فتح باب الدير الذى هو فيه وهو يقول:

أنا أبو المدله لا حكم إلا الله.

وتقدم إلى أمير جيش الحجاج سعيد بن المجالد بيده العمود الحديد الذى بيده فضربه به فقتله.

وحمل على الجيش الآخر فصرع أميره وهرب الناس من بين يديه ولجأوا إلى الكوفة يتحصنوا بها وتابعه شبيب إلى الكوفة من أسفل نهر الفرات وقتل جماعة هناك حتى إن الحجاج هرب بنفسه من الكوفة إلى البصرة واستخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة.

وهكذا اشتد الأمر واستفحل أمر شبيب حتى إن الحجاج هرب من مواجهته رغم قلة عدد أصحابه كما ذكرنا وحتى أن امرأة شبيب وتسمى غزالة وأمه جهيزة إنضمتا إلى جيشه يقاتلان معه وانضم إليه نساء الخوارج تقودهم غزالة.

---

(١) أى اجعله جيداً.

وأراد شبيب دخول الكوفة وسار إليها فأرسل عروةبن المغيرة إلى الحجاج يخبره بذلك فسارع الحجاج من البصرة إلى الكوفة وأسرع المسير حتى وصلها ودخلها عند صلاة العصر، ووصل شبيب إلى منطقة المربد من الضواحى عند المغرب.

فلما كان آخر لليل دخل شبيب الكوفة وقصد قصر الإمارة وضرب بابه بعموده الحديد الذى يحمله حتى أثرت الضربة فى الباب وكانت تعرف فيما بعد بضربة شبيب.

ثم سار فى طرق المدينة وقتل رجالاً من كبار رجالات الكوفة وأشرافهم مثل أبى سليم والدليث بن أبى سليم وعدى بن عمرو وأزهر بن عبدالله العامرى.

ودخلت الكوفة مع شبيب امرأته غزالة وكانت قد نذرت كما ذكرنا نذراً أن تصلى فى مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وسورة آل عمران، وبالفعل تحقق لها ذلك وجلست على منبر المسجد وجعلت تذم بنى مروان.

وخرج الحجاج ليلاً إلى أعلى القصر ونادى فى أهل الكوفة: يا خيل الله اركبى.

فخرج له ستة آلاف مقاتل للقتال معه ضد شبيب وأصحابه، فسار لهم، وشبيب قد تجهر له وأخذ يكر ويفر ويقتل من جيش الحجاج الكثير منهم الأمراء والجنود ومن الأمراء قتل زائدة بن قدامة قتله شبيب بيده وقتل أيضاً من الأمراء عثمان بن قطن الحارثى ومن الأعيان عقيل بن شراء السلولى وخالد بن نهيك الكندى والأسود بن ربيعة وقتل المئات من الجنود.

وقال ابن كثير: واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبدالملك بن مروان والحجاج وسائر الأمراء، وخاف عبدالملك منه خوفاً شديداً، وقد ملأ قلوب الناس رعباً، وجرت خطوب كثيرة له معهم ولم يزل ذلك دأبه حتى استهلت هذه السنة ٧٦ هـ.

وفى عام ٧٧ هـ جهز الحجاج جيشاً من أهل الكوفة كانوا أربعين ألف مقاتل وزادهم بعشرة آلاف فكان قوام الجيش خمسين ألفا وجعل عليهم عتاب بن ورقاء وأمره أن يقصد شبيب ويقاتله.

وفى هذه الأثناء انضم إلى جيش شبيب الأعوان والأنصار وصار لديه ألف

مقاتل من الرجال بالإضافة إلى نساء الخوارج بقيادة زوجته غزالة.

وكعادة شبيب عندما بلغه ما جهزه له الحجاج من جيش لم يعبأ به بل قام فى أصحابه خطيباً فوعظهم وذكرهم وحثهم على الصبر عند لقاء العدو ثم سار بهم نحو جيش الحجاج.

والتقى الجيشان، جيش حجاج بقيادة ورقاء بن عثمان وقوامه خمسون ألفاً وجيش شبيب وقوامه ألف مقاتل!!

وكان اللقاء وقت الغروب فأمر شبيب مؤذنه أن يؤذن لصلاة المغرب فأذن مؤذنه سلام بن يسار الشيبانى لصلاة المغرب فصلى شبيب وأصحابه صلاة تامة فى هدوء وطمأنينة.

أما عتاب بن ورقاء فكان قد حفر خندقاً حول عسكره، وأنتظر شبيبا حتى طلع القمر وأضاء ثم تأمل الميمنة والميسرة ثم حمل على أصحاب رايات عتاب وهو يقول:

ـ أنا شبيب أبو المدله لا حُكم إلا لله.

فهزمهم وقتل أميرهم قبيصة بن والق وجماعة من أمراء الجند معه ثم كر على الميمنة وعلى الميسرة ففرق شملهم.

ثم تقدم نحو قلب الجيش فقاتل حتى قتل أمير الجيش وعتاب بن ورقاء وزهرة بن جونة، وولى باقى الجيش فارين من أرض المعركة وداسوا خلال فرارهم جسد عتاب بن ورقاء.

ثم نادى شبيب فى أصحابه: لا تتبعوا منهزماً.

كان شيئا مذهلاً أن يغلب جيش تعداده ألف رجل جيشاً حكوميا منظماً قوامه خمسين ألف مقاتل ويقتل أميرهم ويفرون منهزمين!!

واستول شبيب على مافى معسكر جيش الحجاج من الأموال والغنائم واستدعى أخاه مصادا من المدائن وقصد بأصحابه إلى الكوفة.

أما الحجاج فقد جن جنونه وثارت ثأرته على أهل الكوفة الذين هربوا من

قتال شبيب وانهزموا.

وكان شبيب قد ضم إليه أتباعا جددا ممن تم أسرهم من جيش الحجاج حيث بايعوه بالإمارة.

ووفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبى وحبيب بن عبدالرحمن الحكمى من مذحج فى ستة آلاف فارس ومعهما جنود من أهل الشام كى يقاتلوا شبيبا بدلاً من أهل الكوفة.

وقام الحجاج خطيباً فى أهل الكوفة فقال لهم:

يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، أخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، فلا يقاتلن معنا إلا من كان عاملاً لنا، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء.

وتجهز الحجاج لقتال شبيب بنفسه هذه المرة وقد بلغ به الغضب مبلغه، فسار على رأس جيشه من الشاميين وغيرهم وقال:

يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأراجس حقكم، غضوا الأبصار وأجثوا على الركب، وأستقبلوا بأطراف الأسنة ـ الرماح ـ[1].

وفعل الجنود ما أمرهم به الحجاج، وأقبل شبيب وقد جند لهم ثلاث فرق واحدة معه وأخرى مع سويد بن سليم وأخرى مع المجلل بن وائل، وأمر سويد بن سليم أن يهجم على جيش الحجاج فقصدوا له فانهزم عنهم فنادى الحجاج:

يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا.

ثم أمر شبيب قائده المجلل بن وائل أن يهجم فهجم على جيش الحجاج فثبتوا له ونجحت خطة الحجاج بوضع الرماح فى مواجهة رجال شبيب ووثبوا فى وجهه فقاتلهم طويلاً وقاتلوه حتى أضطروه للانسحاب.

فلما رأى شبيب صمود أهل الشام فى القتال أمر سويد بن سليم بالهجوم مرة

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

أخرى وأن يأتى الحجاج من ورائه ويأتى شبيب ومن معه من أمامه.

وكان الحجاج قد جعل عروة بن المغيرة فى ثلاثمائة مقاتل لحمايته إن هوجم من الخلف، ولذلك أمر شبيب أصحابه بالهجوم على الحجاج من الخلف، فصاح الحجاج فيمن معه من أهل الشام:

- يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه السدة الواحدة ثم ورب السماء والأرض ما شىء دون الفتح.

فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بمن معه من أصحابه فما زالوا يقاتلون حتى استطاعوا صد هجوم شبيب عليهم وعلى الحجاج، فنادى شبيب فى أصحابه: يا أولياء الله، الأرض الأرض.

ثم نادى الحجاج من معه:

- يا أهل الشام يا أهل السمع والطاعة هذا أول النصر والذى نفسى بيده.

واقتتل الناس يومها قتالاً شديداً عامة النهار.

وهجم خالد بن عتاب أحد قواد الحجاج على معسكر الخوارج ومعه أربعة آلاف فدخل المعسكر من الخلق وهاجمهم فقتل مصاداً أخا شبيب وقُتلت غزالة امرأة شبيب قتلها رجل يقال لها فروة بن دقاق الكلبى وهرب شبيب ومن تبقى معه وانطلق جنود الحجاج تتبعه فلم تقدر على اللحاق به.

وفرح الحجاج بهذا النصر وكبر وكبر أصحابه.

ودخل الحجاج الكوفة وخطب أهلها فقال:

- إن شبيباً لم يهزم قبلها.

ثم قصد شبيب الكوفة فتصدت له سرية من جيش الحجاج فقاتلوه من الأربعاء إلى يوم الجمعة.

لكن شبيبا حمل على تلك السرية فكسرها وهزمها وكان عليها الحارث بن معاوية الثقفى فى ألف فارس وقد فروا من أمام شبيب وأصحابه وتحصنوا بالكوفة.

ثم خرج إلى شبيب أبو الورد مولى الحجاج وطائفة من الجيش فقتل ثم هرب أصحابه ودخلوا الكوفة ثم خرج غيرهم فلم يستطيعوا مقاومة الخوارج.

ثم سار شبيب بأصحابه نحوالسواد فمروا بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتلوه ثم خطب شبيب فى أصحابه: اشتغلتم بالدنيا عن الآخرة.

ثم رمى بالمال فى نهر الفرات، ثم سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ولا يستطيع أحد أن يتصدى له حتى قتل الكثير والكثير من الأمراء والجند وقد أنفق الحجاج أموالاً كثيرة فى طلب شبيب ومن معه من الخوارج ولم يقدروا عليه.

وكتب الحجاج إلى نائبه على البصرة وهو الحكم بن أيوب بن الحكم بن عقيل وهو زوج ابنة الحجاج يأمره بتجهيز جيش من أربعة آلاف كى يقوموا بتتبع شبيب وأصحابه ويكون هذا الجيش بقيادة سفيان بن الأبرد.

وكان ابن الأبرد معه بعض من جنود الشام وانضم إليهم جنود البصرة وأصبحوا جيشاً واحداً ثم سار بهم ابن الأبرد لقتال شبيب وأصحابه.

وتقابل الفريقان وتقاتلوا قتالاً شديداً وكان جيش الخوارج كعادته قليل العدد وحمل عليهم جنود الحجاج حملة مبكرة ففر الخوارج من أمامهم حتى اضطروا إلى جسر هناك فوقف عنده شبيب فى مائة من أصحابه وعجز سفيان بن الأبرد عن قتاله ورده شبيب، عن موقفه بعد قتال مرير طوال النهار.

ثم أمر ابن الأبرد أصحابه فرشقوهم بالنبال رشقة رجل واحد، ففرت الخوارج ثم كرت ثانية على الرماة فقتلوا نحواً من ثلاثين رجلاً من أصحاب ابن الأبرد، ولم تنته المعركة بنصر أى من الطرفين وجاء الليل بظلامه فكف الفريقان عن القتال وانتظروا حتى بزوغ الفجر.

فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه الجسر وبينما شبيب على متن الجسر راكباً فرسه وبين يديه فرس أنثى إذا وثب ذكر الفرس الذى يركبه شبيب عليها فنزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط شبيب فى النهر فقال: ليقضى

الله أمراً كان مفعولاً.

ثم انغمر فى الماء وعليه درعه وهو يقول: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

(الأنعام: ٩٦).

وهكذا غرق شبيب فى الماء فلما أدركت الخوارج أنه قتل كبروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين فى البلاد.

وجاء أمير جيش الحجاج ابن الأبرد فاستخرج جثته من الماء وعليه درعه ثم أمر بشق صدره فاستخرج قلبه فإذا هو مجتمع صلب كأنه صخرة وقيل إنهم كانوا يضربون به الأرض فيرتفع قامة إنسان.

وفى رواية أخرى لمقتل شبيب جاء فيها أن بعضاً من أصحابه قد بغضوه لما أصاب من عشائرهم فلما تخلف فى العبور على الجسر شاوروا بعضهم بعضاً وقالوا نقطع الجسر به ففعلوا ذلك فمالت السفن بالجسر ونفر فرسه فسقط فى الماء وغرق ونادوا: غرق أمير المؤمنين، فعرف جيش الحجاج أنه قتل فجاؤوا فاستخرجوه وكان ذلك عام ٧٧ هـ.

ولما جاء خبر مقتل شبيب لأمه جهيرة قالت:

صدقتم إنى كنت رأيت فى المنام وأنا حامل به أنه قد خرج منها شهاب من نار فعلمت أن النار لا يطفئها إلا الماء وأنه لا يطفئه إلا الماء.

وكانت أمه شديدة البأس فى القتال مثل امرأة شبيب وقد قتلت أم شبيب كما قال ابن خلكان فى هذه المعركة(١).

وهكذا انتهت فتنة شبيب بن يزيد الذى ادعى الخلافة لنفسه وتسمى بأمير المؤمنين.

■■■

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.



ثورات ضد الطغيان

- بداية الثورة ضد طغيان الحجاج تبدأ ولا تنتهى.
- ثورة عبدالله بن الجارود.
- ثورة الزنج.
- ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة.

بداية الثورة على طغيان الحجاج
بدأت ولم تنته
« البداية ثورة عبدالله بن الجارود »

الطغيان والاستبداد فى الحكم لا ينفك عن الأنظمة الديكتاتورية دوماً، والحجاج وهو أشهر الولاة فى دولة بنى أمية نظراً لطغيانه وطغيان ولى نعمته عبدالملك بن مروان، فقد كان الخليفة ونائبه أو رئيس وزرائه الحجاج وجهين لعملة واحدة، وكان الحجاج أداة طيعة فى يد الخليفة وسهماً من سهامه ينفذ خططه.

ولهذا أوصى عبدالملك عند موته ابنه وولى عهده الوليد أن يتبع الحجاج ولا يتركه وأن يبقيه فى سلطانه حتى إن الوليد بن عبدالملك قال عندما علم بوفاة الحجاج: لأشفعن فى الحجاج عند الله[١].

وحزن الخليفة الوليد بن عبدالملك على الحجاج ومات بعده بعدة شهور.

وأصبح الحجاج لا يذكر فى التاريخ إلا ويوحى اسمه إلى الطغيان وسفك الدماء من أجل السلطان والسلطة رغم تبرير القلة القليلة من الكتاب المعاصرين لأفعاله.

لكن هل وقف الناس والقادة والعلماء عاجزين أمام الحجاج وطغيانه؟

بالطبع لا، فقد وقف الكثيرون من العلماء مثل الحسن البصرى وسعيد بن جبير وغيرهما ضد طغيان الحجاج وقام الحجاج بمطاردتهم وقتله للكثير منهم وكان آخرهم سعيد بن جبير.

وكذلك وقف بعض الزعماء السياسيين بمفهومنا أمام طغيان الحجاج، هذا بخلاف الخوارج الذين خرجوا على حكم بنى أمية والحجاج وكما ذكرنا أن أول ثورة قامت ضد طغيان الحجاج كانت فى البصرة حين توجه إليها الحجاج وخطب

(١) انظر المحاسن والأضداد ـ للجاحظ والنجوم الزاهرة للأتابكى.

فى رستقباذ ليشد من أزر المهلب بن أبى صفرة فى حربه مع الخوارج.

وفى هذه الخطبة أسقط الحجاج الزيادة التى زادها الخليفة السابق عبدالله ابن الزبير فى أعطيات أهلها وقال:

«لا وإن الزيادة التى زادها ابن الزبير فى أعطياتكم زيادة فاسق منافق لسنا نجيزها»(١).

فرد عليه أحد أشراف البصرة عبدالله بن الجارود فى حينه قائلاً: إنها ليست بزيادة ابن الزبير وإنما هى زيادة أمير المؤمنين عبدالملك قد أنفذها وأجازها على يد أخيه بشر بن مروان.

فقال له الحجاج: ما أنت والكلام، لتحسن حمل رأسك أو لأسلبنك إياه.

فتعجب ابن الجارود من هذا الرد الفاج للحجاج وقال له: ولم؟ إنى لك لناصح وإن هذا قول من ورائى.

وهكذا كانت أول ثورة واعتراض على ظلم الحجاج وطغيانه بسبب النفقات وهى المرتبات التى تصرف للجند، وكان ابن الجارود يتكلم باسم المتضررين من جنود البصرة، وما فعله ابن الجارود مثل ما فعله أهل الوظائف من زماننا هذا من مظاهرات واعتصامات ووقفات احتجاجية ضد حكومتهم التى تخفض من رواتبهم أو ضد قوانين تمس حياتهم المعيشية هكذا كأنت أول ثورة على الظلم هى بداية الغيث وكما يقول المثل الشعبى «عض قلبى ولا تعض رغيفى».

والمتابع لهذه الأحداث من أول فترات حكم الحجاج وما فعله حين دخل الكوفة ثم البصرة وقتله لمن تأخر فى الخروج مع الجيش لقتال الخوارج وعدم ثورة الناس عليه فى هذا الأمر يجد آن الثورة جاءت بسبب نقص الرواتب وقد أشعلها الطغيان التى أظهره الحجاج معهم حين قدم عليهم.

وتجمع عند ابن الجارود المعارضون للحجاج والراغبون فى الخروج عليه وخلعه لظلمه ونقصه لرواتبهم، وكان الحجاج يريد استعراض قوته وطغيانه لأهل العراق.

---

(١) انظر أنساب قريش لأحمد بن يحيي بن جابر البلاذرى والبداية والنهاية.

ولا ننسى أنه فى أثناء الجدال والحوار المجتمعى حول نقص المرتبات فى زمن الحجاج وكل زمان ظهور فئة من المنافقين للسلطة الحاكمة تدافع عن قرارتها وهذا ما حدث فى زمن الحجاج حين إن أحد رجاله وهو مصقلة بن كرب العبدى رد على المعترضين بقوله «إنه ليس للرعية إن ترد على راعيها وقد سمعنا ما قال الأمير فسمعاً وطاعة فيما أحببنا وكرهنا»(١).

فرد عليه زعيم المعترضين عبدالله بن الجارود بقوله: يا ابن الجرمقانية ما أنت وهذا، ومتى كان مثلك يتكلم وينطق بمثل هذا(٢)؟

ثم كانت الخطوة التالية وهى رد الطغيان بالثورة عليه واجتمع المعترضون عند ابن الجارود وعلى رأسهم عبدالله بن حكيم المجاشعى والهذيل بن عمران وغيرهم من أشراف وزعماء البصرة وبايعوه على الوقوف ضد طغيان الحجاج وقالوا:

إن هذا الرجل ـ الحجاج ـ غير كاف حتى ينقصنا هذه الزيادة فهلم نبايعك على إخراجه من العراق ثم نكتب إلى عبدالملك نسأله أن يولى علينا غيره فإن أبى خلعناه، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج»(٣).

وهكذا ظهرت خطة الثورة فى البصرة وهى على الحجاج دون خلع الخليفة إلا فى حالة رفضه تعيينه حاكماً غير الحجاج، ولم يخش أهل البصرة من سلطان الخلافة التى يهددها الخوارج الأزارقة وقتها وقد أنشد أحدهم قائلاً:

أخلق بعبدالله أن يسوسا ... وأن يقود جحفلاً خميسا

ويخلعوا الخليفة المقعوسا ... إذ قلدوا أمرهم الرئيسا

أكرم به من قائدٍ فدموسا ... نحن قتلنا مصعباً وعيسى

وكم قتلنا منهم بئيسا(٤)

---

(١) انظر أنساب قريش والكامل فى التاريخ ومقدمة ابن خلدون.

(٢) المصدر السابق. (٤) المصدر السابق.

(٣) انظر الكامل فى التاريخ ـ والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون وأنساب قريش.

وكانت هذه الثورة فى شهر ربيع الآخر ٧٦ هـ.

وحين علم الحجاج بأمر تلك الثورة جهز جيشه وقام بقطع الجسر الذى يقف حائلاً بين الناس وخزائن الدولة وأرسل إلى عبدالله بن الجارود يستدعيه ليفاوضه فقال ابن الجارود لرسوله: لا، ولا كرامة لابن أبى رغال، ولكن يخرج عنا مذموماً مدحوراً وإلا قاتلناه».

وكان رد رسول الحجاج وهو مولى بشر بن مروان كلمات قد أرسلها الحجاج معه فى حالة رفض ابن الجارود لما أمره به وهى رسالة شفوية:

«أتطيب نفساً بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك والذى نفسى بيده لئن لم تأتنى لأدعن قومك عامة وأهل بيتك خاصة حديثاً للغابرين».

فقال له ابن الجارود: لولا أنك رسول والرسل لا تقتل لقتلتك.

وأمر به فضرب وأخرج فعاد إلى الحجاج وأخبره إصرار ابن الجارود على طلباته التى تتمثل فى رحيل الحجاج عن البلاد وهو الأمر الذى يرفضه إلا إذا أمره به الخليفة عبدالملك نفسه.

وزحف الثائرون على فسطاط الحجاج فنهبوا ما قدرواعليه من متاع ودواب وتم أسر زوجته بنت النعمان بن بشير وأم سلمة بنت عبدالرحمن بن إسماعيل بن عمرو وذلك لتخويف الحجاج وجعله يترك البلاد ويرحل[(١)].

لكن هذا كله لم يرهب الحجاج الذى أخذ يجمع الأتباع حوله ويهدد ويتوعد كل من لا يقف إلى جواره فى هذه الفتنة.

أما ابن الجارود فشاور أصحابه فى الأمر فرأى الغضبان بن القبعثرى الشيبانى أن يكمل ابن الجارود انقضاضه على الحجاج وقال له:

تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك أما ترى من أتاه منكم ولئن أصبح ليكثر من أنصاره.

---

(١) أنظر الكامل فى التاريخ وأنساب قريش.

فرد عليه ابن الجارود: قد قرب المساء ولكنا نعاجله بالغداة.

ومع انصراف الناس عن الحجاج وانضمامها لابن الجارود وقد حوصر الحجاج ومن فى البصرة شاور الحجاج خاصته فأشار عليه زياد بن عمرو العتكى:

أن يأخذ له الأمان من ابن الجارود كى يلحق بالخليفة فى دمشق.

أى أشار على الحجاج بالهرب إلى الشام حيث مقر الخلافة، أما عثمان بن قطن الحارثى فقد أشار عليه بالصمود فقال: إن أمير المؤمنين قد شركك فى أمره وخلطك بنفسه واستنصحك وسلطك فسرت إلى ابن الزبير وهم أعظم الناس خطراً فقتلته فولاك الله شرف ذلك وسناه وولاك أمير المؤمنين، الحجاز ثم رفعت فولاك العراقين، فحيث جريت إلى المدى وأصبت الغرض الأقصى تخرج على قعود إلى الشام.

ووالله لئن فعلت لا نلت من عبدالملك مثل الذى أنت فيه من سلطان أبداً وليتضعن شأنك، ولكنى أرى أن تمشى بسيوفنا معك فتقاتل حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً.

فقال له الحجاج: الرأى ما رأيت.

وبالفعل انضم إلى الحجاج بعض الذين لم يشركهم ابن الجارود فى ثورته مثل عباد بن الحصين الحيطى فى مائة رجل ثم جاءه قتيبة بن مسلم فى جماعة وانضم إليه قائلاً: والله لا ندع قيسياً يقتل وينهب ماله.

ثم جاءه سبرة بن على وأسلم بن زرعة الكلابى وجعفر بن عبدالرحمن بن مخنف.

وقام سمع بن مالك بتثبيط الناس عن الحجاج وذلك بأمر من الحجاج نفسه حتى جاء الصباح وقد التف حول الحجاج ستة آلاف مقاتل وحينها ندم ابن الجارود أنه لم يأخذ بنصيحة الغضبان الذى أشار عليه أن يهجم على الحجاج ولا ينتظر الصباح.

وفى الصباح دارت رحى الحرب بين الحجاج وابن الجارود كانت الغلبة لجيش ابن الجارود أول الأمر حتى قتل فانهزم أصحابه وانتهت المعركة لصالح الحجاج وقضى على ثورة ابن الجارود وتعقب الحجاج رءوس الثورة فقتلهم ولم يقبل فيهم شفاعة.

ونادى منادٍ من قبل الحجاج بعد مقتل ابن الجارود بأمان الناس عامة إلا الهذيل وابن حكيم، وأرسل الحجاج رأس ابن الجارود وثمانى عشرة من أصحابه إلى المهلب بن أبى صفرة وهو يقاتل الخوارج الأزارقة ليشد من أزره ويرهب الخوارج.

وأرسل الحجاج إلى الخليفة عبدالملك يقول له فى رسالته: ـ

أما بعد، فالحمد لله الذى حفظ أمير المؤمنين إنى لما أنزلت منزلا من رستقباذ وثب علىَّ أهل العراق فخالفونى ونابذونى ودخلوا فسطاطى وانتهبت أموالى وقالوا اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا، ففارقنى البعيد وأسلمنى القريب وبئس منى الشفيق.

فشددت عليهم بسيفى ولقيتهم بشيعتى وقلت الموت خير من البراح فوالله ما رمت الفرصة حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصاراً فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم فقتل الله عز وجل طاغية القوم عدو الله ابن الجارود وثمان عشرة من رءوسهم.

وضرب الله عز وجل وجوههم فأخذوا شرقاً وغرباً ثم إنى أمنت الناس غائبهم وشاهدهم فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارهم.

ولله الحمد كثيراً، والسلام».

فرد عليه عبدالملك قائلاً: أما بعد فقد بلغنى كتابك وأنت الناصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب فإذا رابك من أهل العراق ريب، فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم، والسلام».

وهكذا وضع الخليفة سياسة البطش وآقرها للحجاج الذى نفذها كما ينبغى وأكثر حتى ظن الناس أن الحجاج كان يفعل ما يفعله من قتل وبطش من تلقاء نفسه.

أرسل عبدالملك بعد فترة عبدالرحمن بن مسعود كى يستمع لأهل العراق حين اشتكوا إليه من ظلم وبطش فظهر الخليفة بمظهر الذى لا يرضى بالظلم رغم رضائه عن أفعال الحجاج!!

ثورة الزنج
على إثر ثورة ابن الجارود

الزنج هم العبيد الذين تم جلبهم من قارة إفريقيا ويعرفون أيضاً بالزنوج وكان يتم اصطيادهم بواسطة تجار الرقيق وبيعهم فى البصرة وكانوا يقومون بالأعمال الشاقة مثل حفر الأنهار والآبار وكسح السباخ وفى مناجم الملح وغيرها من المهن الدنيا الشاقة.

وبالتالى كان الناس ينظرون إليهم باحتقار ولا يعدونهم من بنى البشر ويلحقونهم بمواشيهم وهذا ما لم يأمر به الإسلام وما زالت تلك التفرقة العنصرية موجودة فى العصر الحديث وغيرهم من الملونين حتى فى البلاد المتقدمة.

ولهذا شعر هؤلاء الزنوج بالحقد على أسيادهم من أهل البصرة فكانوا يقومون بالثورات ضدهم وقد حدث ذلك فى زمن الحجاج حين ثار عليه أهل البصرة بقيادة ابن الجارود وكذلك تكررت ثورة الزنج بعده.

أما فى عهد الحجاج فقد قام الزنج أثناء قيام الحجاج بإخماد ثورة ابن الجارود بثورة حيث جمعوا صفوفهم تحت قيادة رجل منهم يدعى رباح شيرازنجى أو أسد الزنج، فغلب على كورة الفرات وكان على الأبلة والفرات كراز السلمى.

أرسل «شيرازنجى» إليه رسالة يقول له فيها: أما بعد، فقد حضرت ولادة سكة أم أمير المؤمنين فأرسل إليها امرأتك لتقبلها. والسلام.

وهكذا أعلن شيرازنجى نفسه أميراً للمؤمنين وأراد من نائب الحجاج أن يرسل امرأته لتكون قابلة (مولدة) لامرأته!!

ومن العجيب أن كراز السلمى حين جاءت تلك الرسالة فزع وخاف وهرب وترك البصرة.

وعقب فراغ الحجاج من ثورة ابن الجارود أمر زيادة بن عمر قائد شرطة البصرة أن يرسل جيشاً بقيادة ابنه حفص لقتال الزنج، وبالفعل أرسل زيادة ابنه حفصا على رأس جيش لقتال الزنج فقتل حفص وهزم الجند وعلا شأن الزنج.

وحين قدم الحجاج البصرة خطب أهلها قائلاً:

يا أهل البصرة إن عبيدكم وكساحكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم وايم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفونى أمرهم لأعقرن نخلكم ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل.

وبالفعل استجاب له أهل البصرة وجمعوا له جيشاً جعل عليه كراز السلمى.

فقاتلوا الزنج حتى قضوا على ثورتهم وقتل زعيمهم شيرازنجى ولم ينج منهم إلا القليل ولم تقم لهم قائمة فى عصر الحجاج، وكانت ثورتهم فى عهد الحجاج ثورة لم تستمر طويلاً وسهل القضاء عليها بعكس ثورتهم فى عصر الدولة العباسية حيث استمرت سنوات طويلة وأقاموا فيها دولة ظلت تحارب الدولة العباسية حتى تم القضاء عليها.

ولهذا حين يذكر المؤرخون ثورة الزنج تذكر تلك الثورة التى قامت فى عهد العباسية «٢٥٥ هـ - ٢٧٠ هـ» «٨٦٩ - ٨٨٣م» ومقر الثورة أيضاً هى مدينة البصرة.

وكان انطلاق ثورتهم فى عهد العباسية كما هو الحال فى عهد الأمويين من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعى والاقتصادى بين مستنقعات البصرة وسهولها، وكانت بدايتها ناجحة انسجمت فيها أهدافها مع أفعالها لكن النزعة الفوضوية التى طبعتها وهى فى قمة مواجهتها أدت إلى تقلص أبعادها الاجتماعية وقد زاد من تلك النزعة افتقارها إلى برنامج ثورى يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع.

كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعى لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية بالإضافة إلى أن أطرها الثورية كانت محلية ومحدودة ولم تكن لديها تطلعات

شاملة وندرك من هنا عدم نجاح على بن محمد فى اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقى كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير.

ومن جهة ثانية فإن سرعة الأحداث وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذى أنظمة خاصة لذلك كان من الطبيعى أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنسانى والثورى مما دفعها إلى نهايتها المحتومة ولكن قاعدتها الثورية التى تشتت استطاعت أن تكون إحدى الدعائم الأساسية التى دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد.

وفى عهد الخليفة المتوكل العباسى غلب عليه سيطرة العسكر الأتراك وقادتهم على كل الأمور فى الدولة واستأثروا بالعطاءات والإقطاعات واستبدوا بسلطان الخلافة حتى صاروا يولون ويعزلون الخلفاء كما يحلو لهم بل يقتلون ويسمون ويسجنون كل من لا يحقق مطامعهم ومطامحهم من الخلفاء والوزراء.

وقد حاول بعض الخلفاء أن يسترد منصب الخلافة سلطانه وهيبته وأن يستندوا فى معارضة القادة الأتراك ومواجهتهم إلى تأييد شعبى عن طريق مهادنة المعارضين وإظهار شىء من العدل والإنصاف بين رعيتهم، حاول ذلك الخليفة المنتصر بالله العباسى سنة مئتين وسبع وأربعين للهجرة والمهتدى بالله العباسى سنة مئتين وخمس وخمسين للهجرة ولكن الأتراك تخلصوا منهم بالعزل والسم والقتل، فما حكم كل واحد منهما إلا عاماً واحدا فقط[1].

وعندما سدت سبل الإصلاح أمام الراغبين فيه والمتطلعين إليه أقبل الناس على الثورة حيث لم يجدوا أمامهم سواها للتغيير فكان أن قامت عدة حركات ثورية يقودها ثوار كانت غالبيتهم من العلويين.

وثارت الكوفة بقيادة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، على أن أخطر الثورات التى شهدها العصر العباسى كانت هى الثورة التى قادها على بن محمد ٢٧٠ هـ والتى بدأت فى

(١) انظر تاريخ الهلفاء ـ للسيوطى.

البحرين اشتهرت باسم ثورة الزنج.

وقد أسس الزنج حكومة لهم فى عهد العباسية وكان مقر حكمهم مدينة المختار جنوب البصرة العراقية.

وقد قامت ثورة الزنج فى عام ٢٥٥ هـ وأنهكت دولة الخلافة العباسية قبل أن تقضى عليها، وكان عماد هذه الحركة فى بادئ الأمر بعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التى شاركت فيها فهى عشائر عربية ثائرة على السلطة.

أما فيما يتعلق بالشخصية التى قادت: الزنج زعيم الثورة فهو على بن محمد الفارسى الأصل، وهو شخصية محيرة، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعاً للظروف التى كان يمر بها، واتصف بأنه رجل طموح وموهوب.

ثم حاول القيام بحركة ضد النظام ويبدو أن حياته كانت غير طبيعية فقد بدأها كشاعر فى بلاط الخليفة بسمراء إلا أنه أخفق فى تحقيق مبتغاه فسلك نهجاً جديداً، وظهر كقائد دينى ومتنبئ فادعى نسباً علويا محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحله أتباعه من أنفسهم محل النبى حتى جبى له الخراج.

ويبدو أن جماعة كثيرة فى البحرين قد تنكرت له مما دفعه إلى مغادرتها إلى البادية ليستقطب الأعراب، وادعى فيها النسب الشيعى على أنه يحيى بن عمر أبو الحسين، فالتف حوله بعض الأعراب استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين إلا أنه هزم وفر إلى البصرة.

ووقف أثناء إقامته القصيرة فيها على أوضاعها الداخلية السياسية والاجتماعية حيث كان المجتمع البصرى منقسماً على نفسه، فحاول أن يستغل هذه الخلافات لصالحة إلا أنه فشل، وفى الوقت نفسه رأى فى حياة العبيد الذين يعملون فى المستنقعات المجاورة فرصة لتحقيق طموحاته لكنه طرد منها فذهب إلى بغداد.

وفى بغداد استنبط نسباً علويا جديداً فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد ثم حاول الوثوب إلى السلطة مستغلاً الأوضاع المضطربة فى حاضرة الخلافة، ولكنه لم يتمكن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع فعاد إلى البصرةفى عام ٢٥٥ هـ يتزعم حركة ثورية مدعياً أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس كما ادعى العلم بالغيب وادعى النبوة.

والواقع أن فكرة المهدى المنتظر سيطرت عليه فى جميع مراحل حياته السياسية فاستغلها بذكاء وهو بادعائه المهدية، كان يضرب على وتر حساس فى نفوذ جماعة العلويين، فكانوا يأملون فى ظهور مهدى منقذ يزيل عنهم الغمة ويفرج عن أيامهم كربتها، وركز كثيراً على عراقة أصله وكتبها على نقوده وسمى نفسه المهدى على بن محمد المنقذ المنتظر.

وبعد انتهاء ثورته انتهت ثورة الزنج وإن كانت ثورة الزنج الأولى فى عهد الحجاج هى أقرب إلى الحقيقة حيث كان جل الثوار من الزنج المضطهدين فى كل العصور.

■ ■ ■

ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج

مطرف بن المغيرة بن شعبة، ابن الصحابى المغيرة بن شعبة وهو من أنصار بنى أمية ومن معاونى معاوية بن أبى سفيان وقد ورث بنوه إخلاصه فى الدفاع والموالاة لبنى أمية فكان ابناه عروة بن المغيرة نائباً للحجاج على الكوفة وأخوه مطرف بن المغيرة نائباً على المدائن وحمزة بن المغيرة على همدان.

وحين توجه مطرف بن المغيرة نائباً للحجاج على المدائن خطب الناس قائلاً:

«أيها الناس إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولانى عليكم وأمرنى بالحكم بالحق والعدل فى السيرة فإن عملت بما أمرنى به فأنا أسعد الناس، وإن لم أفعل فنفسى أوبقت، وحظ نفسى ضيعت.

ألا أنى جالس لكم العصرين فارفعوا إلى حوائجكم وأشيروا على بما يصلحكم ويصلح بلادكم.

فإنى لن آلوكم خيراً ما استطعت ثم نزل من على المنبر.

هكذا أعلن مطرف ولاءه للحجاج وبالتالى لبنى أميه ولا جديد فى ذلك.

وكان رد أهل المدائن عليه فى كلمة أحد أشرافها حكيم بن الحارث الأزدى: أصلحك الله إنى كنت منك نائياً حين تكلمت وإنى أقبلت نحوك لأجيبك فوافق ذلك نزولك، إنا قد فهمنا ما ذكرت لنا أنه عهد إليك فأرشدالله العاهد والمعهود إليه وقد منيت من نفسك العدل وسألت المعونة على الحق، فأعانك الله على ما نويت إنك تشبه أباك فى سيرته برضا الله والناس.

وظل مطرف فى عمله وإخلاصه للحجاج حتى قامت ثورة شبيب بن زيد على الحجاج وعبدالملك وأراد دخول المدائن فقطع مطرف جسر دجلة لمنعه من الوصول

وأرسل إلى الحجاج يخبره بالأمر.

فأرسل إليه الحجاج جيشا من أربعمائة مقاتل بقيادة سبرة بن عبد الرحمن وعبدالله بن كناز، وأرسل مطرف إلى شبيب يريد أن يناظره وطلب منه إرسال بعض أصحابه إليه فطلب منه شبيب أن يرسل إليه بعضاً من أصحابه ليكون رهينة لديه حتى يعود أصحابه.

وبالفعل أرسل مطرف بعض أصحابه لشبيب رهينة وأرسل شبيب بعض أصحابه لمطرف لمناظرته.

حين ناظر مطرف أصحاب شبيب اقتنع بوجهة نظرهم فى الخروج على الحجاج والخليفة وأراد منهم أن يتبعوه وأن يضعوا أيديهم فى يديه!!

فقالوا: هات ما تذكر فإن رأينا حقا أجبناك.

قال: فإنى أدعكم إلى قتال هؤلاء الظلمة الطغاة العاصين على أحداثهم، وندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضونه لأنفسهم على مثل الحال التى تركهم عليها عمر بن الخطاب، فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضا من قريش رضوا وكثر تبعكم منهم وأعانوكم على عدوكم فقالوا له: هذا مالا نجيبك إليه.

فقد كان الخوارج لا يرون أن تكون الخلافة فى قريش دون الناس، وكذلك رفضوا طلبه بخلع زعيمهم شبيب بن زيد فهم يدعونه أمير المؤمنين.

ورجعوا إلى شبيب فأخبروه بما قاله مطرف ولم تصل المفاوضات بين الطرفين إلى نتائج مرضية.

وكانت تلك المفاوضات سرية إلا أن أحد رجال مطرف وهو يزيد مولى المغيرة ابن شعبة قال له: والله لا يخفى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة وليزداد على كل كلمة عشر أمثالها ولو كنت فى السحاب هارباً لا لتمسك الحجاج حتى يهلكك، فالنجاء النجاء من مكانك هذا فإن أهل المدائن من هذا الجانب ومن ذاك الجانب وأهل عسكر شبيب يتحدثون بما كان ولا تمسى من يومك هذا حتى

يبلغ الخبر الحجاج، فاطلب داراً غير المدائن.

وبالفعل استجاب مطرف لنصيحة يزيد وترك المدائن هرباً من بطش الحجاج المرتقب.

وجمع مطرف من انضم إليه فى حركته بعد أن غادر المدائن وحثهم على الجهاد وأشهدهم على خلع الحجاج وعبدالملك والدعوى إلى كتاب الله وسنة رسوله وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين.

وسار مطرف بمن معه من الدسكرة متجها نحو حلوان وكان عاملها سويد بن عبدالرحمن السعدى فجمع له سويد أهل البلد والأكراد وأرسل إلى مطرف يقول:

إن كنتم تريدون بلادنا فسنمنعكم وإن كنتم لا تريدونها فاخرجوا عنها فإنا لا نجد بداً من أن يرى الناس ويسمع بأنا قد خرجنا إليك.

واستجاب مطرف لطلب سويد لهم بعدم دخول البلدة وعدم القتال إلا أن الأكراد قاتلوا أنصار مطرف حين منعوهم من السير فى إحدى الطرق التى خطها لهم سويد وانهزم الأكراد وقتل منهم الكثير.

وسار مطرف حتى اقترب من همدان فلم يدخلها واتجه يساراً إلى «ماه دينار» وطلب مطرف من أخيه حمزة فى همدان أن يمده بالمال والسلاح فأمده بما طلب فى السر، لكن الحجاج علم بذلك.

وسار مطرف وأتباعه إلى مدينة «قم» - الفارسية - وقاشان وأصبهان وكتب إلى صديقيه سويد بن سرحان الثقفى وبكير بن هارون البجلى يدعوهما للانضمام إلى حركته الثورية فأجاباه لطلبه وانضما إليه.

خشى نائب الحجاج على أصبهان البراء بن قبيصة ازدياد نفوذ مطرف فكتب إلى الحجاج يطلب منه إرسال جيش كبير له للقضاء على ثورة مطرف حيث كثر أتباعه.

وأمره الحجاج أن يعسكر بمن معه من الجنود فى مواجهة مطرف وأرسل إليه نحو خمسمائة فصار ما لديه ألفان وخمسمائة مقاتل فى مواجهة مطرف وأتباعه.

وقام الحجاج بعزل حمزة بن المغيرة أخو مطرف بعد علمه بإمداده له بالمال

والعتاد كما ذكرنا وحبسه حتى يأمن شره وخوفه من إمكان حمزة مساعدة أخيه وهو على همدان.

وكتب الحجاج إلى عدى بن زياد الإيادى يأمره بالمسير إلى مطرف والانضمام لجيش البراء بن قبية وأن يقاتل مطرف بن المغيرة ويقضى على ثورته.

وكان جيش البراء تسعمائة من أهل الشام عليهم عمر بن هبيرة وعسكر الجميع فى «بجى» يومين ثم تقدموا لقتال مطرف وقد بلغ هذا الجيش ستة آلاف مقاتل وقد علم مطرف بكل هذه التطورات المتلاحقة فعبأ مطرف أتباعه للقتال.

وحاول مطرف أن يستميل قادة هذا الجيش إليه فقال لهم: خبرونى عن عبدالملك بن مروان وعن الحجاج بن يوسف ألستم تعلمونهما جبارين مستأثرين يتبعان الهوى فيأخذان على الظنة ويقتلان على الغضب؟

فقالوا له: يا عدو الله كذبت ليسا كذلك.

والحقيقة أنهما كذلك.

ودارت رحى الحرب وتقاتل الطرفان وانتهت المعركة بهزيمة مطرف وأتباعه، وقتل مطرف فى هذه المعركة على يدى عمر بن هبيرة الفزارى واجتز رأسه وأرسلت إلى الحجاج كعادة أهل هذا الزمان.

وانتهت بذلك ثورة مطرف وذلك عام ٧٧ هـ وكانت ثورة بسيطة قضى عليها الحجاج بسهولة بعكس ثورة الخوارج الصفرية وثورة ابن الأشعث التى كادت أن تعصف بالحجاج كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

■ ■ ■



الحجاج وثورة ابن الأشعث

- بداية وأسـباب ثورة ابن الأشـعث على الحـجـاج والخليفة عبد الملك.
- مسألة خلع عبد الملك بن مروان من ابن الأشعث.
- معارك ابن الأشعث مع الحجاج فى البصرة والكوفة.
- نهاية ابن الأشعث ومصرعه بعد هزيمته فيدير الجماجم.

ثورة ابن الأشعث على الحجاج الثقفى والخليفة

ابن الأشعث هو الأمير عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكِنْدىّ أحد أمراء الحجاج وقواده بعثه على سجستان لقتال ملك الترك «تُرتبيل»(١)، فثار على الحجاج وقام معه علماء وصلحاء لله لما رأوا من جور وظلم وطغيان الحجاج(٢).

يطلق المعاصرون على ما فعله ابن الأشعث «ثورة» ويصنفها القدماء بأنها «فتنة لأنها شغلت الناس وجعلتهم قسمين وفريقين أحدهما انضم إلى ابن الأشعث والآخر إلى الحجاج الذى يمثل الدولة والخلافة.

فكيف حدثت تلك الفتنة التى حصدت الآلاف من المسلمين من الفريقين؟ وانضم إليها بعض العلماء الصلحاء أمثال سعيد بن جبير والشعبى.

البداية كانت عام ٧٨ هـ حين ضم الخليفة عبد الملك خراسان وسجستان إلى الحجاج الثقفى بعد عزل أمية بن عبد الله عن خراسان، وكان الحجاج قد فرغ من الخوارج أمثال شبيب ومطرف وتوجه الحجاج من الكوفة إلى البصرة واستخلف عليها المغيرة بن عبد الله وقيل عبد الرحمن الحضرى ثم عزله واستخلف المغيرة ابن عبد الله.

ولما فرغ المهلب بن أبى صفرة من أمر الأزارقة الخوارج قدم على الحجاج فأجلسه معه وكان الحجاج قد ولى المهلب على سجستان مع خراسان فقال له المهلب: ألا أدلك على رجل هو أعلم بسجستان منى وقد كان ولى كابل وزابل وجباهم وقاتلهم وصالحهم؟

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء ـ للذهبى جـ ٥، ويزعم البعض أن ملك الترك الذى وجه الحجاج إليه ابن الأشعث اسمه زنبيل وليس «رُتبيل» ولكن أغلب المصادر التاريخية تذكر أن اسمه «رُتبيل».

قال الحجاج: بلى، فمن هو؟

قال: عبيد الله بن أبى بكرة.

وهكذا تولى عبيد الله بن أبى بكرة أمر سجستان وقام بغزو ملك الترك رُتبيل وكان العرب تأخذ منه خراجاً وقد أرسل الحجاج إليه أن يحاربه ويستبيح أرضه وأن يهدم قلاعه.

فخرج ابن أبى بكرة لحربه وخرج معه أهل الكوفة والبصرة وكان على أهل الكوفة شريح بن هانئ الحارثى وكان على أهل البصرة عبيد الله.

واستمرت المعارك حتى عام ٧٩ هـ فى أرض «رُتبيل» وقد حقق المسلمون انتصارات فى بداية الأمر ولكنهم لم يحققوا الانتصار النهائى بالاستيلاء على «رُتبيل» فأرسل الحجاج إلى عبد الملك يخبره بذلك.

وكان عبد الرحمن بن الأشعث أحد قواد الحجاج وكان ابن الأشعث يسعى إلى خلع الحجاج، وكان الحجاج يكرهه ويقول: ما رأيته قط إلا أردت قتله.

فأراد الحجاج التخلص من ابن الأشعث فأرسله إلى سجستان لقتال ملك «رُتبيل».

عن الشعبى قال: كنت عند الحجاج جالساً حين دخل عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فلما رآه الحجاج قال: انظر إلى مشيته، والله لهممت أن أضرب عنقه.

قال فلما خرج عبد الرحمن خرجت فسبقته وانتظرته على باب سعيد بن قيس السبيعى، فلما انتهى إلىَّ قلت: ادخل بنا الباب، إنى أريد أن أحدثك حديثاً هو عندك بأمانة الله أن تذكره ما عاش الحجاج.

فقال: نعم.

فأخبرته بمقالة الحجاج له، فقال: وأنا كما زعم الحجاج إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه، فأجهد الجهد إذ طال بى وبه اللقاء[1].

(١) تاريخ الطبرى.

وجهز الحجاج جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل بقيادة ابن الأشعث من أهل الكوفة والبصرة.

ذكر الطبرى أن عشرين ألف رجل من أهل الكوفة وعشرين ألفاً من أهل البصرة وأحسن الحجاج تجهيز هذا الجيش.

وجاء عم عبد الرحمن بن الأشعث ويدعى إسماعيل بن الأشعث إلى الحجاج يطلب منه عدم إرسال عبد الرحمن بن الأشعث على قيادة تلك الحملة وقال له:

ـ لا تبعثه فإنى أخاف خلافه، والله ما أجاز جسر الفرات قط فرأى لوالٍ من الولاة عليه طاعة وسلطاناً.

فقال الحجاج له: ليس هناك، هو لى أهيب وفىٌّ أرغب من أن يخالف أمرى، أو يخرج من طاعتى.

فأمضاه على ذلك الجيش، فخرج بهم حتى قدم سجستان عام ٨٠ هـ(١).

ولما توفى عبيد الله بن أبى بكرة عام ٨٠ هـ كتب الحجاج لابن الأشعث عهداً لولاية سجستان وانفق على الجيش الذى جهزه له ألفى ألف ـ أى مليونى ـ وقد أطلق على هذا الجيش جيش الطواويس وكان الحجاج وقتها يحكم العراق والمشرق كله وقد أرسل لكل ولاية عاملا من قبله ليحكمها تحت رئاسته.

وحين وصل ابن الأشعث سجستان جمع أهلها وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن الأمير الحجاج ولانى ثغركم، وأمرنى بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم وأباد خياركم، فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة، اخرجوا إلى معسكركم فعسكروا به مع الناس.

فاستجاب له الناس كلهم وعسكروا فى المعسكر الذى أعد لهم ووضعت لهم الأسواق وأخذوا يتجهزون بأدوات الحرب.

وعلم رُتبيل بهذا الاستعداد له وخشى من بطش ذلك الجيش الذى لا قبل له به فأرسل إلى ابن الأشعث يعتذر له ويسأله الصلح ويعرض عليه أن يقبل منه

(١) المصدر السابق.

الخراج، فم يجبه ابن الأشعث وسار بجيشه نحو أرض رُتبيل الذى ما كان منه إلا أن ترك المواجهة وانسحب من أمامه فاستولى ابن الأشعث على أرضٍ كثيرة وحصون عديدة تركها رُتبيل.

وقام ابن الأشعث بوضع حاكم على كل بلدة يستولى عليها وترك قوة من الجيش لحماية تلك البلدة حتى إن الناس معه قالوا له: نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى تجبيها وتعرفها، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها.

فكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يطلعه على ما وصل إليه من انتصارات وأراض وغنائم ويعرض عليه الرأى الذى رآه الناس.

فرد عليه الحجاج ردّاً شديد اللهجة جاء فيه:

أما بعد، فإن كتابك أتانى، وفهمت ما ذكرت فيه، وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة، قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً، قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً، وغناؤهم فى الإسلام عظماً.

لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن، إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخِيُّ النفس عمن أصيب من المسلمين.

إنى لم أعدو رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة، ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك، والتياثُ رأيك، فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم، والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم(١).

ثم أردفه كتاباً جاء فيه:

أما بعد، فمر من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا، فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم.

ثم أردفه كتاباً ثالثا جاء فيه:

أما بعد، فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم، وإلا فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير على الناس، فخله وما وليته(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وغضب ابن الأشعث من تهديد الحجاج له فجمع الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، إنى لكم ناصح، ولصلاحكم محب، ولكم فى كل ما يحيط بكم نفعه ناظر، وقد كان من رأيى فيما بينكم وبين عدوكم رأى استشرت فيه ذوى أحلامكم، وأولى التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأياً، ورأوه لكم فى العاجل والآجل صلاحاً، وقد كتبت إلى أميركم الحجاج، فجاءنى منه كتاب يعجزنى ويصعفنى، ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم أمضى إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم[1].

وأمام هذا الخطاب الحماسى ثار الناس وقالوا له: لا، نأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع.

فقد كان الحجاج يرى أن العدو لا قيمة له وأنه ينسحب أمام الجيش المسلم، وبالتالى فإن الفرصة سانحة لاكتساب مزيد من الأراضى والمكاسب وضم البلاد للدولة الأموية.

بينما يرى ابن الأشعث ومن معه التريث حتى لا يتوغلوا فى أراض جديدة شاسعة كما فعل من سبقه فاستطاع عدوهم القضاء عليهم.

وقد شرح عامر بن وائلة الكنانى وجهة النظر تلك وكان شاعراً خطيباً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أما بعد، فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: أحمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك.

إن الحجاج والله ما يبالى أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثير اللّهوب واللُّصوب، فإن ظفرتم فغنتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة فى سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذى لا يبالى عنتهم، ولا يبقى عليهم.

اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا عبد الرحمن، فإنى أشهدكم أنى أول خالع.

---

(١) المصدر السابق.

فتعالت أصوات الناس بالإجابة والاستجابة لهذا العرض والنداء فقالوا: فعلنا، فعلنا، قد خلعنا عدو الله.

وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعى التميمى وكان قائد الشرطة فقال: عباد الله، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود، فإنه بلغنى أنه أول من جمر البعوث، ولن تعاينوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم(١).

بايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوكم فالقوه عن بلادكم.

فوثب الناس إلى ابن الأشعث فبايعوه، فقال لهم: تبايعونى على خلع الحجاج عدو الله وعلى النصرة لى وجهاده معى حتى ينفيه الله من أرض العراق.

وعلى هذا الأساس بايعه الناس ولم يذكروا فى بيعتهم خلع الخليفة عبد الملك ابن مروان يومها، وذلك عام ٨١ هـ.

قال أبو مخنف: حدثنى سيف بن بشر العجلى عن المنخَّل بن حابس العبدى أن ابن محمد فيقصد ابن الأشعث لما أقبل من سجستان أمَّر على بُسْتٍ عياض بن هميان البكرى من بنى سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وعلى زرنج عبد الله ابن عامر التميمى ثم الدارمى ثم بعث إلى رُتبيل، فصالحه على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقى، وإن هزم فأراده ألجأه عنده.

وسار ابن الأشعث من سجستان لحرب الحجاج فى العراق وسار معه الأعشى الشاعر وهو يقول:

شطت نوى من داره بالإيوان
إيوان كسرى ذى القرى والريحانْ
من عاشق أمسى بزابلستان
أن ثقيفاً منهم الكذَّابانْ

---

(١) يقصد أن الحجاج لن يعيدهم إلى بلادهم مرة أخرى وأنه سيجعلهم مقيمين فى البلاد التى يفتحونها آى مهاجرين فيها وتلك سياسة للحجاج حتى يضمن ولاء أهل البلاد التى يفتحها.

كـــــــــذابـهــــــا المـاضـى وكِـــــــذابُ ثـان

أمـكـن ربـى مـن ثـقــــــــيـف هـمـــــــــدانْ

يـومـــــــاً إلـى الـلـيـل يُـسَلّى مــــــا كـــــــان

إنَّـا ســـــمــــــونا لـلـكـفــــــور الـفَــــتَّـــــانْ

حـــــين طـغـى فـى الـكـفــــــر بعــــد الإيـمـــان

يا لـسَّـــــيـــــد الـغـطـريف عـــــبــــد الـرحـــمـن

ســــــار بـجــــــمـع كـــــالـدَّبـى من قــــحـطان

ومـن مَـــــعَـــــدٌ قــــــد أتـى ابـن عـــــدنـانْ

بـجـــــحــــــفـل جـم شــــــديـد الإرنـانْ

فــــــقـل لحـــــجــــــاج ولـى الـشــــيـطـانْ

يـثـــــبـت لجـــــمْع مـــــذحـج وهـمـــــدان

فــــإنـهـم ســــاقـــــوه كـــــأس الـذيـقـــــانْ

ومـلـحـــــقــــــوه بـقــــــرى ابـن مـــــــروانْ

وتقدم جيش ابن الأشعث عطية بن عمرو العنبرى وقد بعث الحجاج إليه كتائب من الخيالة فهزمهم عطية.

وانضم إليه الكثير من الأتباع من بلاد فارس وغيرها والسبب هو ظلم وطغيان الحجاج، فكلما سمع الناس بثورة ضد الحجاج انضموا إليها وخلعوا الحاكم الذى عينه الحجاج ومنهم أيضاً تيجان بن أبجر من بنى تيم الله بن ثعلبة فقام فنادى فى الناس وقال: إنى خلعت أبا ذبَّان ـ يقصد الخليفة عبد الملك بن مروان ـ كخلعى قميصى.

فخلعه الناس إلا قليلاً منهم ووثبوا إلى ابن الأشعث فبايعوه.

وكان صيغة البيعة: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين.

وأرسل الحجاج إلى الخليفة عبد الملك يخبره بثورة ابن الأشعث الذى انقلب

يقبل البيعة على كونه خليفة وأميراً للمسلمين وخلع أتباعه لعبد الملك.

وتدخل الناصحون لدرء هذه الفتنة فأرسل القائد المهلب بن أبى صفرة إلى ابن الأشعث يحذره فكتب إليه: ـ

«إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك فى ركاب طويل، أبق على أمة محمد ﷺ، الله، الله!! انظر لنفسك فلا تهلكها ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها، فإن قلت أخاف الناس على نفسى فالله أحق أن تخافه من الناس فلا تعرضها فى سفك دم أو استحلال محرم، والسلام عليكم.

وكتب أيضاً إلى الحجاج الثقفى: ـ

«أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من علٍ، وليس شىء يرده حتى ينتهى إلى قراره، وإن لأهل العراق شِرَّة فى أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شىء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشموا أولادهم ثم واقفهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله.

فلما قرأ الحجاج كتابه قال: فعل الله به وفعل، ثم لا والله مالى نظر، ولكن لابن عمه نصح.

أما الخليفة عبد الملك عندما علم بأمر ابن الأشعث غضب غضباً شديدا وخطب الناس قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ـ

ـ إن أهل العراق طال عليهم عمرى فاستعجلوا قدرى، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلىَّ سخطك.

أخذ الخليفة عبد الملك فى تجهيز جيش يقوده الحجاج لقتال ابن الأشعث ومن معه الذى التف حوله وتجمع لديه الكثير من المقاتلين ومن العلماء أيضاً حتى أنه قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف جندى مشاة.

ودخل ابن الأشعث ومن معه البصرة وخطب الناس وأعلن نفسه خليفة للمسلين بعد أن خلع الخليفة عبد الملك وبايعه الناس على ذلك وبايعوه على خلع الخليفة ونائبه الحجاج الثقفى وردد ابن الأشعث:

ليس الحجاج بشىء ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله.

ووافق الجميع على رأى ابن الأشعث بما فيهم الفقهاء والقراء.

قال أبو مخنف: حدثنى أبو الزبير الهمدانى قال: كنت فى أصحاب ابن محمد - ابن الأشعث - إذا دعا الناس وحملهم إليه ثم قال: اعبروا إليه من هذا المكان، فأقحم الناس خيولهم دجيل - اسم مكان - من ذلك المكان الذى أمرهم به، فوالله ما كان بأسرع من أن عبر عظم خيولنا، فما تكاملت حتى حملت على مطهر بن حرٍّ وعبد الله بن رميثة الطائى فهزمناهم يوم الأضحى فى سنة إحدى وثمانين وقتلناهم قتلا ذريعا، وأصبنا عسكرهم، وأتت الحجاج الهزيمة وهو يخطب.

وكانت تلك الواقعة تسمى معركة «تستر».

وأسرع إلى الحجاج أبو كعب بن عبيد بن سرجس فأخبره بهزيمة الناس، فقال: أيها الناس، ارتحلوا إلى البصرة إلى معسكر ومقاتل وطعام ومارّة فإن هذا المكان الذى نحن به لا يحمل جندا.

ثم انصرف راجعاً وتبعته خيول أهل العراق فكلما أدركوا منهم شاذاً - أى متخلفاً عن جيش الحجاج - قتلوه، ومضى الحجاج لا يلوى على شىء حتى نزل الزاوية، وبعث إلى طعام التجار بالكلاء فأخذه فحمله إليه، وخلى البصرة لأهل العراق.

وكان عامله عليها الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى، وجاء أهل العراق حتى دخلوا البصرة.

وقد كان الحجاج من صدم تلك الصدمة أقبل راجعاً دعا بكتاب المهلب، فقرأة ثم قال:

لله أبوه!! أى صاحب حرب هو!! أشار علينا بالرأى ولكن لم يقبل(١).

كانت البداية أن سار الحجاج بجيشه حتى نزل رستقباذ فعسكر بها، وأقبل ابن الأشعث فنزل «تستر» وبينهما نهر وكان ذلك عشية يوم عرفة عام ٨١ هـ، وانهزم جيش الحجاج كما ذكر أبو الزبير الهمدانى وقتل من أهل الشام جيش

(١) تاريخ الطبرى.

الحجاج ألف وخمسمائة وفرَّ الباقون منهزمين وكان مع الحجاج يومئذ مائة وخمسون ألفا.

وأقبل الحجاج وجيشه منهزماً إلى البصرة خطب الحجاج كما ذكرنا.

ودخل عبد الرحمن بن الأشعث إلى البصرة منتصراً وبايعه أهلها على حرب الحجاج وخلع الخليفة عبد الملك كما ذكرنا أيضاً وكان دخوله البصرة عام ٨١ هـ.

وامتدت الحروب بين الحجاج وابن الأشعث نحو ثلاث سنوات حتى إنهم اقتتلوا فى شهر المحرم وهو من الأشهر الحرم.

وكان أول المعارك بعد دخول ابن الأشعث البصرة القتال فى المحرم عام ٨٢ هـ وانهزم الحجاج وجيشه وانهزمت عامة قريش وثقيف. وتعرف هذه الواقعة أو المعركة «بالزاوية».

وكان أول القتال كما ذكرنا لصالح أهل العراق بقيادة ابن الأشعث ولكن المعركة لم تنته ففى يوم آخر حمل سفيان بن الأبرد أحد أمراء الشام على ميمنة ابن الأشعث فهزمها وقُتل عدد كبير من القراء وهم الناسكون المتعبدون من جيش ابن الأشعث.

وخر الحجاج لله ساجداً فرحاً بهذا النصر بعد أن كاد يقتل فى اليوم السابق.

وفر ابن الأشعث ومن معه إلى الكوفة وتبعه أهل البصرة الذين بايعوه على الخلافة وبقى أحد قواده وهو عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب يقاتل الحجاج بمن بقى معه من أهل البصرة قرابة خمس ليال أشد القتال ثم انصرف ولحق بابن الأشعث فى الكوفة.

وفى هذا اليوم جثا الحجاج على ركبتيه وسل شيئاً من سيفه وجعل يترحم على مصعب بن الزبير ويقول:

ـ ما كان أكرمه حتى صبر نفسه للقتل.

وكان من جملة من قتل من أصحاب ابن الأشعث أبو الطفيل بن عامر بن وائلة الليثى.

وقال الواقدى: ولما التقى بجيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة، فقال القراء وكان عليهم جبلة بن زحر: أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم فقاتلوا على دينكم ودنياكم.

وقال الشعبى وكان مع ابن الأشعث: ـ

قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة.

وقاتل القراء وهم العلماء يومها قتالاً شرساً وحملوا على الحجاج وجيشه حتى قتل قائدهم جبلة بن زحر وصاح الحجاج: يا أعداء الله قد قتلت طاغيتكم.

ثم حمل سفيان بن الأبرد على ميسرة ابن الأشعث فهزمهم وكان على ميسرة ابن الأشعث الأبرد بن مرة التميمى.

ورغم انتصار الحجاج إلا أن ثورة ابن الأشعث لم تنته بل قويت واشتدت حين لجأ إلى الكوفة وانضم غالبية أهلها له وبايعوه، فقدم إليه الحجاج وجيشه حيث كانت أهم المعارك فى دير الجماجم كما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله.

■ ■ ■

مسألة خلع عبد الملك بن مروان من ابن الأشعث وأنصاره

ذكرنا أن ثورة ابن الأشعث بدأت بخلع الحجاج دون خلع الخليفة عبد الملك بن مروان، ولكن بدأت فكرة أو مسألة خلع الخليفة عبد الملك نفسه حين دخل ابن الأشعث وأتباعه بلاد فارس وتشاوروا فى الأمر فقالوا: إنا إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك.

وبعد طرح المسألة توجهوا إلى زعيمهم وقائدهم ابن الأشعث فوافق عليها وكان أول من خلع الخليفة عبد الملك تيجان بن أبجر وقال: أيها الناس إنى قد خلعت أبا ذبَّان[1] كخلعى قميصى هذا.

ومن هنا انقلب الأمر من ثورة على الحجاج إلى فتنة كبرى بالثورة على نظام الحكم نفسه والذى بايعه ابن الأشعث نفسه وكان أحد أعمدته وقام الناس بخلع الخليفة ومبايعة ابن الأشعث بالخلافة كما ذكرنا.

ولعل أنه من أخطر ما فى تلك الفتنة من خطورة أنها جمعت عددا لا بأس به من العلماء والمشهورين فى ذلك الزمان مثل سعيد بن جبير وابن أبى ليلى والشعبى وأبناء من الصحابة مثل محمد بن سعد بن أبى وقاص وكذلك من الأعيان مسلم ابن يسار ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وأبو المنهال الرياحى وقد قيل لابن الأشعث أن أردت أن يقاتل الناس حولك كما قاتلوا حول هودج السيدة عائشة فى موقعة الجمل فأخرج الحسن البصرى معك، فأخرجه معه مكرهاً.

وممن خرج مع ابن الأشعث طلحة بن مطرف وعطاء بن السائب وغيرهما وكانوا يسمون القراء.

---

(١) أبا ذبان هو كنية عبد الملك بن مروان.

وقد انتقد ابن كثير رحمه الله مبايعة ابن الأشعث بالخلافة لكونه غير قرشى وأن الخلافة العامة للمسلمين كما جاءت بها الأحاديث النبوية تكون فى قريش دون غيرها من القبائل لهذا تعجب ابن كثير من موافقة العلماء الذين اتبعوا ابن الأشعث وبايعوه.

ومما قاله ابن كثير فى هذا أيضاً: ودخل ابن الأشعث فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان وتفاقم الأمر وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك واشتد الحال وتفرقت الكلمة جداً وعظم الخطب، واتسع الخرق على الراقع(١).

وقد استدل ابن كثير على عدم شرعية خلافة ابن الأشعث لكون الخلافة فى قريش فقط دون غيرها وهذا ما دلت عليه أحاديث منها:

ما أخرجه أبو داود فى مسنده وأحمد وأبو يعلى فى مسنديهما والطبرانى عن أبى برزة أن النبى ﷺ قال: «الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الملك فى قريش والقضاء فى الأنصار والأذان فى الحبشة»(٢).

وقال أيضاً: «الخلافة فى قريش والحكم فى الأنصار والدعوة فى الحبشة»(٣).

ولكن شرط بقاء الحكم والخلافة فى قريش العدل وإنفاذ العهود والرحمة بالناس(٤) فالعدل أساس الملك والحكم وبدونه لا حكم ولا طاعة ولا بيعة، وهذا ماأخذه الخارجون على الحجاج مع ابن الأشعث وغيره من الخوارج الذين دأبوا على الثورة حتى تم إسقاط حكم الأمويين على أيدى العباسيين.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) رواه الترمذى بإسناد حسن.

(٣) أخرجه أحمد والحاكم فى المستدرك.

(٤) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى.

ولهذا أراد الخليفة عبد الملك كما سيأتى بيانه إنهاء ثورة ابن الأشعث بعزل الحجاج الثقفى وتولية ابن الأشعث لأى ولاية يختارها إلا أن الثوار رفضوا هذا العرض وأرادوا تنحيه وعزل الخليفة نفسه كما فعل هو مع ابن الزبير ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك.

فقد قضى على ثورة ابن الأشعث بعد ثلاثة أعوام من قيامها فى دير الجماجم بعد معارك دامية وبعدها قام الحجاج بقتل من تبقى منهم حتى بلغ ما قتله من أتباع ابن الأشعث بعد هزيمته فى دير الجماجم بين يديه صبراً نحو مائة ألف وثلاثين ألفاً، منهم سادات الأخيار والعلماء الأبرار، ولهذا أطلق البعض على ما حدث فتنة ابن الأشعث(١).

وقد انتهت فتنة ابن الأشعث أو ثورته عام ٨٣ هـ.

لقد انتهت ثورة ابن الأشعث أول ثورة شملت العلماء والفقهاء فى عصره ولم تكن أخرها، وظهرت ثورات غيرها واستمرت حتى أطلق على تلك الثورات ثورة الفقيه.

ولم تكن ثورة ابن الأشعث شبيهة بأية ثورة واجهها الحجاج وعبد الملك بن مروان فقد خرج مع ابن الأشعث كل فقهاء البصرة وكثير من فقهاء الكوفة، حتى كانت للفقهاء كتيبة خاصة فى جيش ابن الأشعث، وكان شعارهم يومئذ: «يا لثارات الصلاة».

وأتت نتيجة الحرب مخيبة لآمال هؤلاء الفقهاء، حيث انتصر الحجاج فى الحرب وتتبعهم وقتل منهم جمعاً غفيراً، ولم ترد هذه الثورة الحجاج عن ظلمه بل زادت طغيانه وعتوه.

وكانت ثورة ابن الأشعث، التى سميت «فتنة» فيما بعد، لحظة فارقة فى تشكل النظرية السياسية السنية، حيث استقر فى وعى فقهاء أهل السنة أن المعارضة المسلحة ليست وسيلة صحيحة لمواجهة الظلم وتفشى المنكرات الدينية والدنيوية، وذلك بسبب انعدام الأمن الذى جعل وقت الفتنة وما تبع ذلك من مفاسد حيث قام الحجاج بقتل جمع كبير من أتباع ابن الأشعث وفيهم الفقهاء، ثم أسرف فى الظلم

---

(١) انظر البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

دون خوف من أحد.

قال أيوب السختيانى، مبيناً حالة الندم التى سادت الأوساط الفقهية السنية بعد مشاركتها فى ثورة ابن الأشعث: «ما صُرع أحد مع ابن الأشعث إلا رُغبَ عن مصرعه، ولا نجا منهم أحد إلا ندم على ما كان منه».

ولذا فقد استقر «القول» فى الفقه السنى، على تحريم الخروج بالسيف على الإمام الظالم والفاسق، وصار الأمن مقدماً على العدل.

ومن مقولات أهل السنة: «والٍ غشوم خير من فتنة تدوم».

لقد أصبح من وظائف الفقهاء بعد ذلك أن يساعدوا على الاستقرار السياسى، وأن يحافظوا على «الأمن» مهما كان الثمن المبذول مقابل ذلك[1].

ولا نكاد نجد نشذوذا عن هذه القاعدة إلا عند الزيدية والخوارج، وهما المذهبان اللذان يقدمان «العدل» على «الأمن»، أما الشيعة الاثنا عشرية فقد كان موقفهم قريباً من موقف فقهاء السنة، فبعد مقتل الحسين بن على أيقن الشيعة بعدم جدوى المواجهة العسكرية مع السلطة القائمة، ومالوا إلى العمل السرى، وذهب فقهاء الشيعة إلى تحريم حمل السلاح ضد السلطة القائمة، وذلك حتى يخرج المهدى، ورووا فى ذلك أثراً أن كل راية تخرج قبل راية المهدى فهى راية ضلالة.

لقد لزم فقهاء السنة والشيعة الحياد أمام السلطة السياسية، وكان حياد فقهاء السنة حياداً إيجابيّاً فهم يقولون بشرعية الدولة أما فقهاء الشيعة فحيادهم السلبى كان نتيجة قولهم بعدم شرعية الدولة، لكن هذا الخلاف كان نظريّاً فهو لم يمنع المواطنين الشيعة من المشاركة الفاعلة والبناءة فى الدولة وخدمتها.

والملاحظ أن الحركات الأصولية التى ظهرت فى العالم الإسلامى فى القرن الماضى داعية إلى إقامة الدولة الإسلامية الحقة، أو دولة الشريعة، أنها قامت فى صلبها على أكتاف أشخاص من خارج المؤسسة الدينية السنية التقليدية مثل المودودى، حسن البنا، سيد قطب، وغيرهم.

---

(١) انظر البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

بل لقد أخذت هذه الأصوليات على عاتقها مهمة إضعاف المؤسسة الدينية وانتقاصها بتهمة مداهنة السلطة السياسية وعدم الاستقلالية وغير ذلك من التهم، الأمر الذى انتهى بتهميش هذه المؤسسة ثم تبع ذلك أن استطاع الأصوليون اختراق المؤسسات الدينية التقليدية وذلك فى أهم المراكز الإسلامية لها فى مصر والسعودية وباكستان وإندونيسيا.

إن هذه المقدمة التاريخية الطويلة هى وسيلتنا التى نتوصل بها لفهم حركتين سنيتين خرجتا عن السنن المعروف للمؤسسة الدينية، وهما حركتا طالبان فى أفغانستان والمحاكم الإسلامية فى الصومال، ويجمع الحركتين أنهما فى الأصل نتاج المؤسسة الإسلامية التقليدية، وليستا وليدتى الحركات الأصولية، فطالبان نتاج المدارس الإسلامية فى باكستان التى ورثت الفقه الحنفى فى وسط آسيا، أما المحاكم الإسلامية فهى وريثة الفقهين الحنفى والشافعى، وأكثر علمائها من خريجى الأزهر الشريف قلعة الإسلام السنى التقليدى، وبينهم عدد من السلفيين خريجى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة، وانضم إليهم بعض المقربين إلى الجماعات الأصولية وتنظيم القاعدة.

وبسبب الضغط الأمريكى - الدولى تمت محاصرة طالبان كما ابتعدت عنها الحكومات الإسلامية، مما جعلها تتحالف مع القاعدة ويتم خسرانها إلى الأبد.

ولم تستفد أمريكا ولا المجتمع الدولى من تجربة طالبان فيكررون الخطأ نفسه مع حكومة المحاكم الصومالية حيث تم محاصرتها وتهميشها وفى الوقت ذاته بدأت القاعدة بمغازلة هذه الحكومة، وخاصة بعد هزيمة حكومة المحاكم بواسطة الجيش الأثيوبى ولجوء قوات المحاكم إلى حرب العصابات ثم الانقسام فيما بينها وهكذا انتهى أمر المحاكم الإسلامية فى الصومال.

فشخصية الفقيه المسلم التى ظهرت مع ثورة ابن الأشعث بدأت ولم تنته حتى الآن.

■■■

انتهاء ثورة ابن الأشعث فى «دير الجماجم»

توجه ابن الأشعث بعد هزيمته أمام الحجاج فى البصرة إلى الكوفة فاجتمع الناس حوله وبايعوه وانصم إليه مائة ألف ومعهم مثلهم من الموالى واستقر الجيش فى منطقة تسمى دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ناحية طريق البصرة.

وأرسل الحجاج إلى الخليفة عبد الملك يطلب منه المدد لمواجهة جيش ابن الأشعث فأرسل إليه مدداً من جنود الشام فاجتمع له جيش كبير وخندق كل منهما على عسكره فى دير الجماجم عام ٨٢ هـ فى أول ربيع الأول ودارت المعارك التى استمرت مائة يوم وعرفت الحرب بحرب المائة.

قال الواقدى: إن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه واحتفوا به ودخلوا بين يديه غير أن شرذمة قليلة أرادت أن تقاتله بزعامة مطر بن ناجية فلم يمكنهم ذلك فعدلوا إلى القصر، فلما دخل ابن الأشعث الكوفة أمر بالسلالم فنصبت على قصر الإمارة فأخذه واستنزل مطر بن ناجية(١) وأراد قتله فقال له:

- استبقنى فإنى خير فرسانك.

فحبسه ثم استدعاه فأطلقه وبايعه.

(١) مطر بن ناجية الرياحى كان عامل الحجاج على المدائن ولما بلغه خروج ابن الأشعث على الحجاج وعبد الملك وهزيمة الحجاج فى «تستر» دخل الكوفة وجمع الأنصار حوله وطردوا عامل الحجاج عليها وهو عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمى واستمر ابن ناجية على الكوفة ولكنه لم يستطع استمالة الناس اليه حتى دخل ابن الأشعث الكوفة فتحصن بقصر الإمارة حتى جاء ابن الأشعث وأمسك به وأراد قتله فطلب منه ابن الناجية استبقاءه وانضم اليه.

وقد فشلت كل محاولات ابن الناجية من أخذ البيعة له عقب إشاعته أن ابن الأشعث قد قتل قبل قدوم ابن الأشعث الكوفة ومعركة الجماجم.

ولهذا فإن حركة ابن الناجية لا أهمية لها فقد تاهت فى خضم صراع ابن الأشعث مع الحجاج.

واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب وأمر بالمسالح من كل جانب وحفظت الثغور والطرق والمسالك ثم إن الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة فى البر حتى مرَّ بين القادسية والعزيب وبعث إليه ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس فى خيل عظيمة من المصريين فمنعوا الحجاج من دخول القادسية.

فسار الحجاج حتى نزل الدير، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى تزل دير الجماجم وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم.

وقدم على الحجاج فى غبون ذلك أمداد كثيرة من الشام، وخندق كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقاً يمتنع به من الوصول إليهم وكان مقام جيشه فى دير قرة.

غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض فى كل يوم فيقتتلون قتالاً شديداً فى كل حين، حتى أصيب من رؤوس الناس خلق من قريش وغيرهم، واستمر هذا الحال مدة طويلة، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقال لهم: إن كان يرضيكم من عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم، وبعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أى بلد شاء يكون عليه أميراً عاش وعشت وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان.

وقال فى عهده هذا: فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك فى طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه فى الحرب وغيره.

لقد أراد عبد الملك بن مروان إنهاء تلك الفتنة بنزع فتيلها ألا وهو الحجاج الذى قامت ثورة العراقيين من أجله.

ولقد فزع الحجاج حين علم بأمر عزله إرضاء لابن الأشعث وأتباعه ودرءاً

للفتنة التى حصدت الكثير والكثير من الأوراح والأموال.

وكتب الحجاج رسالة إلى الخليفة يرجوه عدم عزله ويتوسل إليه إبقاءه فى الحكم وتلك عادة الطغاة حين يشعرون بخلعهم من على كرسى الحكم وجاء فى كتابه: ـ

ـ يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعى على ابن عفان؟

فلما سألهم ما تريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ وإن الحديد بالحديد يفلح، كان الله لك فيما أرتأيت، والسلام عليك(١).

لكن الخليفة رفض طلب ورجاء الحجاج وأصر على عرض عزله على أهل العراق مقابل إنهاء الثورة فإن لم يستجيبوا أطلق يد الحجاج فى قتالهم.

تقدم عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان فنادى عبد الله على أهل العراق قائلاً: يا معشر أهل العراق، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت.

فذكر ما أرسله أبوه معه إليهم من هذه الخصال.

وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخى أمير المؤمنين إليكم بذلك.

فقالوا: ننظر فى أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية.

ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وحثهم إلى قبول العرض من عزل الحجاج سبب الفتنة وما عرض من الأعطيات لهم وبيعة عبد الملك وإمرة محمد بن مروان بدلاً من الحجاج على العراق.

لكن أهل الشقاق قالوا: لا والله لا نقبل ذلك نحن أكثر عدداً وعدة وهم فى ضيق من الحال وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً.

---

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى.

ثم جددوا خلع عبد الملك والحجاج، وهكذا هو حال أهل العراق، فعلوا ذلك مع الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه ثم مع ابنه الحسين رضي الله عنه وحفيده زيد بن على وغيرهم من الأئمة والزعماء.

ومع رفض أهل الشقاق لعرض الخليفة عبد الملك قال عبد الله ابن الخليفة وعمه محمد بن مروان للحجاج: شأنك بهم إذاً، فنحن فى طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين.

وتولى الحجاج أمر الحرب والقتال وبرز كل فريق للآخر ودارت رحى الحرب، فجعل الحجاج على ميمنة جيشه عبد الرحمن بن سليمان وعلى الميسرة عمارة بن تميم اللخمى، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد وعلى المشاة عبد الرحمن بن حبيب الحكمى.

أما ابن الأشعث فقد جعل على ميمنة جيشه الحجاج بن حارثة الجشمى، وعلى الميسرة الأبرد بن قرة التميمى، وعلى الخيالة عبد الرحمن بن عياش بن أبى ربيعة وعلى المشاة محمد بن سعد بن أبى وقاص الزهرى، وعلى جماعة القراء العلماء جبلة بن زحر بن قيس الجعفى وكان فيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وكميل بن زياد وأبو البحترى الطائى وغيرهم الكثير من علماء الكوفة والبصرة.

واستمر القتال بين الطرفين قرابة المائة يوم، وكان أهل العراق يأتيهم الطعام من الأقاليم القريبة منهم من أرض العراق، وكانوا فى سعة من العيش، أما أهل الشام فكانوا فى ضيق من العيش وقلة من الطعام حتى إنهم فقدوا اللحم بالكلية وكان النصر فى غالب أيامها لصالح أهل العراق.

وقد قتل الحجاج فى هذه السنة عام ٨٢ هـ أحد العلماء وهو كميل بن زياد ابن نهيك بن خيثم النخعى الكوفى قتله صبراً بين يديه وكان كميل بن زياد يقاتل فى صفوف القراء فى جيش ابن الأشعث وكان من أنصار الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه لهذا قتله الحجاج حين وقع أسيراً بين يديه وسب الحجاج الإمام على رضي الله عنه فصلى عليه أى قال عليه السلام كميل فقال له الحجاج: والله لأبعثن إليك من يبغض علياً أكثر مما تحبه أنت فأرسل إليه ابن أدهم من أهل حمص ويقال له أبا الجهم ابن كنانة فضرب عنقه.

واستهلت سنة ثلاث وثمانين والمبارزة والقتال دائر بين الطرفين وفى غالب الأيام النصرة لأهل العراق انتصروا عليهم بضعاً وثمانين مرة إلا أن الحجاج كان ثابتاًفى معسكره فإذا انتصر ذات يوم تقدم خطوة نحو جيش ابن الأشعث ومازال هكذا حتى أمر جيشه بالهجوم على كتيبة القراء لأن الناس كانوا تبعاً لهم، وهم الذين يحضون الناس على القتال.

فصبر القراء لهجوم الحجاج، فجمع لهم الرماة من جيشه وحمل عليهم فقتل منهم الكثيرين ثم حمل على جيش ابن الأشعث فانهزم أصحاب ابن الأشعث وهرب ابن الأشعث من أرض المعركة ومعه بعض من أصحابه واتبعه جيش الحجاج حتى دخل ابن الأشعث أرض رُتبيل التركى فى سجستان.

وكان سبب نصر ابن الأشعث وهزيمته فى النهاية كتيبة القراء والعلماء التى كان عليها ويقودها جبلة بن زحر.

وكان الحجاج قد أعد لمهاجمتها ثلاث كتائب تحت قيادة الجراح بن عبد الله الحكمى وحملوا على كتيبة القراء حملة شرسة، فتصدى لهم القراء وقاتلوهم إلا أن الكتائب الثلاث استطاعت فى النهاية قتل قائد القراء جبلة بن زحر وقطع رأسه وأرسلت للحجاج الذى فرح لذلك وبشر جنوده بالنصر وقال لهم: يا أهل الشام أبشروا هذا أول الفتح، والله ما كانت فتنة قط فخبت حتى يقتل منها عظيم من عظماء أهل اليمن وهذا من عظمائهم(1).

وأدى مقتل جبلة بن زحر إلى ضعف كتيبة القراء وكذلك جيش ابن الأشعث.

وانهزم ابن الأشعث بعدها بأيام ونصحه أصدقاؤه بالهرب إلى بلاد ملك رُتبيل وهو فى طريقه مر على مدينة «بُسْت» التى كانت تابعة له فقال له عاملها وهو أحد أتباعه:

- ادخل عندى إلى البلد لتتحصن بها من عدوك ولكن لا تدع أحداً ممن معك يدخل المدينة.

---

(1) انظر تاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ.

فـأجـابه إلى ذلك وكـان ذلك العـامل يضـمـر الشـر والخـداع لابن الأشـعث وأصحابه فقد أراد أن يسلمه للحجاج.

فلمـا دخل ابن الأشعث تلك البلدة قـبض عليه ذلك الحـاكم الذى يفـترض أن ابن الأشعث هو رئيسـه، فلما بلغ ملك رُتبيل ذلك سـار إلى تلك البلدة وهى مدينة بُسّت، وهـدد عـاملهـا المخـادع وقـال له: والله لئن آذيت ابن الأشـعث لا أبـرح حـتى استنزلك وأقتل جميع من فى بلدك.

فخـاف منه عـامل تلك البلدة وأطلق ابن الأشـعث من مـحبسـه إلى ملك رُتبـيل فأكرمه ملك رُتبيل وأحسن إليه.

■ ■ ■

مصرع ابن الأشعث

بعد هروب ابن الأشعث من أرض المعركة تفرق أتباعه وأمر الحجاج منادياً ينادى على من بقى من جيش ابن الأشعث أنه من رجع فهو آمن ومن لحق بجيش قتيبة بن مسلم بالرى فهو آمن(١).

وعاد محمد بن مروان إلى الموصل وعاد ابن الخليفة عبد الملك إلى الشام ليبشر أمير المؤمنين بالنصر وانتهاء الفتنة والثورة.

وخطب الحجاج العراقيين فى الكوفة خطبة عصماء من خطبه كما خطبهم حين قدم الكوفة أول مرة والياً عليهم فقال لهم:

- «يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطكم فخالط اللحم والدم والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرَّخ فحشاكم نفاقاً وشقاقاً وأشركم خلافاً أخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومأمراً تستشيرونه.

فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم واقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟

ألستم أصحابى بالأهواز حين رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته؟

وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لواذاً وتنهزمون سراعاً.

ثم يوم الزاوية وما يوم الزواية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها.

لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوى الشيخ على بنيه حين عضكم السلاح وتصدعتكم الرماح.

---

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى ومقدمة ابن خلدون والكامل فى التاريخ.

ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم.

بضــــرب يـزيل الهـــام عن مـــقـــيلـه

ويـــذهـــل الخـــلـــيــل عـــن خـــلـــيـــلـــه

يا أهل العراق الكفرات بعد الفجرات والغدرة بعد الخترات والنزوة بعد النزوات.

إن بعثتم إلى ثغوركم تحللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة، هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاوٍ أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خادع إلا اتبعتموه وآويتموه ونصرتموه ورحبتموه!

- يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أنصاره وأتباعه.

- يا أهل العراق، ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع؟

وأخذ الحجاج البيعة لعبد الملك مرة أخرى وقتل صبراً بين يديه نحو مائة ألف وثلاثين من جيش ابن الأشعث المنهزم.

أما ابن الأشعث الهارب فى بلاد رُتبيل وقد حصل عنده كما يقال حديثاً على حق اللجوء السياسى وكان قد صالحه على عدم قتاله إذا ظفر على الحجاج واللجوء إليه إذا انهزم وقد أوفى ملك رُتبيل له بذلك حيناً من الزمان، لأن الحجاج ظل يكاتب رُتبيل ويطلب منه تسليم ابن الأشعث ويحلف له بالله الذى لا إله إلا هو إن لم يرسله ليبعثن إليه مليوناً من الرجال المقاتلة وأنه قد أرسل له عمارة بن تميم اللخمى فى ثلاثين ألف فارس من فرسان الشام لحربه إن لم يسلم لهم ابن الأشعث ومن معه.

واستشار رُتبيل مستشاريه وبعض الأمراء فأشاروا عليه بتسليم ابن الأشعث قبل أن يخرب الحجاج دياره، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتله. عشر سنين ولا يؤدى له إلا مائة ألف من الخراج.

فأجابه الحجاج لطلبه، عند ذلك غدر رُتبيل بابن الأشعث فقيل أنه أمر بضرب عنقه صبراً بين يديه وبعث برأسه إلى الحجاج.

وقيل إن ابن الأشعث كان قد مرض بالسل فمات فقطع رُتبيل رأسه وأرسلها إلى الحجاج.

والمشهور كما قال ابن كثير وابن جرير وغيرهما أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم بالأصفاد وبعث بهم مع رسل الحجاج.

فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح صعد ابن الأشعث وهو مقيد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل مقيد به لئلا يفر وألقى بنفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكل به فماتا جميعاً.

وتم قطع رأسه وقتل من معه من أصحابه وبعث برؤوسهم إلى الحجاج فأمر أن يطيف برأسه فى العراق.

ثم بعثه إلى الخليفة عبد الملك بالشام فطيف برأسه فى الشام.

ثم بعث به إلى مصر حيث واليها أخو عبد الملك ولى العهد الأمير عبد العزيز بن مروان فطيف برأس ابن الأشعث ثم دفنت الرأس بمصر وجثته بالرجح وقال بعض الشعراء فى ذلك:

هيهات موضع جثةٍ من رأسها
رأس بمصر وجثة بالرجح

وذكر ابن جرير أن مقتل ابن الأشعث كان عام ٨٥ هـ والله أعلم[١].

وذكر ابن كثير أن مقتله كان عام ٨٤ هـ.

وقال ابن كثير فى ترجمته لابن الأشعث:

قد روى له أبو داود والنسائى عن أبيه عن جده عن ابن مسعود حديث:

«إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول ما قال البائع أو تشاركا» ويقال إن الحجاج قتله بعد التسعين سنة والله أعلم.

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى.

وأضاف: والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش، وإنما هو كندى من اليمن، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا فى قريش واحتج عليهم الصديق بالحديث فى ذلك.

فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صليبة قريش ويبايعون لرجل كندى بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟

ولهذا لما كانت هذه زلته وغلته نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير فإنا لله وإنا إليه راجعون(١).

وقد توفى الخليفة عبد الملك بعد مقتل ابن الأشعث عام ٨٦ هـ.

وقد تتبع الحجاج أنصار ابن الأشعث فجعل يقتلهم مثنى وفرادى حتى قيل إنه قتل منهم بين يديه صبراً كما ذكرنا مائة ألف وثلاثين ألفاً منهم جماعات من السادات والأخيار والعلماء الأبرار آخرهم سعيد بن جبير رحمه الله كما سيأتى بيانه وعلى مقتل سعيد بن جبير مات الحجاج نفسه.

قال ابن جرير رحمه الله: ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث نادى مناديه فى الناس: من رجع فهو آمن ومن لحق بمسلم بن قتيبة بالرى فهو آمن، فلحق بمسلم خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث فأمنهم الحجاج ومن لم يلحق به شرع الحجاج فى تتبعهم فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى كان آخر من قتل سعيد بن جبير.

ذكر ابن الأثير فى تاريخه: أن رجلا من الأنصار جاء إلى عمر بن عبد العزيز فقال: أنا ابن فلان ابن فلان، قتل جدى يوم بدر، وقتل جدى فلان يوم أحد، وجعل يذكر مناقب سلفه.

فنظر عمر إلى جليسه فقال: هذه المناقب والله، لا يوم الجماجم ويوم راهط، من الخروج وحمل السلاح على المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

إن فتنة ابن الأشعث كانت فتنة عظيمة فرقت الكلمة، وقتل فيها أكثر من مائة

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

ألف مسلم، وفى هذه الحادثة فوائد منها أولها: أن للفتن فى أول نشوئها لذة وحلاوة تستهوى كثيرا من الناس، إلا من عصمه الله ونجاه، وقد خرج كثير من القراء مع ابن الأشعث، فضلا عن عامة الناس، كان كلامهم فى أول الفتنة قويا ومهيجا، تكلم متكلموهم، وأبدع خطباؤهم، فى التحريض على قتال جند الخليفة وأعوانه ووزرائه.

قال الله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾.

وذكر ابن الأثير فى تاريخه أن الحجاج لما غلب جيش ابن الأشعث أخذ يبايع الناس وكان ظالما، وكان لا يبايع أحدا إلا قال له اشهد على نفسك أنك كفرت، يعنى بنقضك البيعة وحملك السلاح، فإن قال نعم بايعه، وإلا قتله.

فأتاه رجل من خثعم كان معتزلا للناس كلهم، فسأله الحجاج عن حاله فأخبره باعتزاله، قال الحجاج، بل أنت متربص بنا، أتشهد أنك كافر؟

قال الرجل: بئس الرجل أنا أعبد الله ثمانين سنة، ثم أشهد على نفسى بالكفر.

قال الحجاج: أقتلك إذا؟

قال الرجل: وإن قتلتنى.

فقتله الحجاج، ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق إلا رحمه، وحزن لقتله.

أما إذا ولت الفتنة مدبرة عند ذلك يندم من دخل فيها لما يراه من الفساد والشر الذى نتج عنها، وهذا ما حدث لأهل فتنة ابن الأشعث، وقد جئ بهم حتى أوقفوا بين يدى الحجاج.

مثل عمرو بن موسى جئ به موثقا، فعنفه الحجاج، فاعتذر، وقال أصلح الله الأمير!! كانت فتنة شملت البر والفاجر، فدخلنا فيها، فقد أمكنك الله منا، فإن عفوت فبفضلك، وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين.

فقال الحجاج: أما إنها شملت البر والفاجر، فقد كذبت، ولكنها شملت الفاجر وعوفى منها الأبرار، وأما إقرارك فعسى أن ينفعك.

فرجى له الناس السلامة.

لكن الحجاج أمر به فضربت عنقه.

ثم دعا الحجاج بالهلقام بن نعيم فقال: ما أخرجك مع ابن الأشعث؟ وما الذى أملت؟

فقال الرجل: أملت أن يملك ابن الأشعث فيولينى العراق، كما ولاك عبد الملك.

فقتله الحجاج.

كان النبى ﷺ يستعيذ بالله من الفتن ويأمر بذلك فى كل صلاة، لأن بعضها يجعل الحليم حيرانا، ذلك أن أهل الفتنة يزينون فعلهم بكثرة موافقيهم. فابن الأشعث قاتل معه أكثر من مائة وخمسين ألفا، وتبعه جماعة من السادات.

قال أيوب: ما منهم من أحد صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه، ولا نجا من نجا منهم إلا حمد الله وسلمه.

قال الإمام ابن بطة العكبرى فى التحذير والاغترار بالكثرة: والناس فى زماننا أسراب كالطير يتبع بعضهم بعضا!! لو ظهر فيهم من يدعى النبوة مع علمهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء - أو من يدعى الربوبية لوجد على ذلك أتباعا وأشياعا.

فها هو ابن الأشعث خرج على جيش إسلامى مجاهدا فى سبيل الله، ثم صار رأسا فى الفتنة، فترك قتال الكفار وهجم على أهل الإسلام!! وقتل بسببه جمع كثير، واضطربت الأمور وكثر الشر، ثم آلت به الحال أن يلجأ إلى ملك الكفار الذى كان يقاتله بالأمس، ففرح به الكافر وأكرمه إغاظة للمسلمين.

وهكذا الفتن تقود صاحبها إلا ما لا يريد.

لقد غدر به الملك الكافر وأرسله موثقا إلى الحجاج، فأسقط فى يده، فلما كان ببعض الطريق، صعد قصرا فألقى نفسه، فمات، فمن كان يظن أن نهايته تكون هكذا.

لقد ألبس ابن الأشعث فتنته هذه لباس الشرع، وأوهمهم أنها إنكار للمنكر ونصرة للدين، لكن الباطن خلاف ذلك، قد ذكر ابن الأثير أن الحجاج كان يبغض

ابن الأشعث، ويقول: ما رأيته قط إلا وأردت قتله، وهو يعلم ذلك، وكان يهدد ويقول: وأنا والله لأجهدن أن أزيل الحجاج عن سلطانه إن طال بى البقاء.

وقال ابن كثير على أن سبب تلك الفتنة كره ابن الأشعث للحجاج، ثم جمع حوله من يبغضون الحجاج، فانظروا كيف استغل كره الناس ليثأر منه وينكد عليه ولهذا فمن دعا إلى مفارقة الجماعة وإثارة الفتنة فهو صاحب هوى مريض قلب، مخالف للسنة، وإن ظهر فعله ذلك فى صورة إنكار للمنكر.

وقد كتب الخليفة إلى ابن الأشعث عزل الحجاج وتوليته مكانه، وبقاء أعطيات الناس، فمال إلى ذلك ابن الأشعث فخطب الناس وقال: اقبلوا ما عرض عليكم، وأنتم أعزاء أقوياء، فوثب الجهال من كل مكان يقولون: لا والله لا نقبل نحن أكثر منهم عددا وعدة، وأعادوا خلع الخليفة ثانية، وبايعوا ابن الأشعث، فانصاع لأمرهم ووافقهم حتى آل أمره إلى ما آل إليه.

من أجل ذلك كان الأئمة يحرصون على الاجتماع زمن الفتن يقول حنبل: اجتمع فقهاء بغداد فى ولاية الواثق إلى أبى عبد الله يعنى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله - يقولون له: إن الأمر تفاقم وفشا - يعنون إظهار القول بخلق القرآن، ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه، فناظرهم الإمام أحمد فى ذلك وقال: عليكم بالإنكار فى قلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة، لا تشقوا عصا المسلمين ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا فى عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر ويسترح من فاجر.

وقال لهم: ليس هذا - يعنى نزع أيديهم من طاعتهم - صوابا.

ومن الدروس المستفادة من فتنة ابن الأشعث: -

لزوم جماعة المسلمين وإمامهم والحذر من التفرق، لقول حذيفة ﵁ لما ذكر له النبى ﷺ الفتن، قال فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟

فقال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

ومنها الالتفاف حول علماء السنة أهل التوحيد، والحذر من التفرق عليهم

ومنازعتهم، والصدور عن آرائهم والاستجابة لنصحهم.

وأول باب يلج الرجل منه إلى الفتنة الطعن بالعلماء، والاستبداد بالرأى دونهم. ومن رأيتموه يقدح فى علمائنا فاعلموا أنه مفتون، فإن من علامة أهل البدع الوقيعة فى أهل السنة ومنها أن الفتن إذا وقعت فما كل ما يعلم يقال، وليت بعض الناس يتركون الأمور العظام للعلماء الكبار حفاظاً على اجتماع الكلمة، لأن مرد الناس فى آخر أمرهم للعلماء، فمن كان عنده رأى فليعرضه عليهم ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم».

فالاختلاف عن جهل مرده إلى الشيطان الذى يغرى البعض من أهل الضلال فى إثارة الفتن بالاختلاف الذى يذهب القوة ويؤدى إلى الضعف والتفرقة والتشتت.

وممن قتلهم الحجاج من السادات والعلماء محمد بن سعد بن أبى وقاص الذى قال له قبل ضرب عنقه: يا ظل الشيطان وأعظم الناس تيهاً وكبرا، تأبى بيعة يزيد - يقصد الخليفة يزيد بن معاوية - وتتشبه بالحسين وابن عمر ثم صرت مؤذنا لابن عبد بنى مضر[1].

ومنهم عبد الله بن عامر الذى قال للحجاج حين أمسك به يزيد بن الهلب وأرسله إليه: لا رأت عيناك الجنة إن أقلت ابن المهلب بما صنع.

قال له الحجاج مستغرباً: وما صنع ابن المهلب؟

فأنشد يقول:

لأنه كاس فى إطلاق أسرته

وقاد نحوك فى أغلالها مضرا

---

(١) أى عمر بن أبى الصلت وقد فرَّ إليه الكثير من أصحاب ابن الأشعث بعد دير الجماجم، وقد قتل فيما بعد حين هرب من الحجاج إلى طبرستان.

وقى بقـــــومك وِرْدَ المـوت أســـــرتـه

وكـــــان قــــومك أدنـى عنـده خـطـرا

فأطرق الحجاج ملياً يتفهم الكلمات فى نفسه ثم قال له: ما أنت وذاك.

وقد قام الحجاج بعد مقولة ابن عامر له عن ابن المهلب بعزل ابن المهلب وحبسه وأسرته.

ومنهم فيروز حصين وهو من سادات القوم الذين تبعوا ابن الأشعث قال له الحجاج حين أمسك به: أبا عثمان فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم.

فقال فيروز: فتنة عمت الناس فكنا فيها.

قال الحجاج: اكتب لى أموالك.

قال: ثم ماذا؟

قال: اكتبها أولاً.

قال فيروز: وأنا آمن على دمى؟

قال الحجاج: فأين هذه الأموال؟

قال: عندى.

قال الحجاج: فأدها.

قال: وأنا آمن على دمى؟

قال: والله لتؤدينها ثم لأقتلنك.

قال فيروز: والله لا تجمع بين مالى ودمى(١).

ثم أمر به الحجاج فنحى ثم أتى به فقال له: أنت الجاعل على رأس الحجاج مائة ألف درهم(٢).

---

(١) تاريخ الطبرى.

(٢) يقصد أن فيروز قد رصد مائة ألف درهم مكافأة لمن يقتل الحجاج فى برستقباذ رداً على =

قال فيروز: قد فعلت.

فقال له: لأمهدنك ثم لأحملنك[1].

ثم أمر به الحجاج فعذب فلما أحس فيروز بالموت قال للموكل بعذابه: إن الناس لا يشكون انى قد قتلت ولى ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبداً، فأظهرونى للناس ليعلموا أنى حى فيؤدوا المال.

فأمر الحجاج بإخراجه إلى باب المدينة، فصاح فيروز فى الناس: من عرفنى فقد عرفنى ومن أنكرنى فأنا فيروز حصين، إن لى عند أقوام مالاً فمن كان لى عنده شىء فهو له وهو منه فى حل، فلا يؤدين أحد منه درهماً، ليبلغ الشاهد الغائب.

ثم أمر الحجاج به فقتل[2].

وممن قتلهم الحجاج المسؤول الإعلامى لابن الأشعث وهو الشاعر أعشى همدان الذى كان دليلا على رفع الروح المعنوية لجنود ابن الأشعث ويذم الحجاج والخليفة عبد الملك، فلما جىء به للحجاج قال له:

ـ ألست القائل لابن الأشعث:

أنت الرئيس ابن الرئيس
وأنت على الناس كعب
نبئت أن بُنَىَّ يوسف
حز من زلق فتبا

كلا يا عدو الله، عبد الرحمن ـ يقصد ابن الأشعث هو الذى خرَّ من دلو فتب وخار فانكب.

ورفع الحجاج صوته وغضب وتغير لونه فقال له الأعشى مهدئاً: ـ

= رصد الحجاج مكافأة مائة ألف درهم لمن يأتى برأس فيروز.

(١) انظر الكامل للمبرد ـ أبو العباس محمد بن يزيد.

(٢) انظر تاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ والكامل للمبرد.

أيها الأمير أنا القائل:

أبى الله إلا أن يتم نوره ويطفئ نار الفاسقين فتخمدا

وينزل ذلاً بالعراق وأهله كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا

وظل ينشد أبياتاً يمتدح فيها الحجاج والخليفة ويذم أهل العراق وابن الأشعث، وبعد أن فرغ من إنشاده الشعر قال بعض الحاضرين للحجاج: قد أحسن أيها الأمير فخل سبيله.

فقال لهم الحجاج: أتظنون أنه أراد المدح لا والله ولكن قال هذا تأسفاً لغلبتكم إياهم وأراد أن يحصن أصحابه.

ثم قال للأعشى: أتظن يا عدو الله أنك تخدعنى بهذا الشعر؟ ليس عن هذا سألتك أنشدنا قولك بين الأشج وبين قيس باذخ.

فأنشده حتى قوله: بخ بخ لوالده وللمولود، قال الحجاج له: والله لا تبخبخ بعدها لأحد أبداً.

ثم أمر بضرب عنقه(١).

وممن عفا عنهم الحجاج وأعطاهم الأمان بعد واقعة دير الجماجم حين نادى منادى الحجاج أن من لحق بجيش مسلم بن قتيبة فهو آمن فقيه العراق الشعبى رحمه الله والذى كان من أتباع ابن الأشعث وقد لحق بأمان الحجاج وانضم للقتال فى جيش مسلم بن قتيبة فلما علم الحجاج به طلب من ابن قتيبة أن يرسله له فأرسله، فلما وقف أمام الحجاج قال للحجاج:

ـ السلام عليك أيها الأمير قد أمرونى أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول فى هذا المقام إلا حقّاً، قد والله تمردنا عليك وحرضنا

(١) انظر تاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ والأغانى للأصفهانى ومروج الذهب للمسعودى.

وجهدنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا.

فقال له الحجاج: والله لأنت أحب إلينا قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت.

ثم أضاف: يا شعبى، كيف وجدت الناس بعدنا؟

قال: أصلح الله الأمير قد اكتحلت بعدك السهر واستوعرت الخباب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفاً.

قال الحجاج: انصرف يا شعبى.

وكان الشعبى الفقيه قبل فتنة وثورة ابن الأشعث من جلساء الحجاج وكان الحجاج يحبه كثيراً.

■■■



الحجاج وسعيد بن جبير

- سعيد بن جبير وفتنة عبد الرحمن بن الأشعث.

- قتل الحجاج سعيد بن جبير رحمه الله من خلال الروايات الصحيحة.

التابعى سعيد بن جبير وفتنة عبد الرحمن بن الأشعث

سعيد بن جبير الأسدى بالولاء فهو من الموالى، الكوفى المكى أبو محمد ويقال أبو عبد الله من أكابر أصحاب ابن عباس رضى الله عنهما من أئمة التفسير والفقه، رأى خلقاً من الصحابة وروى عن جماعة منهم، روى عنه أنه ختم القرءان مرتين ونصفاً فى ليلة فى الكعبة وربما قرأها فى ركعة فى جوف الكعبة.

من كلماته التى ذكرها ابن كثير عنه قوله: إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك وبين معصيته، وتحملك على طاعته، فتلك هى الخشية النافعة، والذكر طاعة، فمن أطاع الله فقد ذكره ومن لم يطعه فليس بذاكر له، وإن كثر منه التسبيح وتلاوة القرءان.

وسئل سعيد: من أعبد الناس؟

قال: رجل اقترف من الذنوب، فكلما ذكر ذنبه احتقر عمله.

وحين قال له الحجاج الثقفى حين ظفر به وأراد قتله: ويلك.

فقال له سعيد: الويل لمن زُحزح عن الجنة وأدخل النار.

فقال الحجاج: اضربوا عنقه.

فقال: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة فأنا خصمك عند الله.

فذبح من قفاه، فبلغ ذلك الحسن البصرى فقال: اللهم يا قاصم الجبابرة، اقصم الحجاج.

قال ابن كثير: فما بقى إلا ثلاثة - أى الحجاج - حتى وقع من جوفه دود فأنتن

منه فمات.

ضحك سعيد حين أُخذ لضرب عنقه فقال له الحجاج: ما أضحكك؟.

فقال: أضحك من غيراتك علىَّ، وحلم الله عنك[1].

كان ابن جبير فى مكة وقت أن قدمها الحجاج، وبعد قتله لابن الزبير أخذ منه البيعة لعبد الملك بن مروان، ثم لما قدم الحجاج العراق أخذ منه البيعة ثانية، وولاه إمامة الصلاة، ثم ولاه القضاء، ولكن أهل الكوفة ضجوا، وقالوا: لا يصلح للقضاء إلا عربىٌّ.

فعين الحجاج أبا بردة بن أبى موسى الأشعرى مكانه وأمره ألا يبرم أمراً إلا برأى سعيد بن جبير، ثم أعطاه مئة ألف درهم فرَّقها فى ذوى الحاجات، وجعله فى سُمَّاره، وكلُّهم من رؤوس العرب وما زال الحجاجُ يعرفُ لسعيد فضله ومكانته الدينية على الرغم أنه من الموالى أى أنه ليس من العرب ولما خرج ابن الأشعث بالحملة الموجهة إلى رُتبيل ملك الترك، جعله الحجاج على نفقات الجند.

ويذكر ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة أن الحجاج أرسله لابن الأشعث بكتاب ردًا على خطاب من ابن الأشعث إلى الحجاج، يوبِّخه ويبيِّن له مساوئه.

فلما وصل سعيد لابن الأشعث، جزع وخاف منه، لأنه فقيه أهل العراق، فلم يظهر سعيداً للناس، وأخفى الكتاب، وصار يختلى به، ويعمل على أن يخلع سعيدٌ طاعة الحجاج ليقوى عضده، وكان سعيدٌ لا يرى الخروج على الحجاج، ولكن ابن الأشعث ألحَّ عليه، وذكر له مساوئ نسبها للحجاج حتى دخل معه، على كرهٍ منه.

وذكر أيضاً: أن سعيداً خَرَجَ مع ابن الأشعث وهو جدٌّ كارهٌ.

وفى إحدى المواقع أسر سعيد، فلمَّا أتى به للحجاج قال: ويحك يا سعيد! أما تستحى منِّى؟ ألا استحييت من المراقب لى ولك، والحافظ علىَّ وعليك؟

فقال سعيد: أصلح الله الأمير، وأمتع به، هى بليَّةٌ وقعت، وعذاب نزل، والقول كما قال الأمير، وكما نسبه إليه، وأضافه إليه، إلا أنى أتيت رجلاً قد أزهى وطغى،

(١) المصدر السابق.

ولبسته الفتنة، وركب الشيطان كتفيه، فإن تعاقب فبذنب، وإن تعف فسجيَّةٌ منك.

فقال له الحجاج: فإنَّا قد عفونا عنك، وسنردُّكَ إليه مرَّةً أخرى.

ثم كتب كتاباً، وأرسل به سعيداً، فلمَّا كان سعيد بالطريق، حرَّقَ الكتابَ، وقدم على عبد الرحمن فأخبره الخبر.

وبقى معه، وما زال مع ابن الأشعث حتَّى حدثتْ موقعة دير الجماجم والتى هزم فيها ابن الأشعث، وقتل فيها من قتل، وهرب من هرب، فكان سعيد من الذين أفلتوا وتوجَّهوا إلى أصبهان، فكتب الحجاج إلى عاملها بالقبض عليه، فلم يرق ذلك فى نظر العامل، وأرسل إلى سعيد يعرِّفُه، ويطلب منه أن يخرج من البلاد فى السرِّ، فخرج، وسار إلى أذربيجان.

وطال عليه القيام بها، فاغتمَّ، فخرج إلى مكة مستخفياً وأقام بها.

فلما ولى خالد القسرى مكة، أشار بعض الناس على سعيد بالهرب، فقال: قد استحييت، ولا مفرَّ من قدر الله، وكان قد ولى المدينة عثمان بن حيَّان المرىُّ فصار يرسُل أهل العراق إلى الحجاج، وسار على هذه الطريقة خالد القسرى، فأرسل عطاء بن أبى رباح، وسعيد بن جبير، وعمرو بن دينار، وطلق بن حبيب، ومجاهد. فعفا الحجاج عن عطاء وعمرو، لأنهما مكِّيان، ومات طلق فى الطريق، وحبس مجاهد حتى مات الحجاج.

ويروى أن الحجاج كتب إلى الوليد يخبره أن أهل العراق أهلُ الشقاق والنفاق، قد لجؤوا إلى مكة، فكتب الوليد إلى خالد القسرى بالقبض عليهم، وإرسالهم إلى الحجاج.

كما يروى أن خالداً هدد من وجد سعيد فى داره بهدمها، وهدم دار من جاوره، وضرب لذلك أجلاً مدته ثلاثة أيَّام.

ويروى أن الحجاج لما وصل إليه سعيد، قال: لعن الله ابن النصرانية يقصد خالد القسرى - أما كنت أعرف مكانه؟، بلى والله، والبيت الذى هو فيه بمكة.

ولما أرسل سعيد بن جبير إلى الحجاج تألَّم من ذلك، ثم قال له: يا سعيد! ألم أقدم مكة فأخذت منك البيعة؟

قال: بلى!

قال الحجاج: ألم أولِّك القضاء فضجَّ الناسُ، وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربيٌّ، فاستقضيتُ أبا بردة بن أبى موسى الأشعرى وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟

قال ابن جبير: بلى.

قال الحجاج: أما جعلتك من سُمَّارى وكلهم من رؤوس العرب.

قال: بلى.

قال الحجاج: أما أعطيتك مائة ألف درهم تفرقها فى أهل الحاجة، ثم لم أسألك شيئا منها.

قال سعيد: بلى.

قال الذهبى فى تاريخه أن الحجاج ظل يعاتبه حتى قال له ابن جبير: إنِّى امرؤٌ من المسلمين، يصيب مرَّةً، ويخطئ أخرى.

فطابت نفس الحجاج، واطمأنّت، ورجا أن يتخلص من أمره.

ثم عاوده مرَّةً أخرى، فقال له: فما الذى أخرجك علىَّ؟

قال سعيد: كانت فى عنقى بيعة لابن الأشعث، لأنه عزم علىَّ.

فغضب الحجاج، وقال: هيه! رأيت لعزمة عدوٍّ الرحمن عليكَ حقا، ولم ترَ لأمير المؤمنين ولا لى عليكَ حقًّا؟! تنكث بيعتين، وتفى بواحدة للحائك ابن الحائك؟! اضربا عنقه!

فإياه عنى جرير بقوله:

يا رُبَّ ناكثِ بيعَتَيْنِ تركتهُ ... وخضابُ لحيَتِهِ دمُ الأَوداجِ(١)

---

(١) انظر تاريخ الطبرى، وتاريخ الإسلام للذهبى والبداية والنهاية.

قتل الحجاج سعيد بن جبير رحمه الله

شغلت قضية مقتل العالم والفقيه سعيد ين جبير حيزاً كبيراً فى سيرة الحجاج الثقفى رغم أنها وقعت فى آخر حياته فقد توفى الحجاج إثر مرض غامض قيل إنه سرطان المعدة بعد أيام من قتله سعيد بن جبير.

وكان سبب قتل سعيد بن جبير اشتراكه مع غيره من العلماء فى عصره فى ثورة ابن الأشعث وظل ابن جبير هارباً بعد هزيمة ابن الأشعث فى دير الجماجم قرابة عشر سنوات حتى ظفر به الحجاج وألقى القبض عليه بواسطة والى مكة خالد القسرى.

وقد نسجت قصص خيالية حول ما دار بين الحجاج وابن جبير ذكرها أصحاب السير والتاريخ وما أثبت تلك القصص أن الحجاج مات بعد مقتل ابن جبير بأيام وأنه لم يقتل أحدا بعده وقيل بل قتل واحداً فقط.

فى البداية قبل ثورة ابن الأشعث كانت العلاقة طيبة بين الحجاج وابن جبير حيث إن الحجاج قد جعله مسؤولاً عن نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث لقتال رُتبيل ملك الترك فى بلاد الأفغان.

وحين خلع ابن الأشعث الحجاج أقنع ابن جبير بوجوب خلعه وبين له مساوئ الحجاج وقيل إن ابن جبير خرج مع ابن الأشعث مكرهاً وهذا لا يصح حيث إن ابن جبير فى حديثه الأخير مع الحجاج أوضح له أنه بايع ابن الأشعث بإرادته وأنه حافظ على تلك البيعة، بالإضافة إلى أن الحجاج حين أسر ابن جبير فى أول مرة أطلقه كما سيأتى وعاد إلى ابن الأشعث مرة أخرى وانضم إليه وقاتل معه.

قال ابن كثير وغيره إن الحجاج ظفر بسعيد بن جبير فى إحدى المواقع فقال له الحجاج: ويحك أيا سعيد أما تستحى منى، ألا استحييت من المراقب لى ولك والحافظ علىَّ وعليك؟

فقال له سعيد: أصلح الله الأمير وامتع به هى بليَّة وقعت وعذاب نزل والقول كما قال الأمير وكما نسبه إليه وأضافه إليه إلا أنى أتيت رجلاً قد أزهى وطغى ولبسته الفتنة وركب الشيطان كتفيه فإن تعاقب فبذنب وإن تعف فسجية منك.

فقال له الحجاج: فإنا قد عفونا عنك وسنردك إليه مرة أخرى.

وأرسله الحجاج بكتاب إلى ابن الأشعث، فلما كان سعيد بالطريق حرق الكتاب وقدم على ابن الأشعث فأخبره الخبر وبقى معه حتى كانت هزيمة ابن الأشعث فى دير الجماجم هرب ابن جبير إلى أصبهان فكتب الحجاج إلى نائبها أن يرسله إليه، فهرب سعيد منها ولجأ إلى مكة المكرمة وأقام بها حتى وليها خالد بن عبد الله القسرى، فأشار البعض على ابن جبير بالهرب خوفاً من خالد القسرى أن يسلمه للحجاج فقال: والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره.

فظل ابن جبير هارباً من الحجاج عشر سنين حتى عام ٩٤ هـ وقد طلب الحجاج من والى المدينة ومكة تسليم من بقى من أتباع ابن الأشعث المختبئين عندهما.

فبعث والى المدينة عثمان بن حيان من أصحاب ابن الأشعث من العراق للحجاج فى القيود وتابعه وإلى مكة خالد القسرى فأرسل سعيد بن جبير وعطاء بن رباح ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وطلق بن حبيب.

فعفا عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة ومات طلق فى الطريق وأما مجاهد فحبس حتى مات الحجاج.

أما سعيد بن جبير فلما وقف أمام الحجاج قال له الحجاج: -

- يا سعيد ألم أشركك فى أمانتى؟، ألم أستعملك؟ ألم أفعل، ألم أفعل.

كل ذلك وسعيد يقول له: نعم، حتى ظن من عنده أنه سيخلى سبيله، حتى قال له:

- فما حملك على الخروج علىَّ وخلعت بيعة أمير المؤمنين؟

قال سعيد: أن ابن الأشعث أخذ منى البيعة على ذلك وعزم علىَّ.

فغضب الحجاج غضباً شديداً وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبه وقال له:

ـ ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك؟

قال: بلى.

قال: ثم قدمت الكوفة والياً على العراق فجددت لأمير المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية؟

قال: بلى.

قال الحجاج: فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين وتفى بواحدة للحائك بن الحائك؟

ثم نادى على حرسه: يا حرسى اضرب عنقه.

فضربت عنقه(١).

وذكر ابن جرير الطبرى ونقل عنه ابن كثير فى البداية والنهاية عن أبى بكر الباهلى قال: سمعت أنس بن أبى شيخ يقول: لما أتى الحجاج سعيد بن جبير قال: لعن ابن النصرانية ـ يعنى خالد القسرى ـ وكان هو الذى أرسل به من مكة أما كنت أعرف مكانه، بلى والله والبيت الذى هو فيه بمكة.

ثم أقبل عليه فقال: يا سعيد ما أخرجك علىَّ؟

فقال: أصلح الله الأمير، فأنا أمرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب أخرى.

فطابت نفس الحجاج وانطلق وجهه ورجا الحجاج أن يتخلص من أمره، ثم عاوده فى شىء.

فقال سعيد: إنما كانت بيعة فى عنقى.

فغضب عند ذلك الحجاج فكان ما كان من قتله.

وذكر عتاب بن بشر بن سالم الأفطس قال: أتى الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب وقد وضع إحدى رجليه فى الغرز، فقال: والله لا أركب حتى تتبوأ مقعدك من النار، اضربوا عنقه.

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى.

فضربت عنقه.

قال: والتبس الحجاج فى عقله مكانه فجعل يقول: قيودنا، قيودنا، فظنوا أنه يريد القيود التى على ابن جبير، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود.

عن عبد الملك بن عبد الله بن خباب قال: جىء بسعيد بن جبير إلى الحجاج فقال: كتبت إلى مصعب بن الزبير؟

فقال: بلى كتبت إلى مصعب.

قال: لا والله لاقتلنك.

قال: إنى إذا لسعيد كما سمتنى أمى.

قال: فقتله، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً وكان إذا نام يراه فى المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتنى؟

فيقول الحجاج: مالى ولسعيد بن جبير، مالى ولسعيد بن جبير.

قال ابن خلكان: كان سعيد بن جبير بن هشام الأسدى مولى بنى والبة كوفياً أحد الأعلام من التابعين وكان أسود اللون.

وذكروا أن مقتله كان فى شعبان وأن الحجاج مات بعده فى رمضان عام ٨٤ هـ.

وتوجد روايات أخرى لا تصح قال عنها ابن كثير: وقد رويت آثار غريبة فى صفة مقتله، أكثرها لا يصح، وقد عوقب الحجاج بعده وعوجل بالعقوبة، فلم يلبث بعده إلا قليلاً ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر وقيل إن الحجاج مات بعده بخمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً وقيل ستة أشهر والله أعلم(١).

■ ■ ■

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.



الحجاج خطيباً

- الخطابة من أسس الشخصية العربية والقيادة المتميزة.
- الخطابة عند العرب القدماء.
- بعض خطب ومواعظ الحجاج.

الخطابة من أسس الشخصية العربية والقيادة المتميزة

الخطابة من السمات المميزة لشخصية الحجاج وهذا يتضح من استعراض حياته ومواقفه مع أعدائه ومع ولى الأمر وكذلك مع عماله على الجيوش والولايات وتتضح الخطابة أيضاً فى أسلوبه واعتماده على إرسال الرسائل للقادة فى عصره وارتجاله للخطب المنبرية للجماهير.

ولهذا وجب علينا إلقاء الضوء على فن الخطابة لتتضح لنا معالم شخصية الحجاج القائد والزعيم الذى حكم العراقين عراق العرب وعراق العجم قرابة العشرين عاماً وقضى على كل خصومه.

فقد عرفت الخطابة بتعاريف كثيرة ومتشابهه ومنها ما ليس جامعاً لكل أنواع الخطبة مثل الوصايا والدروس.

وأوضح ما عرفت به الخطابة أنها: فن مخاطبة الجماهير بطريقة تلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة، فالخطابة هى فن الإقناع فهى تتعامل مع العقل والعاطفة معاً، فهى فن إيصال ما يريده الخطيب إلى الجماهير.

فالخطابة فى اللغة: مصدر كالخطاب أى توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، وفى اصطلاح الحكماء: مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن فى أى موضوع يراد، والإقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقول، وصواب الفعل أو الترك.

وهو نوعان: برهانى، وخطابى، وغاية الأول: إذعان العقل لنتيجة مبنية على مقدمات ثبتت له صحتها كقولنا: الأربعة زوج، لأنه منقسم بمتساويين، وقولنا: العالم حادث لأنه متغير، وغاية الثانى: إذعان العقل بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك بأمثلة مؤلفة من أقوال مظنونة، أخذ فيها بالمحتمل الراجح، أو مقبولة

صدرت ممن يعتقد صدقه وسداد رأيه.

ووصف بالممكن: لأن شأن هذه الصناعة إعداد النفوس لقوة الإقناع، وإن لم تبلغ غايتها، وكذا الشأن فى سائر الصنائع فإنها تعد النفس لعمل خاص بمقتضى قوانين محدودة، وإن لم تبلغ غايتها أحياناً.

وفى أى موضوع يراد، لأنها لا تختص بشىء معين، بل تتناول كل شىء بخلاف غيرها من الصناعات، فمثلاً الخط: ينظر فى رسم الحروف وهيئتها، والطب ينظر فى أحوال جسم الإنسان والحيوان من جهة الصحة والمرض، فقد روى عن ابن رشد عن أرسطو: أن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره، فإنها تتناول كل العلوم والفنون، ولا شىء حقيراً كان أو جليلاً، معقولاً أو محسوساً إلا يدخل تحت حكمها، ويخضع لسلطانها، ومن ثم قال الباحثون فى شأنها: يلزم أن يكون الخطيب ملما بكل العلوم والفنون ما استطاع، وأن يسعى دائباً إلى أن يزداد كل يوم علماً، أى بالمفهوم العصرى أن يكون مثقفاً.

وخلاصة القول أن الفلاسفة اعتبروا الخطابة علماً له أصول وقوانين، تمكن الدارس لها من التأثير بالكلام، وتعرفه وسائل الإقناع بالخطاب فى أى غرض من الأغراض الكلامية، وأنه يعنى بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، وما يلزم أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب، وإلمام بميول السامعين، وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة، وترتيب أجزائها، وهو بهذا نبراس يهتدى به، ومصباح ينير السبيل أمام من عنده استعداد للخطابة ليربى ملكته وينمى استعداده.

ويراد من الخطابة ملكة الاقتدار على الإقناع، واستمالة القلوب وحمل الغير على ما يراد منه، بل هذا هو المعتبر عند المحققين فى معنى العلم، ويؤيده ما نقل عن أرسطو فى رسمها حيث قال: «هى قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة»، ومعناها أن الخطابة ملكة يستطيع صاحبها إقناع المخاطبين فى أى أمر يدعى أنه غرض صحيح.

وفى عرف الأدباء تقال على معنيين أحدهما: أنها كالخُطْبة ـ بضم فسكون ـ اسم للكلام المنثور سجعاً كان أو مرسلاً، لاستمالة المخاطبين إلى رأى أو ترغيبهم فى عمل.

وأما الخطابة عند علماء المنطق: فهى قياس مؤلف من مقدمات مقبولة لصدورها ممن يعتقد فيه، لاختصاصه بمزيد عقل، أو تدين، كقوله: العمل الصالح يوجب الفوز، وكل ما كان كذلك لا ينبغى إهماله، وقد تقبل من غير أن تنسب إلى أحد كالأمثال السائرة، لاستمالها على حكم بليغة تستهوى العقول، وتستولى على المشاعر، أو مقدمات مظنونة، وهى قضايا يحكم بها العقل حكماً راجحاً مع تجويز النقيض، كقولنا: فلان يطوف ليلاً بالسلاح، وكل من كان كذلك فهو لص، ففلان لص، والقصد منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم، ومعادهم، وترهيبهم مما يضرهم فى المعاش والمعاد كما يفعله الخطباء، وهذا هو الأصل عندهم، وإلا فقد تستعمل للرد على المدعى فى دعواه، وبما تقدم تعلم أن المناطقة نظروا إلى الخطابة من حيث تأليفها، وأرسطو نظر إليها من حيث ملكتها.

وهدف الخطابة عند الحكماء: الحصول على قوة التمكن من الإقناع، وفضلها عظيم، وشرفها جسيم، إذ فضل العلوم والصناعات، وشرفها بشرف غاياتها، وللخطابة غاية ذات شأن خطير، وهى إرشاد الناس إلى الحقائق، وحملهم على ما ينفعهم فى العاجل والآجل، والخطابة معدودة من وسائل السيادة والزعامة، وكانوا يعدونها شرطاً للإمارة، فهى تكمل الإنسان وترفعه إلى المجد والشرف.

قال ابن سينا فى «الشفاء»: إن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج إليه من أمور دينه ودنياه، ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه، والاستعداد إلى ميعاده، وحسبها شرفا أنها وظيفة قادة الأمم من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين، وعظماء الملوك، وكبار الساسة، وفوائدها جمة.

فهى التى تعرف صاحبها كيف يمتلك القلوب، ويستميل النفوس، ويحرك العواطف، ويهيج الخواطر نحو ما يريد، بنبراسها تستضىء موارد الدليل، وتتضح مصادر الحجة لإنقاذ كل أمر جليل، وإدراك كل غاية شريفة، وقوانينها ترشد الطالب إلى مواضع الضعف وشُعَب السهو والزلل فيقوى على دحض حجة المناظر، وتزييف سفسطة المكابر.

وهى التى تثير الحماسة فى النفوس الفاترة، وتهدى النفوس الثائرة، وهى التى ترفع الحق وتخفض الباطل، وتقيم العدل وترد المظالم، وهى التى تهدى الضال إلى سواء السبيل، وتفض النزاع وتقطع الخصومات.

فالخطيب البارع يقف بين ذوى المنازع المختلفة والآراء المتضاربة، فلا يزال يبين لهم النافع من الضار والصواب من الخطأ حتى يجعل الجميع فى قبضة يده، والخطيب البارع يقوم بين طائفتين استعرتْ بينهما نار العداوة والبغضاء فيذكرهم بعواقب التقاطع، ويحذرهم من نتائجه السيئة، فإذا القلوب مؤتلفة والنفوس متآخية.

وبالجملة فقد تتعين الخطابة طريقاً إلى التأثير والإقناع، حيث لا يفيد البرهان، قال العلامة ابن رشد نقلاً عن أرسطو: ليس كل صنف من الناس ينبغى أن يستعمل معه البرهان فى الأشياء النظرية التى يراد منهم اعتقادها، وذلك إما لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق، فإذا سلك نحو الأشياء التى نشأ عليها سهل إقناعه، وإما لأن فطرته ليست معدة لقبول البرهان أصلاً.

وإما لأنه لا يمكن بيانه له فى ذلك الزمان اليسير الذى يراد منه وقوع التصديق فيه، فهذا الصنف الذى لا يجدى معه الاستدلال المنطقى تهديه الخطابة إلى الحق الذى يراد اعتناقه، لأنها تسلك من المناهج ما لا يسلكه المنطق، وهذه مزية عظيمة لا يستهان بها.

وجاء أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد فضم، وجمع فى كتاب قواعد هذه الصناعة سماه «الخطابة»، وهو الكتاب الذى لخصه ابن رشد، وأخذ عنه فلاسفة العرب، كابن سينا والفارابى، وعندما نقل هذا الكتاب إلى العربية فى القرن الثالث من الهجرة عده كثير من هؤلاء الفلاسفة جزءاً مكملاً لعلم المنطق، كابن سينا فإنه جعل الخطابة قسماً منه، ذلك أنهم رأوا أن أرسطو فى كتاب الخطابة قد تكلم على الحد والرسم والدليل، وكيف يتألف القياس الخطابى، كما تكلم على التصديق الذى يكفى فى الخطابة، واستمر أمر الفلاسفة على هذا الحال إلى أن قصر المتأخرون منهم النظر فى المنطق على القياس وأشكاله.

ومن هذا فإن لفن الخطابة صلة وثيقة بفن المنطق من حيث إن علم المنطق

خادم له، وإن بعض قوانين الخطابة يعتمد على مبادئ المنطق، وإن الخطابة مخلوقة مع الإنسان، وإن البحث عنها كان قبل الجاهلية والإسلام، وإن تأثير البلاغة فى النفوس لا يخص أمة ولا جيلاً.

وأسس الخطابة يمكن حصرها فى:

ـ الفطرة والاستعداد الغريزى، وهذا هو الأساس.

ـ معرفة الأصول والقوانين التى وضعها الحكماء.

ـ الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء ومصاقع الخطباء، ودراستها دراسة متعرف لمناحى التأثير وجهات الإقناع فيها، ومتذوق لما فيها من متانة الأسلوب وحسن العبارة وجودة التفكير.

قال ابن الأثير فى كتابه «المثل السائر»: إن فى الاطلاع على أقول المتقدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمة، لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك، فهذه الأشياء مما تقوى الذهب وتزكى الفطنة.

وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى تعب فى استخراجها كالشىء الملقى بين يديه يأخذ منها ما أراد، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه، وعلى الجملة فدراسة كلام البلغاء تقدم ألواناً من المعانى والأساليب تنمى فيه ملكة الخطابة.

ثم إن الممارسة والمران كى تنمو مواهبه، فيمكن اكتسابها بالتدريب والدراسة لمن أرادها.

فالتدريب على الخطابة ملكتها تنمو وتقوى بالمرانة والممارسة، فاللسان مثل أى عضو إن مرنته مرن، فهو كاليد تخشنها بالممارسة، وكالبدن تقويه برفع الحرج، والرِّجْل إذا عودت المشى مشت.

كما يجب على طالب الخطابة أن يعمد إلى أساليب المتقدمين، فيقتفى أثرها، وينسج على منوالها، فلا غنى له عن الاقتداء بالسابقين، والاقتباس من الأولين فيما

اخترعوه وسلكوه من طرقهم، والتقليد عريق فى بنى الإنسان كما قال الشاعر: ـ

وتَشــبَّـــهُــوا إنْ لَمْ تَكُونُوا مِــثْلَهُمْ إنَّ التَّـــشَـــبُّـــهَ بالرِّجَـــالِ فَـــلاحُ

وكان بعض خطباء العرب يتصدى لتعليم الفتيان كيف يخطبون، كإبراهيم بن جبلة السكونى فى عصر الدولة العباسية، ثم إن الخطابة كسائر الصنائع يتفاوت الناس فى إتقانها والأخذ بزمامها، فمنهم من يقتدر عليها فى أمد قريب، ومنهم من يحتاج إلى أن يقضى فى سبيلها زمناً بعيداً.

يقول أهل الأدب: إنهم لم يروا خطيباً بلديا إلا وهو فى أول تكلفه للخطابة كان مستثقلا إلى أن يتوقح، وتستجيب له المعانى ويتمكن من الألفاظ إلا شبيب بن شبة فإنه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة، فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره، وإن العرب كانوا يأخذون أنفسهم بالتدرب عليها إلى أن تصير لهم سجية وعادة، يقولون: إن عمر بن سعيد بن العاص الأموى كان لا يتكلم إلا اعترته حبسة فى منطقه، فلم يزل يتشادق ويعالج إخراج الكلام حتى مال شدقه، ولذا لقب بالأشدق، وفيه يقول الشاعر.

تَشَــدَّقَ حَــتَّى مَــالَ بالقــوْلِ شِــدْقُــهُ وَكُلُّ خَـطِيـبٍ لاَ أبَـا لَـكَ أشْـــــدَقُ

والأشدق: واسع الشدقين والفم الفصيح اللسن، وسعة الفم عندهم من سمات الفصاحة والبيان، وصفوة القول إنه لا يحصل على ملكة الخطابة إلا من أحكم وسائلها، وسلك سبيلها، وتدرب عليها يوماً فيوماً، وراض عليها لسانه فى النوادى العامة والجموع العظيمة، وإن راعه الموقف أولاً أمنه آخراً فقديماً قيل: من وقف حيث يكره وقف حيث يحب.

والخطابة أيضاً هى إظهار قدرة الخطيب على البيان الحسن والإقناع والجدال وجذب الأتباع والأنصار، وقد جاء فى الحديث النبوى «إن من البيان لسحراً»، والبيان هو فوائد الخطابة والكلام والفصاحة التى ميز الله بها الإنسان وكرمه عن سائر المخلوقات الأخرى، وهو رزق رزقه الله للإنسان.

وحاجة المرء إلى القدرة على البيان لا تقل أهمية عن حاجته إلى عقله، لأنه

إن لم يستطع الإبانة عما فى نفسه قَلَّت فائدة عقله أو تلاشت.

ولهذا فإن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا بلغة قومه، ليتحقق المقصود من الرسالة وهو: إبانة الطريق الموصلة إلى الله تعالى - وتحذيرهم من سبل الشيطان فقال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)**، وقال النبى - ﷺ -: «لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه»(١).

ولكل وسيلة من وسائل البيان أصولها وقواعدها وأسلوبها، تعارف البشر على ذلك وتواضعوا، إذ لا سبيل إلى التفاهم فيما بينهم إلا بذلك.

والخطابة التلقائية دون ترتيب وإعداد من وسائل البيان والإقناع، وأكثرها استعمالاً عند بنى آدم، ولذا اعتنوا به من قديم الزمان، وبحثه المتقدمون منهم والمتأخرون، وأدخلوه ضمن علوم الفلسفة قديماً، وأنشئت له الأقسام فى الجامعات، وخصصت له مناهج ومدرسون مختصون، وألفت فيه الكثير من الكتب والرسائل العلمية كما هو مشاهد فى عالم اليوم.

ومن أهم مقومات الخطيب الناجح المؤثر فى الجماهير قوة صوته، فصوت الخطيب مترجم عن مقاصده، وكاشف عن أغراضه، ومصاحبته للألفاظ إذا كان الإلقاء جيداً بمثابة بيان المعانى التى أرادها الخطيب، وهو المعول عليه فى إيصال الخطبة إلى السامعين، ومن ثم إلى قلوبهم. وقد سماه الأقدمون: نوراً، لأنه يحمل شعلة الضياء إلى الأذهان. وكم من الخطباء الذين يبهرون السامعين بحسن أصواتهم، وجودة إلقائهم أكثر من سحر بيانهم.

ومن دلائل تأثير الصوت فى النفوس: أنه قد يقرأ القرآن حافظ متقن مجود، لكنه لا يحسن الأداء فى القراءة، فلا يؤثر فى مستمعيه. وقد يقرأ القرآن من ليس بمجود ولا متقن، فيبكى سامعيه بجودة أدائه، وحسن صوته.

والخطبة الجيدة إذا ألقاها من لا يحسن الأداء كانت كالسيف البتار فى اليد الضعيفة، والخطيب المصقع الذى يلقى خطبة رديئة كالبطل المغوار الذى يقاتل

---

(١) أخرجه أحمد في المسند وصححه السيوطى في الجامع الصغير وكذلك الألبانى فى صحيح الجامع.

بسيف كالٍّ.

فإذا اجتمعت قوة السيف، وقوة اليد التى تحملها، وقوة قلب صاحبها عملت عملها، وهكذا الخطبة إن كانت جيدة فى بلاغتها ولغتها وأسلوبها، وألقاها من يحسن الإلقاء عملت عملها فى قلوب السامعين.

وكم من أشخاص سمعنا خطبهم، وتأثرنا بها، فلما قرأناها مكتوبة لم تكن كما سمعناها مع أنها لم تزد حرفا ولم تنقص حرفا، مما يدل على أن للإلقاء والصوت أثراً كبيراً على السامع.

وجمال الصوت خِلقة مكتسبة من الله عز وجل وهى من سمات الشخصية، وكثير من الخطباء قد يحكم على صوته بأنه سيء مع أن السوء فى أدائه لا فى صوته، فيقعد عن تحسين أدائه بحجة أن هذا هو ما أعطاه الله تعالى.

والأصوات أنواع، ولكل صوت ما يناسبه من طرق الأداء والإلقاء، فما يحسن من الأداء فى صوت قد يقبح فى آخر، بدليل أننا نستمع إلى خطيبين يقلد أحدهما الآخر فى طريقة الإلقاء حتى كاد أن يكون مثله لولا اختلاف نغمة الصوت، ومع ذلك يقبل الناس على أحدهما، ويستهجنون الآخر، والسبب: أن أحدهما ناسب صوته طريقة إلقائه، بعكس الآخر.

وعلى الخطيب أن يكتشف طريقة الإلقاء المناسبة لصوته ونفسه، وذلك يكون بتجربة طرق عدة، والنظر فى مدى أثرها على السامعين، مع سؤال أهل الخبرة فى ذلك، وسيكتشف بعد عدة محاولات طريقة الأداء التى تناسب صوته. وكان من الهَدْى النبوى رفع الصوت فى الخطبة:

روى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم مسَّاكم...»(١).

وقد دل هذا الحديث على أمور هامة منها: ـ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه والنسائى وابن ماجه.

١ ـ الاعتناء بشأن الخطبة، فإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يهتم لها وبها، دلَّ على ذلك الأحوال التى تعتريه أثناء خطبته، فلو لم يكن مهتمّاً بها لما علا صوته، واحمرَّت عيناه، واشتدَّ غضبه.

قال النووى فى شرح حديث مسلم: «يستدل به على أنه يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقاً للفصل الذى يتكلم فيه من ترغيب وترهيب».

٢ ـ لا يفهم من الحديث أنه ـ ﷺ ـ كان يرفع صوته دائماً، ويشتد غضبه باستمرار، وتحمرُّ عيناه فى كل خطبته، بل كان ذلك منه فى أحوال تستلزم ذلك كذكر القيامة، أو إذا انتهكت محارم الله غضب لله تعالى.

قال القرطبى: ـ «كونه ـ ﷺ ـ تحمرُّ عيناه ويعلو صوته، ويشتدُّ غضبه فى حال خطبته، كان هذا منه فى أحوال. وهذا مشعر بأنَّ الواعظ حقه أن يكون منه فى وعظه بحسب الفصل الذى يتكلم فيه ما يطابقه، حتى لا يأتى بالشىء وضده ظاهر عليه. وأمَّا اشتداد غضبه فيحتمل أن يكون عند نهيه عن أمر خولف فيه، أو يريد أن صفته صفة الغضبان».

٣ ـ أن تغيّر أحوال الخطيب وانفعالاته يكون بحسب المعانى التى يلقيها على السامعين، كما دل عليه الحديث، وأقوال العلماء الذين شرحوه، حتى لا يكون إلقاؤه مخالفاً للمعانى التى يلقيها.

فألفاظ الاستفهام والتعجب والتوبيخ واللوم والعتاب والزجر والتفخيم والتهويل والتحزين والحيرة والوعد والوعيد ونحوها، لها كيفيات صوتية فى الإلقاء تدل على المعنى المراد.

وكذلك يقال فى خفض الصوت ورفعه ولينه وشدته وتكرار الكلمة وقطعها ومد الصوت بها لها مواضعها فى الخطبة، حتى يستثير الخطيب السامعين، ويلفت انتباههم، مما يكون عوناً على الاستفادة من الخطبة، إذ هو المقصود من شرعيتها.

وينبغى توافر بعض من الشروط فى الصوت المؤثر للخطيب مثل:

١ ـ موافقته لظروف الخطبة، فإن الصوت يختلف باختلاف الحضور واختلاف المكان والزمان، وموضوع الخطبة فصوت الخطيب يختلف فى مناسبة الفرح عنه فى مناسبة الحزن، كما يختلف فى المكان الضيق عنه فى المكان الرحب الغاص بالمستمعين.

فعلى الخطيب أن يراعى مثل هذه الظروف ويكيِّف صوته بما يتناسب معها.

ويرى بعض الباحثين أن المناسب فى الخطبة أن يبدأ بها خافضاً صوته، ثم يعلو شيئاً فشيئاً، لأن العلو بعد الانخفاض سهل، ووقعه على السامعين مقبول. أما الخفض بعد الارتفاع فلا يحسن وقعه(١).

وعلى الخطيب أن يعرف قدراته الصوتية فلا يتحمس حماسا برفع صوته عالياً بحيث لا يستطيع إكمال خطبته على هذا النمط، لأنها طويلة، وقدرته الصوتية ضعيفة، فيقع فى حرج بالغ، ويفسد انجذاب السامعين إليه.

٢ ـ ألا يجعل صوته نمطيّاً بحيث يكون على وتيرة واحدة، فإن ذلك يلقى فى نفس السامعين سآمة وملالاً، بل يغير النبرة الصوتية بما يتناسب مع المعانى التى تحويها الألفاظ.

وقد كان كثير من الخطباء ـ خاصة كبار السن ـ يرتلون الخطبة كترتيل القرآن، أو كقراءة المتون العلمية على المشايخ، وهذا لا يتناسب مع الخطبة، وإن وجد السامعون له لذة فى مسامعهم، لكنها ليست لذة بالمعانى والألفاظ وإنما هى بصوت الخطيب ـ ولا سيما إن كان صوته حسناً ـ وذلك يشغلهم عن معانيها وفوائدها، ولربما أنهم لم يدركوا ما فيها من معان وألفاظ رغم طربهم بها.

٣ ـ أن يفرغ فكره أثناء الإلقاء للمعانى التى يلقيها، ويحرك بها قلبه، ويتفاعل معها قدر استطاعته. وللإخلاص فى إعداد الخطبة وإلقائها حظ كبير فى تحرك القلب بها، ولا سيما إن كان فى القلب حرقة لدين الله تعالى ـ ولنفع إخوانه المسلمين. والشواغل الذهنية أثناء الإلقاء تؤثر كثيراً على القلب، وتفقده الكثير من الخشوع والتدبر.

(١) انظر فن الخطابة أنطوان الفوال، والخطابة لمحمد (أبو زهرة).

فانشغال الخطيب أثناء الإلقاء مثلا بالنحو - أى خوف اللحن - يجعله يركز على الإعراب وينصرف عن المعنى. وسبب ذلك فى الغالب: أنه لا يراجع خطبته قبل إلقائها مراجعة تجعله يتقنها، ولا يخاف اللحن فيها.

وقد يكون الخطيب مرتجلاً - يخطب بلا ورقة - فينشغل بما سيقوله عن تدبر ما يقول، أى: أن فكره يسبق كلامه، فيهيئ فى ذهنه الجملة التى سيقولها، وهو لازال فى الجملة الأولى، وهذا بلا شك يجعله لا يتدبر، وربما دخلت الجملة الثانية قبل اكتمال الأولى، فيفسد المعنى كما هو ملاحظ على كثير ممن لا يحسنون الارتجال.

وبكل حال فإن الإعداد الجيد للخطبة مع الإخلاص كفيل بانفعال الخطيب فى خطبته، ومن ثم انفعال المستمعين وكلما ضعف الإعداد وقلّ الإخلاص كان الانفعال أقلّ وتأثير الخطبة أضعف.

فالكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان.

ولما سأل معاوية - رضي الله عنه - صحار بن عياش العبدى عن سر بلاغتهم قال: «شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا»(١).

وقال الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - لواعظ لم تؤثر فيه موعظته: «يا هذا، إن بقلبك لشرّاً أو بقلبى»(٢).

٤ - عناية الخطيب بأجهزة الصوت التى توصل خطبته للسامعين، فهذه الأجهزة نعمة من الله تعالى - خدمت الخطباء وأراحتهم من رفع أصواتهم رفعاً يضر بهم، ومعنى العناية بها: أن يكون الصوت فيها موزوناً بما لا يزعج المستمع ولا يشوش عليه. وبعض الخطباء لا يرتاح حتى يرتد إليه صوته من شدة جلبة مكبرات الصوت، وبعضهم قد تكون أجهزته لا توصل الصوت من شدة خفوتها، والموازنة مطلوبة.

وإن كان الخطيب جهير الصوت خفض صوت الجهاز، حتى لا يحصل الإزعاج.

---

(١) فن الخطابة للحوفى.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ.

فالإزعاج وضعف الصوت مانعان من الاستفادة من الخطبة.

٥ ـ الاعتدال فى سرعة الصوت، فلا يتمهل تمهلاً يصيب السامعين بالملال، ولا يسرع سرعة تمنعهم التدبر وفهم المعانى. والسرعة تجهد الصوت لاسيما فى الخطب الطويلة. وحدد بعضهم متوسط ذلك بما يقارب (١٢٠) كلمة فى الدقيقة[١].

ولو أسرع فى بعض الجمل ليتمهل فى كلمة منها بقصد لفت الانتباه إلى أهميتها، فذلك أسلوب من أساليب شد الانتباه، وقد كان بعض مشاهير خطباء الإفرنج ينطق بعدة كلمات بسرعة كبيرة حتى يصل إلى الكلمة أو العبارة التى يريد تأكيدها ثم يبطئ صوته عندها، ويضغط عليها.

٦ ـ أن يتجنب الخطيب ما قد يضايقه ويضعف صوته، كالضغط على الحنجرة بأزرار الثوب، وإن كان ممن يحتاج إلى ماء لتقوية صوته فلا بأس أن يشرب قبل الخطبة، أو فى الجلسة بين الخطبتين، أو حتى فى الخطبة إن لم يخش انقطاع الأفكار وملل المستمعين.

وبالإضافة إلى الصوت الحسن للخطيب المؤثر يجب أن يتوافر لديه النطق الجيد الذى يحتاج إلى عناصر لابد من توافرها، وهى:

أولاً ـ تجويد النطق:

بأن يخرج الحروف من مخارجها الصحيحة، فلا ينطق الثاء سيناً، ولا بالذال زاياً، والا بالجيم كما ينطق العامة، وهكذا كل مخارج الحروف، فيجب أن يعنى الخطيب بأن يكون الحرف خارجاً من ينبوعه، صادراً من مخرجه الذى عرف عن العربى النطق به منه.

وإن العناية بنطق الحروف نطقاً صحيحاً، وإخراجها من مخارجها ليس معناها أن يتشادق الإنسان ذلك التشادق الذى يقع فيه بعض المتكلمين أو الخطباء فكسوا النطق تكلفا يثير سخرية السامعين، أو يثقل القول عليهم، بل معناه أن

---

(١) فن الخطابة ـ أنطوان الفوال.

ينطق بالحرف من مخرجه من غير تكلف، ولا تشادق، ولا توعر، بل فى يسر، ورفق وسهولة، لأن ذلك التشادق يوقع أولئك المتكلمين فى نقيض ما يرغبون، فينطقون بالحروف من غير مخارجها الصحيحة.

ثانياً: مجانبة اللحن وتحرى عدم الوقوع فيه:

يجب أن يعنى الخطيب بتصحيح الكلام الذى ينطق به، وملاحظته فى مفرداته وعباراته، فيلاحظ بنية الكلمات ملاحظة تامة.

فالخطيب الذى يقع فيه قد يفسد المعنى، بل قد ينقلب المدلول اللفظى لكلامه إلى نقيض المطلوب وعكس المراد، والنطق والخطأ فى آخر الكلمات فوق أنه قد يفسد المعنى، يذهب برونق الخطبة، وحسن وقعها، وجمال تأثيرها، ولا يظنن الخطيب أن جودة المعنى وإحكامه قد يذهبان ببعض الأخطاء، فإن الهنات الصغيرة إذا كثرت أحدثت تأثيراً سلبيا للخطبة، وأفسدت تأثير المعنى.

ثالثاً: تصوير النطق للمعانى تصويراً صادقاً:

بأن يعطى كل كلمة وكل عبارة حقها، ويظهرها بشكل تتميز به عن سواها، فالجملة المؤكدة ينطقها بشكل يدل على التوكيد فى النغم، والجمل الاستفهامية ينطق بها بشكل يتبين منه الاستفهام.

ومن الأمور التى يجب على الخطيب تجنبها السرعة فى خطبته لأن النطق السريع المتعجل، حيث تجب الأناة ينتج منه تشويه المخارج، وخلط الحروف بعضها ببعض، لأن عضلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافى للانتقال من لفظ إلى لفظ.

والإسراع المفرط يجعل الخطيب يهمل الوقوف عند المقاطع الحسنة، والمقاطع لها حسن الأثر كما علمت فيما مضى.

والخطيب السريع فى نطقه لا يعطى السامع الفرصة الكافية لفهم ما يسمع، وتذوق ما فيه من صقل اللفظ وجودة المعنى، وحسن الخيال.

والتمهل فوق ذلك يجعل الصوت يسرى إلى السامعين جميعاً بأيسر مجهود متناسب مع المكان والعدد، بينما الإسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتى

أكبر، ليصل الكلام إلى الآذان.

وقد يخطب الخطيب، فيعترض عليه بعض الناس فى خطبته، فإن لم تكن له بديهة حاضرة ترد الاعتراض وتنزعه بالحجة القوية ـ ذهبت الخطبة وآثارها.

يروى أن أبا جعفر المنصور كان يخطب مرة، فقال: «اتقوا الله»، فقال رجل: «أذكرك ما ذكرتنا به».

فقال أبو جعفر: «سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله وذكَّر به، وأعوذ بالله أن أُذَكَّر به وأنساه، فتأخذنى العزة بالإثم، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين! وما أنت؟».

والتفت إلى الرجل، فقال: «والله، ما الله أردت بها، ولكن ليقال: قام فقال، فعوقب فصبر، وأهوب بها لو كانت العقوبة، وأنا أنذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، وفينا نبتت».

ثم رجع إلى موضعه من الخطبة.

فلو لم تكن قدرة المنصور على الارتجال، ما استطاع أن يأتى بذلك النوع من الكلام، وما استطاع حينئذ أن ينال من المتهجم على مقام الإمرة ذلك التهجم.

وقد كان العرب أيام ازدهار الخطابة فيهم من أقوى الناس على الارتجال، قال الجاحظ فى وصفهم: «وكل شىء للعرب فهو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام، وإلى الرجز يوم الخصام، أو حين أن يمنح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده.

وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، هو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليسوا كمن حفظ علم غيره واحتذى كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير

تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب».

والمران على الارتجال يكون والعود أخضر، والعادات لم تتكون، والنفس لم تجمد على نحو خاص من أنحاء القول يخالفها، ولذا قيل: إن القدرة على الارتجال لا تتكون بعد الأربعين، ويصعب أن تتكون بعد الثلاثين، بل تتكون فى سن دون هذه السن.

ومما يساعد على حسن الارتجال للخطيب الإكثار بسماع الخطباء المرتجلين الممتازين، لأن السماع يحفز من عنده استعداد الكلام إليه، ولأن فكر البشر يتغذى بالتقليد والمحاكاة.

وبأن يأخذ نفسه من وقت لآخر بالكلام مرتجلاً، ويغشى الجماعات ويتقدم إلى القول، ليفك عقدة لسانه، ويزيل حبسة الحياء.

ومن أمثل الطرق: أن يجتهد فى ألا يخطب من ورق، وأن يعرف ملخص ما يقول بعد تحضيره، فإذا دأب على ذلك، وواتته فطرة قوية واستعداد قويم - قوى على القول على البديهة من غير تحضير عند الاقتضاء.

■ ■ ■

الخطابة عند العرب القدماء

كانت الخطابة مما برع فيه العرب فى الجاهلية واعتمدوا عليها فى مواقفهم المتعددة فى الحرب والسلم وحفظ لنا التاريخ الكثير من الخطب لعظماء العرب المشهورين، وكانت قائمة على الارتجال والعفوية.

وكانت تظهر الخطابة حين يجتمع القوم للتشاور فى أمر من أمورهم الهامة كالحرب والإصلاح فى المتنازعات، وكان الخطباء يتبارون ويتنافسون فى أسواق الشعر.

وكان الشعراء والخطباء هم فخر القبيلة وعزها ومجدها وإذا قالوا فقولهم يُسمع له «عند أقوامهم» وإذا تكلموا فكلامهم رافع خافض، وبلغ من عز الكلمة وشرفها ومكانتها أن كانت تعلق فى جوف الكعبة أقدس مكان عندهم وأعز بنيان لديهم وكان من أشهر خطباء العرب: قِسّ بن ساعدة الإيادى، وخارجة بن سنان خطيب داحس والغبراءوخويلد الغطفانى خطيب الفِجَار، والنابغة وغيرهم كثيرون.

ولقد بلغت الخطابة زمن الخلفاء الراشدين المكانة المرموقة واللائقة بها فكان الخلفاء خطباء يخطبون الناس فى الجمع والأعياد والمناسبات ويخطبون الجيوش ويوجهون القادة.

وقد اقتبست الخطبة فى العصر الإسلامى من القرآن الكريم والسنة المطهرة اقتبست نصاعة البيان وقوة الحجة وجزالة العبارة ورقتها، وتجنبت سجع الكهان والفخر والغرور ومدح القبيلة ونتن العصبية. واستعلاءها بالآباء إلى غير ذلك من عادات الجاهلية، فاكتسبت بذلك قوة التأثير ووصلت شغاف القلوب وغزت كل جنس ولون وارتفعت إلى نطاق الرسالة العالمية والحقيقة الإنسانية وطغت بذلك على الشعر حتى ترك بعض الشعراء الفحول الشعر بعد مجىء القرآن الكريم

والسنة لما لهما من تأثير وبلاغة لا يرتقى إليهما شىء.

واتسمت الخطبة فى الإسلام بمميزات تميزت بها عن خطبة الجاهلية فهى تفتح بالحمد لله ثم الصلاة على رسوله ﷺ وانتهوا عن الخطبة الجذماء لقوله ﷺ: «كل خطبة ليس فيها تشهُّد فهى كاليد الجذماء»، والجذماء هى المقطوعة.

■ ■ ■

الخطابة فى القرآن والسنة النبوية

لقد نوه القرآن الكريم على مدى عظم البيان بالقول وصلته بالرسالات والدعاة فى غير ما موطن «موضع» فمن ذلك أن الله عز وجل كرم الإنسان وامتن عليه بأن جعل له جزءاً من أعضائه يستطيع به البيان والإفصاح عن مراده والتعبير عن شعوره وأفكاره.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (البلد: ٨ ـ ٩).

ومما يبين قدر هذه النعمة والإحساس بعظمتها النظر إلى من حرمه الله من هذه النعمة أو من بعضها، فعندما عرَّض عدو الله فرعون بعلة لسان رسول الله موسى فيما حكاه القرآن من قوله: ﴿أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين﴾.

فلذا عندما حدث ذلك وبعد أمر الله عز وجل موسى بدعوة فرعون ومن معه دعا ربه أن يؤيده بأخيه هارون قال عز وجل: ﴿قال ربى إنى أخاف أن يكذبون ❖ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسان فأرسل إلى هارون﴾.

وقال تعالى: ﴿وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون﴾.

ويقول أهل التفسير: كان فى لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام فسأل الله أن يحل منه عقدة حتى يفقه ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعانى.

قال تعالى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾.

فالبيان باللسان هو الوسيلة الأولى فى الدعوة إلى الله عز وجل قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلى بلسان قومه ليبين لهم﴾.

فقد كان الأنبياء يرسلون بلسان أقوامهم ليبينوا لهم الحق ويقيموا عليهم الحجة بأوضح عبارة وأجمل أسلوب ولا يكون ذلك إلا بالإلقاء الجيد الناجح.

أما الخطابة فى السنة النبوية: ـ

ومما يبين اهتمام الرسول ﷺ بإلقاء خطبه، وضع منبر يخطب عليه يوم الجمعة ليكون أكثر تأثيراً فى السامعين وإفادة لهم، ففى صحيح البخارى: باب الخطبة على المنبر، وساق تحته حديث جابر قال: كان جذع يقوم إليه النبى ﷺ فلما وضع له المنبر، سمعنا للجذع مثل أصوات العشار حتى نزل النبى فوضع يده عليه.

وكما ظهر فى الحديث أهمية الخطبة فى الإسلام.

عن أبى عثمان قال: إنى لجالس تحت منبر عمر وهو يخطب الناس فقال فى خطبته سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة كل منافق عليم اللسان»(١).

فخوف رسول الله ﷺ من المنافق العليم باللسان لشدة أثره السىء على الناس لحسن إلقائه وتنميق عباراته وتلبيسه عليهم.

الخطابة فى العصر الحديث: ـ

فالخطابة هى وسيلة علماء المسلمين ودعاته، لمواجهة أعداء الدين من العلمانيين والمنافقين الذين أجادوا فن الإلقاء وكيفية الوصول إلى قلوب المستمعين، وهؤلاء المضلون المخادعون أصبحوا يتحدثون إلى الناس فى كل مكان من خلال أجهزة الإعلام المتنوعة فهم الذى عناهم الرسول فى الحديث السابق «إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة كل منافق عليم اللسان».

والناظر إلى واقع المسلمين اليوم يجد منهم من ابتعد عن الدين فغدوا لا يهتمون بعقائده وشرائعه، فانتشر فيهم الفساد فى كل ناحية من نواحى الحياة، فلذا يصبح من الأهمية بمكان أن يأخذ العلماء والدعاة إلى الله تعالى فى نظرهم أهمية إيجادة الإلقاء الخطابى وإتقان موضوعاته لإحياء الأمة وردها إلى ما كانت عليه من عزة ورفعة وسيادة بين الأمم.

والخطابة فى الدعوة إلى الله واجبة لأنها لازمة فى تبليغ الدعوة، وما لا يتم الواجب

---

(١) أخرجه أحمد في المسند.

إلا به فهو واجب، لكون بعض العبادات المشروعة تقوم عليها كخطبة الجمعة وغيرها.

والخطابة بالنسبة للداعية سلاح يدافع به عن دعوته يرد به كيد الكائدين وجحود الجاحدين وهى وسيلة لصياغة المبادئ وإظهار جلالها ورفعة شأنها كما أنها سبب سيادة الحق، وهى وسيلة الداعية قد تكون الوحيدة فى بعض الأحيان لإظهار الحق وخدمة مبادئه.

وهى صلب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لصيانة جسد الأمة من الهدم كما أنها لازمة لطرد أهواء الشياطين.

والبرهان الحسى قائم على أن الأمة التى انتشر فيها خطباء الإصلاح وقادة الفكر تحيا بمقدار جهدهم وكثرتهم وتأثيرهم.

والخطابة لازمة لإعداد الجيوش ودفعها إلى الجهاد ورفع راية الحق وقد قال الله عز وجل لنبيه: ﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال﴾.

فكانت الخطابة ذخيرة جيدة يحتفظ بها القواد دائماً ليمدوا بها الجند ويوضحوا بها الهدف، كما أنها لازمة لسياسة الأمم والشعوب فإن ولاة الأمر يعنون بإطلاع المسلمين على سياستهم وطريقة حكمهم وينتهزون الجُمع والأعياد والمناسبات المختلفة خصوصاً فى موسم الحج، كذلك تكون وسيلة مهمة لتسكين الفتن ونشر المودة.

وتتقسم الخطابة من ناحية الموضوع إلى أنواع منها: ـ

١ ـ الخطابة الوعظية:

وهذه الخطبة تجنح إلى تقرير أصول العقيدة الإسلامية وبيان ما فى الرسالة من جمال وسعادة ونفع واستقرار وهناء واستقامة بالترغيب والترهيب والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن أمثلتها: خطبة الجمعة، العيدين، والاستسقاء.

٢ ـ الخطابة السياسية:

وهذه الخطابة تجنح إلى التركيز على سياسة الدولة، تقريراً أو نقداً ببيان ما يجب أن تكون الحكومة عليه بإدارتها لجميع جوانب الحياة المختلفة، ومن أمثلتها:

خطب الزعماء المنتخبين، خطب أعضاء المجالس النيابية والشورية.

٣ ـ الخطابة القضائية (المرافعات):

وهى التى تلقى غالباً فى المحاكم والدوائر القانونية والقضائية، ويتولاها الخصوم أو من ينوب عنهم من المحامين والنواب، ومن أمثلتها: خطب المحامين فى المحاكم.

٤ ـ الخطابة فى المناسبات:

وهى التى تقوم فى المحافل العامة وتجنح إلى التكريم أو التهنئة أو التعزية أو علاج قضية معينة ومن أمثلتها: حفلات تكريم الطلاب أو افتتاح المشروعات.

٥ ـ الخطابة الحربية:

وهى التى تكون فى الميادين ويلقيها غالباً قادة الجيوش أو الأمراء يرغبون الجند فى القتال والاستبسال ويبينون لهم كرامة الشهداء ونزلهم أو يستشيرونهم استقراراً لرغبتهم وتوجيهاتهم.

٦ ـ الخطبة عند الزواج:

وهى سنة عن رسول الله ﷺ تبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله ووعظ للحاضرين قبل عقد القران.

■■■

من خطب الحجاج بن يوسف الثقفى

١ ـ خطبته فى أهل المدينة:

كانت أول ولاية للحجاج بعد مقتل ابن الزبير هى مكة المكرمة عام ٧٣ هـ ثم فى عام ٧٤ هـ عزل عبد الملك بن مروان طارق بن عمرو عن إمرة المدينة وأضافها إلى الحجاج.

قال ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية: ـ

فقدمها الحجاج فأقام بها شهرا، ثم خرج معتمراً، ثم عاد إلى المدينة فى صفر فأقام بها ثلاثة أشهر، وبنى فى بنى سلمه مسجدا، وهو الذى ينسب إليه الآن، وقد استقضى أبا إدريس الخولانى على اليمن، والله أعلم.

ولما قدم المدينة صعد على منبر رسول الله فخطب الناس وقال: يا أهل خبيثة ـ يعنى طيبة ـ (نستغفر الله تعالى من قوله) وقال الواقدى أنتم أشر أمة وأخس، ولولا أمير المؤمنين أوصانى بكم لجعلتها مثل جوف حمار، يا أهل خبيثة، تمنون، هل تعوذون إلا بأعواد يابسة ـ يعنى المنبر ـ.

ثم نزل وأرسل إلى سهل بن سعد الساعدى، فقال: ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان؟

فقال: قد فعلت.

فقال: كذبت.

ثم أمر به فختم فى عنقه الرصاص.

وكذلك فعل بجابر بن عبد الله فختمه فى يده، وأنس بن مالك فى عنقه، كان قصده يذلهم بذلك ـ قبحه الله وأخزاه[1].

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

ولما اشتد طغيانه وظلمه لأهل مكة والمدينة وشكى الناس إلى الخليفة عبد الملك ذلك عزله وولاه أمر العراق.

٢ ـ خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير:

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فصعد المنبر فقال: ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله واستكن بحرم الله ولو كان شىء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته وآدم على الله أكرم من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلثما فحط اللثام عنه ثم قال: موج ليل التطم وانجلى بضوء صبحه يا أهل الحجاز كيف رأيتمونى ألم أكشف ظلمة الجور بنور الحق والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق وعطفة مرحم ووصل قرابة فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار.

ثم نزل وهو يقول:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

٣ ـ خطبته حين ولى العراق:

حدث عبد الملك بن عمير الليثى قال بينا نحن فى المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت فقال هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق فإذا به قد دخل المسجد معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلداً سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم.

فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابئ البرجمى ألا أحصبه لكم فقالوا أمهل حتى ننظر

فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الـثـنـايـا

متى أضع العمامة تعرفونى

ثم قال: يا أهل الكوفة أما والله إنى لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأخزيه بمثله وإنى لأرى أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها. وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق.

ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدى زيم

قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعى إبل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر وضم

ثم قال:

قد لفها الليل بعصلبى

أروع خراج من الدوى

مهاجر ليس بأعرابى

ثم قال:

قد شمرت عن ساقها فشدوا

وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد

مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مما ليس منه بد

إنى والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما يقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبى كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت إلى الغاية القصوى وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسننتم سنن الغى.

أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وإنى والله لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت فإياى وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا وما تقول وفيم أنتم وذاك.

أما والله لستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه وأنهبت ماله وهدمت منزله.

٤ ـ خطبته وقد سمع تكبيرا فى السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر فسمع تكبيرا فى السوق فراعه ذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وبنى اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفقع بالقرقر إنى سمعت تكبيرا لا يراد الله به وإنما يراد به الشيطان ألا إنها عجاجة تحتها قصف وإنما مثلى ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمذانى.

وكنت إذا قوم غزونى غزوتهم

فهل أنا فى ذا يا لهمدان ظالم

متى تجمع القلب الذكى وصارما

وأنفا حميا تجتنبك المظالم

أما والله لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأمس الدابر.

٥ـ خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما جاء البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال: أيها الناس من أعياه داؤه فعندى دواؤه ومن استطال أجله فعلى أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه إن للشيطان طيفا وللسلطان سيفا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه.

ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه إنى أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعفو.

إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلبانى سوطى وأبدلانى به سيفى فقائمه فى يدى ونجاده فى عنقى وذبابه قلادة لمن عصانى.

والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه.

٦ـ خطبته بعد وقعة دير الجماجم:

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقاً وشقاقا وأشعركم خلافا.

اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤامراً تستشيرونه فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يجزكم إسلام أو ينفعكم بيان.

ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لواذا

وتنهزمون سراعا.

ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوى الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح.

ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم

بضـــرب يزيل الهـــام عن مـــقـــيله

ويـــذهـــل الخـــلـــيـــل عـــن خـــلـــيـــلـــه.

يا أهل العراق والكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الخترات إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم ونافقتم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه.

يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره.

يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع.

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر فقال يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفى عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذباب.

يا أهل الشام أنتم الجنَّة والرداء وأنتم العدة والحذاء.

٧ ـ خطبة أخرى له فى أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال يا أهل الكوفة إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى وتحصد بالسيف أما والله إن أبغضتمونى لا تضرونى وأن أحببتمونى لا تنفعونى وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ولا المستريح إلى مودتكم زعمتم أنى ساحر وقد قال الله تعالى ولا يفلح الساحر وقد أفلحت.

وزعمتم أنى أعلم الأسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون.

ثم التفت إلى أهل الشام فقال لأزواجكم أطيب من المسك ولأبنائكم آنس بالقلب من الولد وما أنتم إلا كما قال أخو بنى ذبيان:

إذا حاولت فى أسد فجورا
فإنى لست منك ولست منى

هم درعى التى استلأمت فيها إلى يوم النسار وهم مجنى.

ثم قال: بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ❖ إنهم لهم المنصورون ❖ وإن جندنا لهم الغالبون﴾ ثم نزل.

٨ـ خطبة فى أهل البصرة:

وخطب بالبصرة فقال: قال الله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

فهذه لله وفيها مثوبة، وقال: ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾ وهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك بن مروان.

أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا فى باب واحد فأخذوا فى باب غيره لكانت دماؤهم لى حلالا من الله ولو قتل ربيعة ومضر لكان لى حلالا عذيرى من أهل هذه الحميراء يرمى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول يكون إلى أن يقع هذا خير والله لأجعلنهم كالرسم الداثر وكالأمس الغابر عذيرى من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب.

أما والله لو أدركته لضربت عنقه (يعنى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عذيرى من سليمان بن داود يقول لربه ﴿رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى﴾ كان والله فيما علمت عبدا حسودا بخيلا.!! (نستغفر الله تعالى من قوله).

٩ـ خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله كفانا مئونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا مئونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا. (مرة أخرى نستغفر من قوله).

مالى أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون.

مالى أراكم تحرصون على ما كُفيتم وتضيعون ما به أُمرتم.

إن العلم يوشك أن يرفع ورفعه ذهاب العلماء ألا وإنى أعلم بشراركم من البيطار بالفرس، الذين لا يقرءون القرآن إلا هجرا ولا يأتون الصلاة إلا دَبْرا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر.

ألا وإن الآخرة أجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر.

ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر واعلموا أنكم ملاقوه ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ألا وإن الخير كله بحذافيره فى الجنة ألا وإن الشر كله بحذافيره فى النار ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

وأستغفر الله لى ولكم.

١٠ ـ خطبته فى أهل العراق يصارحهم بالكراهة:

وخطب أهل العراق فقال: يا أهل العراق إنى لم أجد دواء أدوى لدائكم من هذه المغازى والبعوث لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل فإنها تعقب راحة وإنى لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم وما أراكم إلا كارهين لمقالتى وأنا والله لرؤيتكم أكره.

ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حملت نفسى مقاساتكم والصبر على النظر إليكم.

والله أسأل حسن العون عليكم ثم نزل.

١١ ـ خطبة أخرى وخطب أهل العراق

فقال: يا أهل العراق بلغنى أنكم تروون عن نبيكم أنه قال: من ملك على عشر رقاب من المسلمين جىء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور وايم الله إنى لأحب إلى أن أحشر مع أبى بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا!! عامله الله بما يستحقه.

١٢ ـ خطبته لما مات عبد الملك بن مروان:

ولما مات عبد الملك بن مروان قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إن الله تبارك وتعالى نعى نبيكم إلى نفسه فقال «إنك ميت وإنهم ميتون».

وقال: «ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم».

فمات رسول الله ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون منهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان الشهيد المظلوم ثم تبعهم معاوية ثم وليكم البازل الذكر الذى جربته الأمور وأحكمته التجارب مع الفقه وقراءة القرآن والمروءة الظاهرة واللين لأهل الحق والوطء لأهل الزيغ فكان رابعا من الولاة المهديين الراشدين.

فاختار الله له ما عنده وألحقه بهم وعهد إلى شبهه فى العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته فاسمعوا له وأطيعوه.

أيها الناس إياكم والزيغ فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله ورأيتم سيرتى فيكم وعرفت خلافكم وطبيتم على معرفتى بكم ولو علمت أن أحداً أقوى عليكم منى أو أعرف بكم ما وليتكم فإياى وإياكم من تكلم قتلناه ومن سكت مات بدائه غما.

ثم نزل.

١٣ ـ خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج فاستخلف محمدا ولده على أهل العراق.

ثم خطب فقال يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق إنى أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابنى محمدا هذا وما كنت له بأهل وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله فى الأنصار إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم وإنى أمرته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها ألا وإنكم ستقولون بعدى لا أحسن الله له الصحبة ألا وإنى معجل لكم الإجابة لا أحسن الله الخلافة عليكم.

ثم نزل.

١٤ـ خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد فى يوم واحد

قال صاحب العقد فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج فلما كان بالعشى أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه ففرح أهل العراق وقالوا انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه فخرج فصعد المنبر ثم خطب الناس فقال:

(أيها الناس محمدان فى يوم واحد أما والله ما كنت أحب أنهما معى فى الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما فى الآخرة وايم الله ليوشكن الباقى منى ومنكم أن يفنى والجديد أن يبلى والحى منى ومنكم أن يموت وأن تزال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها.

ثم تكون كما قال الله تعالى: ﴿ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾.

ثم تمثل بهذا :

عـــزائى نبى الله من كل مـــيت وحـــسبي ثواب الله من كل هالك

١٥ـ خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته:

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق وأرجفوا بموته فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال:

إن طائفة من أهل العراق أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج فمه وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموات.

والله ما يسرنى ألا أموت وأن لى الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضى بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

ولقد دعا الله العبد الصالح فقال: ﴿ربى اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى

لأحد من بعدى﴾.

فأعطاه ذلك إلا البقاء فما عسى أن يكون أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل كأنى والله بكل حى منكم ميتاً وبكل رطب يابساً ونقل فى ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً فى ذراع عرضا وأكلت الأرض لحمه ومصت صديده وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول) ثم نزل.

١٦ ـ ومن خطبه الوعظية:

وخطب الحجاج يوماً فقال: «أيها الناس قد أصبحتم من أجل منقوص وعمل محفوظ رُبَّ دائب مضيع وساع لغيره والموت فى أعناقكم والنار بين أيديكم والجنة أمامكم خذوا من أنفسكم لأنفسكم ومن غناكم لفقركم ومما فى أيديكم لما بين أيديكم.

فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن وكأن الأموات لم يكونوا أحياء وكل ما ترونه فإنه ذاهب هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المسيدة ثم طلعت على قبورهم أين الملوك الأولون أين الجبابرة المتكبرون المحاسب الله والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد وأهل الجنة ينعمون فى روضة يحبرون جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا.

فكان الحسن البصرى رحمه الله يقول ألا تعجبون من هذا الفاجر يرقى عتبات المنبر فيتكلم بكلام الأنبياء وينزل فيفتك فتك الجبارين يوافق الله فى قوله ويخالفه فى فعله.

وقال مالك بن دينار غدوت إلى الجمعة فجلست قريباً من المنبر فصعد الحجاج ثم قال: «امرؤ حاسب نفسه امرؤ راقب ربه امرؤ زور عمله امرؤ فكر فيما يقرؤه غدا فى صحيفته ويراه فى ميزانه امرؤ كان عند همه آمرا وعند هواه زاجرا أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله فإن قاده إلى حق تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفه إننا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء وإنما ننتقل

من دار إلى دار.

وخطب يوما فقال: أيها الناس اقدعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شىء إذا أعطيت وأعصى شىء إذا سُئلت فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وعطفها بزمامها عن معصية الله فإنى رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله.

وخطب فقال:

«اللهم أرنى الغى غيا فأجتنبه وأرنى الهدى هدى فأتبعه ولا تكلنى إلى نفسى فأضل ضلالا بعيدا والله ما أحب أن ما مضى من الدينا لى بعمامتى هذه ولما بقى منها أشبه بما مضى من الماء بالماء.

ومن كلامه: إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر ربه من ذنبه ويفكر فى معاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ولا فناء لما كتب عليه البقاء فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة أقهروا طول الأمل بقصر الأجل(١).

هكذا كان الحجاج بليغاً فصيحاً وخطيباً تدل خطبه على شخصيته التى تميز بها فى التاريخ كأحد القادة الجبابرة الأقوياء وقد كانت الخطابة والبلاغة فى ذلك الزمان دليل القوة والهيبة.

ثم إن الحجاج عندما اشتدت عليه العلة عمل على تدبير شؤون العراق من بعده بما يحفظه من الاضطراب والفتن، ويبقيه جزءاً من الدولة الأموية، حتى إذا اطمأن إلى ذلك كتب وصيته ليبرئ فيها نفسه وذمته تجاه خالقه وخليفته المسؤول أمامه فى الدنيا حتى آخر لحظة من حياته، فكتب يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه لا يعرف

(١) انظر جمهرة خطب العرب.

إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث.. الخ(١).

ويروى أنه قيل له قبل وفاته: ألا تتوب؟

فقال: إن كنت مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع.

وقد ورد أيضاً أنه دعا فقال: اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل(٢).

■■■

(١) انظر تهذيب تاريخ دمشق جـ ٤.

(٢) البداية والنهاية وتاريخ دمشق.



ملامح وسمات الشخصية القيادية عند الحجاج

- أهم ملامح وسمات شخصية الزعيم والقائد عند الحجاج الثقفى.
- الفرق بين القيادة والإدارة.
- أهم نظريات الإدارة الحديثة.
- أنواع القادة وتحديد نوعية قيادة الحجاج الثقفى.
- سيكولوجية الزعيم المستبد وسمات الزعيم الراشد.
- الاستقامة والقيادة.
- صناعة الأمة زعيمها.
- الحكمة والقيادة.

ملامح وسمات شخصية الزعيم والقائد عند الحجاج الثقفى

لاشك أن كل شخصية فى الحياة لها سماتها وملامحها تتميز بها عن غيرها وهذا أمر معروف فى علم النفس التحليلى، بل إن الأحداث التاريخية العالمية والمحلية تخلق شخصية الزعيم أيضاً حتى إن الكثير من الأمم ارتبط تاريخها ومصيرها ومستقبلها ببعض الشخصيات والزعامات بوصفهم أبطالا.

ومن خلال التعرف على سمات وملامح شخصية الزعيم أو القائد يمكن تحديد شخصية الحجاج بن يوسف الثقفى الذى يعد قائداً وليس زعيماً.

والقائد قد يكون مسئولاً إداريا أو سياسيا أو دينيا أو مجتمعيا وهذا بعكس الزعيم الذى يكون سياسيا عالميا.

وينقسم القادة إلى أنواع ثلاثة:

١ ـ القائد الاستبدادى الديكتاتورى المتسلط.

٢ ـ القائد الفوضوى «الأيدوقراطى».

٣ ـ القائد الديمقراطى.

وقبل الحديث عن الأنواع الثلاثة للقادة نتحدث عن ماهية القيادة وأهميتها.

فالقائد هو رأس الأمر والقمة التى تقود من تحتها وحولها إلى تحقيق مصالح مشتركة وهو الراعى المسؤول عن رعيته.

فالقيادة هى قدرة الفرد فى التأثير على مجموعة من الناس وإرشادهم من أجل كسب تعاونهم وتحفيزهم على العمل بأعلى درجة من الكفاية فى سبيل تحقيق الأهداف المرجوة.

ويعرفها العلماء أيضاً بأنها قدرة القائد على التأثير فى المرؤوسين للعمل بحماس وثقة لإنجاز الأعمال المكلفين بها وتشمل تلك القدرة فى التأثير استطاعة القائد التأثير على أفكار الآخرين ولهذا يجب أن يكون للقائد سلطة تنفيذية يستطع بها السيطرة على المرؤوسين.

ويرى العلماء أن هناك فرقا بين القيادة والإدارة حيث يعتقد البعض أن المدير هو القائد ويعتبرونها مسميان لشخص واحد.

وسبب الخلط يأتى من كون المدير والقائد كل منهما يسعى بقيادته وإدارته لتحقيق أهداف حددت له مسبقاً، بعكس الزعيم الذى يحدد الأهداف ويأمر أتباعه بتنفيذها كما يريد هو.

والحقيقة المنطقية أنه يمكن القول إن كل قائد مدير وليس كل مدير قائدا.

لأن المدير هو الشخص الذى تكون إدارته للتنظيم مبنية على ما يتمتع به من سلطات، والقائد فهو الذى تكون قيادته لتنظيم بناء على ما يتمتع به من صفات قيادية.

ويقع الكثير فى الخلط بين مفهوم القيادة ومفهوم الإدارة أو قد يعتقد البعض أن المدير هو القائد ويتعبرونهما مسميين لشخص واحد، ذلك الخلط يأتى من أنهما يبدوان من الوهلة الأولى أنهما شىء واحد، حيث إن المدير والقائد كل منهما يسعى بقيادته أو بإدارته إلى تحقيق الأهداف التى قد حددت له أو رسمت له سلفاً، لكن الواقع يختلف تماماً فى اعتبار المدير والقائد شخصية واحدة فيمكن القول أن كل قائد مدير وليس كل مدير قائداً.

فالمدير هو الشخص الذى تكون إدارته للتنظيم مبنية على ما يتمتع به من سلطات.

أما القائد فهو الذى تكون قيادته للتنظيم بناء على ما يتمتع به من صفات قيادية، ومتى توفرت فى شخصية القائد السلطات الرسمية إضافة إلى ما يتمتع به من صفات قيادية تمكنه من التأثير على سلوك الآخرين أصبح مديراً فعليا لهذا التنظيم أو أصبح قائداً له قدرات القائد.

ويرى «هوايت» أن القيادة تعنى قوة التأثير فى الآخرين ودفعهم إلى تنفيذ

القرارات. وهو بذلك يفرق بين الإدارة القائمة على أساس السلطة وبين القيادة التى تقوم على أساس إقتناع المرؤوسين واتباعهم لتعليمات وتوجيهات القائد بدون استخدام قوة السلطة أو التخويف أو التهديد باستخدامها.

فالمدير هو الذى يحتل منصباً إداريا بقرار من الإدارة العليا وهذا المنصب يعطيه السلطة والصلاحية المكتوبة والمنصوص عليها فى توصيف وظيفته.

وهكذا تختلف القيادة عن الإدارة اختلافاً جوهريا، حيث يعتمد المدير على ما فى يده من سلطات فى ممارسة وظيفته اعتماداً كليا، بينما القيادة تعد قدرات طبيعية كامنة فى شخص القائد فهو لا يعتمد على السلطة فى إدارته لمجموعة مرءوسيه وينظر إلى سلطة الجزاء كإحدى الأدوات الثانوية التى قد يلجأ إليها عند الضرورة.

■ ■ ■

أهم نظريات الإدارة الحديثة

أصبحت الإدارة فى القرن العشرين علماً له أصوله وقواعده وقد عرفت البشرية النشاط الإدارى منذ فجر التاريخ فى الحضارات القديمة، ولذلك فإن بعض المفاهيم الإدارية الحديثة لها جذور تعود فى تاريخها إلى الحضارات القديمة، ولقد ظهرت النظريات الحديثة فى الثلاثينيات من القرن العشرين، ولقد أثر ذلك على تنمية وتحسين دور القيادة.

ركزت هذه النظريات على دور العنصر البشرى الذى يعد محور العملية الإدارية كما ركزت الدراسات الحديثة على عمليات القيادة والاتصالات والحوافز وعمليات اتخاذ القرار، كما أدت هذه الدراسات والنظريات إلى تغير فى مفهوم السلطة الإدارية، حيث أصبح نجاح القيادت الإدارية فى ظل الظروف الجديدة يتطلب قُدرات ومهارات متباينة لإدارة العاملين وإقامة علاقات إنسانية معهم بعد أن كانت مقدرة الرئيس الإدارى تنبع من مركزه الوظيفى وسلطته الشرعية والسلطة المخولة إليه.

أهم النظريات الحديثة فى الإدارة

١ - نظرية العلاقات الإنسانية (human realation): تعتمد هذه النظرية فى تحليلها للإدارة على أن العلاقات الإنسانية بين العاملين فى التنظيم هى الأساس الذى يجب أن ترتكز عليه الإدارة وتهتم بإشباع حاجة المرؤوسين النفسية والاجتماعية مما يحفزهم على تقديم إنتاجية عالية.

وتؤكد على أن الاهتمام بالعلاقات الإنسانية فى مجال الإدارة يمثل أحد المقومات الأساسية لنجاح القادة الإداريين.

ومن هنا ارتبطت العلاقات الإنسانية بالقيادة الإدارية وأصبحت من السمات البارزة للإدارة الحديثة.

٢ ـ نظرية التنظيم الاجتماعى (social organization theory): تصور هذه النظرية التنظيم الإدارى على أنه تنظيم اجتماعى حيث يتكون من مجموعة من الأفراد مجتمعين، يتعاونون مستخدمين موارد بشرية ومادية وطبيعية لتحقيق أهداف شخصية أو اجتماعية بواسطة سلوك منظم، يكفل أهداف التنظيم وأهداف العاملين فيه.

وترى هذه النظرية أن مشكلة التنظيم الإدارى تكمن فى كيفية جعل المجموعة من الأفراد المختلفين فى القدرات يتعاونون فى نشاط مشترك لتحقيق أهداف التنظيم وتحقيق رضاهم فى نفس الوقت، وأن حل هذه المشكلة منوط بقيادتهم الإدارية.

ومن هنا يتبين أهمية دور القيادة فى الإدارة وصعوبته ويركز محللو هذه النظرية على استخدام أسلوب قيادى يعتمد على توفير الإحساس لدى الفرد العامل بالاطمئنان والاستقرار فى العمل وإتاحة المجال على زيادة وتنمية قدراته فى العمل، كما لابد أن تنظر الإدارة إلى المرؤوس على أنه كائن إنسانى وليس ترساً فى ماكينة، بحيث ينظر المرؤوس إلى مديره على أنه صديق متعاون وعطوف وحازم دون اللجوء إلى التهديد باستخدام الجزاء، كما تؤكد هذه النظرية على عدل المدير القائد فى معاملته لمرؤوسيه والثقة فيهم.

٣ ـ نظرية التوازن التنظيمى (organization equilibrium theory) تقوم هذه النظرية على مشاركة أعضاء التنظيم الإدارى فى اتخاذ القرار، وأن بقاء التنظيم واستمراره يقتضى توفر أمرين هما: الكفاءة والفاعلية وأن حيوية التنظيم وفاعليته تكمن فى رغبة أفراده فى المساهمة بجهودهم فى نشاطه، وأن على التنظيم الإدارى أن يعمل على إيجاد المشجعات الكافية لإحداث التعاون والمساهمة المطلوبة من الأفراد.

وهى قائمة على المساهمات التى يقدمها الفرد فى التنظيم والمغريات التى يحصل عليها، ذلك لأن الفرد يستمر فى تقديم خدماته ومساهمته للتنظيم طالما أن المغريات التى تقدم له تعادل أو تزيد على قيمة المساهمات التى يقدمها.

ويمكن توضيح الفرق بين الإدارة والقيادة فى النقاط التالية: ـ

١ ـ الإدارة تعنى السياسات والإجراءات والبناء التنظيمى فى حين أن القيادة تعنى بالعلاقات الشخصية بين الرؤساء والمرؤوسين.

٢ ـ تختص الإدارة بالجوانب الفنية وتختص القيادة بالجوانب الإنسانية.

٣ ـ تشير الإدارة إلى عملية توجيه الأشخاص واستخدام الإمكانات المتاحة لإنجاز أهداف المنظمة فى حين أن القيادة تقتصر على عملية توجيه الناس من خلال أساليب معينة لتحقيق هذه الأهداف.

٤ ـ المدير هو الشخص الذى يشغل مركزاً مرموقاً من مراكز المسئولية فى التنظيم ويسعى إلى تحقيق الأهداف عن طريق مرؤوسيه.

أما القائد فهو الشخص الذى يشغل أو لا يشغل مركزاً من مراكز المسئولية ولكنه تتوفر فيه المقدرة على التأثير فى سلوك الغير وقيادتهم نحو الأهداف المشتركة.

٥ ـ الإدارة هى تحديد الأهداف والسياسات العليا، أما القيادة فهى الإشراف على من يقومون بتنفيذ هذه الأهداف والسياسات.

٦ ـ يعتمد المدير فى عمله على العلم وتخطيط الإجراءات وتحديد الهدف ورسم السياسات التى يسير عليها العاملون.

أما القائد فيعتمد فى عمله على قدرة التأثير على مرؤوسيه وتحفيزهم على القيام بأعمالهم وهم راضون عنها فيقومون بتنفيذ أوامره بدون تردد.

٧ ـ يستمد المدير سلطاته من اللوائح والقوانين المنظمة للعمل بينما يعتمد القائد فى قوة تأثيره على المرؤوسين على قوة شخصيته واقتناعهم هم وحبهم له.

٨ ـ تنبع القيادة من الجماعة ويشعر الأعضاء بالحاجة إليها، أما الإدارة فهى تستمد سلطاتها من خارج الجماعة لأنها تتم بواسطة التعيين.

٩ ـ لا توجد مشاعر وأحاسيس بين المدير والمرؤوسين فى النمط الإدارى حيث يؤدى المرؤوسون أعمالهم تحت سيف اللوائح والقوانين الصارمة ولا يستطيعون المخالفة خوفاً من العقاب.

بينما فى النمط القيادى يتبادل القادة والمرؤوسين مشاعر الحب والولاء ويؤدون أعمالهم دون خوف من عقاب بل عن قناعة ورضا.

١٠ ـ يهتم المدير بتحقيق أهداف المنظمة دون النظر إلى المصالح الشخصية لمرؤسيه حيث يتحكم فيهم حسب رغباته ومصلحته الشخصية، أما القائد فهو لا يسعى إلى تحقيق رغباته الخاصة أو التحكم فى مصالحهم بل يحثهم ويساعدهم على تحقيق أهدافهم المشتركة كما يلتزم القائد بالقيم والمعايير الإنسانية فى تعامله معهم.

١١ ـ فى النمط القيادى يشترك المرؤوسون مع القائد فى صنع القرار، أما المدير فهو لا يشرك مرؤوسيه ويصدر أوامره وتعليماته بدون تفويض للسلطة فهو لا يثق بمرؤسيه دائم الشك فيهم.

١٢ ـ فى النمط القيادى يشعر المرؤوسون بأهميتهم لنجاح العمل وبالتالى تحقيق الأهداف أما فى النمط الإدارى لا يلقى المدير للمرؤوسين بالاً وكأنهم غير مهمين لمتطلبات العمل.

١٣ ـ فى النمط القيادى يهتم القائد بتحقيق أهداف العمل والعاملين على حد سواء، أما فى النمط الإدارى فالمدير يهمه تحقيق أهداف العمل ولو على حساب أهداف العاملين التى تعتبر أهدافا ثانوية بالنسبة لهم.

١٤ ـ فى النمط القيادى يكون المرؤوسون مقتنعين بالأسلوب الذى ينتهجه القائد، أما فى النمط الإدارى فقد لا يرضى المرؤوسون عن أسلوب إدارة المدير لهم وإنما ينفذون أوامره خوفاً من سلطاته.

■ ■ ■

اجتماع القيادة والإدارة فى شخص واحد

وهذا ما حدث فى شخصية الحجاج عندما اجتمعت له الإدارة والقيادة معاً فى المنطقة الشرقية، فعندما تجتمع القيادة والإدارة فى شخص واحد أى أن يمارس المدير الذى بيده السلطة وظيفته معتمداً على قوة التأثير فى الجماعة وتحفيزهم وإقناعهم لتحقيق الأهداف تاركاً السلطة الرسمية، معتمداً على الطاعة التى تنبع من الجماعة التى يديرها.

فهو بذلك يصبح مديراً قائداً حيث يتخذ من تحقيق هدف المنظمة عاملاً مشتركاً لهم جميعاً، وهنا يمكن أن نطلق عليه المدير القائد أو نطلق على الإدارة: القيادة الإدارية، فهو ليس مديراً تنفيذيا وإنما قائداً وإن كان يتبع فى قيادته من هو أعلى منه وهو الخليفة الأموى.

فنجاح الإدارة وفعاليتها يعتمد بصفة أساسية على ما تتمتع به شخصية المدير القائد من سمات شخصية وقدرات ومهارات، ولقد اتجهت الجهود فى العصر الحديث إلى وضع معايير ثابتة يمكن فى ضوئها اختيار القادة الإداريين الذين يمكنهم القيام بوظائفهم القيادية بكفاءة.

ولهذا أسهمت الدراسات المتعددة فى إثراء موضوع القيادة الإدارية واختلفت الآراء من دراسة إلى أخرى ومن موقف إلى موقف وكان ذلك يتواكب مع التطور التقنى وما أدى إليه هذا التطور فى تطوير مفهوم الإدارة الحديثة.

ويمكن توضيح الأبعاد التى تخضع لها القيادة فى ظل الوظيفة الإدارية المنوطة بها فى الآتى:

(١) البعد الوظيفى: يكون الموقع الرئيسى للقيادة هو محور السلوك القيادى حيث يستخدم القائد فى هذا الموقع الرسمى القيادة الممنوحة له فى إدارة مرؤوسيه دون الاعتماد بالدرجة الأولى على الإقناع أو مميزاته الشخصية، فالقائد من هذا المنظور

يستخدم موقعه الوظيفى لفرض سلطته الشخصية بأسلوب متشدد لتنفيذ المهام.

(٢) بعد المميزات الشخصية: حاولت كثير من الدراسات أن تتعرف على المميزات والصفات الشخصية التى تؤهل الأشخاص لمنصب القيادة الإدارية لتكون قيادة ناجحة. وتتمثل هذه المزايا فى شخصية القائد، المميزات الجسدية والقدرة العقلية والذكاء، القدرة على التحكم واتخاذ القرار السريع، المهارات اللفظية، التحصيل، تحمل المسئولية، المشاركة والتفاعل الآخرين، التكيف مع الظروف والمواقف المختلفة، المرونة، التقبل للواقع والتفاعل معه.

(٣) البعد السلوكى: يؤكد هذا البعد على تصنيفات لسلوك القادة، فعلى سبيل المثال هناك القائد الديكتاتورى، والقائد الديمقراطى.

فالقائد الديكتاتورى هو الذى يحدد المهام ويتخذ القرار بنفسه دون إبداء رأى من أحد، وهو الذى يحدد الأدوار والمهام والطريق لتحقيق الأهداف، بينما القائد الديمقراطى هو الذى يسمح للمرؤوسين بدرجة حرية عالية فى مناقشة الأهداف والوسائل ويفوض الآخرين فى اتخاذ القرار، ومن هنا نعرف شخصية الحجاج فى القيادة.

ونعود للحديث عن القيادة وهى محور الحديث.

فالقيادة ليست مجرد علاقة شخصية بين شخص وآخر، وإنما يمتد تأثيرها إلى النظم الاجتماعية الموجودة فى المنظمة فمن خلال قيام القائد بتوجيه العاملين وحفزهم على العمل، فإنه يساعد فى توجيه النظام الاجتماعى بأكمله فى المشروع.

يعمل من خلال سلوكه الشخصى بصورة مستمرة على خلق عادات وتقاليد فى المكان الذى يعمل فيه.

فالقائد الناجح هو الذى ينجح فى أن يخلق فى دائرته وبين أتباعه العادات والتقاليد التى تساهم فى تحقيق أهداف التنظيم الذى يعمل فيه.

تعود ضرورة ديناميكية القيادة إلى عاملين هما:

استمرارية تغير ظروف المشروع مما يدعو إلى تغير مستمر ومتواصل فى خطط المدير وسياساته، وهذا التغير يترتب عليه ضرورة الاتصال المستمر بين

الرئيس ومرؤوسيه لتبليغهم بهذه التغيرات وتوجيههم بشكل فعال للتعامل مع هذه التغيرات فى الخطط والسياسات.

أن العنصر البشرى يمر بتغير مستمر، فسلوكيات أعضاء التنظيم ومقدراتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم واحتياجاتهم تتغير بشكل مستمر خلال فترات حياتهم، مما يجعل دوام التعديل فى علاقات الرئيس مع رؤسائه ومرؤوسيه وزملائه أمراً حتميا.

وتعمل القيادة فى مجال تنمية القدرة على تفهم مشاكل المرؤوسين وحفزهم على التعاون فى القيام بالمهام الموكلة إليهم وتوجيه طاقاتهم واستخدامها إلى أقصى درجة ممكنة من الكفاية الإنتاجية.

تعود أهمية القيادة إلى العنصر البشرى الذى أخذ يحتل المكانة الأولى بين مختلف العناصر الإنتاجية الأخرى التى تساهم فى تحقيق أهداف المشروع المنشودة.

تدل معظم الدراسات على قلة عدد القادة الأكفاء فى المنظمات، وأن المقدرة القيادية سلعة نادرة لا يتمتع بها إلا القلائل من أفراد المجتمع.

من أجل إعداد قادة أكفاء، أخذت معظم المشروعات الاقتصادية على عاتقها مهمة تصميم برامج تدريبية متخصصة من أجل رفع المستوى القيادى بين العاملين فى هيئاتها الإدارية.

ويتصف القائد الناجح بأنه يعمل على تحسين مقدرته على التبصر فى أحوال الأفراد الذين يعمل معهم، ويتطلب منه سلوكاً معيناً كالاعتناق، والإدراك الذاتى، والموضوعية: ـ

١ ـ الاعتناق: وهو مقدرة الشخص على تفحص الأمور والنظر إليها من زاوية الشخص الآخر أى مقدرة القائد على وضع نفسه موضع المرؤوس من خلال الإحساس بإحساسه والشعور بشعوره تجاه المؤسسة وأهدافها، وتجاه زملائه ورؤسائه، وتجاه القيم التى تؤثر على إنتاجيته وكفاءته.

٢ ـ الإدراك الذاتى: وهو مقدرة الشخص على تقييم نفسه بين الآخرين تقييماً صحيحاً، فهناك الكثيرون الذين يحملون فى أنفسهم فكرة تختلف عن الفكرة

التى يحملها الآخرون عنهم.

٣ ـ الموضوعية: وهى مقدرة الشخص على تحليل الوضع الراهن تحليلاً عقلانياً دون تدخل العاطفة.

فالقائد الناجح هو الذى يستطيع تحديد القوى التى دفعت بمرؤوسيه لأن يسلكوا ذلك السلوك أو أن يتصرفوا بمثل ذلك التصرف. إن قدرته على تجميد العاطفة وتحليل الأمور بموضوعية تمكنه من تفهم أفضل لسلوك المرؤوس وبالتالى توجيهه وإرشاده.

ولهذا كان الحجاج يتصف بأنه قائد ناجح فقد كان يتابع قواده وعماله حتى فى أحلك الظروف ويطلب منهم كما سنعرض خرائط للأرض التى يحاربون عليها ويضع لهم الخطط وذلك فى حال عدم إمكانيتهم فى تحقيق النصر أو استبطائه.

أهم صفات القائد الناجح:

ـ يتمتع القائد بمستوى من الذكاء أعلى من مستوى ذكاء أتباعه.

ـ يتمتع القائد بسعة الأفق وامتداد التفكير وسداد الرأى أكثر من أتباعه.

ـ يتمتع القائد بطلاقة اللسان وحسن التعبير والمقدرة على الاتصال الفعال مع الآخرين.

ـ يتمتع القائد بالاتزان العاطفى والنضج العقلى والتحليل المنطقى.

ـ يتمتع القائد بقوة الشخصية والطموح لتسلم زمام قيادة الآخرين.

وتعتمد القيادة على وجود شخصية إدارية فى موقع قيادى وتمتلك القدرة على التأثير على الآخرين للعمل على تحقيق أهداف معينة.

وقوة التأثير على الأفراد تأتى من مصادر متعددة على النحو التالى:

القوة القانونية: وتستمد هذه القوة كنتيجة لمركز القائد فى الهيكل التنظيمى فى المنظمة (من قوة النظام).

قوة الإكراه والإجبار. وتستمد هذه القوة نتيجة إدراك المرؤوس أن المؤثر (القائد) يمتلك القدرة على التأنيب والعقاب المادى أو المعنوى إذا ما قصر الموظف فى عمله.

مصادر قوة القيادة، فالثواب والعقاب جناحا القيادة وقوتها الفاعلة.

فقوة المكافأة تعتمد على مقدرة القائد على حفز الآخرين ماديا من خلال الرواتب والمكافآت والعلاوات والجوائز متى ما قاموا بعملهم على الوجه المطلوب منهم.

وقوة الخبرة يمتلكها القائد والتى يستطيع من خلالها التأثير على الآخرين نظراً لحاجتهم إلى هذه الخبرة.

وقوة الإعجاب ويحصل عليها القائد نتيجة إعجاب تابعيه ببعض صفاته الشخصية.

يمكن القول إن أول محاولة لتفهم فكرة الازدواجية فى القيادة ـ الموازنة بين أهداف المنظمة من جهة، وأهداف الفرد العامل من جهة أخرى ـ ظهرت عندما بدأ الكتاب الإداريون والمتمرسون فى تحديد أهداف القيادة والأعمال التى يجب أن يقوم بها القائد.

فالقائد يواجه مشكلة فى الاختيار قد يصعب إيجاد حل لها، وهذه المشكلة تتمثل فى الدولة أو المؤسسة دون اعتبار لأهداف ومشاعر الأفراد العاملين فيها وأن يبقى الدولة أو المؤسسة على قيد الحياة مهما كلف الثمن ولو كان ذلك على حساب العنصر الإنسانى.

■ ■ ■

اهم نظريات القيادة وتطبيقها على شخصية الحجاج القيادية

نظريتا القيادة:

١ ـ نظرية القيادة الموروثة.

٢ ـ نظرية القيادة السلوكية المكتسبة.

ترتبط نظرية القيادة الموروثة ارتباطا قويا بنظرية «الرجل العظيم» وهى تقوم على أساس أن بعض القادة يولدون وهم يحملون صفات قيادية موروثة وليست مكتسبة بمعنى أن هناك أفراداً يولدون ليكونوا قادة بينما تذهب نظريات القيادة المكتسبة إلى أن كثيراً من الصفات القيادية يمكن اكتسابها ـ بجانب الوراثة ـ عن طريق التعلم والتمرس والمران على مواجهة الصعاب والتعامل مع المشكلات، والاستفادة من تجارب الحياة العملية وذلك فى مجال قيادة أمور البشر.

ويمكن إسقاط هذه النظرية على شخصية الحجاج القيادية حيث لعبت أسرته وقبيلته دوراً هاما فى تكوين شخصيته القيادية فهو قائد بالوراثة.

تنص هذه النظرية على أن سلوك الفرد محدد بصفات وسمات موروثة، فالمقدرة القيادية ما هى إلا صفة توجد فى الفرد منذ ولادته نتيجة لتفاعل عوامل وراثية معينة.

تشتمل أهم الصفات الموروثة التى تمثل مكونات الشخصية القيادية الناضجة على سمات كالحزم وقوة الإرادة، والطموح، والمرونة، وهدوء الطبع، والاعتداد والثقة بالنفس، وقوة الذاكرة والذكاء، والشجاعة، وتحمل المسؤولية، وسرعة البديهة، والابتكار والمبادأة، وسمو الخلق وحسن المعاملة... وغيرها، وغالب تلك الصفات كانت فى الحجاج الثقفى.

وتبعاً لنظرية القيادة الموروثة، فالقائد يولد ولا يُصنع، بمعنى أن هناك أفراداً يولدون ليكونوا قادة، وهناك أشخاص يولدون ليكونوا أتباعاً، فالحجاج يكون قائدا بالوراثة.

فالقدرة القيادية ـ وفقاً لهذه النظرية ـ هى صفة موروثة تخلق مع الفرد كغيرها من صفات الجنس والتكوين الجسمانى واللون، وهذا لا يعنى بالضرورة أن القائد أو الزعيم أو الملك يجب أن يكون ابنه مثله، ولكن الفرد الذى يمتلك مجموعة السمات المذكورة يكون مؤهلاً لأن يصبح قائداً ناجحاً، حيث إن هذه الصفات ذات جذور متأصلة بالنفس ولا يمكن اكتسابها عن طريق التعليم أو التدريب.

٢ ـ نظرية القيادة السلوكية (المكتسبة):

وهى نظرية تعتمد على تكوين القائد من خلال اكتسابه لخبرات أثناء العمل الذى يقوم به ومن خلال تلك الخبرات تتكون شخصية القائد، ولكن يجب تواجد سمات القيادة فى تلك الشخصية.

ونظرية القيادة التى تهتم أو تركز على العمل هى أساس تلك النظرية.

ونتيجة لهذه النظرة للسلوك الإنسانى، فإن القيادة أخذت تتمركز حول العمل وأصبح دور القائد محدداً بالافتراضات المتعلقة بسلوك الإنسان.

وبما أن النظرية تفترض بأن الإنسان كسول بطبيعته، وأنه يرتكب أخطاء عديدة بصورة طبيعية أثناء العمل، فإنه لابد من أن يراقَب ويصوَّب حفاظاً على بقاء المنشأة ونجاحها.

تقترح الحركة العلمية بأن تصحيح الوضع لا يتم إلا بإحدى طريقتين:

تقوية الهيكل التنظيمى للمنشأة من خلال وضع السياسات الإدارية والإجراءات والمعايير التى تؤدى إلى الحد من الأخطاء، وتجبر العاملين على احترام المؤسسة وأنظمتها، وربط احتفاظ الموظف بوظيفته، وحصوله على المكافآت والحوافز بمدى خضوعه لسياسات المؤسسة.

تحسين طرق العمل من خلال وضع الإجراءات الإدارية الموجهة إلى رقابة المستويات الدنيا (الطبقة العاملة) التى تكفل وضع المقاييس الدقيقة التى تحد من

الأخطاء وتؤدى إلى تحسين كمية الإنتاج.

وفقاً لهذه النظرية، فالقائد يصبح موالياً للمنظمة وراعياً لمصالحها، بمعنى أن دور القائد يتمثل فى العمل على تحقيق أهداف المنظمة دون أى اعتبار لأهداف ومشاعر الأفراد العاملين فيها.

تطبق الإدارة هذا النمط من القيادة عندما تغلب الاهتمام بطرق العمل على الاهتمام بالعنصر الإنسانى.

ونظرية القيادة التى تهتم أو تركز على العمل تؤكد على أهمية مساهمة الفرد وتنمية قدراته الكامنة بدلاً من التركيز على المنظمة فى هيكلها التنظيمى وطرق عملها.

وتؤكد هذه النظرية على أن الإنسان يسعى إلى إشباع حاجاته النفسية الأساسية التى يمكن إشباعها ضمن الإطار العام للمؤسسة.

ولهذا يحتاج الإنسان إلى اعتراف الآخرين وتقديرهم، والانتماء إلى الجماعة، وإتاحة الفرصة له لتنمية قدراته.

وهذه أهم النظريات التى ذكرها العلماء فى القيادة ويمكن إسقاط نظرية القيادة الموروثة على الحجاج حيث إنه ورث ذلك من أبيه وقبيلته ثقيف التى خرجت الكثير من دهاة العرب مثل عروة بن مسعود الثقفى وهو جده لأمه، وكذلك المغيرة بن شعبة وغيرهما الكثيرين من ثقيف.

وقد كانت شخصية الحجاج وأبيه منذ البداية وبفطرتها تنم على القيادة الفطرية حيث أنهما قد عملا بوظيفة المعلم، وكان والد الحجاج من سادات ثقيف وأشرافهم، بل وكانت ثقيف كقبيلة تناهض قريش فى الزعامة وقد تأخر دخولها فى الإسلام بعد فتح مكة.

وكان والد الحجاج من الذين شاركوا مروان بن الحكم فى استرداد ملك بنى أمية وكان يحمل لواءً يوم معركة الربذة التى دارت على مشارف المدينة المنورة بين جيش مروان وجيش ابن الزبير وأيضاً شارك فى الحملة التى قادها مروان لاستعادة مصر للحكم الأموى، وكان يوسف الثقفى من كبار الملاك فى مكة وقد

مات وابنه الحجاج والياً على المدينة(١).

وقد اشتهرت ثقيف بإخلاصها لخلفاء بنى أمية.

ولا ننسى أن جد الحجاج لأمه الفارعة بنت عروة بن مسعود هو عظيم القريتين(٢) الذى نزل فيه قوله تعالى حكاية عن كفار قريش: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ **(الزخرف: ٣١)**.

فكل هذه الظروف البيئية والوراثية قد أثرت فى شخصية الحجاج القيادية وجعلته من نوع القائد المستبد الذى يقوم بتنفيذ ما يوكل إليه من أعمال بجد وتفانٍ لا حدود لهما.

ولكى نسلط الضوء على شخصية الحجاج علينا التعرف على أنواع القادة لاستكمال الصورة.

أنواع القادة:

قسم العلماء القادة إلى ثلاثة أنواع بحسب طريقة عملهم وسمات شخصياتهم.

ـ أولاً القائد الاستبدادى: (الديكتاتورى ـ الأتوقراطى):

والقيادة هنا مركزة فى القائد، فهو ذلك القائد الذى يفرض خطته على الكشافين ويلزمهم بتنفيذها، ويتصرف بمفرده، ولا يخضع لأحد، ويفرض على الجميع أن يخضعوا له فى كل شىء.

ومن مظاهر قيادة القائد الديكتاتورى المستبد برأيه أنه يركز السلطات بيده وحده، فهو الذى يتخذ القرارات بنفسه، ويحدد سياسة وأدوار الأفراد ويكون وحده الحَكم ومصدر الثواب والعقاب أى الحكم والخصم.

يهتم بضمان الطاعة للذين لا يملكون حق اختيار العمل أو المساهمة فى اتخاذ

---

(١) انظر المعارف ـ لابن قتيبة.

(٢) والمقصود بالقريتين مكة والطائف، أما الرجل الأول فهو الوليد بن المغيرة المخزومى، انظر تفسير ابن كثير والطبرى والقرطبى.

القرار أو حتى المناقشة وإبداء الرأى.

ويتدخل فى معظم الأمور وشتى الأعمال وتفاصيل الأشياء ودقائق التفاصيل، وفى ظل هذا المناخ الاستبدادى تؤدى الطاعة العمياء دون مناقشة وعدم إبداء الرأى إلى تعطيل قدرة الإبداع والابتكار للأتباع والمرؤوسين ولا يتيح هذا المناخ مجالاً كافياً لتنمية العلاقات الإنسانية بين الأفراد، وكذلك انخفاض الروح المعنوية.

وينشأ السلوك الاستبدادى الخوف فى نفوس المرؤوسين ومن هم تحت سلطة وحكم القائد، كما يؤدى إلى انتشار الروح السلبية لديهم واكتفائهم بالعمل الذى يحميهم من عقاب القائد.

ثانياً ـ القائد الفوضوى (الأيدوقراطى):

ومن مظاهر القائد الفوضوى أن: ـ

ـ كل فرد يعمل ما يراه مناسباً (حرية كاملة للفرد).

ـ لا يوجد نظام ولا مسئوليات ولا أهداف.

ـ تترك حرية التصرف للمرؤوسين، حيث تترك لهم حرية اتخاذ القرارات مع أقل قدر من مشاركة القائد لهم فى آى مجالات.

والقائد لا يقوم بأى عمل آخر فى المناقشة ولا يشترك معهم فى أى عمل من الأعمال، ولا تبدر منه إلا تعليقات على عمل الطلائع حين يحاول تنظيم مجرى العمل.

وهذا الأسلوب يؤدى لنتائج سلبية تنعكس على القائد والمرؤوسين.

ثالثاً ـ القائد الديمقراطى (المثالى):

ومن مظاهر قيادة القائد الديمقراطى أنه يتفاعل مع المرؤوسين والأتباع حتى يصير ويصبح واحدا منهم، ويصعب أن تميز بينه وبينهم، ويعمل على توزيع المسئولية وأن تكون القرارات جماعية.

أساليب القيادة:

ويقسم العلماء القيادة من حيث أساليب القيادة إلى نوعين هما: ـ

١ ـ القيادة المتسيبة (قيادة عدم التدخل):

القائد من هذا النوع يترك لأتباعه الحرية المطلقة فى اتخاذ القرارات وتحديد الأهداف واختيار أساليب التنفيذ بدون أى تدخل من قبله.

ويلعب القائد هنا دور الوسيط ويتصف بالسلبية والتسامح والتودد تجاه أتباعه إلى درجة التخلى عن دوره فى اتخاذ القرارات.

وكذلك يلعب قائد عدم التدخل دوراً ثانوياً فى التوجيه والإرشاد والتأثير على الآخرين.

ينحصر دور القائد هنا على مجرد إعطاء المعلومات إذا طلبت منه بدلاً من تولى زمام المبادرة فى توجيه أتباعه.

٢ ـ القيادة الديمقراطية:

يصنف هذا النمط القيادى كحل وسط بين القيادة الأوتوقراطية (الاستبدادية) وقيادة عدم التدخل. ويتبع القائد الديمقراطى أساليب الإقناع فى توجيه مرؤوسيه مع أخذ أحاسيسهم ومشاعرهم بالاعتبار مما يشعرهم بكرامتهم وأهميتهم.

ويتميز القائد الديمقراطى بأسلوب مشاركة العاملين فى عملية صنع القرار والتخطيط ووضع السياسات، ويستأنس بآرائهم ويساهم بتنمية روح الابتكار وتحقيق التعاون وإطلاق قدرات المرؤوسين وطاقاتهم الكاملة.

فالقائد الديموقراطى هنا يقترح الأعمال مع توصياته ولكنه سيهتم بموافقة الجماعة قبل أن يضع هذه الأعمال موضع التنفيذ.

ويؤمن القائد بقدرات وإمكانيات مرؤوسيه ويستطيع توظيفها لصالح العمل.

يمتاز هذا النمط القيادى بأنه يخلق جو عمل يساعد على تنمية مالكة الابتكار والمبادرة لدى أعضاء التنظيم ويقلل من اعتماد المرؤوسين على القائد ويشجع المرؤوسين على التعاون من أجل تحقيق الأهداف المشتركة.

صناعة الأمم للقائد الزعيم:

ومما لاشك فيه أن الأمم هى التى تصنع الزعيم والقائد، فالأمم القوية تخرج زعماء أقوياء ذات توجهات ديمقراطية والأمم الضعيفة تخلق زعماء طغاه مستبدين.

فالشعوب والأفراد هم الذين يصنعون الزعيم دوماً وبدونهم لا قيمة لهذا الزعيم أو القائد بل وأصبح لكل مجتمع طريقته الخاصة فى صناعة الزعيم وإمداده بالمزايا وإحاطة شخصه بالأساطير والأفعال التى يعجز عن امتلاكها الأشخاص العاديون.

كما يقرر «أريك فروم» فى كتابه «الخوف من الحرية» ذلك، وحتى إن «جوستاف لوبون» فى كتابه «سيكولوجية الجماهير» يقول: «إن الشىء الذى يهيمن على روح الجماهير ليس الحاجة إلى الحرية وإنما العبودية!! وذلك أن ظمأها للطاعة يجعلها تخضع غرائزيا لمن يعلن أنه زعيم».

فالزعيم الذى استمد كل حقه البطولى من الجماعة التى أسبغت عليه صفاته، رمزاً مستعلياً، بعد أن تجذرت أفعاله وأقواله فى تربة المجتمع، وفى وعى ولا وعى الجماهير، تفخمت صورته وأخذت حيزاً وحضورا مؤثراً وفعالا.

فالبعد السيكولوجى لهذه الظاهرة معقد ومتشابك، حيث يندمج بها الفردى والجماعى والأسطورى والتاريخى، المقدس بالمدنس، لهذا يحتاج إلى تأصيل من خلال دراسات يتلاقح فيها السياسى بالاجتماعى، والنفسى بالتاريخى، والكشف عن النواة المحورية التى تمحورت حولها تصورات أى مجتمع أو دولة.

فالكثير من الجماعات لا تقدر أن تعيش بدون زعامات قومية أو دينية أو سياسية، ولو فرغت ساحتها من الزعيم، فإنها تسعى لخلق زعيمها ورمزها الخاص بها، الذى يعبر عن تطلعاتها أو أحلامها، فأغلب الجماعات تعيش أو تريد أن تعيش فى ظل التبعية السياسية لقائد أو زعيم كالابن يتشبث بيدى أبيه!!

ويظهر لدى تلك الجماعات هوس بالزعامة لا يقارع، بل يصبح على أشده، إذا كانت تمر بأزمات شديدة تهدد هويتها وكيانها ومعتقداتها، فنرى الجماعات تركن

إلى زعيم ما بدون تبصر واختيار واع ودقيق، متخذة منه معبراً أو جسراً للخروج من أزمتها الوجودية أو الظرفية التى تعصف بها، لعله يعيد إليها التوازن الذى فقدته أو يمنحها الرجاء والأمل فى مستقبل ما.

وهذه المجتمعات هى التى تخلق القائد والزعيم الديكتاتورى.

ويمثل الزعيم من المنظور النفسى (الأنا القيمية العليا) للجماعة، لهذا تلحق به كل الصفات الجيدة والخارقة ويكون حصنا من العوامل العارضة ولا يتأثر بها مباشرة بل يشكل جسمه وعقله وروحه وأفعاله وحدة خالصة لا تدانى أو تقارن فى شيء من ظواهر الدنيا وقواهرها ويشكل تاريخه، متخذا أبعادا أسطورية وقيادية، ونبوغا مبكرا منذ ولادته أو ربما قبلها على شكل أحلام ورؤى والديه وآخرين من عائلته، ومن المقربين له حول مستقبله فى تولى الزعامة وقيادة البلاد والعباد، ويمر تاريخه الشخصى والعائلى بتحريف على درجة عالية من الأسطورة والتعديلات الجزافية اللا مألوفة.

فلو كانت هذه المجتمعات لديها المؤسسات التى تحميها وتدافع عن حقوقها لما احتاجت أو ركنت إلى الزعيم المنقذ والمخلص لها، الذى تمشى فى ركابه الحشود متطلعة لأقواله عله يرمى لها فتات أمانيها فى عسر دنياها ومأزق وجودها، عله يمن عليها من عليائه ويجود عليها بكرمه الفائض، لهذا تتجمع حول شخص الزعيم وتتمحور حوله كل أمانى المجتمع وخلاصاته، وكل إشباعاته النفسية الوهمية.

فالزعامات تخلقها المجتمعات لحاجات نفسية عميقة فى وجدانها، مع مؤازرة عوامل داخلية وخارجية، استراتيجيات منظورة وغير منظورة، وكذلك تمليها سياقات تاريخية محددة.

وفى المقابل توجد شخصية الزعيم المتزن العادل وقد حفل التاريخ الإسلامى والعالمى بمثل هذه الشخصية وإن كانوا قلة حتى إن البعض ظن أن الحاكم العادل لا وجود له إلا فى الأنبياء فقط.

الاستقامة والقيادة:

ليس ضروريا لكى تكون إنساناً مستقيماً أن تكون نبيا أو صحابيا أو عالماً جليلاً، كلا الأب والأم والابن والأخت والطالب والدكتور والمهندس والمدير والموظف يجب أن يكون إنساناً مستقيماً لأن الله أمرنا بالاستقامة والعدل، بقوله: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** (هود: ١١٢).

والاستقامة ليست بالعبادات والطاعات فقط، فالاستقامة تشمل استقامة العبادات واستقامة الأخلاق واستقامة المعاملة مع الغير واستقامة الذات، فالقائد والزعيم والحاكم المستقيم هو العادل فى حكمه، والحاكم يأتى من صلاح شعبه، قال تعالى **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** (الرعد: ١١).

فالمجتمعات الصالحة يولى الله عليها الحكام والزعماء الصالحين.

والاستقامة والصلاح وحدهما ليستا الشروط الوحيدة للحكام الصالحين الراشدين وإنما هناك شروط أخرى، فقد جاء الصحابى (أبا ذر الغفارى) رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يوماً وقال له (ولنى) فرد عليه النبى ﷺ بمنتهى الحزم (يا أبا ذر إنك امرؤ ضعيف لا تولين على اثنين ولا تحكمن فى مال يتيم).

فهنا مع أن أبا ذر الغفارى رضي الله عنه كان يمتلك صفة الاستقامة بجدارة ولكن النبى ﷺ لم يوله.. لمَ؟

لأن فاقد الشىء لا يعطيه.. فطالما أنه ليس بمقدوره أن يتولى أمر اثنين فكيف له أن يتولى أمر جيش بأكمله؟

وهنا تتضح خبرة النبى الكريم ﷺ بأصحابه وبقدرات كل واحد منهم.

ولننظر بالمقابل إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه.. خالد رضي الله عنه عندما كان يصلى بالناس وهو قائد كان يقرأ صغار السور ويخطئ ويقول (شغلنى الجهاد عن القرآن) نعم توجد فيه صفات التقوى والورع والدين والعلم والثقة، لكنه فى جوانب العلم الشرعى لم يكن مبرزاً كالآخرين.

فالمعانى الشرعية التى برز فيها أبا ذر لم يبرز فيها خالد والعكس صحيح فالقضية هى قضية البحث عن معانٍ معينة عند البحث عن القائد.

ومن سمات القائد المتزن الصالح أمور منها وأولها المشاورة لقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨).

وأيضاً: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٩ ـ ٣٢).

ولا يجوز أن يتصرف القائد بتصرفات فردية دون مشاورة أو تفسير، لابد له أن يشاور ويستشير وأن لا يكون قائداً متسلطاً أو ديكتاتوريا.

مع المشاورة تستطيع أن تحصل على الحب والتقدير والثقة مع من حولك وإلا لكنت ديكتاتوريا فظا، ونجد ذلك واضحا فى تعامله ﷺ مع أصحابه فكان يستشير أبا بكر وعمر رضى الله عنهما دوما وكان يثق برأيهما وكان ﷺ يقول (لو اجتمعتما على رأى لن أخالفكما).

لثقته برأيهما أولا ولسبب ثان مهم وهو أن النبى ﷺ كان يعلم أن أبا بكر رضي الله عنه كان يميل إلى الرفق والحكمة والتدرج بينما عمر رضي الله عنه كان يميل إلى العنف والشدة والحزم والتغيير الجاد السريع.

فالنبى ﷺ يعلم أن لو اتفق الاثنان بالطرفين المتناقضين على رأى لا يمكن أن يخالفهما.

كان على رضي الله عنه يقول كثيرا كنت ما أرى الرسول عليه الصلاة والسلام قد انفرد بأبى بكر وعمر يذهب ويأتى مع أبى بكر وعمر، حياته معهما أهل شورى مستمرة وكلاهما ليس جنديا بل قائداً مميزاً.

فالشورى تحقق نتائج أفضل حتى لو كانت النتيجة هزيمة، ففى غزوة أحد شاور النبى ﷺ أصحابه فكان رأى الصحابة الخروج للحرب بينما كان رأى النبى

ﷺ المكوث فى المدينة، لكن الغالبية أرادت الخروج فخرج النبى ﷺ، فكانت النتيجة انكسار الجيش فى أحد وموت ٧٠ صحابيا، وعندما عاد النبى ﷺ للمدينة نزلت الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

حتى لو كانت النتيجة هزيمة إلا أن الشورى تحقق نتائج أفضل، وأين ما هو أفضل من منهج رسول الله للاتباع فهو القائد الأعظم.

الحكمة والقيادة الرشيدة:

ويشترط فى القائد الرشيد أن يكون من ذوى الحكمة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

لكى يصدر القائد الأوامر يجب أن يكون لديه المنهجية والقدرة العقلية والحكمة والذكاء والفطنة. ومعلومات دقيقة حتى يسير على منهج صحيح فى اتخاذ القرار ويزرع الثقة فى قراراته، وكلها صفات تجلت فى المصطفى ﷺ.

فكان النبى ﷺ من عادته أن يكثر من سرايا الاستطلاع قبل المعركة ويرسل مجموعات استخبارية يستطلع الأوضاع قبل أن يتصرف حتى يبنى قراراته على معلومات سليمة وكان أحياناً يذهب بنفسه لجمع المعلومات.

ففى إحدى الغزوات خرج النبى ﷺ مع أبى بكر رضى الله عنهما يتتبعون الآثار ويسألون من الرعاة.

وفى (غزوة بدر) يوم فرق الله بين الحق والباطل، سأل النبى ﷺ جاسوسا يعلم أحوال الكفار.

فى هذه الغزوة حدثت معجزة من الله عزوجل عندما قلل سبحانه الكفار فى أعين المؤمنين وقلل المؤمنين فى أعين الكفار يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (الأنفال: ٤٤).

فلما جاء هذا الجاسوس، وسأله النبى ﷺ كم عدد الكفار؟

فرد وقال حوالى مائة، وصلت المعلومات للقائد أن العدد مائة وجيش المسلمين ثلاثمائة، إذًا الوضع جيد ويستطيع الهجوم، ولكن لحرص النبى ﷺ للحصول على المعلومات الدقيقة وعدم الاكتفاء من معلومة واحدة، سأله كم يذبحون من الإبل؟

رد ما بين تسعة إلى عشرة من الجمال.

إذا هنا وصلت معلومتان إلى النبى القائد ﷺ.

الأولى تخمين عدد الكفار على أنه مائة.

الثانية عمليا من ذبح ما بين تسعة إلى عشرة من الإبل كل يوم.

فجمع النبى ﷺ قادة الجيش وقال مقولة عجيبة.. قال عدد الكفار ما بين التسعمائة والألف!!

فمن أين جاء النبى ﷺ بهذه المعلومة؟

رد عليهم هنا المسألة واضحة، إن معلومة المائة التخمينية غير واضحة بينما المعلومة ما بين تسعة إلى عشرة معلومة دقيقة، معروف أن البعير الواحد يكفى لتسعين إلى مائة شخص فإذا كانوا يذبحون ما بين تسعة إلى عشرة كل يوم إذا عددهم بين التسعمائة والألف إذا ضربنا عدد البعير بمائة شخص لكل بعير، عندها لا يمكن أن يكونوا مائة، لو كانوا مائة لذبحوا بعيرا واحدا ليس عشرة!!

النبى ﷺ يعلمنا على أن لا تكتفى بالمعلومات التى جاءتك بل دقق واحرص على أن تكون صحيحة.

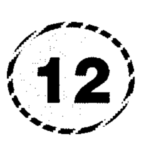
وكل هذه الأمور عن حسن حكمة القائد والزعيم الراشد وكذلك من سمات شخصيته الشجاعة وحسن تدبيره وتحفيزه لأتباعه ومعاونيه ورعيته، معنويا وماديا.

ومن كل ما سبق نجد أن الحجاج الثقفى قد جمع أكثر صفات وسمات القائد المستبد برأيه وجعل هدفه الأسمى استقرار الحكم فى بنى أمية وأن الخروج عليهم

هو الكفر بعينه وهكذا كان يقتل كل من يخرج عليهم دون رحمه أو شفقة، فهو بوصفه الرجل القوى فى دولة بنى أمية يمثل الخليفة أو أمير المؤمنين الذى أعطى له الصلاحيات التى لا تعطى إلا لزعيم أو ملك.

واستطاع الحجاج ببطشه أن يقضى على الخوارج والمعارضين لحكم بنى أمية طوال سنوات حكمه للعراقين عراق العرب وعراق العجم (بلاد فارس) وما وراء النهر.

■■■



شخصيات وفتوحات فى حياة الحجاج الثقفى

- الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان والفرصة الحقيقية لظهور الحجاج.
- الخليفة الوليد بن عبد الملك.
- المهلب بن أبى صُفرة وقتال الخوارج والفتوحات الإسلامية.
- قتيبة بن مسلم الباهلى والفتوحات الإسلامية فى بلاد آسيا الوسطى فى القرن الأول الهجرى ونهاية مؤلمة.
- محمد بن القاسم الثقفى وفتوحات السند والصين ونهاية مأساوية.

الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان والفرصة الحقيقية لظهور الحجاج الثقفى

ظهر عبد الملك الأموى وريثاً لأبيه مروان بن الحكم فى قيادة بنى أمية لاستعادة ملكها الذى ذهب أدراج الرياح بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الذى تولى الخلافة فترة لا تتجاوز الأربعين يوماً مريضاً فى قصر الخلافة ثم توفى فى ريعان شبابه ولم يوص لأحد من بعده بالخلافة على عادة الملوك والخلفاء.

ذهب الحكم والملك من بنى أمية بعد المبايعة التى حصل عليها عبد الله بن الزبير بن العوام من الأمصار شرقاً وغرباً فى الحجاز والعراق وبلاد فارس والشام ومصر فبايع بنو أمية كبيرهم مروان بن الحكم ليتولى الحكم فى الشام وليسترد ما ضاع من ملك بنى أمية إلا أن الوقت لم يمهله فقد توفى بعد أشهر قليلة من مبايعته كما ذكرنا وتولى المسؤلية من بعده ابنه عبد الملك الذى استكمل مشوار أبيه الذى لم يستطع استرداد الميراث الكبير لبنى أمية حيث أعاد مصر لحكم الأمويين ومعظم بلاد الشام.

وقام عبد الملك بقيادة الجيوش الشامية لقتال الخليفة ابن الزبير واستطاع بذكائه وقدراته العسكريه استرداد العراق ثم خراسان وبلاد فارس ولم يبق لابن الزبير سوى الحجاز فأرسل إليه الحجاج الثقفى فانتزعها منه.

ثم أعطى عبد الملك الفرصة للحجاج الثقفى فى الظهور على مسرح الحياة السياسية فى ذلك القرن الهجرى الأول بعدما ولاه مكة والمدينة واليمن ثم ولاه العراقين العراق العربى والعراق الفارسى قرابة العشرين عاماً وأوصى ابنه الوليد أن يتمسك بالحجاج من بعده.

فمن هو عبد الملك بن مروان الذى كان السبب الرئيسى والمباشر فى ظهور

الحجاج وشجعه على حكمه فكان سوطه وسيفه الذى قطع به رقاب معارضيه ومناوئيه فى الحكم والخلافة(1).

عبد الملك بن مروان بن الحكم هو خامس خلفاء بنى أمية وقد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه مروان بن الحكم فى عام ٢٦ هـ - ٦٤٦ م وظل فى الخلافة حتى وفاته فى عام ٨٦ هـ - ٧٠٥ م.

كان واسع العلم متعبداً شجاعاً قويا أعاد حكم بنى أمية وازدهرت دولته وكانت دمشق فى عصره عاصمة العالم الإسلامى.

ولد عبد الملك بالمدينة وتربى فيها ودرس العلوم الشرعية بها على يد علمائها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بها أيضاً وأصبح من المفكرين والفقهاء وكان شاعراً وخطيباً.

كان الأمويون عندما عقدوا «مؤتمر الجابية» لمبايعة مروان بن الحكم قد اتفقوا على أن يخلفه: «خالد بن يزيد بن معاوية» ثم «سعيد بن العاص» من بعده.

غير أن «مروان بن الحكم» نقض ذلك العهد وعهد بالخلافة لابنه «عبد الملك» ومن بعده ابنه عبد العزيز» وراح يصرف الأنظار عن «خالد بن يزيد» الذى كان شابا محدود الخبرات فى الإدارة.

نجح عبد الملك بن مروان فى ضبط الأمور، والقضاء على الفتن، فانتشل الدولة من الفوضى التى وصلت إليها، وأعاد الأمن والاستقرار إلى ربوعها.

لقد ظهر بالكوفة المختار بن عبيد الله الثقفى، وجمع من حوله شيعة على - رضي الله عنه -، وراح يتتبع قتلة الحسين هنا وهناك وقتل منهم الكثير وعلى رأسهم

(1) كان خلفاء بنى أمية فى دمشق أربعة عشر خليفة هم:

١ - معاوية بن أبى سفيان. ٢ - يزيد بن معاوية. ٣ - معاوية بن يزيد. ٤ - مروان بن الحكم ثم الخلفاء بعده من نسله: ٥ - عبد الملك بن مروان. ٦ - الوليد بن عبد الملك. ٧ - سليمان بن عبد الملك. ٨ - عمر بن عبد العزيز. ٩ - يزيد بن عبد الملك. ١٠ - هشام بن عبد الملك. ١١ - الوليد بن يزيد. ١٢ - يزيد بن الوليد. ١٣ - إبراهيم بن الوليد. ١٤ - مروان بن محمد.

وكانت فترة حكمهم من عام ٦١١ م حتى عام ٧٥٠ م. انتهت بهزيمتهم من العباسيين ثم إقامة دولة أخرى لهم فى الأندلس.

أمير الجيش الذى حارب الحسين «عمر بن سعد بن أبى وقاص»، وقتل «عبيد الله ابن زياد» أمير العراق الأموى، وشتت جيشاً قوامه (٤٠) ألفاً، كما قتل «الحصين بن نمير» واستولى على الموصل، وراح يدعو لمحمد ابن الحنفية ابن الإمام على كرم الله وجهه، ويناديه بالإمام المهدى المنتظر.

وفى سنة ٧٠ هـ/ ٦٩٠ م خرج عبد الملك بن مروان إلى العراق لأخذها من الزبيريين، ودارت بينه وبين مصعب عدة معارك، تمكن «عبد الملك بن مروان» من القضاء على «مصعب بن الزبير» فى معركة «دير الجاثليق» وكان ذلك سنة ٧١ هـ/ ٦٩١ م وقيل: سنة ٧٢ هـ/ ٦٩٢م. ودخل «الكوفة» معقل الزبيريين، وأخذ البيعة من أهلها لنفسه، وولَّى أخاه بشر بن مروان عليها.

ولم يبق إلا الحجاز يسيطر عليه عبد الله بن الزبير من مكة، فأمر عبد الملك بن مروان «الحجاج بن يوسف الثقفى» ـ الذى يمكن أن يتخذ من الطائف مسقط رأسه قاعدة لعملياته الحربية ـ أن يتصدى لعبد الله بن الزبير المتحصن بمكة المكرمة.

وتحرك جيش الحجاج من الطائف إلى مكة فحاصرها كما فعل الحصين بن نمير من قبل، وقذف ابن الزبير بالمنجنيق، وظل يضيق على ابن الزبير وأنصاره الخناق حتى تفرق عنه معظم أنصاره، لكن ابن الزبير ظل يقاوم رافضاً أن يستسلم حتى قتل سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٣ م، وكانت خلافته تسع سنين.

وبمقتل ابن الزبير دخلت الحجاز من جديد تحت حكم بنى أمية، وكوفئ الحجاج بأن ظل والياً على الحجاز من قبل عبد الملك بن مروان حتى سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٥م.

ثم عزله وولاه العراق ثم خراسان وبلاد ما وراء النهر.

وتصدى الحجاج لثورات الخوارج وغيرهم كما ذكرنا حتى استقر الأمر للأمويين فى بلاد العراق.

وكان الحجاج شديداً عنيفاً، فراح يواجه عدة ثورات كانت إحداها بقيادة «عبد الرحمن بن الأشعث».

وتدور معارك شرسة مثل «دير الجماجم» بين الجيش الأموى وبين جيش

ابن الأشعث، يتبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة، وتستمر سجالا بينهما فى أكثر من ثمانين موقعة، تدور الدائرة بعدها على ابن الأشعث، فيهرب إلى بلاد الهند. ولكن الحجاج يرسل من يلاحقه ويتابعه حتى يأتى إليه برأسه فى الكوفة.

وهكذا استطاع الحجاج إخضاع بلاد العراق وما والاها من بلاد المشرق لسلطان عبد الملك بن مروان، وبهذا توطدت دعائم الدولة فى عهده، وانتشر الأمن فى البلاد، ويتفرغ عبد الملك لجانب من الإصلاح الداخلى، فيصدر أمره بصك الدنانير الإسلامية، عليها شهادة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله بسم الله، فكان أول من ضرب الدنانير والدراهم الإسلامية، لتحل محل العملة البيزنطية فيتحقق للدولة استقلالها المالى والاقتصادى.

وأصدر أمره بجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية التى تكتب بها الدواوين فى أرجاء الدولة، وينفذ ابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان والى مصر هذه التعليمات، حيث كانت مصر ما تزال تكتب باللغة القبطية، بما أدى إلى انتشار اللغة العربية لغة القرآن والحديث.

وبعد أن استقرت الدولة فى الداخل، وتم القضاء على الفتن والثورات، راح عبد الملك يواصل ما بدأه السابقون من الفتوحات، ويعمل على تأمين الحدود التى تعرضت للإغارة والمهاجمة والاستيلاء على بعضها من جانب الروم، منذ أن أصدر معاوية أمره إلى الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية بالعودة إلى البلاد.

وتمكن عبد الملك من استرداد الثغور الإسلامية، وإخضاع أرمينية، وسواحل سورية، وكثيرا من الثغور الإسلامية، وفتح عددا من حصون الروم منها: «مرعش» و«عمورية» و«أنطاكية»، وأظهر للروم أن الدولة الإسلامية باقية، وقوية لا يستهان بها.

وما كاد عام ٦٢ هـ/ ٦٨٢ م يأتى حتى صدر الأمر بأن يتولى «عقبة بن نافع» إفريقية للمرة الثانية، ليواصل حروبه وفتوحاته، ويتمكن من فتح الجزائر، ويتوغل نحو بلاد «السوس» فى المغرب الأقصى.

وكان عقبة فى عهد معاوية قد انطلق بجيوشه إلى إفريقية واستولى عليها

واختار «القيروان» قاعدة له، ولكن بعد الانتهاء من بناء القيروان صدر قرار بتعديل القيادة العليا بالميدان الإفريقى سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥ م.

فقد استعمل معاوية بن أبى سفيان مسلمة بن مخلد على مصر وإفريقية، فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له «أبو المهاجر» فلما وصلها عزل عقبة.

وكان معاوية يهدف من ذلك إلى مواجهة الإمبراطورية البيزنطية صاحبة السيادة إذ ذاك على شمال إفريقية، ومحاولاتها إيقاف الزحف الإسلامى المنتظر من القيروان.

واستطاع «أبو المهاجر دينار» أن يفسد خطط البيزنطيين باكتساب البربر إليه، ونشر الإسلام بينهم.

وتجلَّى نجاح هذا القائد حين اكتسب إلى صفوفه زعيم قبيلة البربر وهو «كسيلة» فدعاه إلى الإسلام، فأسلم وترتب على ذلك انتشار الإسلام بين كثير من البربر، فراحوا يتفهمون حقيقة الإسلام، ويقبلون عليه، وراح الفتح الإسلامى فى شمال إفريقية يمتد وينتشر.

ولكن الفتوحات الإسلامية تتعرض لأول نكسة خطيرة لها لعدم معرفة نتيجة السلطة المركزية فى دمشق بالتطورات التى طرأت على السياسة البيزنطية فى تلك البلاد.

فعندما أعادت السلطات «عقبة بن نافع» سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٢ م إلى القيادة العليا للميدان الإفريقى، ووصل إلى «القيروان» قاعدته الحربية التى أنشأها من قبل، انطلق منها لممارسة المهمة التى عين ثانية من أجلها، بل إن عقبة لما عاد إلى ولاية إفريقية جازى المهاجر عما فعله به عندما عزله سنة ٥٥ هـ، فقبض عليه وأوثقه فى الحديد، وخرج به مكبلا فى زحف خاطف، وصل به إلى ساحل المحيط الأطلسى.

وعند ذلك النهر الذى تقوم عليه مدينة مراكش اليوم أدخل عقبة بن نافع فرسه فى المحيط وراح يرفع رأسه فى عزة المؤمن، وتواضع المعترف بفضل الله عليه قائلاً: «اللهم فاشهد أنى لو كنت أعلم وراء هذا البحر أرضاً لخضته غازياً فى سبيلك».

لكن عقبة فاته أن يستمع إلى أبى المهاجر ونصائحه حول البيزنطيين وسياستهم ولجوئهم إلى أسلوب الغدر والخديعة والمكر والخيانة، فقد انتظروا حتى عاد قاصداً القيروان، وكان يسير فى مؤخرة جيشه، وأعدوا له كميناً وهو فى طريق العودة بالتعاون مع كسيلة - الزعيم البربرى - الذى تحالف مع الروم، وادعى أن عقبة قد عزم على تأديب البربر، لأنه أساء الظن فى حقيقة إسلامهم.

والتقى الجميع فى معركة «تهوذة» عام ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م، وأحاطت قوات البزنطيين بعقبة بن نافع وراح «أبو المهاجر» يدافع عنه دفاع الأبطال ولكنهم تمكنوا من قتله، واستشهد عقبة ولحق بالرفيق الأعلى.

وبعثت الخلافة الأموية بجيوش جرارة على رأسها قائد من خيرة قادتها هو «حسان بن النهمان» الذى عمل على تحرير شمال إفريقية تماماً من البيزنطيين، والقضاء على أساليبهم الغادرة.

دخل حسان القيروان سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٤م، وبادر بالزحف على «قرطاجة»، وهى أكبر قاعدة للبيزنطيين فى إفريقية «تونس الحالية» ودمرها تماماً، ثم طارد فلول الروم والبربر، وهزمهم فى «صطفورة» و«بنزرت» ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا دخله بجنوده، ثم عاد «حسان» إلى القيروان، فأقام بها حتى استراح الجيش وضمدت جراح المصابين.

واضطر حسان إلى اتخاذ مراكزه فى «برقة» حتى جاءته الإمدادات من مصر سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م، فخرج بالجيوش لملاقاة جيوش البربر بقيادة امرأة منهم تدعى الكاهنة، واستطاع الانتصار على البربر، وأعاد القيروان إلى حصن الإمبراطورية الإسلامية.

وأخذ حسان يعمل بعد ذلك على تدعيم الفتوحات الإسلامية بشمال إفريقية، فأسس قاعدة بحرية إسلامية باسم «تونس».

واستعان بعمال مصر وخبرتهم فى بناء تلك القاعدة، ثم أقبل حسان على إفساد خطط البيزنطيين، وراح يعمل للقضاء على مكرهم وألاعيبهم. فحبب

الإسلام وزينه فى قلوب أبناء الكاهنة، ثم قربهم إليه، وجعلهم فى الرئاسة العليا على أبناء قبيلتهم، مبيناً لهم أن العزة لله ولرسوله وللمسلمين، وأن الإسلام يستهدف عزة أبناء إفريقية وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهكذا عادت إفريقية إلى الإسلام والمسلمين.

وعلى الجانب الآخر، فى خراسان، تابع «المهلب بن أبى صُفرة» أمر الفتوح فى تلك البلاد بعد أن أسند إليه الحجاج ولايتها.

لقد فتح خُجَنْدة وغزا «كَشّ» سنة ٨٠ هـ/ ٦٩٩ م، واتخذها مركز القيادة، وأرسل منها أولاده لغزو كثير من البلاد، لكنه مات فى شهر ذى الحجة على مقربة من «مرو» وتولى ابنه يزيد بعد أبيه، فاستهل عهده بغزو «خوارزم».

ويأتى عام ٨٥ هـ فيتولى «المفضل بن أبى صفرة» أمر خراسان ويفتح «باذغيش» و«أخرون» و«شومان».

لكن الحجاج سعى بآل المهلب لدى عبد الملك حتى لا يولى منهم أحداً، واتهمهم بأنهم كانوا من أتباع عبد الله بن الزبير، وأشار على «عبد الملك» بأن يولى قتيبة بن مسلم الباهلى على خراسان، وهو من باهلة التى تنتمى إلى قيس، وبذلك يستطيع أن يجذب إليه القيسيين فى خراسان.

ووصل قتيبة بن مسلم إلى «مرو» فى نهاية سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م.

ولكنه لم يستقر فى خراسان طويلاً حتى جاء الأخبار بوفاة عبد الملك بن مروان فى عام ٨٦ هـ ـ ٧٠٥ م وتولية ابنه الوليد من بعده.

■ ■ ■

الحجاج فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ٩٦ هـ/ ٧٠٥ـ٧١٤ م)

حين توفى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م خلفه ابنه الوليد، وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة، وبويع له بها يوم وفاة أبيه.

وكان عهده، عهد فتح ويسر وخير للمسلمين، لقد اتسعت فى أيامه رقعة الدولة الأموية شرقاً وغرباً، فعندما تولى الوليد الحكم استعمل عمه عبد الله بن مروان على إفريقية، فعزل حساناً واستعمل بدلا منه موسى بن نصير عام ٨٩ هـ، فكان شديداً وصارماً على البربر الذين طمعوا فى إفريقية بعد مسير حسان عنها فوجه إليهم ابنه عبد الله، فقتل وسبى منهم خلقاً كثيراً، وتوجه إلى جزيرة «مايوركا»، فاقتحمها وسبى أهلها.

وتوجه إلى طائفة أخرى من البربر، فأكثر فيهم القتل والسبى، حتى بلغ الخُمس «ستين ألفاً من السبى»، فلم يكن سبى أعظم منه، ثم خرج غازياً طنجة يريد من بها من البربر، فانهزموا خوفاً منه، فتبعهم وقتلهم.

واستأمن من بقى منهم، ودخلوا فى طاعته، وترك عليهم وعلى طنجة مولاه «طارق بن زياد» وأبقى معه جيشاً أكثره من البربر، وترك معهم من يعلمهم القرآن والفرائض، حينئذ لم يبق له فى إفريقية من ينازعه.

ورأى الوليد أن أهم ما يجب عمله تقوية الأسطول الإسلامى وضرب قواعد البيزنطيين فى صقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط المقابلة لإفريقية، لكى يدعم هذا الوضع المستقر للمسلمين فى الشمال الإفريقى الذى أصبح جزءاً من الدولة الإسلامية.

دخلت الفتوح الأموية فى شمال إفريقية مرحلتها الختامية سنة ٨٩ هـ/ ٧٠٨ م

بتولى إمارة القيروان موسى بن نصير خلفاً لحسان بن النعمان.

الذى أجاد التنسيق بين الأساطيل الإسلامية فى غرب البحر المتوسط، وبين قواته البرية، وفتح الأجزاء النائية، وهى التى تعرف باسم المغرب الأقصى، وطرد البيزنطيين من قواعدهم البحرية القريبة من سواحل إفريقية «تونس»، وعندئذ أصبح شمال إفريقية الجناح الأيسر للدولة الإسلامية فى عهد الأمويين.

وقد عهد موسى بن نصير إلى طارق بن زياد بالقيادة العليا للقوات الإسلامية، وهو من أبناء البربر المسلمين فى مدينة «طنجة».

وجاءت هذه الخطوة من جانب موسى بن نصير، دليلاً على تطبيق مبدأ المساواة فى الإسلام، فقد رأى البربر أن أحد أبناء إحدى القبائل البربرية صار القائد العام لجبهة المغرب الأقصى.

وكان من نتيجة هذا العمل أن أتاح للدين الإسلامى الحنيف دماء جديدة هيأت له الانطلاق إلى فتح الأندلس.

عام ٩١ هـ/ ٧١٠م، استشار موسى بن نصير الخليفة الوليد ين عبد الملك، فى فتح الأندلس «أسبانيا»، وعلى إثر الموافقة أرسل موسى سرية استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وكان من البربر، فشن غارة على جنوب أسبانيا، ومعه أربعمائة مقاتل ومائة فرس.

واستطاع أن يتوغل بهم فى الجزيرة الخضراء، ويعود إلى ساحل إفريقية حاملا الكثير من الغنائم، وكان ذلك فى رمضان سنة ٩١ هـ/ ٧١٠ م.

وشجع نجاح طريف فى تلك الغزوة القائد الأعلى موسى بن نصير على التقدم لفتح الأندلس (أسبانيا)، ووقع اختياره على والى طنجة وقائد جيشه طارق ابن زياد ليتولى مهمة هذا الفتح العظيم.

وفى شهر رجب ٩٢ هـ/ ٧١١ م قام طارق بن زياد ومعه جيش مكون من سبعة آلاف مقاتل بعبور المضيق الذى عرف باسمه، ونجحت عملية العبور، واحتل المسلمون الجبل بكامله.

جمع طارق قواته بعد العبور عند هذه الصخرة من جنوب البلاد وهى التى نسبت إليه وعرفت باسم «جبل طارق»، وها هو ذا يندفع بقواته كالسهم، لا يقف فى طريقه شىء، ولقد حاول ملك أسبانيا «لذريق» أن يوقف هذا الزحف بجيش جرار قوامه مائة ألف، ولكن طارق بن زياد كان قد طلب المدد من قائده موسى بن نصير فأمده بخمسة آلاف حتى أصبح عدد جنده اثنى عشر ألفاً.

واندفع طارق بكل إيمان زاحفاً على القوط ـ حكام شبه جزيرة أسبانيا ـ، وأنزل بهم هزيمة فادحة فى موقعة رمضانية على نهر لكة «وادى لكة» بمقاطعة «شَذُونة»، وراح يواصل فتوحاته بعد أن قتل «لذريق»، فأوقع بالقوط الهزيمة الثانية عند مدينة «إسْتِجَة»، فألقى الله الرعب فى قلوب أعدائه، ففزعوا منه فزعاً شديداً، وظنوا أنه سيفعل بهم فعل سلفه، «طريف بن مالك»، وكان طريف قد أوهمهم أنه سيأكلهم، هو ومن معه، فهربوا منه إلى طليطلة.

قرر طارق وهو فى مدينة إستجة أن يفرق جيشه ويوجهه إلى جهات شتى، إلى «قرطبة»، فدخلها واستولى عليها، وتلك فرقة من الجيش وصلت إلى مدينة «غرناطة»، فدخلتها وملكتها، وفرقة من الجيش تقتحم مدينة «تُدْمير» فيضطر أهلها إلى مصالحتها.

وسار طارق ومعه معظم الجيش إلى مدينة «جيان» يريد «طليطلة» فهرب أهلها وتركوا له المدينة خالية.

واستمر زحف طارق وانتصاراته حتى «جِلِّقية» فى أقصى الشمال الغربى من الأندلس، ثم عاد من هناك، وعادت جيوشه إلى «طليطلة» فى سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م.

وخشى «موسى بن نصير» أن تقطع على الجيش الإسلامى خطوط المواصلات، ويحال بينه وبين قواعده التى انطلق منها، ويقوم العدو بالانقضاض عليه ومحاصرته، والقضاء عليه، فيسرع بإصدار أوامره إلى طارق أن ينتظره فى «طليطلة» حتى يسعى إليه بنفسه هو، ويؤمن خطوطه الخلفية ويلحق به.

وعَبَرَ موسى بقواته إلى الأندلس، مستهدفاً تطهير الجيوب التى خلفها طارق

وراءه، من هنا كان على موسى أن يقوم بتأمين مؤخرة الجيش الفاتح، فافتتح مدناً وحصوناً كان بقاؤها بيد الأسبان خطراً على الوجود الإسلامى الجديد بشبه الجزيرة حتى وصل إلى «طليطلة»، وهناك التقى بجيش طارق بن زياد، وقد استغرق ذلك من موسى جهداً ووقتاً حتى وصل إليه.

وهناك فى طليطلة التقى القائدان طارق وموسى، وراحا ينسقان الفتوح الباقية ببلاد الأندلس فيما بينهما.

وسارا معاً حتى بلغا «سرقسطة» على نهر «الإبرو»، ومن هناك سار طارق إلى الشمال حتى بلغ جبال «ألبرت» أى الأبواب، وهى التى تسمى اليوم جبال البرانس ووقف على أبواب فرنسا. وكان ذلك فتحاً عظيماً، أن ترفرف راية الإسلام، وتقف على أبواب فرنسا فى أقل من مائة عام من هجرة الرسول.

وبينما كان طارق بن زياد يقف على أبواب «فرنسا»، كان موسى يتجه غرباً حتى دخل ذلك الإقليم الذى يطل على خليج «بسكاية» ويسمى «أشتوريس» وانتهى بفتوحاته أخيراً على ساحل «بسكاية».

واستدعى الخليفة الوليد كلا من موسى وطارق إلى دمشق سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م.

وكان موسى بن نصير قد أرسل الأسطول الإسلامى لفتح جزيرة «سردينيا» فافتتحوها عنوة، وعادوا بالسبايا والغنائم سنة ٩٢ هـ.

■■■

الفتوحات الإسلامية فى عهد عبد الملك والوليد فى بلاد الروم

فى أواخر عام ٧٣ هـ شعر عبد الملك أن الدولة استعادت قوتها، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلى إرادتها، وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الإسلامية فى هذه الفترة، وأخذ الروم يتأهبون للانتقاض فكان عبد الملك لهم بالمرصاد وقد أحكم إعداده، فعين أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينية ليكون القائد فى هذه الجبهة.

ومنع عبد الملك إرسال النقود التى كانت يدفعها وقت الضرورة فأثار هذه حنق الأمبراطور الرومانى البيزنطى، فأعلن الحرب، وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية، فلاقاه محمد بن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة وفر الإمبراطور بنفسه وانفض عنه أكثر جنوده وكان ذلك عام ٧٤ هـ.

فزعزعت هذه الوقعة الدولة البيزنطية، واستغل عبد الملك هذا النصر وواصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحدود وانتظمت غزوات الصوائف والشواتى وشرع فى التوغل داخل الأراضى البيزنطية القريبة فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضى يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بنى أمية. وفى عام ٨١ هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك ففتح «قاليقالا» وهى إحدى مدن الروم الكبيرة.

وفى عام ٨٤ هـ تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية، داخل دولة الروم فى آسيا الصغرى، وهى مدينة «المصيصة» فبنى حصنها، ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس، ولم يكن المسلمون يسكنونها من قبل وبنى مسجدها.

وهكذا اندفعت قوة المسلمين إلى الأمام، تفتح المعاقل وتستولى على الحصون داخل أرض العدو فى دولة الروم، منذ تحققت الوحدة فى عهد عبد الملك.

ولقد أثبت عبد الملك بعد إعادة الوحدة السياسية أن الدولة قوتها الموحدة قادرة على التفوق وإحراز السيادة، وتحقيق النصر على البيزنطيين، وأن قوتها الموحدة قادرة على الاندفاع فى الجبهات كافة، واستمرت الجيوش الإسلامية فى جهادها طوال مدة الوليد ثم سليمان.

وقد برز مسلمة بن عبد الملك فى تلك الحروب كقائد فذ ومقاتل عظيم، فكان فى كل سنة يفتح بلداً أو حصناً من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لتأمين سلامة بلادهم والمحافظة عليها من غارات الأعداء، وكان يغزو معه هذه الغزوات - فى عهد الوليد - ففتح هذه الفتوح العباس بن الوليد بن عبد الملك ومن الحصون التى فتحها: حصن عمورية وهرقلية وقمونية، وحصن طوانة وسمطية والمرزبانين وطروس، وكثير غير هذه الحصون(١).

ففى جماد الآخرة سنة ٨٨ هـ - ٧٠٧ م فتح مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد حصن طوانة وشتوا بها، وهزم المسلمون الأعداء حتى صاروا إلى كنيستهم ثم رجعوا فانهزم الناس، وبقى العباس ومعه نفر، منهم ابن محيريز الجُمحى، فقال العباس لابن محيرز: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟

فقال ابن محيريز: نادهم يأتوك.

فنادى العباس: يا أهل القرآن، فأقبلوا جميعاً فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة.

وهكذا لا تمر سنة وإلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم.

والجدير بالذكر أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموى، أولاد الخليفة الوليد نفسه وأخوه مسلمة الذى لم يكد يتخلف سنة واحدة عن غزو أرض الروم.

---

(١) انظر تاريخ الطبرى والبداية والنهاية.

فقد كان مسلمة هو الذى قاد الجيش الذى حاصر القسطنطينية الحصار الأخير فى عهد سليمان.

أما بلاد ما وراء النهر فقد تولى «قتيبة بن مسلم» خراسان سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م واتخذ من «مرو» قاعدة له، ثم فتح بلاد النهر ـ المعروف بنهر جيحون ـ ودخل المسلمون بلاداً عديدة، سرعان ما دخلت فى دين الإسلام ودافعت عنه مثل «الصفد» و«طخارستان» و«الشاش» و«فرغانة» فى نحو عشر سنين.

وأنهى أعماله الحربية بفتح «كاشغر» فى «التركستان» الصينية سنة ٩٦ هـ/ ٧٥١ م، وصارت الدولة الإسلامية بذلك تجاور حدود الصين.

ثم كان فتح بلاد الهند أيضاً فى عهد الوليد بن عبد الملك بعد أن فتح المسلمون بلاد «فارس» و«خراسان» و«سجستان»، وكانت غايتهم نشر الإسلام، وحماية الحدود الجنوبية للدولة الإسلامية.

فقد كلف الوليد بن عبد الملك «محمد بن القاسم» مهمة غزو بلاد الهند.

وسار محمد بن القاسم إلى الهند سنة ٨٩ هـ/ ٧٠٨ م وفتح ثغر الديبل (إحدى مدن الساحل الغربى للهند)، ثم سار عنه وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر النهر، فصالحه أهل «سربيدس» وفتح «سهبان».

ثم سار إلى لقاء «داهر» ملك السند والهند، وكان لقاء فريداً، إن «داهر» وجنوده يقاتلون على ظهور الفيلة، والفيلة عندما تستثار تكتسح كل ما أمامها وتدوسه.

ودارت معركة حامية كتب الله فيها النصر لراية الإسلام، وهزم «محمد بن القاسم» الملك «داهر» وقتله، وراح محمد بن القاسم يتقدم، ويمد فتوحاته فى كافة أرجاء بلاد السند، حتى وصل إلى «الملتان» ودخلها وغنم منها مغانم كثيرة.

وتوفى الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م بعد أن رفعت راية الإسلام فى عهده على حدود فرنسا والصين وفى خراسان وسجستان والسند، وبلاد الهند.

واتسعت الدولة فى عهده اتساعاً كبيراً.

ولا ننسى أن نذكر أنه قد قام ببناء المسجد الأقصى كما بنى أبوه عبد الملك مسجد قبة الصخرة، ومن آثار الوليد فى العمارة الجامع الأموى وقام بعمارة المسجد النبوى.

وكان أول من قام ببناء المستشفيات فى الإسلام لعلاج المجذومين بالمجان وقدم المعونة والمساعدة للمحتاجين لكل رعايا الدولة من المسلمين وغيرهم.

وكانت وفاته بعد حزنه على وفاة الحجاج بأشهر حيث إنه حزن على وفاة الحجاج كثيراً.

وقد استعان الوليد بن عبد الملك بالحجاج بن يوسف الثقفى، لإقرار الأمن فى شرق العالم الإسلامى، وتوسيع رقعته، وكان الوليد يعرف فضله ومكانته فتمسك به، وأطلق يده فى شئون المشرق الإسلامى الذى كان منبع الثورات فى العصر الأموى، ولم تهدأ أحوال المشرق، وتسكن ثوراته إلا على يد الحجاج الثقفى.

وكان له الفضل الأكبر فى استقرار دولة عبد الملك بن مروان، وكانت وصية عبد الملك لأبنائه فى مرض موته: أكرموا الحجاج، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر.

وكان الحجاج مخلصاً لدولة بنى أمية، لم يأل جهدا فى توطيد سلطانهم وفى إقرار الأمن، والقيام بالإصلاحات، فلم يكن قائداً عسكريا بصيراً بأساليب الحرب والسياسة فحسب، بل كان إداريا حازماً ومصلحاً ماليا، فلما هدأت الفتنة واستقرت الأحوال انتقل الحجاج إلى ميادين جديدة من الإصلاح والتعمير، فاستكمل الحجاج فى عهد الوليد بن عبد الملك الفتوحات الإسلامية فى الجناح الشرقى للدولة، وعمل على إنعاش البلاد التى أنهكتها الحروب والثورات، فاهتم بإصلاح القنوات التى تخرج من دجلة والفرات، وأعاد فتح القنوات القديمة التى رُدمت، وشق قنوات جديدة، وعنى بإصلاح السدود، وتجفيف المستنقعات، وإحياء الأرض البور.

شهد عصر الوليد بن عبد الملك أعظم حركة للفتوحات الإسلامية فى الدولة الأموية، فبسط المسلمون أيديهم على أكبر بقعة من العالم القديم المعروف آنذاك،

واتسعت دولتهم على نحو لم تشهده من قبل، وبرز فى عهده عدد من القادة الأكفاء الذين اتسموا بالقدرة العسكرية والمهارة الحربية وعُرفوا بالشجاعة والتضحية، فقاموا بعبء هذه الفتوحات وأعادوا للأذهان ذكرى الفتوحات التى تمت فى عهد الخلفاء الراشدين.

ففى الجناح الشرقى للدولة حمل الحجاج الثقفى أهل العراق على الاشتراك فى جيش «قتيبة بن مسلم الباهلى» لفتح بلاد ما وراء النهر، واستغرقت جهوده فى الفتح عشر سنوات (٨٦ ـ ٩٦ هـ = ٧٠٥ ـ ٧١٤ م)، فتح خلالها بخارى وسمرقند ووصل إلى إقليم كاشغر الذى يلامس حدود الصين.

وأرسل الحجاج ابن عمه محمد بن القاسم الثقفى لفتح إقليم السند فى شبه القارة الهندية سنة (٨٩ هـ = ٧٠٧ م)، وكان دون العشرين من عمره، لكنه كان قائداً عظيماً، نجح فى مهمته، وبسط سلطان الدولة فى هذه البقاع، وفتح مدينة الديبل، وهى تبعد نحو ٤٥ ميلا شرقى جنوب كراتشى فى باكستان، وامتدت فتوحاته إلى ملتان فى جنوب إقليم البنجاب.

■■■

محاولات فتح سجستان
فى عهد عبد الملك

ولى الخليفة عبد الملك أمية بن عبد الملك بن خالد بن أسيد بن أبى العيص فوجه هذا ابنه عبد الله فصالحه رُتبيل القائم على ثلاثمائة ألف درهم، ولما بلغ الخليفة ذلك عزله، ثم ولى الحجاج عام ٧٨ هـ عبيد الله بن أبى بكرة فلبث سنة بلا غزو، وفى السنة التالية تحرك لمناجزة رتبيل الذى كان مصالحاً، ولكنه يؤدى الخراج حيناً ويمنع حيناً آخر.

فقام عبيد الله بن أبى بكرة عام ٧٩ هـ، ومضى إليه غازياً حتى دخل بلاده، فأصاب منها الغنائم وهدم الحصون وغلب على أرض من أرضيهم وهرب أتباع رُتبيل من الترك أمام جحافل المسلمين، حتى اقتربوا من عاصمتهم كابل، فأخذ الترك على المسلمين الشعاب والمسالك، فسقط فى أيدى المسلمين حتى شعر الجنود المسلمون بالضيق والهلاك، مما دفع عبيد الله بن أبى بكرة إلى مصالحة رُتبيل ليمكن المسلمين الخروج من أرض الترك سالمين، وكان بين المقاتلين أحد الزهاد ممن يعشق الجهاد، ويعرف باسم شريح بن هانىء.

فقام شريح ودعا الجنود إلى الاستمرار فى القتال لطلب الشهادة ومما جاء فى دعوته: يا أهل الإسلام، من أراد منكم الشهادة فإلى: فاتبعه أناس من المتطوعة وفرسان الناس؛ وأهل الحفاظ فقاتلوا الترك حتى أصيبوا إلا قليلا، وعادوا من بلاد رُتبيل فاستقبلهم الناس بالأطعمة.

ولم تحقق هذه الغزوة أهدافها العسكرية مما دفع الحجاج إلى استئذان الخليفة عبد الملك بإرسال جيش جديد، يعيد للدولة هيبتها ومكانتها.

فأعد الحجاج فى عام ٨٠ هـ جيشاً قويا من أهل الكوفة بلغ عدد عسكره أربعين ألفاً، عشرين ألفاً من الكوفة ومثلهم من البصرة وتشجيعاً للجنود ورفعاً

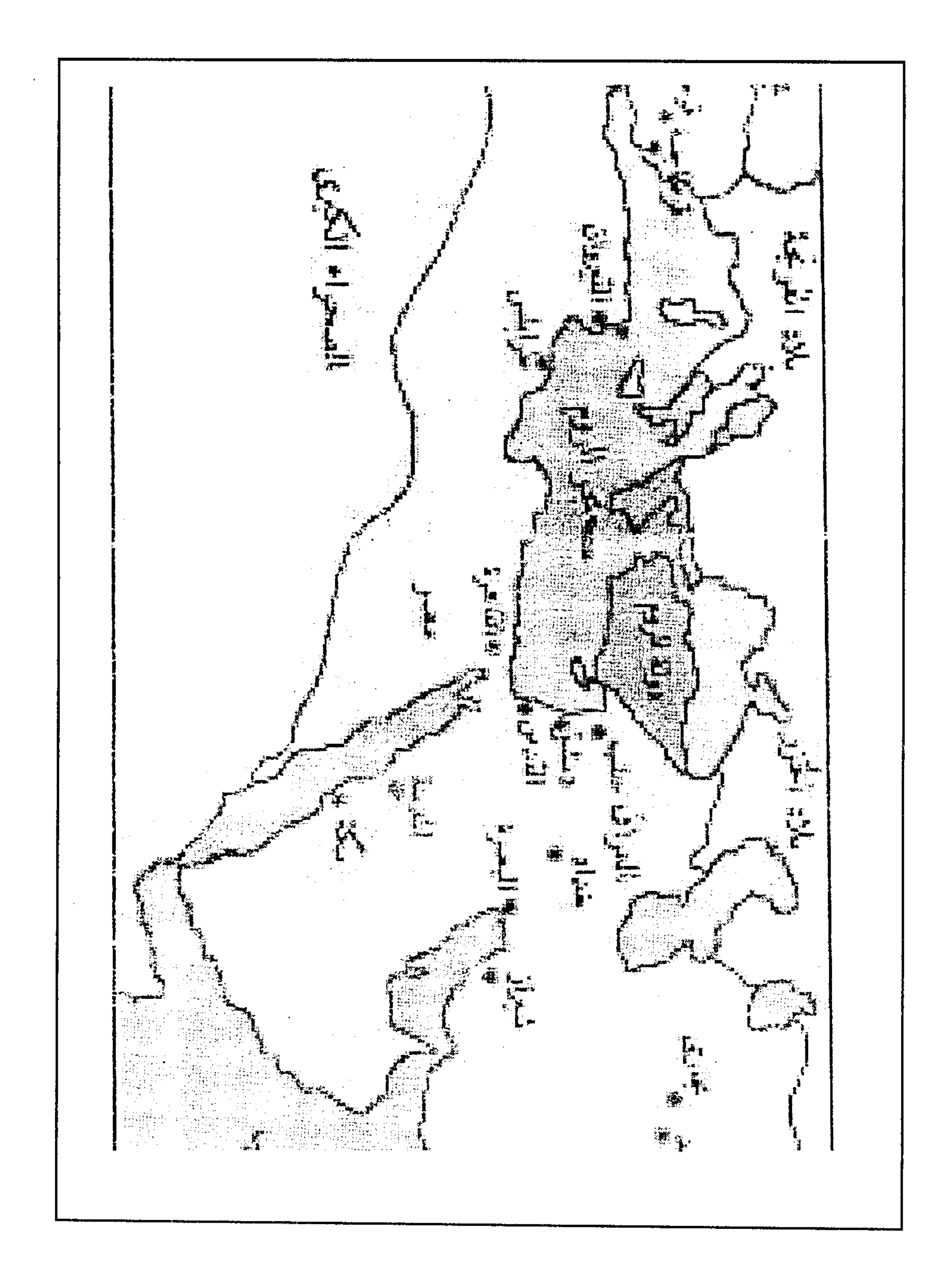
لروحهم المعنوية أعطاهم أعطياتهم مسبقة، وأنفق فيها الأموال، وأنجدهم بالخيل والسلاح، حتى سمى هذا الجيش «جيش الطواويس».

فقد بلغت الأموال التى أنفقها على تجهيزه سوى الأعطيات مليونى درهم، واختار لهذا الجيش الكبير عبد الرحمن بن الأشعث الذى سار بهم حتى وصل سجستان ثم انقلب ابن الأشعث على الحجاج وعبد الملك وقام بثورته كما ذكرنا من قبل وانتهى أمر ثورته فى دير الجماجم وتم فتح سجستان على يد القائد قتيبة بن مسلم.

لقد كان لكل من الخليفة الأب عبد الملك والخليفة الابن الوليد الفضل فى ظهور الحجاج واشتهار أمره حيث أنهما أعطياه الصلاحيات الكاملة للحكم الاستبدادى بوصفه النائب للخليفة فى أهم مناطق الدولة الأموية مما ساعد ذلك على اتساع رقعة الدولة وخاصة فى فترة حكم الوليد كما ذكرنا.

وهذا ما يفسر عودة الاضطرابات بعد موت الحجاج مباشرة ولم تستقر الأحوال فى الدولة الأموية إلا خلال فترة حكم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذى أقام دولة العدل وأثبت أنه من الإمكان حكم البلاد والعباد بالعدل وبتحكيم الشريعة الإسلامية وليس بالطغيان والاستبداد كما فعل الحجاج وأسياده من بنى أمية.

■ ■ ■



الدولة الأموية في عصر الوليد بن عبد الملك.

آل المهلب
ابن أبى صفرة الدوسرى والحجاج

يمثل المهلب بن أبى صفرة الدوسرى أهمية كبرى فى حياة الحجاج الثقفى فهو أحد القادة العسكريين الكبار الذين عملوا لصالح ابن الزبير وأيضاً لبنى أمية بعد مقتل ابن الزبير نظراً لكفاءته العسكرية ونجاحه فى التصدى لثورات الخوارج فى العراق وبلاد ما وراء النهر فقد عينه الحجاج والياً على خراسان عام ٧٨ هـ - ٦٩٧ م بعد نجاحه فى القضاء على ثورة الأزارقة فقام المهلب بفتوحات واسعة فى منطقة ما وراء النهر.

والمهلب هو ابن أبى صفرة الأزدى وكنيته أبو سعيد وقال عنه يحيى بن معين إنه المهلب بن أبى صفرة هو مهلب بن ظالم بن سارق وجاء فى طبقات ابن سعد أنه من التابعين وأنه ولد عام الفتح سنة ٨ هـ.

وسلسلة نسبه هى:

المهلب بن أبى صفرة (ظالم) بن سراق بن صحيح بن كندة بن عمرو بن وائل ابن الحارب بن العتك بن الأسد بن عمران بن عمرو (مزيقياء) بن عامر الملطوم (ماء السماء) بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت ابن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان الأزدى القحطانى.

وكان المهلب بن أبى صفرة يتمتع بكثير من الصفات الحميدة، والتى لا تتوفر فى كثير من الرجال. أهمها الشجاعة والقدرة الفائقة على القتال وإدارة المعارك بكفائة منقطعة النظير فهو الذى مهد لفتح السند ومدينة خجندة على نهر سيحون بينها وبين سمرقند عشرة أيام وهو الذى استعاد منطقة الختل وقد ظل يحارب الخوارج طيلة تسع عشرة سنة ولم يقضِ على شوكتهم غيره.

فقد كان من أكرم أهل زمانه والأمثلة على ذلك كثيرة منه، أنه أقبل يوما من

إحدى غزواته فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير إنى نذرت إن أنت أقبلت سالما أن أصوم شهرا وتهب لى جارية وألف درهم فضحك المهلب وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودى لمثلها فليس كل أحد يفى لك به.

ووقف له رجل فقال: أريد منك حويجة - تصغير حاجة - فقال المهلب اطلب لها رجيلا - تصغير رجل - يعنى أن مثلى لا يسأل إلا حاجة عظيمة.

وكان المهلب يوصى خدمه أن يقللوا من الماء ويكثروا من الطعام عندما يكون ضيوفه على خوانه حتى لا يملأ الضيوف بطونهم بالماء وحتى يملأوها من الطعام.

وكان رحمه الله من أحلم الناس ومن أخبار حلمه، أنه مر يوما بالبصرة، فسمع من يقول: هذا الأعور[1] قد ساد الناس، ولو خرج، إلى السوق لا يساوى أكثر من مائة درهم.

فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: لو زدتنا فى الثمن زدناك فى العطية وكان قد فقئت عينه بسمرقند.

وكان بليغاً حكيماً فى آرائه له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه.

ومن ذلك حين حضرته الوفاة، دعا إليه ابنه حبيبا ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت ثم قال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟

قالوا: لا.

قال: فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ فى الأجل وتثرى المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة، فتحابوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم.

ومن كلماته قوله «عجبت لمن يشترى العبيد بماله، ولا يشترى الأحرار بأفضاله».

وقال الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها ما يقال فى غدا إذا مت.

---

(١) فقد المهلب إحدى عينيه فى إحدى الغزوات.

وقد أثنى عليه الصحابة (رضوان الله عليهم) لما وجدوا فيه من كريم الخلال فقد قال عبد الله بن الزبير عن المهلب «هذا سيد أهل العراق».

وقال عنه قطرى بن الفجاءة: المهلب من عرفتموه، إن أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر: يمده إذا أرسلتموه ويرسله إذا مددتموه ولا يبدؤكم إلا أن تبدؤوه إلا أن يرى فرصة فينتهزها فهو الليث المبرز والثعلب الرواغ والبلاء المقيم.

قال عنه أبو إسحاق السبيعى «لم أرى أميرا أيمن نقيبة ولا أشجع لقاء ولا أبعد مما يكره ولا أقرب مما يحب من المهلب.

وأنشد فيه المغيرة بن حبناء:

أمسى العباد لعمرى لا غياث لهم

إلا المهلب بعد الله والمطر

هذا يجود ويحمى عن ديارهم

وذا يعيش به الأنعام والشجر

وكان قد عزل الحجاج أمية بن عبد الله عن خراسان واستعمل عليها المهلب بن أبى صفرة ومات المهلب بها سنة ٨٢ هـ وكانت ولايته عليها سنة ٧٧ هـ.

ظهرت عليه علامات الشجاعة والذكاء، وهو صبى يروى أن والد المهلب، ذهب يوماً، مع عشرة من أبنائه، إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان المهلب أحدهم، فأعجب الخليفة بذكائه وتقواه، وقال لوالده: هذا سيد ولدك.

اشترك المهلب، فى الجهاد ضد الفرس، فى معركة القادسية تحت قيادة الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص، وأصبح فى عهد الخليفة على بن أبى طالب رضي الله عنه أحد القادة.

يقول صاحب وفيات الأعيان: أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة الدوسرى العتكى الأزدى ـ كانت له بنت اسمها صُفْرَة وبها كان يكنى ـ واسمه ظالم بن سراق بن صبح بن كندى بن عمرو بن عدى بن وائل بن الأرت بن العتيك بن الأزد، ويقال

الأسْد بالسين الساكنة، ابن عمران بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، الازدى العتكى البصرى.

قال الواقدى: كان أهل دبا - ضبا - أسلموا فى عهد رسول الله ﷺ، ثم ارتدوا بعد وفاته ومنعوا الصدقة، فوجه إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عكرمة بن أبى جهل المخزومى رضي الله عنه، فقاتلهم فهزمهم وأثخن فيهم القتل، وتحصن فلولهم فى حصن لهم وحاصرهم المسلمون، ثم نزلوا على حكم حذيفة بن اليمان الذى قتل مائة من رؤسائهم، وسبى ذراريهم، وبعثهم إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وفيهم أبو صفرة غلام لم يبلغ، فأعتقهم أبو بكر رضي الله عنه.

وقال: اذهبوا حيث شئتم، فتفرقوا، فكان أبو صفرة ممن نزل البصرة.

وقال ابن قتيبة فى كتاب المعارف: هذا الحديث باطل، أخطأ فيه الواقدى لأن أبا صفرة لم يكن فى هؤلاء ولا رآه أبو بكر قط، وإنما وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو شيخ أبيض الرأس واللحية، فأمره أن يخضب فخضب، وكيف يكون غلاماً فى زمن أبى بكر.

وقد ولد المهلب وهو من أصاغر ولده قبل وفاة النبى ﷺ بسنتين.

وكان المهلب من أشجع الناس، وحمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز استقصى أبو العباس المبرد فى كتابه الكامل أكثرها، فهى تسمى بصرة المهلب لذلك.

وكان سيداً جليلاً نبيلاً، روى أنه قدم على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بالحجاز والعراق وتلك النواحى وهو يومئذ بمكة، فخلا به عبد الله يشاوره، فدخل عليه عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب القرشى الجمحى فقال: من هذا الذى قد شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا؟

قال: أو ما تعرفه؟

قال: لا.

قال: هذا سيد أهل العراق.

قال: فهو المهلب بن أبى صفرة.

قال: نعم.

فقال المهلب: من هذا يا أمير المؤمنين؟

قال: هذا سيد قريش.

فقال: فهو عبد الله بن صفوان.

قال: نعم.

وذكر المبرد فى كتاب الكامل فى أواخره فى فصل قتال الخوارج وما جرى بين المهلب والأزارقة: وكانت ركاب الناس قديماً من الخشب، فكان الرجل يضرب بركابه فينقطع، فإذا أراد الضرب والطعن لم يكن له معين أو معتمد، فأمر المهلب فضربت الركب من الحديد، فهو أول من أمر بطبعها.

وتقلبت به الأحوال، وآخر ما ولى خراسان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفى ـ فقد كان أمير العراقين، وضم إليه عبد الملك بن مروان خراسان وسجستان، فاستعمل على خراسان وعلى سجستان عبيد الله بن أبى بكرة، فورد المهلب خراسان والياً عليها سنة تسع وسبعين للهجرة.

وكان قد أصيب بعينه على سمرقند لما فتحها سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه، فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه، فإنه كان معه فى تلك الغزوة، وفى تلك الغزوة تلك قلعت عين سعيد أيضاً.

وفيها قلعت عين طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى المعروف بطلحة الطلحات المشهور بالكرم والجود، وفى تلك يقول المهلب:

لئن ذهبت عينى لقد بقيت نفسى
وفيها بحمد الله عن تلك ما ينسى
إذا ما جاء أمر الله أعيا خيولنا
ولابد أن تعمى العيون لدى الرمس

وقيل إن المهلب قلعت عينه على الطالقين، ولم يزل والياً على خراسان حتى أدركته الوفاة هناك، ولما حضره أجله عهد إلى ولده يزيد وأوصاه بقضايا وأسباب، ومن جملة ما قال له: يا بنى، استعقل الحاجب، واستظرف الكاتب، فإن حاجب الرجل وجهه وكاتبه لسانه.

ثم توفى فى ذى الحجة سنة ثلاث وثمانين للهجرة بقرية يقال لها زاغول من أعمال مرو الروذ من ولاية خراسان وقيل توفى عام ٨٢ هـ.

كوفئ المهلب بن أبى صفرة على إخلاصه للدولة وتفانيه فى محاربة الخوارج أميراً على خراسان عام ٧٨ هـ بناء على توصية الخليفة عبد الملك فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ولأول مرة بعد أربع عشرة سنة.

ثم قاد الجيوش من جديد نحو الشرق إلى بلاد تركمان ٨٠ هـ، فعبر المهلب بنفسه نهر بلخ «سيحون» ونزل كش، ثم جعل يغزو البلاد غزواً متواصلاً لا يفتر عن الجهاد، فكانت خيوله فى سمرقند، وأخرى ببخارى وثالثة بطخارستان ورابعة ببست.

ووجه المهلب ابنه يزيد إلى بلاد الختل، وملكها الشبل بناء على ترغيب ابن عم الملك وفى بلاد الختل تمكن الملك الشبل من ابن عمه فقتله.

أما يزيد بن المهلب، فقد استطاع تحقيق أهداف الحملة، فقد اضطره إلى المصالحة ودفع الفدية، بعد أن هزمه عسكريا وقام بمضايقته فى حصار قلعة الشبل، وأرسل ابنه الثانى حبيب إلى رابنجن، فوافى صاحب بخارى فى أربعين ألفاً، فقام قسم من أهالى بخارى بالهروب والاختباء بإحدى القرى فاجتثهم وعاد حبيب إلى أبيه منتصرا[١].

ومن وصاياه لأولاده: ـ

عليكم فى الحرب بالإناة والمكيدة فإنها أنفع فى الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرط ولا ضيع، ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة

(١) انظر الكامل في التاريخ.

الكلام فى مجالسكم(١).

وبعد وفاة المهلب ولى الحجاج ابنه يزيد خراسان، فقام يزيد عام ٨٤ هـ بفتح قلعة باذنجس، التى كان ينزلها ينزك، بعد أن وضع عليه العيون، وتأكد من خلو القلعة بخروج ينزك منها فسار إليها وحاصرها فتم له فتحها واستول على ما فيها من أموال وعتاد.

ثم عزل الحجاج يزيد بن المهلب وحبسه وعين أخاه المفضل على خراسان وذلك عام ٨٥ هـ لمدة تسعة أشهر قام خلالها بغزو باذنجس ففتحها وغزا أيضاً آخرون وثومان.

ثم عزله الحجاج وعين بدلاً منه قتيبة بن مسدم على خراسان.

■■■

---

(١) انظر تاريخ الطبرى.

قتيبة بن مسلم الباهلى
القائد الذى قتله ولاؤه للحجاج

قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن الأمير أبو حفص الباهلى، كان أبوه «مسلم بن عمرو» من أصحاب «مصعب بن الزبير» والى العراق من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وقاتل معه فى حربه ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هجرية.

وقد نشأ قتيبة على ظهور الخيل رفيقاً للسيف والرمح، محبا للفروسية، وكانت منطقة العراق مشهورة بكثرة الفتن والثورات، لذلك عمل كل ولاة العراق على شغل أهلها بالغزوات لاستغلال طاقاتهم الثورية فى خدمة الإسلام ونشر الدعوة.

كانت أرض العراق هى قاعدة الانطلاق للحملات الحربية على الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية، وقد اشترك قتيبة فى هذه الحملات منذ شبابه المبكر، وأبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد المهلب بن أبى صفرة وكان خبيراً فى معرفة الأبطال ومعادن الرجال فتفرس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به الحجاج بن يوسف الذى كان يحب الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهام ليختبره بها ويعلم مدى صحة ترشيح المهلب له.

وقاد الفتوحات الإسلامية فى بلاد آسيا الوسطى فى عهد الحجاج الثقفى بعد أن ولاه خراسان عام ٨٦ هـ بعد عزل المفضل بن المهلب بن أبى صفرة كما ذكرنا.

ولد فى بيت إمرة وقيادة سنة ٤٩ هـ بأرض العراق، ولما ترعرع تعلم العلم والفقه والقرآن، ثم تعلم الفروسية وفنون الحرب، فظهر فيه النبوغ وهو شاب فى مقتبل شبابه، تولى خراسان وقد كانت حينها من أعمال العراق وهى تحت إمرة الحجاج، فلم يعبأ بشىء سوى الجهاد.

فلما وصل خراسان سنة ٨٦ هـ علا بهمته إلى حرب ما وراء النهرين وأقام بخراسان ثلاث عشرة سنة وابتدأ مسيرته إلى فتح الشرق كله، ففتح المدائن مثل خوارزم وسجستان، حتى وصل إلى سمرقند فحاصرها حصاراً شديداً حتى صالحه أهلها على دفع جزية.

وتصدى له الصفد فجمعوا له الجموع فقاتلهم فى شومان قتالاً عيفاً حتى هزمهم، وسار نحو بيكند وهى آخر مدن بخارى، فجمعوا له الجموع من الصفر ومن والاهم فأحاطوا به من كل مكان، وكان له عيون (جواسيس) من الأعداء يمدونه بالأخبار فأعطاهم الأعداء أموالاً طائلة ليصدوا عنهم قتيبة فجاؤوا يثبطونه عن قتالهم، فقتلهم، ثم جمع الجيش وخطبهم وحثهم على القتال فقاتلوا أشد القتال وفتحوا الطوق وغنم منها أموالاً لا تحصى.

ثم اتجه ناحية الصين، فغزا المدن التى فى أطرافها وانتصر عليها، وضرب عليهم الجزية، فأذعنت له بلاد ما وراء النهرين كلها حتى وصل إلى أسوار الصين، حارب خلالها ثلاث عشرة سنة لم يضع فيها السلاح، إلى أن مات الخليفة الوليد ابن عبد الملك فاستخلف بعده أخوه سليمان بن عبد الملك وكان بينهما شىء وخلاف، فأراد أن يثور على سليمان فحصل بينهما خلاف شديد فقتله أحد الجنود فى بلد اسمها فرغانة سنة ٩٦ هـ.

سار قتيبة بن مسلم على نفس الخطة التى سار عليها آل المهلب، وهى خطة الضربات السريعة القوية المتلاحقة على الأعداء، فلا يترك لهم وقتا للتجمع أو التخطيط لرد الهجوم على المسلمين، ولكنه امتاز عن آل المهلب بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة لها هدف ووجهة محددة، ثم يوجه كل قوته للوصول إلى هدفه.

قام قتيبة بن مسلم بتقسيم أعماله لأربع مراحل، حقق فى كل واحدة منها فتح ناحية واسعة فتحاً ثبت فيه أقدام الدولة الأموية وما تابعها من دول إسلامية ردحا طويلا من الزمن وهى كالآتى:

المرحلة الأولى:

قام فيها قتيبة بحملته على طخارستان السفلى فاستعادها وذلك سنة ٨٦ هجرية، وطخارستان السفلى هى الآن جزء من أفغانستان وباكستان.

المرحلة الثانية:

قاد فيها حملته الكبرى على بخارى (تقع الآن فى أوزبكستان) فيما بين سنتى ٧٨ ـ ٩٠ هجرية وخلالها أتم فتح بخارى وما حولها من القرى والحصون، وكانت أهم مدن بلاد ما وراء النهر وأكثفها سكاناً وأمنعها حصوناً.

المرحلة الثالثة:

وقد استمرت من سنة ٩١ ـ ٩٣ هجرية، وفيما تمكن قتيبة من نشر الإسلام وتثبيته فى وادى نهر أمو داريا (جيحون) كله، وأتم فتح إقليم سجستان فى إيران الآن، وإقليم خوارزم ووصلت فتوحاته إلى سمرقند فى قلب آسيا وضمها إلى دولة الأمويين.

المرحلة الرابعة:

وامتدت من سنة ٩٤ ـ ٩٦ هجرية، وفيها أتم قتيبة فتح حوض نهر سيحون بما فيه من مدن، ثم دخل أرض الصين وأوغل فيها ووصل مدينة كاشغر وجعلها قاعدة إسلامية وكان هذا آخر ما وصلت إليه جيوش إسلامية فى آسيا شرقا ولم يصل أحد من المسلمين أبعد من ذلك قط.

وعندما قام المسلمون الأوائل بحركة الفتح الإسلامى فى الشرق كان هناك نوعان من الأجناس البشرية تسكن هذه المنطقة، القبائل الساسانية أو الفارسية والقبائل التركية، وكان نهر المرغاب هو الحد الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء، وقد تم إدخال القبائل الفارسية فى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين.

أما القبائل التركية فقد كانت أكبر عدداً وأوسع انتشاراً منهم الأتراك الغزية والأتراك القراخطاى والأتراك القوقازيون والأتراك الأيجور والأتراك البلغار والأتراك المغول.

استطاع قتيبة أن يفتح البلاد التى تسمى اليوم الجمهوريات الإسلامية التى كانت ضمن الاتحاد السوفيتى المنحل وتوغل حتى حدود الصين ولم يوقف زحفه وفتوحاته إلا موت الحجاج الثقفى ثم الخليفة الوليد بن عبد الملك حيث خلفه أخوه سليمان وكان يكره قتيبة لأنه وقف إلى جانب الوليد حين أراد أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد.

■■■

مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله

ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية مقتل قتيبة فى أحداث عام ٥٦ هـ فقال:

وذلك أنه جمع الجند والجيوش وعزم على خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة وترك طاعته، وذكر لهم همته وفتوحه وعدله فيهم، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم، فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد منهم إلى مقالته، فشرع فى تأنيبهم وذمهم، قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا، وعملوا على مخالفته، وسعوا فى قتله، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له وكيع بن أبى سود، فجمع جموعا كثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله فى ذى الحجة من هذه السنة.

وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته.

ولم يبق منهم سوى ضرار بن مسلم، وكانت أمه الغراء بنت ضرار بن القعقاع ابن معبد بن سعد بن زرارة، فحمته أخواله، وعمرو بن مسلم كان عامل الجوزجان.

وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح ويسار، وهؤلاء أبناء مسلم، وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن سود.

وقد كان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبو حفص الباهلى، من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوى الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقا لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عزوجل وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيرا كما تقدم، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبه وجهاده.

ولكن زل زلة كان فيها حتفه، وفعل فعلة رغم فيها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه، وفارق الجماعة لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته، ويضاعف به حسناته، والله يسامحه ويعفو عنه، ويتقبل منه ما كان يكابده

من مناجزة الأعداء.

وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان، فى ذى الحجة من هذه السنة، وله من العمر ثمان وأربعون سنة، وكان أبوه أبو صالح مسلم فيمن قتل مع مصعب ابن الزبير.

وكانت ولايته على خراسان عشر سنين، واستفاد وأفاد فيها خيرا كثيرا، وقد رثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلى فقال:

كان أبا حفص قتيبة لم يسرُ ... بجيش إلي جيش ولم يعل منبرا

ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا

دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح إلي الجنات عفا مطهرا

فما رزئ الإسلام بعد محمد ... بمثل أبي حفص فبكيه عبهرا

ولقد بالغ هذا الشاعر فى بيته الأخير. وعبهر ولد له.

وقال الطرماح فى هذه الوقعة التى قتل فيها على يد وكيع بن سود:

لولا فوارس مذحج ابنه مذحج ... والأزد زعزع واستبيح العسكر

وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب ... منهم إلى أهل العراق مخبر

واستضلعت عقد الجماعة وازدري ... أمر الخليفة واستحل المنكر

قوم همو قتلوا قتيبة عنوة ... والخيل جامحة عليها العثير

بالمرج مرج الصين حيث تبينت ... مضر العراق من الأعز الأكبر

إذ حالفت جزعا ربيعة كلها ... وتفرقت مضر ومن يتمضر

وتقدمت أزد العراق ومذحج ... للموت يجمعها أبوها الأكبر

قحطان تضرب رأس كل مدجج ... تحمي بصائرهن إذ لا تبصر

والأزد تعلم أن تحت لوائها ... ملكا قراسية وموت أحمر

فبعزنا نصر النبي محمد ... وبنا تثبت في دمشق المنبر

وأضاف ابن كثير رحمه الله:

وقد بسط ابن جرير هذه القصيدة بسطا كثيرا وذكر أشعارا كثيرة جدا.

وقال ابن خلكان وقال جرير يرثى قتيبة بن مسلم رحمه الله وسامحه، وأكرم مثواه وعفا عنه:

ندمتم على قتل الأمير ابن مسلم ... وأنتم إذا لاقيتم الله أندم

لقد كنتم من غزوه فى غنيمة ... وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم

على أنه أفضى إلى حور جنة ... وتطبق بالبلوى عليكم جهنم

قال: وقد ولى من أولاده وذريته جماعة الإمرة فى البلدان، فمنهم عمر بن سعيد بن قتيبة بن مسلم وكان جوادا ممدحا، رثاه حين مات أبو عمر وأشجع بن عمرو السلمى المرى نزيل البصرة يقول:

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق ... ولا مغرب إلا له فيه مادح

وما كنت أدرى ما فواضل كفه ... على الناس حتى غيبته الصفائح

وأصبح فى لحد من الأرض ضيق ... وكانت به حيا تضيق الضحاضح

سأبكيك ما فاضت دموعى فإن تغض ... فحسبك منى ما تجر الجوانح

فما أنا من رزئى وإن جل جازع ... ولا بسرور بعد موتك فارح

كأن لم يمت حى سواك ولم تقم ... على أحد إلا عليك النوائح

لئن حسنت فيك المراثى وذكرها ... لقد حسنت من قبل فيك المدائح

قال ابن خلكان: وهى من أحسن المراثى وهى فى الحماسة، ثم تكلم على باهلة وأنها قبيلة مرذولة عند العرب، قال: وقد رأيت فى بعض المجاميع أن الأشعث بن قيس قال: يا رسول الله أتتكافأ دماؤنا؟

قال: «نعم! ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك».

وقيل لبعض العرب: أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلى؟

قال: بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك.

وسأل بعض الأعراب رجلا ممن أنت؟

فقال: من باهلة، فجعل يرثى له.

قال: وأزيدك أنى لست من الصميم وإنما أنا من مواليهم.

فجعل يقبل يديه ورجليه، فقال: ولم تفعل هذا؟

فقال: لأن الله تعالى ما ابتلاك بهذه الرزية فى الدنيا إلا ليعوضك الجنة فى الآخرة[١]!!

■■■

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩.

ذكر فتوحات قتيبة بن مسلم فى بلاد ما وراء النهر

خلال فترة حكمه لبلاد ما وراء النهر وهى قرابة العشر سنوات حقق قتيبة فتوحات عظيمة سجلها له التاريخ.

ومن المعلوم أن منطقة ما وراء النهر هى المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهرى جيحون، ومن ناحية الغرب والجنوب من نهر «سيحون» وفرغانة(١) والجنوب الشرقى من خوارزم.

فعاد إلى مرو، وقد عقد لواء الحرب لأخيه صالح لقتال أخشيكت عاصمة فرغانة القديمة ثم عبر نهر سيحون وهاجم مدينة قاشان ثم عاد سالماً غانماً منها، وهكذا انتهت تلك السنة عام ٨٦ هـ بتلك الانتصارات.

واستكمل قتيبة فتوحاته فى عام ٨٧ هـ بعدها استقر له الأمر فى «أخْرون» و«شومان» ومنطقة جنوب ما وراء النهر حيث أرسل إلى ملك باذغيس ويدعى «نيزك» فى جنوب «مرو» يهدده بالقتال والقضاء ويطلب منه أن يطلق ما لديه من أسرى للمسلمين.

وبالفعل قام «نيزك» بإطلاق الأسرى من المسلمين وعقد صلحاً مع قتيبة.

وتعتبر مقاطعة الصغد من أهم مقاطعات تلك المنطقة حيث يوجد نهر الصغد ومن أهم المدن هناك مدن سمرقند وبخارى وكش ونسف وبيكنر ومنطقة سمرقند من أجمل بقاع الأرض حيث البساتين والأراضى الخضراء.

وعند وصول قتيبة إلى «مرو» عام ٨٦ هـ كان المفضل بن المهلب قد أعد الجيش لغزو أخْرون وشومان، فاستكمل قتيبة المهمة بدلاً منه حيث سار بالجيش إلى الطالقان وخضع له قادة «بلخ» وصالحوه.

(١) يعرف نهر سيحون الآن باسم «سيزداريا» ونهر جيحون باسم «أموداريا».

وساروا معه فقطع النهر إلى «صغنيان» فرحب به ملكها وأهداه مفتاح المدينة والكثير من الهدايا وصالحه.

وصالح ملوك «أخْرون» و«شومان» قتيبة على فدية.

قرر قتيبة غزو «بَيْكَند» الواقعة إلى جنوب بخارى فسار إلى آمُل ومنها إلى زَمّ ومن هناك عبر نهر «جيحون» وحاصر «بيكند»، إلا أن أهلها طلبوا النجدة من أهل الصغد الذين لبوا النداء وفرضوا حصارا قويا حول قوات قتيبة حتى أن قتيبة لم يتمكن من إيصال رسائله وإخباره إلى مرو وإلى العراق لمدة تزيد عن الشهرين.

ثم دارت معارك قوية بين الطرفين كان النصر بها حليفاً لقيبة والمسلمين وحين أراد قتيبة هدم سور المدينة لاقتحامها طلب قادتها الصلح فوافق قتيبة على ذلك على أن يعين عليهم أحدا من قومه بنى باهلة إلا أنه بعد مغادرته المدينة انتفض سكانها وقتلوا عامل قتيبة فعاد قتيبة وحاربهم وفتح مدينتهم عنوة وقتل مقاتلتهم وحصل على غنائم كثيرة وعاد إلى مرو(١).

وفى عام ٨٨ هـ غزا قتيبة مدن «نومُشْكَث» و«راميثنة» فصالحوه على جزية إلا أنه عندما كان فى طريق عودته إلى مرو هاجمه جمع كبير من الترك والصغديين والفرغانيين وكان تعدادهم ٢٠٠ ألف جندى، وقد دارت معارك كبيرة بين الطرفين كان النصر بها حليف قتيبة. وقد قاتل نَيْزَك ملك باذْغيس فى هذه المعارك إلى جانب المسلمين.

وعاد جيش المسلمين إلى مرو عن طريق ترمذ ومن ثم بلخ(٢).

ثم فى عام ٨٩ أمر الحجاج بن يوسف قتيبة بغزو بخارى التى كانت من أعظم مدن ما وراء النهر، فامتثل قتيبة للأوامر وعبر نهر «جيحون» عند «زَم» فحاربه أهل الصغد وسكان كِس ونَسف وانتصر عليهم إلا أنه لم يتمكن من فتح مدينة بخارى نفسها فكر راجعا وأخبر الحجاج بذلك، فلامه الحجاج على ذلك وطلب منه أن يرسم له خارطة للمدينة ففعل ذلك.

---

(١) الكامل فى التاريخ. (٢) تاريخ الطبري.

فأعد الحجاج خطة الهجوم على المدينة وأمر قتيبة بتنفيذها(١).

وبالفعل فى عام ٩٠ قام قتيبة بمهاجمة مدينة بخارى حسب خطة الحجاج فاستنجد ملكها بالصغد والترك الذين أنجدوه، إلا أن قتيبة انتصر عليهم وفتح المدينة.

وبعد هذا النصر الكبير طلب «طَرْخون» ملك الصغد الصلح فوافق قتيبة على ذلك وقد شارك «نيزك» فى هذه المعارك إلى جانب قتيبة.

وكانت المفاجأة أنه بعد عودة قتيبة ومعه نيزك إلى خراسان ذهب كل منهما إلى مدينته، أعلن نيزك الثورة على قتيبة لأنه راعه فتوحات قتيبة فى المنطقة فخاف أن يستفحل أمره وأن يحكم جميع البلاد بشكل مباشر وليس بواسطة الملوك المحليين، وظن نيزك أن قتيبة سيقبل منه إذا لم تنجح ثورات الصلح لأنه وجده دائم الاستعداد لقبول الصلح حتى ممن يثورون عليه، كما فعل مع ملك الصغد.

وقال نيزك لأصحابه وخاصته: مُتّهم أنا مع هذا، ولستُ آمنه، وذلك أن العربى بمنزلة الكلب، إذا ضربته نبح، وإذا أطعمته بصبص واتبعك، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئاً رضى، ونسى ما صنعت به، وقد قاتله طَرْخون تكرارا، فلما أعطاه فدية قبلها ورضى، وهو شديد السطوة فاجر(٢).

واستطاع إقناع ملوك الطالقان والفارياب والجوزجان وبلخ بإعلان الثورة والعصيان على قتيبة والمسلمين فوافقوه على رأيه واتفقوا على غزوه فى فصل الربيع، فبادر نيزك إلى خلع ملك طُخارستان جبْغويه الذى كان مواليا لقتيبة وعزله ونصب نفسه وطرد محمد بن سليم الناصح عامل قتيبة على المنطقة وتحصن فى شعب خُلم الموصوف بضيقه وصعوبة عبوره. فسار قتيبة إلى الطالقان ففتحها عنوة وقتل عددا كبيرا جدا من أهلها.

وجاءت سنة ٩١ حافلة بالحروب التى خاضها قتيبة، لأن الثورة التى قادها نيزك لم تقتصر على مناطق طُخارستان فى خراسان بل امتدت إلى ما وراء النهر.

فجمع قتيبة عدداً كبيراً من الجنود من مدن خراسان وسار بهم إلى المدن

(١)، (٢) المصدر السابق.

التى أعلنت التمرد فاستسلمت أغلبها دون قتال فولى عليها حكاما من العرب.

واستطاع قتيبة أن يعبر شُعب خلم للوصول إلى القلعة التى كان يتحصن بها نيزك رغم عظم ارتفاعها وحصانتها حتى أنهم أطلقوا عليها اسم قلعة الشمس لارتفاعها.

ولم يتقدم جيش قتيبة إلى القلعة إلا بعد ما دله أحد الحكام المحليين على طريق سرى، فهرب نيزك إلى الشمال وعبر نهر فرغانة وتبعه قتيبة حتى وصل إلى مكان يدعى الكرّز فحصره هناك حوالى الشهرين عانى خلالها الجوع والمرض فوافق أن يستسلم لقتيبة بعد أن منحه الأمان(١).

وطلب قتيبة من الحجاج أن يسمح له بقتله رغم الأمان، فسمح له الحجاج بذلك فقتله وصلبه.

وفى نفس السنة هاجم قتيبة مدن شومان وكش ونسف لأن ملوكها أعلنوا التمرد وطردوا منها عمالها العرب الذين عينهم قتيبة، ففتحها جميعا عنوة، وقبل أن يعود إلى مرو أرسل أخاه عبد الرحمن إلى طَرخون ملك الصغد ليقبض منه الفدية التى تم الاتفاق عليها سابقا فقبضها والتحق بأخيه فى مرو.

أما أهل الصفد فثاروا ضد طرخون ملكهم المسن واتهموه بأنه صنيعة العرب المسلمين لدفع الجزية فعزلوه وعينوا مكانه ملكاً يدعى «غورك»، مما جعل «طرخون» يقرر الانتحار.

ثم جاءت سنة ٩٢ هـ حيث قام قتيبة بن مسلم بغزو منطقة سجستان الواقعة إلى الجنوب من خراسان وتقع الآن فى جنوب أفغانستان بهدف إخضاع رُتْبيل الذى أعلن عصيانه، فطلب رُتبيل الصلح فصالحه قتيبة واستعمل عليهم عبد ربه بن عبد الله بن عُمير الليثى وعاد إلى مرو(٢).

وشهدت سنة ٩٣ أعظم فتوحات قتيبة على الإطلاق حيث فتح منطقة خوارزم الواقعة إلى الشمال من خراسان والتى تحد بحيرة خوارزم (بحر أورال) ومدينة

---

(١) انظر البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

(٢) المصدر السابق.

سمرقند التى كانت أعظم مدن الصغد وما وراء النهر.

وكان سبب فتح خوارزم أن ملكها خوارزم شاه قد كتب لقتيبة يستقدمه ليسلمه بلاده وذلك نكاية بأخيه الأصغر الذى غلبه على أمره وعاث فسادا فى الأرض، وبعث لقتيبة بثلاثة مفاتيح من ذهب تمثل مفاتيح أهم ثلاث مدن فى خوارزم ليقنعه بصدق نواياه.

وقام قتيبة بغزو خوارزم وفتحها وسلم لخوارزم شاه أخاه الأصغر حسب الاتفاق، فقام الملك بقتل أخيه وقدم ممتلكاته هدية لقتيبة.

ثم قام قتيبة بالتوجه إلى سمرقند لغزوها وفتحها فقام بمباغتة المدينة وأهلها، بعد أن اعتقد أهل الصغد بأنه سيكتفى فى هذه السنة بهذا الفتح ودارت معارك طاحنة بين قتيبة وأهل سمرقند وحلفائهم أسفرت عن نصر كبير لقتيبة الذى حصل على غنائم عظيمة من المدينة وفى سنة ٩٤ هـ وجه قتيبة اهتمامه إلى فتح مناطق جديدة لم يغزها من قبل بهدف الفتح وهى مناطق فرغانة والشاش (طشقند).

وقد استعد لهذه الحملة بنحو عشرين ألف جندى من مقاتلى خوارزم والصغد، وقد وجههم إلى الشاش فعبر نهر سيحون.

أما هو فتوجه إلى خُجُنْدة الواقعة على الضفة الجنوبية من نفس النهر وفتحها بعد قتال عنيف.

ولكن هذه الحملة لم تحقق جميع أهدافها حيث إنها لم تنجح بفتح مدينة الشاش.

فى عام ٩٥ هـ أمدّ الحجاج بن يوسف قتيبة بالجنود والسلاح ليفتح بهم مدينة الشاش وغيرها من مدن فرغانة وبلاد ما وراء سيحون، لكنه عندما كان محاصراً مدينة الشاش وصله خبر موت قائده الأعلى الحجاج بن يوسف، فرفع الحصار وفرق جنوده فى مدن بخارى وكش ونسف وغيرها، وعاد إلى مرو.

وفى نفس السنة وصله كتاب من الخليفة الوليد بن عبد الملك، أكد له فيه على إبقائه فى منصبه، ومدح جهوده الحربية.

قتيبة بن مسلم على أبواب الصين

كانت أخر خروجات قتيبة العسكرية غزو الصين عام ٩٦ هـ. فقد هاجم مدينة كاشغر التى تعتبر أولى المدن الصينية من جهة الغرب وفتحها.

فقد كانت «كاشغر» أول المدن الصينية من جهة الغرب حيث تقع الآن ضمن دولة الصين على بعد حوالى مائتى كيلو متر من حدودها مع كرغيسستان، وتعتبر معبرا مهما للطامعين بغزو الصين من هذه الجهة لأنها تحتل مكانا استراتيجيا حيث تقع خلف جبال شاهقة بالنسبة للفاتحين العرب وهى على الطرف الغربى من منطقة صحراوية منبسطة تمتد شرقا نحو وسط الصين.

ذكر المؤرخون أخبار البعثة التى بعثها قتيبة إلى ملك الصين بناء على طلب الملك الصينى نفسه. وأن ملك الصين عندما علم بوجود العرب على أرضه طلب من قائدهم أن يرسل له بعثة لكى يتعرف منهم على المسلمين ودينهم وعلى أهداف حملتهم.

فاختار قتيبة لهذه المهمة عشرة أو اثنى عشر رجلا من خيرة جنوده ممن يتصفون بالذكاء والفطنة والدراية والسياسة والقوة الجسدية وحسن المنظر، وعين عليهم هبيرة المشمرج الكلابى أميراً.

وكان هبيرة مفوها، حسن الحديث. وقد أوصاهم قتيبة بإخبار الملك بأن قائدهم قد حلف بأنه لن ينصرف عن مكانه حتى يطأ بلاده ويختم ملوكه ويجبى خراج بلاده.

فاستقبلهم الملك استقبالا يليق بهم، ثم دعاهم إل مجلسه، فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل ولبسوا النعال والأردية وتعطروا وجلسوا فى مجلس الملك ولم يكلمهم لا الملك ولا أى أحد من جلسائه، فخرجوا من المجلس.

فسأل الملك جلسائه عنهم فقالوا: «رأينا قوما ما هم إلا نساء».

ودعاهم الملك فى اليوم الثانى فلبسوا الوشى وعمائم الخز والمطارف ودخلوا

عليه، فلم يكلمهم، وطُلب منهم أن يعودوا فى الغد، فسأل جلساءه عنهم، فأجابوه بأن هيأتهم هذه أشبه بهيئة الرجال من هيأتهم السابقة.

وفى اليوم الثالث شدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح وتنكبوا القسى وركبوا خيولهم فلما وصلوا مجلسه ركزوا رماحهم وهموا بالدخول وهم مشمرين، فطُلب منهم العودة من حيث أتوا لأن الرعب قد دب فى قلوب الصينيين(١).

وفى اليوم الرابع طلب الملك الصينى منهم أن يبعثوا له بزعيمهم فبعثوا بهبيرة المشمرج، فسأله الملك عن تفسير ما قاموا به من تغيير وتبديل لهيأتهم فى الأيام الثلاثة السابقة.

فقال هبيرة: «أما زِيّنا الأول فلباسنا فى أهالينا.. وأما يومنا الثانى فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا وإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا».

فأعجب الملك بهذا التفسير والتدبير وأمرهم بالعودة إلى قائدهم وإعلامه بضرورة انسحابه من البلاد الصينية وعودته إلى بلاده لأن الملك عرف قلة أتباعه، وهددهم بأنه إن لم يفعل ذلك فإنه سوف يبعث ضدهم جيشا كبيرا يهلكهم. فاعترض هبيرة على ادعائه بأن عدد أتباعه قليل وقال له: «كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون»؟

وأخبره بأن قائدهم قد حلف بأنه لن ينصرف من مكانه حتى يطأ بلادكم ويختم على ملوككم وتعطوا الجزية.

فقال الملك بأنه يخرجه من قسمه بحيث يبعث له بتراب من تراب الصين فيطؤه ويبعث معهم بأربعة غلمان من أبناء الملوك فيختمهم وأن يبعث له معهم بهدية ومن ثم أحسن الملك لأعضاء الوفد وأمر لهم بجوائز وسيرهم إلى بلادهم.

وقد قبل قتيبة بالجزية وختم على رقاب الغلمان ووطأ تراب الصين ومن ثم عاد إلى بلاده بعد أن جاءته الأخبار بموت الخليفة الوليد وتولية أخيه سليمان الذى كان يكره قتيبة والحجاج لموافقتهما الوليد على خلعه من ولاية العهد ثم كانت الفتنة التى قتل فيها قتيبة كما سيأتى ذكره إن شاء الله.

---

(١) انظر الكامل في التاريخ.

نهاية قتيبة ومقتله

كانت وفاة الحجاج قد أنذرت قتيبة شرّاً منها، ثم كانت وفاة الخليفة الوليد التى وقعت غداة اقترابه من حدود الصين (٩٦ هـ) قد حملت إليه الشرّ كله، فقد أدرك فى قرارة نفسه أن دوره انقضى مع غياب رمزىَ العهد الذى تألق فيه، وحقق على مداه أعظم الانتصارات.

فقد جاء سليمان الذى صارت إليه الخلافة بعد أخيه الوليد، فى ظل مناخ انقلابى، منحازاً إلى القبائل اليمنية التى أستبعدت عن السلطة خصوصاً فى العراق والمشرق، من دون أن يخفى نزعة ثأرية ضد رجالات سلفه، لاسيما قتيبة الذى كان ضالعاً فى محاولة إبعاد سليمان عن ولاية العهد والبيعة لعبد العزيز بن الوليد، مما أثار حقد سليمان عليه منذ البداية لعزله، وإعادة خصمه اللدود يزيد بن المهلب عاملاً على خراسان.

ولم يكن الأمر مجرد تغيير يحدث غالباً مع تعاقب الخلفاء، وإنما كان انتقاماً من شخصية مناوئه لسليمان فى الأساس، ولا ترى أن المسألة تنتهى عند حدود العزل.

وفى ضوء ذلك يبادر قتيبة إلى استرضاء الخليفة، فوجه إليه كتاب تهنئة يشير فيه إلى بلائه فى خدمة عبد الملك الوليد، وإلى أنه فى طاعته مخلص له إذا ما أبقاه فى منصبه.

بيد أن قتيبة ما إن تناهى إليه أن يزيد بن المهلب لا يفارق مجلس سليمان، وأن الخليفة عازم على تقليده مكانه، أدرك عدم جدوى الحوار مع الخليفة، فأخذ يخطط للانتقال إلى فرغانة ليعبر منها إلى الصين.

إلا أنه عاد عن ذلك بعدما استحثه أصحابه على خلع سليمان، اعتماداً على القبائل المضرية فى خراسان، والتى يساورها القلق من عودة نفوذ بنى المهلب، وتسلط اليمنيين عليها.

بعدما تأكد قرار عزله، ضاقت الخيارات أمام قتيبة، واستجاب فى النهاية لرأى أخيه (عبد الله) بإعلان العصيان على الخليفة، مدركاً أن النهاية واحدة سواء خضع للأخير أو تمرّد عليه، مما يعبر عن ذلك ردة فعله إزاء تعيين يزيد على خراسان، قائلاً: «اللهم إنى أسألك ميتة كريمة».

وفى خطبة منسوبة له، قدم قتيبة حينذاك ما يشبه بياناً بإنجازاته، مظهراً فيه الفارق بين سياسته وسياسات الذين سبقوه من الولاة، محذراً مما سيكون من أمر ابن المهلب فى الناس من بعده. ولكن القبائل اليمنية المغتبطة بعودة السلطة إليها لم تعبأ بكلامه، كذلك المضرية المنقسمة لم تظهر حماسة لركوب المغامرة معه.

ولعل قتيبة، على مدى نحو عشر سنوات من ولايته، لم ينجح فى ترسيخ الوحدة الاجتماعية فى خراسان، منشغلا عن ذلك بغزواته العديدة، التى أرهقت القبائل، وهى فى تركيبها يمانية أكثر منها مضرية.

وكانت الأزد، التى ينتمى إليها بنو المهلب، ذات حضور بارز فى هذه الولاية، دون أن يقتصر تأثيرها على اليمنيين فحسب، بل كانت تميل إليها قبائل من مضر، نعمت بامتيازات فى عهدها ما لم تحظ به فى عهد قتيبة رجل الحرب الذى لم يستطع مجاراة سلفه آل المهلب فى عطائهم وسخائهم خلال فترة حكمهم فقد كان قتيبة أول حكام تلك المنطقة من غير اليمنيين.

وذكر ابن كثير والطبرى أن سليمان لم يعزله بل أرسل له عهداً بولاية خراسان، مع رسول خاص من عنده، تكريماً له ولكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد، فغضب الناس واستنكروا خلع سليمان وثار الجند على قتيبة فقتلوه.

يقول الذهبى: ولما بلغه موت الوليد، نزع الطاعة، فاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم وكيع بن حسان، وألب عليه، ثم شد عليه فى عشرة فى فرسان تميم فقتلوه فى ذى الحجة سنة ست وتسعين، وعاش ثمانياً وأربعين سنة[1].

---

(١) أنظر سير أعلام النبلاء للذهبى.

يجمع المؤرخون أن سبب مقتل قتيبة هو خلعه للخليفة وأن خلعه للخليفة جاء بعد استشارته لأهله وشجعه على ذلك أخوه عبد الله فقال له: «اخلعه مكانك (وكان وقتها فى منطقة فرغانة) وادع الناس إلى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان»[1].

وأن قتيبة أرسل إلى الخليفة الجديد بثلاث رسائل: ضمن الرسالة الأولى تهنئة الخليفة الجديد بالخلافة، وذكر بلاءه بالعدو وطاعته للخلفاء السابقين عبد الملك والوليد، وإنه على استعداد تام أن يكون على نفس الولاء له إن لم يعزله من منصبه.

وضمن كتابه الثانى معلومات عن فتوحاته ومدى نكايته بالعدو وهيبته بينهم، وذم أهل المهلب لإعتقاده بأن سليمان سوف يعين يزيد بن المهلب على خراسان، وهدد بأنه سوف لن يسمح ليزيد بحكم الولاية إذا ما قام سليمان بتعيينه فى هذا المنصب.

أما الكتاب الثالث فضمنه تهديداً لسليمان نفسه بأنه سوف يعلن التمرد ضده إذا أقاله من منصبه.

وقد بعث بالكتب الثلاث مع رجل من قبيلة باهلة وطلب منه أن يسلم الخليفة الكتاب الأول فى البداية وقال له: ـ

إذا كان يزيد بن المهلب إلى جانبه ودفع الخليفة بالكتاب إلى يزيد قم بتسليمه الكتاب الثانى وإذا ناول الخليفة الكتاب الثانى إلى يزيد قم بتسليمه الكتاب الثالث.

وبالفعل فقد وجد الرسول يزيد بن المهلب إلى جانب الخليفة فسلم الخليفة الكتاب الأول فقرأه الخليفة ودفعه ليزيد، فقام الباهلى بتسليمه الكتاب الثانى فقرأه ودفعه إلى يزيد، عندها سلمه الكتاب الثالث فقرأه الخليفة فتغير لون وجهه ولم يدفعه إلى يزيد.

فما كان من الخليفة سليمان إلا أن أحسن للرجل الباهلى وأكرمه وكتب لقتيبة بكتاب جدد فيه تعيينه على خراسان، وبعث مع الباهلى رسولا من قبله ليؤكد لقتيبة صدقه فى التعيين.

وعندما وصل الرسولان إلى مدينة حلوان (مدينة فى غرب إيران) فى

---

(١) تاريخ الطبري والبداية والنهاية.

طريقهما إلى خراسان وصلهما خبر خلع قتيبة للخليفة وعصيانه.

فعاد رسول الخليفة إلى دمشق وحمل الباهلى كتاب تجديد التعيين إلى قتيبة، فاستشار قتيبة مستشاريه فأشاروا عليه بالاستمرار فى خلع الخليفة لأن الخليفة سوف لن يقبل منه أن يبقى فى منصبه بعد ما آلت إليها الأوضاع.

كان قتيبة قد قبل بنصيحة أخيه عبد الله فقام بخلع الخليفة وإعلانه التمرد ودعا جيشه لتأييده إلا أن الجنود رفضوا ذلك ولم يؤيدوه، وقد غضب قتيبة من جنوده غضبا شديدا، فخطب فيهم خطبة عنيفة أساء لهم بها وسبهم وأدعى بأنه جعل منهم جنودا فاتحين بعد أن كانوا رعاة إبل ومواش وجعلهم أغنياء بعد أن كانوا فقراء وجعلهم قادة وفاتحين معززين مكرمين بعد أن كانوا مهملين، وذكرهم بأنهم كانوا من مؤيدى مسيلمة الكذاب وسجاح وما إلى ذلك من سباب.

وذكرهم بأنه عراقى النسب والهوى والدين مثلهم، وأن الولاة الجدد الذين سيبعث بهم الخليفة الجديد إلى خراسان سيسومونهم سوء العذاب وسيسلبونهم غنائمهم حيث قال لهم: «يا أهل خراسان، هل تدرون من وليكم؟ وليكم يزيد ابن المهلب. كأنى بأمير مزجاء، وحكم قد جاءكم فغلبكم على فيئكم.

إن الشام أب مبرور، وإن العراق أب مكفور، حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم! يا أهل خراسان، انسبونى تجدونى عراقى الأم، عراقى الأب، عراقى المولد، عراقى الهوى والرأى والدين»[1].

وكان عدم تأييد الجنود لقتيبة التزامهم بالسلطة الشرعية المتمثلة بالخليفة إضافة إلى ما أبداه من الإساءة للجنود وقبائلهم فى خطبته المذكورة قد جعلهم يتمسكون بالسلطة الشرعية أكثر من ذى قبل.

وكذلك عدم رضا أحد رؤساء القبائل العربية من سياسته إقالته لوكيع بن أبى سود الذى كان قائدا لبنى تميم وتعيين ضرار بن حصين بن زيد الفوارس مكانه.

وعندما أعلنت القبائل العربية عن رفضها قبول دعوة قتيبة خلع الخليفة،

(١) انظر تاريخ الطبري.

وعندما قررت القبائل تعيين قائد عليها يقودها ضد قتيبة، لم تجد أفضل من وكيع ابن أبى سود.

أما الأسباب التى أدت إلى اختيار وكيع لهذا المنصب فكثيرة أهمها أنه كان ينتمى إلى قبيلة تميم التى كانت أكبر القبائل العربية فى خراسان، وكانت هذه القبيلة تنتمى إلى مجموعة القبائل المضرية (العدنانية) التى كانت تنتمى إليها غالبية قبائل خراسان.

وكان وكيع على خلاف مع قتيبة بسبب إقالته من قيادة قبيلته.

إلى جانب ذلك فإن الظروف كانت خطيرة وحرجة للغاية لذلك لم يقبل بالقيادة العامة أى من قادة القبائل لذلك عرضوا هذا المنصب على وكيع الذى وصفوه «بالأعرابى... فإنه مقدام لا يبالى ما ركب، ولا ينظر فى عاقبة، وله عشيرة كثيرة تطيعه، وهو موتور بطلب قتيبة برياسته التى صرفها عنه وصيرها لضرار بن حصين الفوارس».

وذكر المؤرخون أن وكيعاً كان شخصا شرسا حتى إنه لا يبالى بتطبيق حدود الشرع الإسلامى، فقد ذكرت عنه أنه رأى يوما شخصا سكرانا فأمر بقتله فقتل «فقيل له: ليس عليه القتل إنما عليه الحد.

قال: لا أعاقب بالسياط ولكنى أعاقب بالسيف» علما أنه هو نفسه كان متهما بالشرب والسكر والله أعلم.

ومن بين القادة المهمين الذين لعبوا دورا مهما فى هذه الحوادث كان حيان النبطى الذى كان يقود حوالى سبعة آلاف جندى من الموالى، وكان حيان قد اتفق مع وكيع على أن يؤيده مقابل أن يمنحه وكيع خراج المنطقة الشرقية من نهر بلخ طيلة فترة قيادة وكيع، فوافق وكيع على ذلك ووفى له بعد مقتل قتيبة(١).

وقد استهجن العجم ما فعله العرب بقتيبة وعائلته حتى إن رجلاً من خراسان قال: يا معشر العرب قتلتم قتيبة، والله لو كان قتيبة منا فمات فينا جعلناه فى

---

(١) انظر المصدر السابق.

تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صدع قتيبة».

وكان لمقتل قتيبة بهذا الشكل المأساوى الأمر البالغ على المناطق والبلاد التى فتحها فقد توقفت الفتوحات فى هذه الجهات كما تركها قتيبة عند كاشغر على حدود الصين وانشغلت الدولة الأموية حتى سقوطها بالتصدى للثورات التى قامت على الأمويين والخلافات التى نشبت بينهم وبين خراسان واستطاعت الدولة الأموية بصعوبة من إخضاع الثائرين ولكنها لم تضف أى فتوحات بعد فتوحات قتيبة بن مسلم.

وقد نال القائد محمد بن القاسم الثقفى نفس مصير قتيبة رحمه الله.

وكان السبب أيضاً أنه من قبيلة الحجاج ومن قواده ولم يشفع له فتوحاته كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

■ ■ ■

مصير قاتل قتيبة

كان وكيع بن أبى سود هو قاتل قتيبة وأسرته وبعث برأس قتيبة إلى الخليفة سليمان فحظى عنده وكتب له بإمره خراسان مكافأة له على ما فعل.

إلا أن الله عز وجل أراد إظهار الحق ومعاقبة الخائن القاتل، فقد أراد يزيد ابن المهلب الذى كان يرغب فى إمارة خراسان العودة إليها بعد أن عزله منها الحجاج، فبعث يزيد مندوباً عنه للخليفة وهو عبد الرحمن بن الأهتم كى يزكيه عنده فى إمرة خراسان وينتقص من أمر وكيع قاتل قتيبة.

وبالفعل أدى ابن الأهتم مهمته بنجاح وكان ذا دهاء ومكر فلم يزل بالخليفة حتى عزل وكيعا عن خراسان بعد حوالى عشرة أشهر من ولايته وولى يزيد بن المهلب وأعطاه ولايتها مع العراق.

وأرسل سليمان بن عبد الملك معه كتاباً فيه القبض على وكيع لأنه قد ثبت لدى الخليفة أنه خدع بأن قتيبة قد خلعه وقد ثبتت لديه أن قبيلة قيس زعموا أن قتيبة بن مسلم لم يكن قد خلع طاعة الخليفة.

وأمر الخليفة بالقبض على وكيع وتقييده وإرساله إليه.

فتقدم مخلد بن يزيد بن المهلب فأخذ وكيعاً وحبسه ثم قدم يزيد بن المهلب فتسلم خراسان وأقام بها.

وهكذا كان جزاء وكيع بن أبى سود الذى قاد الفتنة ضد قتيبة وقام بمذبحة بشعة أباد فيها عائلة قتيبة وأتى بأفعال لا يرضى عنها الله ورسوله وأوهم الخليفة بخلع قتيبة له، فلم تمض شهور حتى ظهرت الحقيقة ولكن بعد مقتل القائد المسلم الذى تحقق على يديه الفتوحات وخدم الإسلام.

أما ابن الأهتم فقد وعده يزيد بن المهلب بمائة ألف درهم ولكنه لم يف بوعده له وهكذا تكون السياسة والحكم دوماً.

القائد محمد بن القاسم الثقفى فاتح السند (باكستان) والهند ونهايته بعد مقتل الحجاج

بلاد الهند والسند عرفها العرب منذ عهد الخلفاء الراشدين بعد فتح بلاد فارس وهروب كسرى الفرس واستنجاده بالملوك المجاورين لبلاده وعلى رأسهم ملك السند حيث ساعد هذا الملك كسرى الفرس بالمال والعتاد، وقد ذكر البلاذرى وصول حملات إسلامية مبكرة لبلاد السند فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ثم فى عهد الإمام على بن أبى طالب[1].

وقد ذكر البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان أن الأسباب التى دعت المسلمين لفتح بلاد السند هو اكتشاف تحالف بين السند والترك حيث اكتشف المهلب بن أبى صفرة فى عهد معاوية بن أبى سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك فى بلاد القيقان بالهند.

وأدى ذلك إلى إرسال حملات عسكرية بقيادة عبد الله بن سوار وسنان ابن سلمة بن الحبق الهذلى وتم فتح مكران وجعلها من الأمصار الإسلامية.

والسبب الأهم كان فى عصر الخوارج حين قام بعض القراصنة الهنود على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات قد أرسلهن ملك جزيرة ياقوت إلى الحجاج الثقفى ونادت امرأة منهن بأعلى صوتها: يا حجاج.

(١) انظر فتوح البلدان ـ للبلاذرى، وتنقسم بلاد السند عند العرب إلى إقليمين هما إقليم شرقى جبال سليمان وهو المعروف الآن بالسند والبنجاب وهو إقليم الخصب والنماء والسكان، والإقليم الآخر واقع غرب جبال سليمان وهو المعروف اليوم بأفغانستان وبلوخستان وهو إقليم قاحل كثير الجبال الوعرة لا خصب فيه ولا نماء.

وبلغ ذلك الحجاج فقال: لبيك[1].

وأرسل الحجاج إلى ملك الهند «واهر» يطلب منه الإفراج عن النسوة المسلمات فقال له: أخذهن لصوص لا أقدر عليهم.

فأرسل الحجاج إليه عبيد الله بن نبهان إلى الديبل ـ وهى مدينة كراتشى ـ لكنه قتل، فأمر الحجاج بديل بن طهفة البجلى بالتوجه من عمان إلى «الديبل»، فسار إليها لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضاً.

وهنا أرسل الحجاج القائد الشاب الصغير السن محمد بن القاسم الثقفى ليقود جيشاً لفتح بلاد السند والهند وجمع له الحجاج ستة آلاف مقاتل من الشام وجهزه أفضل تجهيز عام ٨٩ هـ.

فمن هو ذلك القائد الشاب محمد بن مسلم الثقفى، الذى توجه إلى السند لفتحها وهو ابن السابعة عشر عاماً؟

إنه القائد الشاب محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ولد عام ٧٢ هـ بالعراق وكان أبوه القاسم قد جاء إلى العراق للمشاركة فى الحرب بين ابن الزبير وعبد الملك فأقام بها وهو ابن عم الحجاج الثقفى.

كان من المشهور عن أسرة محمد بن القاسم أنها أسرة القادة والأمراء وقد

---

(١) ذكرت كتب التاريخ أنه حدث عام ٨٨ هـ أن سفينة عربية كانت قادمة من جزيرة الياقوت ـ ببلاد سيلان ـ عليها نساء مسلمات وقد مات آباؤهن ولم يبق لهن راع هناك، فقررن السفر للإقامة فى العراق، ورأى ملك سيلان فى ذلك فرصة للتقرب إلى العرب فوافق على سفرهن، وحمل السفينة بالهدايا للحجاج والخليفة الوليد بن عبد الملك.

وبينما كانت السفينة فى طريقها لميناء البصرة مارة بميناء الديبل ببلاد السند خرج إليها قراصنة من السند واستولوا عليها.

فكتب الحجاج إلى ملك السند يطلب إليه الإفراج عن النساء المسلمات والسفينة إلا أنه اعتذر بحجة أن الخاطفين قراصنة لا يقدر عليهم.

ثم علم الحجاج أن النساء مسجونات فى سجن ملك السند فى سجن الديبل فأرسل الحجاج الحملات المتتالية لفك أسر النساء المسلمات حتى أرسل جيشاً بقيادة محمد بن القاسم فكان الفتح والنصر على يديه.

عرف عنه الشجاعة وقوة البأس منذ صغره حتى قال فيه الشاعر:

إن المنايا أصبحت مختالة
بمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سؤدداً من مولد(١)

وقد عين الحجاج أبا محمد «القاسم»(٢) والياً على البصرة وفيها نشأ محمد وكذلك فى مدينة واسط التى بناها الحجاج.

وقع اختيار الحجاج على محمد بن القاسم لقيادة الجيش الفاتح للسند والهند وكان وقتها فى السابعة عشرة من العمر، وذلك سنة ٨٩ هـ حيث بدأت فصول المجد والبطولة فى حياة هذا القائد الصغير.

وعندما تولى محمد بن القاسم قيادة الحملة الجهادية المتجهة إلى بلاد السند اشترط على الحجاج بن يوسف الثقفى عدة شروط تبرهن على مدى الكفاءة القيادية والقتالية لمحمد بن القاسم منها: -

- أن يكون الجيش كامل التجهيز والإعداد والمؤن حتى لا تتوقف مسيرة الفتح، فأمده الحجاج بجيش يقدر بستة آلاف مقاتل مجهزين بكل شىء حتى الإبر والخيوط، وبالفعل جهز الحجاج ذلك الجيش بكل شىء عظم شأنه أو قل.

- أن يرافق الجيش البرى أسطول بحرى ليكون الهجوم مزدوجاً وفى اتجاهين، ووافق الحجاج.

- أن يواصل الجهاد والسير حتى ينتهى من فتح بلاد السند كلها، ووافق الحجاج.

وانضم إلى جيش محمد بن القاسم من الشيراز ستة آلاف من الجند فأصبح

(١) انظر الكامل فى التاريخ وقد قيل أن الشاعر هو يزيد بن الأعجم.

(٢) والد محمد بن القاسم وعم الحجاج أيضاً.

قوام جيشه ١٢ ألف مقاتل واتجهوا نحو بلاد السند.

وكان لمحمد بن القاسم فى رحلته للفتح المبارك هدفان الأقرب الانتقام من «داهر» ملك السند الوثنى الذى قتل المسلمين بأرضه وآخرهم «محمد بن هارون النمرى»، والأبعد فتح بلاد السند وما ورائها من بلاد الهند ونشر الإسلام فى هذه الربوع الشاسعة.

تحرك محمد بن القاسم بجيشه القوى إلى مكران فأقام بها عدة أيام يستجمع قوته بعد سير طويل وذلك لفتح مدينة «الديبل» أحصن مدن السند، وفى الطريق إليها فتح مدينة «قنزبور» و«أرمانيل» ثم واصل السير حتى نزل على مدينة «الديبل» وذلك يوم جمعة ووافاه الأسطول بآلات الحصار ومنها المنجنيق الكبير المشهور باسم «العروس» وكان يلزمه ٥٠٠ رجل لتشغيله.

وضرب محمد بن القاسم حصاراً شديداً على المدينة الحصينة، واستمات الهندوس فى الدفاع عن مدينتهم وفكر محمد بن القاسم فى فكرة عبقرية لفتح المدينة وكان هناك معبد ضخم لصنم معروف عندهم على قمته سارية خشبية طويلة جداً فى نهايتها راية حمراء كبيرة إذا هبت الرياح تحركت هذه الراية كأنها كالمروحة الدائرة، وهى مقدسة عندهم، فأمر محمد بن القاسم بتوجيه قذائف المنجنيق إلى هذه السارية حتى كسرها، وهو يعلم بتشاؤم الهندوس من ذلك.

وبالفعل مع انهيار السارية انهارت معنويات الكفار واقتحم المسلمون المدينة، وفتحوها بعد معركة طاحنة وبنى محمد بن القاسم بها مسجداً واستقدم أربعة آلاف من المسلمين وأسكنهم فى المدينة للتأكيد على إسلام هذه المدينة وطمس الهوية الوثنية عنها.

وبعد فتح مدينة «الديبل» أحصن مدن السند، واصل محمد بن القاسم سيره، فكان لا يمر على مدينة إلا فتحها وهدم معابد الوثنية والبوذية بها وأقام شعائر الإسلام وأسكنها المسلمين وبنى المساجد حتى غير خريطة البلاد تماماً وصبغها بصبغة إسلامية تامة.

واستطاع محمد بن القاسم أن يبهر الهندوس بشخصيته القوية الحازمة وقد تعجبوا من شجاعته وحسن قيادته لجيش كبير وهو دون الثامنة عشرة، وبالفعل أسلم عدد كبير من الزط وهم من بدو الهنود وانضم منهم أربعة آلاف رجل يقاتلون مع محمد بن القاسم.

وكان لهم أثر كبير فى القتال لخبرتهم بالبلاد ومعرفتهم للغة الهنود.

كانت الأخبار قد وصلت إلى ملك الهند الوثنى «داهر» فاستعد للقاء المسلمين بجيوش كبيرة مع سلاح المدرات الشهير وهى الفيلة، وقد داخله الكبر والعجب لضخامة جيوشه واستخف بالمسلمين لقلتهم.

ولكنه فوجئ بالإعصار الإسلامى يعبر نهر مهران الفاصل بينه وبين المسلمين، ويجد داهر الذى كان على ظهر فيل كبير نفسه وجهاً لوجه مع محمد بن القاسم وجنوده، ويقتتل الفريقان قتالاً لم تشهد مثله أرض السند من قبل.

ويرى «داهر» جنوده صرعى من حوله تتخطفهم سيوف المسلمين، فنزل من على ظهر فيله المنيع ويقاتل بنفسه حتى يأتيه قدره المحتوم ويقتله المسلمون وينشد قاتله هذه الأبيات:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
إنى فرجت الجمع غير معرد	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلاً	متعفر الخدين غير موسد

وبمقتله أدرك المسلمون ثأرهم وانفتحت أمامهم بلاد السند على مصراعيها وقد قامت امرأة «داهر» بحرق نفسها هى وجواريها ووقعت «صيتا» ابنة داهر فى الأسر.

بعد مقتل «داهر» واصل محمد بن القاسم سيره ليحقق الهدف الأكبر والأبعد كما قلنا بعد أن انتقم من عدو الإسلام «داهر» ففتح مدينة «راور» ثم «رهماناباذ» ثم استسلم إقليم «ساوندرى» وأعلنوا إسلامهم ثم «سمند».

ثم فتح محمد بن القاسم مدينة «الملتان» وذلك بعد قتال عنيف إذ كانت معقل

البوذية بالسند وغنم منها أموالاً طائلة حملت كلها إلى الحجاج وقدرت بمائة وعشرين مليون درهم، ومع الغنائم رأس الطاغية «داهر».

وكانت الحملة قد تكلفت ستين مليون درهم فقال الحجاج كلمته الشهيرة «شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر».

بعد أن نجح محمد بن القاسم فى القضاء على ملك السند الكبير «داهر» برز ملك آخر بمثابة الذراع اليمنى لداهر واسمه دوهر وكان ملكاً على إقليم «الكيرج» وهى أقصى بلاد السند على حدود بلاد الهند، فاستعد دوهر للقاء المسلمين وغره الشيطان بأنه سيحقق ما لم يحققه «داهر» واصطدم مع المسلمين فنزل به من حر سيوفهم ما لم يطق فحاول الفرار ولكن أدركته سيوف المسلمين فقتل كما قتل الذى من قبله والتحق رأسه برأس من سبقه وقال فيه قاتله أيضاً: ـ

نحن قتلنا داهراً ودوهر والخيل تروى منسراً فمنسرا

فى هذه الأثناء مات الحجاج وابن عم محمد بن القاسم، ولكن هذا لم يرد عزم محمد بن القاسم عن مواصلة الفتح حيث أصبح الطريق مفتوحا إلى بلاد الهند وبالفعل بدأ محمد بن القاسم فى فتح مدن الهند فبدأ بمدينة «سرست» فدخل أهلها فى طاعة المسلمين وكانوا بحارة مهرة استفاد منهم المسلمون.

وبدا للجميع أن محمد بن القاسم لن يرجع حتى يفتح بلاد الهند أيضاً ولكن حدث تطور مأساوى سريع فى حياة محمد بن القاسم.

■ ■ ■

نهاية محمد بن القاسم المأساوية

بدأت فصول هذه المأساة والمحنة العظيمة التى تعرض لها بطلنا العظيم الصغير، عندما توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك وذلك سنة ٩٦ هجرية وتولى مكانه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان شديد الكره للحجاج بسبب جرائم الحجاج وسفكه لدماء الكثيرين لأقل شبهة.

فلما تولى الخلافة قام بتعيين واحد من أشد خصوم الحجاج وهو «صالح بن عبد الرحمن» أميراً على العراق فقام هذا الرجل بعزل كل رجال الحجاج من مناصبهم ومنهم بالقطع محمد بن القاسم أمير السند وفاتحها وعين مكانه «يزيد ابن أبى كبشة السكسكى».

ولما وصل نبأ العزل لمحمد بن القاسم حاول البعض إقناعه بالعصيان والانفراد بهذه البلاد البعيدة عن مركز الخلافة، خاصة وأن جنوده يحبونه وكذلك من أسلم من أهل السند والهند، وسبق أن ثار بهذه البلاد ثائران من العرب هما محمد ومعاوية ابنا الحارث العلافى ولكن وجود «داهر» حال دون انفرادهما بهذه البلاد، وحاولوا إقناعه بأنه مظلوم ولا ذنب له وتخويفه من صالح بن عبد الرحمن.

ولكن محمد بن القاسم كان من الطراز النادر للقادة الذين يعملون لخدمة الإسلام ولا يريدون من الدنيا شيئاً فلا مناصب تهمه ولا دنيا تغريه، وخاف من عاقبة الخروج على الخلافة وما سيؤدى إلى تفرق الأمة وتمزق المسلمين وسفك الدماء بين المسلمين فى فتنة الخروج، ووافق على قرار العزل مع قدرته على المقاومة والانفراد، وأنشد فى ذلك قوله: -

ولو كنت أجمعت الفرار لوطئت ... إناث أعدت للوغي وذكور

وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كن من عك علي أمير

وهكذا توقفت مسيرة فتح الهند بعزل هذا البطل ولكن الذى حدث بعد ذلك كان أشد إيلاماً ومأساوية.

تروى بعض الروايات أن سبب مقتل محمد بن القاسم مؤامرة دبرتها «صيتا» ابنة «داهر» وقد وقعت فى الأسر بعد مقتل أبيها وانتقلت من العز والملك والغنى والسيطرة إلى أن قتل أبوها وانتحرت أمها وضاع ملكها وصارت مملوكة بعد أن كانت ملكة، فامتلأ قلبها غيظاً وحنقاً وبغضاً على البطل الشاب محمد بن القاسم فلما عزل محمد بن القاسم من منصبه وعلمت أن أيامه قد ولت أرادت أن تدرك ثأرها وتشفى غليلها فتقدمت للوالى الجديد «يزيد بن أبى كبشة» بشكوى ادعت فيها أن محمد بن القاسم قد اغتصبها بالقوة بعد وقوعها فى الأسر وهى تهمة عظيمة وفرية دنيئة من وثنية مشركة على بطل عظيم.

ولإن التهمة كبيرة قرر الوالى الجديد القبض على محمد بن القاسم وإرساله إلى والى العراق «صالح بن عبد الرحمن» للتحقيق، وبالفعل حمل محمد بن القاسم مقيداً بالأغلال إلى العراق فأنشد قائلاً بيته المشهور الذى صار بعد ذلك مثلاً سائراً ويعبر عن صدق إخلاص هذا الرجل ومدى حزنه على توقيفه عن الجهاد فى سبيل الله، قال: ـ

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان مشهد خروج محمد بن القاسم مقيداً بالقيود شديد الأثر على أهل السند، فلقد اصطفوا لوداعه وهم يبكون على فراقه وما صار إليه، والعجب العجاب أن الله عز وجل قد أظهر آية سريعة وباهرة لبراءة البطل العظيم، حيث لم يمض على خليفته فى ولاية السند «يزيد بن أبى كبشة» سوى سبعة عشر يوماً ثم مات فجأة.

وقد فرح كفار السند لخروج محمد بن القاسم وتنفسوا الصعداء وخلعوا الطاعة وعادوا للكفر وهموا بإخراج المسلمين، كل ذلك لأن الساحة قد غاب عنها أسدها وأشدها.

ولكن الأرجح أن وراء مقتله هو رغبة الخليفة سليمان التخلص من عائلة الحجاج الثقفى وأنصاره كما فعل مع قتيبة بن مسلم(١).

وأيضاً كان والى العراق الجديد «صالح بن عبد الرحمن» شديد الكراهية والبغضاء للحجاج الثقفى، ذلك لأن الحجاج قد قتل آدم أخا صالح وكان يرى رأى الخوارج، فأراد صالح أن يدرك ثأره من الحجاج وذلك بالانتقام من أقربائه وهذا هو عين التعصب والظلم والجور وهو ما كان يفعله الحجاج أيضاً مع خصومه، فإن الله عز وجل قال ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

قام صالح بن عبد الرحمن بحبس محمد بن القاسم فى سجن مدينة واسط الذى طالما زج فيه الحجاج خصومه لأدنى شبهة وبنفس آلات التعذيب أمر صالح بتعذيب محمد بن القاسم حتى يعترف هل ارتكب هذه الجناية الشنيعة التى افترتها الوثنية «صيتا» عليه، ومحمد بن القاسم يقسم أنه برىء ويصر على ذلك، وينشد أشعاراً مؤثرة يقول فيها: ـ

فلئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلاً مغلولاً

فلرب قنية فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلاً

ويظل محمد بن القاسم صامداً تحت التعذيب مستمسكاً ببراءته وطهارته من هذه الفرية الحقيرة ولا ذنب له سوى فتوحاته العظيمة وقهره لملوك الكفر، ولكونه ابن عم طاغية أخذت عشيرته بجريرته، حتى جاءت اللحظة الحزينة التى مات فيها مظلوماً وتنطفئ شمعة لو قدر لها البقاء لصارت شمساً محرقة لأعداء الإسلام ولفتح المسلمون الهند التى تأخر فتحها بعد ذلك بعدة قرون.

وقد مدحه شعراء زمانه ورثوه وبكوا عليه فهذا حمزة بن بيض الحنفى يقول:

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سودداً من مولد

فرحمه الله رحمة واسعة وعوض شبابه الغض الطرى بالفردوس الأعلى.

(١) وقد ذكرت رواية غير موثقة ولا تصح أن الذى قتله هو الخليفة الوليد بن عبد الملك.

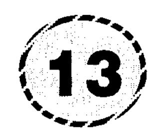
والأمر العجيب حقا أن «صيتا» ابنة داهر لما علمت بوفاة محمد بن القاسم تحت التعذيب بكت وتحرك ضميرها وذهبت لوالى العراق واعترفت بجريمتها فرفع أمرها للخليفة سليمان بن عبد الملك، فأمر بقتلها جزاء وفاقاً وقصاصاً بهذا البطل العظيم.

وهكذا نصره الله حيا وميتا رحمه الله[١].

■■■

---

(١) انظر تاريخ الطبرى، الكامل فى التاريخ، البداية والنهاية، المنتظم فى التاريخ وفتوح البلدان، سير أعلام النبلاء، وفيات الأعيان، شذرات الذهب، العبر فى خبر من غبر، وذكرنا ذلك باختصار.



مواقف فى حياة الحجاج

- مواقف وكلمات فى حياة الحجاج
- من ضحايا الحجاج الثقفى
- ما روى عنه من الكلمات والجراءة البالغة من كتاب البداية والنهاية لابن كثير
- الحجاج وليلى الأخيلية صاحبة « مجنون ليلى »

مواقف وكلمات فى حياة الحجاج:

من فراسة الحجاج ودهائه أنه أثناء قتاله لابن الجارود الذى قاد ثورة ضده فى البصرة وكاد أن ينتصر عليه وقد حصره فأرسل إليه ابن الجارود رسولاً يقول له: «ياحجاج.. سلم نفسك، ولك الأمان».

فلما خرج رسول (ابن الجارود) صاح (الحجاج) فى جيشه وقال:

- ماذا يريدون منى..

يريدون منى أن أؤمن ابن الجارود..

ياهذا.. قل له إن هذا لن يكون..

فدبت الحماسة بين رجال الحجاج وقالوا أوشكنا على النصر

فتحولت المعركة من الهزيمة إلى النصر.

ويروى أيضاً عن ذكائه وفراسته: أن الحجاج صعد المنبر مرة ليخطب الجمعة وقبل أن يشرع فى الخطبة.. انتقض وضوؤه، وخشى الحجاج أن يعير بها، إن أخبرهم بانتقاض وضوئه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (بلغنى أنكم لا تحسنون الوضوء، وقد نويت أن أعلمكم وضوء النبى محمد «صلى الله عليه وسلم»، ياغلام.. ائتنى بالطست والماء لأعلمهم كيف كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) يتوضأ.

ومما يروى عن جوده وكرمه أنه ولما ولى العراق.. كان يطعم فى كل يوم على ألف مائدة، يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس، ويرسل الرسل إلى الناس: «إلىَّ أيها الناس هلموا إلى الغداء».

وإذا غربت الشمس: «أيها الناس هلموا إلى العشاء».

وخطب مرة فى الناس وقال: «رسلى إليكم الشمس.. إذا طلعت فتعالوا للغداء،

وإذا غربت فتعالوا للعشاء».

ومما يروى عن عفوه عمن أساء له أنه خرج الحجاج مرة للصيد، وكان قد انفرد وحده بأعرابى، فسأله الحجاج:

أيها الرجل.. أخبرنى عن حال أهل المدينة

- فقال الرجل:

- بشر حال

- قال الحجاج:

- لِمَ؟

- فقال الرجل:

- نزل بالمدينة الظلوم الغشوم

- سأله الحجاج:

- من تقصد الحجاج؟

- أجاب الرجل:

- نعم..

- فقال الحجاج:

- أخبرنى عن سيرة هذا الأمير

- فقال الرجل:

- ظلوم.. غشوم.. لا حياه الله

- فقال الحجاج:

- لو شكوتموه إلى أمير المؤمنين..

فقاطعه الرجل قائلاً:

- هيهات.. إن عبدالملك أظلم منه، لعنه الله

فقال الحجاج:

- هكذا..

فقال الرجل:

- أى نعم.. أغريب أنت لا تعرف..

وحين أمر الحجاج بالقبض على الرجل، قال الرجل:

ياحجاج.. السر الذى بينى وبينك، أحب أن يكون مكتوما

فضحك الحجاج.. وعفى عنه

ويروى عن حبه لأهل اللغة والفصاحة أنه ذات يوم.. كان يجلس معه (الغضبان بن القبعثرى) وسأله الحجاج:

«ياغضبان.. من أكرم الناس»؟

فقال الغضبان:

- أفقههم فى الدين، وأصدقهم فى اليمين، وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين

فقال الحجاج:

- ومن ألأم الناس؟

رد (الغضبان)

- الرجل الخوان.. كاره الإخوان، المتلون بعدة ألوان

فقال الحجاج:

فمن أشجع الناس؟

أجاب الغضبان:

أضربهم بالسيف.. وأكرمهم للضيف، وأبعدهم عن الظلم

فقال الحجاج:

- فمن أجبن الناس؟

- قال الغضبان:

- المتأخر عن الصفوف.. المرتعش عند الوقوف.. الكاره لضرب السيوف.

فقال الحجاج:

- ومن خير الناس؟

قال الغضبان:

- أكثرهم إحسانا.. وأعدلهم ميزانا.. وأوسطهم ميدانا.. وأدومهم غفرانا.

وكان الحجاج قد أحسن تشييد قصره وصنع فيه قبة عظيمة، فقال الحجاج:

- أنظر إلى هذه القبة.. فصفها لى؟

فقال الغضبان!

- لا تدوم لك ولا لولدك.. بنيتها فى غير بلدك، والملك كله لله.

فغضب (الحجاج) وأمر بإدخاله السجن..

ولما حمله الجنود.. أخذوا يسحبونه إلى السجن فقال معلقا:

«سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين».

فقال الحجاج:

- أنزلوه.

فقال الغضبان:

«رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين».

فقال الحجاج:

- ألقوه على الأرض.

فلما ألقوه قال:

- منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

فقال الحجاج:

- جروه من قدميه إلى السجن.

فقال الغضبان:

«بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم».

فقال الحجاج:

أطلقوا صراحه قد عفوت عنه، فقد غلبنى بصبره وذكائه.

وروى أن الحجاج أمر صاحب حراسته.. أن يطوف بالليل، فمن وجده بعد العشاء ضرب عنقه، فطاف ليلة فوجد صبيان يتمايلان، وعليهما أثر الشراب، فأحاط بهما وقال لهما من أنتما حتى خالفتما الأمير، فقال الأول:

أنا ابن من دانت الرقاب له ... ما بين مخزومها وهاشمها

تأتيه بالرغم وهي صاغرة ... فيأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عن قتله وقال: لعله من أقارب أمير المؤمنين، وقال الثانى:

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره ... وإن نزلت يوما فسوف تعود

ركاباه لا تنفك رجلاه منهما ... إذا الخيل في يوم الكريهة ولت

فأمسك عن قتله وقالك لعله من شجعان العرب، فلما أصبح رفع أمرهما إلى الحجاج فأحضرهما وكشف حالهما، فإذا الأول ابن حجام، والثانى ابن فوال، فتعجب من فصاحتهما، وقال لجلسائه: «علموا أولادكم الأدب فوالله لولا فصاحتهما لضربت عنقيهما»، ثم أطلقهما وأنشد:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول هاأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وجىء إلى (الجحاج) بأسيرين.. من أصحاب (ابن الأشعث)، فقال الحجاج لجنوده:

اقتلوهما..

فقال الأول:

- ياحجاج.. أتقتلنى ولى عليك يد.

فقال الحجاج:

- أنا لا أعرفك..

فقال:

- ذكر ابن الأشعث يوما أمك بسوء.. فرددت عليه.

قال الحجاج:

- ومن يشهد لك؟

قال الأول:

- صاحبى هذا.

فقال الثانى:

- أقسم بالله على هذا.

فقال له الحجاج:

- ولماذا لم ترد عليه.. عندما وقع فى أمى.. كما رد صاحبك.

فقال الثانى:

- لأنى أكرهك..

فقال الحجاج:

أطلقوا صراح الأول.. لفعله، والثانى.. لصدقه

ويروى عن غيرة الحجاج على محارم الله ما كان منه حين انتصر على أعدائه من الثائرين عليه فى معركة الزاوية ودخل إلى العراق، حذر الجيش وقال:

«لا يدخل رجل منكم بيت امرأة.. إنى أنا الغيور ابن الغيور».

حتى لا يصك جنوده حرمة النساء، كما يفعل الجنود المنتصرون.

ويروى أن ابن أخيه كان حاكما بواسط، وكان قد أغرم بامرأة فمنعته نفسها، ولما ألح قتله إخوتها، فلما تبين الحجاج ذلك أهدر دمه وقال:

هو هدر، لا يُقتل فيه أحد.

وكان الحجاج لا يشرب الخمر وذلك من مناقبه التى ذكرت عنه فقد ذكر ابن كثير: أن الخليفة عزم على الحجاج بكأس نبيذ، فأبى وقال:

«إنى أنهى أهل عملى عن الخمر، ولا أريد أن أخالف ما أنهى عنه».

ومما أنشده الحجاج فى مرض موته وقد فرح الناس فيه لقرب موته:

ربى إن العباد قد أيأسونى — ورجائى لك الغداة عظيم

ياربى قد حلف العباد واجتهدوا — أنى رجل من ساكنى النار

أيحلفون على عمياء ويحهم — ما علمهم بعظيم العفو غفار

اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لا تغفر

اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لا تغفر

اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لاتغفر

وأخذ يكررها حتى مات.

ولما مات خرجت جارية تصرخ وتقول:

ألا إن مطعم الطعام..

وميتم الأيتام..

ومرمل النساء..

ومفلق الهام..

وسيد أهل الشام.. قد مات..

فاليوم يرحمنا.. من كان يبغضنا   واليوم يأمننا.. من كل يخشانا

وحزن عليه الخليفة الوليد وقال:

كان أبى يقول إن الحجاج جلدة ما بين عينيه، أما أنا فأقول إنه جلدة وجهى كله.

وما لبث بعده فى الدنيا سوى ثمانية أشهر ومات.

وأما عمر بن عبدالعزيز فلما علم سجد شكراً لله، وكذلك الحسن البصرى.

ولم يترك الحجاج بعد موته سوى: ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسرجا ورحلا ومئة درع موقوفة لله عز وجل، وحين تولى الخلافة سليمان بن عبدالملك: وأطلق من سجون الحجاج واحدا وثمانين ألف مسلم منهم ثلاثين ألف امرأة.

قال عنه الإمام الذهبى: كان الحجاج ظلوما.. غشوما.. خبيثا.. سفاكا للدماء، وكان ذا شجاعة.. وإقدام.. ومكر.. ودهاء.. وفصاحة.. وبلاغة.. وتعظيم للقرآن.

ثم قال: «ونحن نسبه.. ولا نحبه، بل نبغضه فى الله.. فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه، وأمره إلى الله.. وله توحيد فى الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء».

وذكر الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء:

«كان عند رأس المائة الأولى من هذه الملة.. فتنة الحجاج».

قال شريك القاضى، عن عبدالملك بن عمير قال: قال الحجاج يوما: من كان له بلاء أعطيناه على قدره، فقام رجل فقال: أعطنى فأنى قتلت الحسين فقال:

وكيف قتلته؟

قال: دسرته بالرمح دسرا وهبرته بالسيف هبرا وما أشركت معى فى قتله أحداً.

فقال: اذهب فوالله لا تجتمع أنت وهو فى موضع واحد.

ولم يعطه شيئاً.

وجاء الهيثم بن عدى إلى الحجاج فقال: إن أخى خرج مع ابن الأشعث فضُرب على اسمى فى الديوان ومنعت: العطاء، وقد هدمت دارى، فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

حنانيك من يجنى عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب قريبه ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إنى سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق من هذا

قال: وما قال؟

قال:﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ**﴾ **(سورة يوسف: ٧٨)**

قال: ياغلام أعد اسمه فى الديوان وابن داره وأعطه عطاءه.

وأمر مناديا ينادى: صدق الله وكذب الشاعر

وقال الهيثم بن عدى، عن ابن عياش: كتب عبدالملك إلى الحجاج أن ابعث إلى برأس أسلم بن عبد البكرى؛ لما بلغنى عنه فأحضره الحجاج فقال: أيها الأمير، أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب، وقال الله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وما بلغه عنى فباطل، وإنى أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى وهن

بالباب.

فأمر الحجاج بإحضارهن، فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته.

وهذه: أنا عمته، هذه: أنا أخته وهذه: أنا ابنته، وهذه: أنا زوجته وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشر فقال لها الحجاج: من أنت؟

فقالت: أنا ابنته ثم قالت: أصلح الله الأمير وجثت على ركبتيها وقالت:

أحجاج لم تشهد مقام بناته وعماته يندبنه الليل أجمعا

أحجاج كم تقتل به إن قتلته ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا

أحجاج من هذا يقوم مقامه علينا فمهلاً إن تزدنا تضعضعا

أحجاج إما أن تجود بنعمة علينا وإما أن تقتلنا معا

قال: فبكى الحجاج: وقال: والله لا أعنت عليكن ولا زدتكن تضعضعا.

ثم كتب إلى عبدالملك بما قال الرجل وبما قالت ابنته هذه فكتب عبدالملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته، وبالإحسان إلى هذه الجارية وتفقدها فى كل وقت.

وقيل: إن الحجاج خطب يوما فقال: أيها الناس، الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله

فقام إليه رجل فقال له: ويحك ياحجاج ما أصفق وجهك وأقل حياءك تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام؟ خبت وضل سعيك

فقال للحرس: خذوه.

فلما فرغ من خطبته قال له: ما الذى جرأك على؟

فقال: ويحك ياحجاج أنت تجترئ على الله ولا أجترئ أنا عليك! ومن أنت حتى لا اجترئ عليك وأنت تجترئ على الله رب العالمين؟

فقال: خلوا سبيله فأطلق سراحه!!

ما روى عنه من الكلمات النافعة والجراءة البالغة من كتاب البداية والنهاية لابن كثير:

قال أبوداود: ثنا محمد بن العلاء، ثنا أبوبكر، عن عاصم، قال: سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول: اتقوا الله ما استطعتم، ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبدالملك والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالاً،

وما عذيرى من عبد هذيل (ابن مسعود) يزعم أن قرآنه من عند الله، والله ما هى إلا رجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه، وهذا رواه البخارى عن محمد بن يوسف، عن سفيان وهو الثورى، عن الزبير بن عدى، عن أنس قال: لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه الحديث.

قلت: ومن الناس من يروى هذا الحديث بالمعنى فيقول: كل عام ترذلون، وهذا اللفظ لا أصل له، وإنما هو مأخوذ من معنى هذا الحديث، والله أعلم.

قلت: قد مر بى مرة من كلام عائشة مرفوعا وموقوفا: كل يوم ترذلون

ورأيت للإمام أحمد كلاما قال فيه: وروى فى الحديث كل يوم ترذلون نسما خبيثا

فيحتمل هذا أنه وقع للإمام أحمد مرفوعا، ومثل أحمد لا يقول هذا إلا عن أصل.

وقد روى عن الحسن البصرى مثل ذلك والله أعلم.

وقد قال سفيان الثورى: عن إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبى، قال: يأتى على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج[1]

وقال أبونعيم: عن يونس بن أبى إسحاق، عن أبى السفر، قال: قال الشعبى: والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج

وقال الأصمعى: قيل للحسن البصرى إنك تقول: الآخر شر من الأول، وهذا

---

(١) أى يترحمون على الحجاج لوجود من هو أشد طغياناً منه.

عمر بن عبدالعزيز بعد الحجاج

فقال الحسن: لابد للناس من تنفيسات.

وقال ميمون بن مهران: بعث الحجاج إلى الحسن البصرى وقد هم به، فلما قام بين يديه قال: ياحجاج كم بينك وبين آدم من أب؟

قال: كثير.

قال: فأين هم؟

قال: ماتوا.

قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن.

وقال أيوب السختيانى: إن الحجاج أراد قتل الحسن البصرى مرارا فعصمه الله منه، وقد ذكر له معه مناظرات، على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك، وإنما خرج معهم مكرها كما قدمنا، وكان الحسن يقول: إنما هو نقمة فلا نقابل نقمة الله بالسيف، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع، لقوله تعالى: **﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾** (٧٦،٧٥ المؤمنون)

وقال ابن دريد: عن الحسن بن الحضر، عن ابن عائشة قال: أتى الوليد بن عبدالملك رجل من الخوارج، فقيل له: ما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى خيرا.

قال: فعثمان؟ فأثنى خيرا

قيل له: فما تقول فى على؟ فأثنى خيرا، فذكر له الخلفاء واحدا بعد واحد، فيثنى على كل بما يناسبه، حتى قيل له: فما تقول فى عبدالملك بن مروان؟

فقال: الآن جاءت المسألة، ما أقول فى رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه؟

وقال الأصمعى: عن على بن مسلم الباهلى، قال: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاما، فقال لها بعض الشرط: يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه؟

فقالت: إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

فأمر بها فقتلت

وقد ذكرنا فى سنة أربع وتسعين كيفية مقتل الحجاج لسعيد بن جبير، وما دار بينهما من الكلام والمراجعة

وقد قال أبوبكر بن أبى خيثمة: ثنا أبوظفر، ثنا جفعر بن سليمان، عن بسطام بن مسلم، عن قتادة، قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟

قال: إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر

ويقال: إنه لم يقتل بعده إلا رجلا واحدا اسمه ماهان،

وكان قد قتل خلقاً كثيراً، أكثرهم ممن خرج مع ابن الأشعث.

وروى الترمذى بسنده عن هشام بن حسان، قال: أحصوا ما قتل الحجاج صبرا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا.

قال الأصمعى: حدثنا أبو عاصم، عن عباد بن كثير، عن قحدم، قال: أطلق سليمان بن عبدالملك فى غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير كانوا فى سجن الحجاج، وقيل: إنه لبث فى سجنه ثمانون ألفا، منهم ثلاثون ألف امرأة.

وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب، وكان فيمن حبس أعرابى وجد يبول فى أصل ربض مدينة واسط وكان فيمن أطلق فأنشأ يقول:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط　　　خرينا وصلينا بغير حساب

وقد كان الحجاج مع هذا العنف الشديد لا يستخرج من خراج العراق كبير أمر.

قال ابن أبى الدنيا وإبراهيم الحربى ثنا سليمان بن أبى سنح ثنا صالح

ابن سليمان، قال: قال عمر بن عبدالعزيز: لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وما كان الحجاج يصلح لدينا ولا لآخرة، لقد ولى العراق وهو أوفر ما يكون فى العمارة، فأخس به إلى أن صيبره إلى أربعين ألف ألف، ولقد أدى إلى عمالى فى عامى هذا ثمانين ألف ألف، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدى إلى ما أدى إلى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف.

كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدى بن أرطاة: بلغنى أنك تستن بسنن الحجاج، فلا تستن بسننه، فإنه كان يصلى الصلاة لغير وقتها، ويأخذ الزكاة من غير حقها، وكان لما سوى ذلك أضيع.

عن الريان بن مسلم قال: بعث عمر بن عبدالعزيز بآل بيت أبى عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن وكتب إليه: أما بعد فإنى قد بعثت بآل أبى عقيل وهم شر بيت فى العمل، ففرقتهم فى العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا، وعليك السلام.

وقال أبوبكر بن عياش: عن عاصم: لم يبق لله حرمة إلا ارتكبها الحجاج بن يوسف.

وقال يحيى بن عيسى الرملى: عن الأعمش: اختلفوا فى الحجاج فسألوا مجاهدا فقال تسألون عن الشيخ الكافر.

وروى ابن عساكر، عن الشعبى، أنه قال: الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت، كافر بالله العظيم، كذا قال، والله أعلم.

وقال الثورى: عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: عجبا لإخواننا من أهل العراق، يسمون الحجاج مؤمنا؟

وقال الثورى: عن ابن عوف، سمعت أباوائل يسأل عن الحجاج: أتشهد أنه من أهل النار؟ قال: أتأمرونى أن أشهد على الله العظيم؟

وقال الثورى: عن منصور: سألت إبراهيم عن الحجاج أو بعض الجبابرة فقال: أليس الله يقول: ﴿**أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ **(هود: ١٨)**

وبه قال إبراهيم: وكفى بالرجال عمى أن يعمى عن أمر الحجاج.

وقال سلام بن أبى مطيع: لأنا بالحجاج أرجى منى لعمرو بن عبيد، لأن الحجاج قتل الناس على الدنيا، وعمرو بن عبيد أحدث للناس بدعة شنعاء، قتل الناس بعضهم بعضا.

وقال الزبير: سببت الحجاج يوما عند أبى وائل فقال: لا تسبه لعله قال يوما: اللهم ارحمنى فيرحمه، إياك ومجالسة من يقول: أرأيت أرأيت أرأيت

وقال عوف: ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال: مسكين أبومحمد، إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه، وإن يغفر له فهنيئا له، وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه

فقيل له: ما القلب السليم؟

قال: أن يعلم الله تعالى منه الحياء والإيمان، وأن يعلم أن الله حق، وأن الساعة حق قائمة، وأن الله يبعث من فى القبور.

قال رجل لسفيان الثورى: أتشهد على الحجاج وعلى أبى مسلم الخراسانى أنهما فى النار؟

قال: لا! إن أقرا بالتوحيد

عن السرى بن يحيى، قال: مر الحجاج فى يوم جمعة فسمع استغاثة، فقال: ما هذا؟ فقيل: أهل السجون يقولون: قتلنا الحر

فقال: قولوا لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون

قال: فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار.

وقال بعضهم: رأيته وهو يأتى الجمعة وقد كان يهلك من العلة - أى المرض الذى أصابه وأهلكه -

وقال الأصمعى: لما مرض الحجاج أرجف الناس بموته، فقال فى خطبته: إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج، ومات

الحجاج، فمه؟! فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا وما فيها، وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قال الله له: ﴿**قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ**﴾ **(الأعراف: ١٥)**، فأنظره إلى يوم الدين.

ولقد دعا الله العبد الصالح فقال: ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾ **(ص: ٣٥)**، فأعطاه الله ذلك إلا البقاء.

ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له أمره، فقال: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ **(يوسف: ١٠١)**، فما عسى أن يكون أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل.

كأنى والله بكل حى منكم ميتاً، وبكل رطب يابساً، ثم نقل فى أثياب أكفانه ثلاثة أذرع طولا، فى ذراع عرضا، فأكلت الأرض لحمه، ومصت صديده، وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله، إن الذين يعقلون ما أقول، ثم نزل - من على المنبر[١].

عن عمر بن عبدالعزيز، أنه قال: ما حسدت الحجاج عدو الله على شىء حسدى إياه على حبه القرآن، وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لى، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل.

عن محمد بن المنكدر قال: كان عمر بن عبدالعزيز يبغض الحجاج، فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: اللهم اغفر لى فإنهم يزعمون أنك لا تفعل.

قال: وحدثنى بعض أهل العالم قال: قيل للحسن البصرى: إن الحجاج قال عند الموت كذا وكذا.

قال: قالها؟

قالوا: نعم!

قال: فما عسى.

(١) البداية والنهاية - لابن كثير.

عن الأصمعى، قال: لما حضر الحجاج الوفاة أنشأ يقول

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا   بأنني رجل من ساكنى النار

أيحلفون على عمياء ويحهم   ما علمهم بعظيم العفو غفار

قال: فأخبر بذلك الحسن البصرى فقال: بالله إن نجا لينجون بهما.

وزاد بعضهم فى ذلك:

إن الموالى إذا شابت عبيدهم   فى رقهم عتقوهم عتق أبرار

وأنت ياخالقى أولى بذا كرما   قد شبت فى الرق فاعتقنى من النار

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن عبدالله التيمى، قال: لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته، حتى أشرفت جارية فبكت، فقالت: ألا إن مطعم الطعام، وميتم الأيتام، ومرمل النساء، ومفلق الهام، وسيد أهل الشام قد مات، ثم أنشأت تقول:

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا   واليوم يأمننا من كان يخشانا

وروى عبدالرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، أنه أخبر بموت الحجاج مرارا، فلما تحقق وفاته قال: **﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥)**

وروى غير واحد: أن الحسن البصرى لما بشر بموت الحجاج سجد شكراً لله تعالى، وكان مختفيا فظهر، وقال: اللهم كما أمته فأذهب عنا سنته.

وقال حماد بن أبى سليمان: لما أخبرت إبراهيم النخعى بموت الحجاج بكى من الفرح.

وعن صالح بن سليمان، قال: قال زياد بن الربيع بن الحارث لأهل السجن: يموت الحجاج فى مرضه هذا فى ليلة كذا وكذا، فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن فرحا، جلسوا ينظرون حتى يسمعوا الناعية، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان.

وقيل: كان ذلك لخمس بقين من رمضان، وقيل: فى شوال من هذه السنة، وكان عمره إذ ذاك خمسا وخمسين سنة، لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين، وقيل: بعدها بسنة، وقيل: قبلها بسنة.

مات بواسط، وعفى قبره، وأجرى عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق، والله أعلم.

وقال الأصمعى: ما كان أعجب حال الحجاج، ما ترك إلا ثلاثمائة درهم!!

وقال الواقدى: حدثنا عبدالله بن محمد بن عبيد، حدثنى عبدالرحمن بن عبيدالله بن فرق حدثنا عمى، قال: زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم، ومصحفا وسيفا وسرجا ورحلا ومائة درع موقوفة.

وقال شهاب بن خراش: حدثنى عمى يزيد بن حوشب قال: بعث إلى أبو جعفر المنصور، فقال: حدثنى بوصية الحجاج بن يوسف، فقال: اعفنى ياأمير المؤمنين، فقال: حدثنى بها، فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف أنه يشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبدالملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث وأوصى بتسعمائة درع حديد، ستمائة منها لمنافقى أهل العراق يغزون بها، وثلاثمائة للترك قال: فرفع أبوجعفر رأسه إلى أبى العباس الطوسى - وكان قائما على رأسه - فقال: هذه والله الشيعة لا شيعتكم.

وقال الأصمعى، عن أبيه، قال: رأيت الحجاج فى المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟

فقال: قتلنى بكل قتلة قتلت بها إنسانا.

وقال حنبل بن إسحاق: ثنا هارون بن معروف، ثنا ضمرة بن أبى شوذب، عن أشعث الخراز، قال: رأيت الحجاج فى المنام فى حالة سيئة، فقلت:: ياأبا محمد ما صنع بك ربك؟

قال: ما قتلت أحدا قتلة إلا قتلنى بها قال: ثم أمر بى إلى النار.

قالت: ثم مه؟

قال: ثم أرجو ما يرجوا أهل لا إله إلا الله.

قال: وكان ابن سيرين يقول: إنى لأرجو له.

فبلغ ذلك الحسن فقال: أما والله ليخلقن الله رجاء فيه.

وقال أحمد بن أبى الحوارى: سمعت أبا سليمان الدارانى يقول: كان الحسن البصرى لا يجلس مجلسا إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه، قال: فرآه فى منامه، فقال له: أنت الحجاج؟

قال: أنا الحجاج.

قال: ماذا فعل الله بك؟

قال: قُتلت بكل قتيل قتلته، ثم عزلت مع الموحدين.

قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه، والله أعلم.

وقال ابن أبى الدنيا: بسنده عن سفيان قال: قدم الحجاج على عبدالملك بن مروان وافدا ومعه معاوية بن قرة، فسأل عبدالملك معاوية عن الحجاج فقال: إن صدقناكم قتلتمونا، وإن كذبناكم خشينا الله عز وجل، فنظر إليه الحجاج.

فقال له عبدالملك: لا تعرض له

فنفاه إلى السند فكان له بها مواقف.(١)

من ضحايا الحجاج الثقفى:

قال الترمذى: يقال الكذاب المختار بن أبى عبيد والمبير الحجاج بن يوسف

وقال هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبرا فبلغ مائة وعشرين ألف قتيل.(٢)

قال الذهبى: وكما ذكرنا أهلكه الله فى رمضان سنة خمس وتسعين كهلا وكان

---

(١) البداية والنهاية - السنة الخامسة والتسعون هجرية.

(٢) رواه الترمذى فى سننه.

ظلوما جبارا ناصبيا خبيثا سفاكا للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام وكر ودهاء وقد سقت من سوء سيرته بالتاريخ الكبير وحصاره لابن الزبير والكعبة ورميه إياه بالمنجنيق وإذلاله لأهل الحرمين ثم ولايته على العراق والمشرق كله عشرين سنة وحروب ابن الأشعث له وتأخيره للصلوات حتى أن استأصله الله فنسبه ولا نحبه بل نبغضه فى الله فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه وأمره إلى الله وله توحيد فى الجملة ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء.

ومن ضحايا الحجاج: محمد بن سعد بن أبى وقاص الإمام الثقة أبوالقاسم الزهرى أخو عمر بن سعد روى جملة صالحة من العلم وكان ممن قام على الحجاج مع ابن الأشعث فأسر يوم دير الجماجم فقتله الحجاج روى له الشيخان وأصحاب السنن.[١]

وعن حماد قال: بشرت إبراهيم بموت الحجاج فسجد ورأيته يبكى من الفرح. [٢]

وقيل قدم نافع بن جبير بن مطعم بن عدى على الحجاج فقال الحجاج: قتلت ابن الزبير وعبدالله بن صفوان وابن مطيع وددت أنى كنت قتلت ابن عمر.

فقال له ما أراد الله بك خير مما أردت لنفسك

قال صدقت فلما خرج قال له عنبسة بن سعيد: لا خير لك فى المقام عند هذا قال جئت للغزو ثم ودع الحجاج وسار نحو الديلم.[٣]

وقال الذهبى فى السير وقيل: إن الحجاج قتل طلقاً مع سعيد بن جبير ولم يصح.

وقال الذهبى عن عبدالملك بن مروان: كان الحجاج من ذنوبه.

ومن ضحايا الحجاج: قال الأعمش: رأيت ابن أبى ليلى وقد ضربه الحجاج وكأن ظهره مسح وهو متكئ على ابنه وهم يقولون: العن الكاذبين فيقول: لعن الله

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى.

(٢) طبقات ابن سعد وسير أعلام النبلاء.

(٣) سير أعلام النبلاء وتاريخ ابن عساكر.

الكاذبين: آه ثم يسكت فيقول: على بن أبى طالب وعبدالله بن الزبير والمختار بن أبى عبيد، وأهل الشام يظنون أنه يوقعها عليهم وقد أخرجهم منها ورفعهم.

وقال الذهبى: روى عن أبى حصين أن الحجاج استعمل ابن أبى ليلى على القضاء ثم عزله ثم ضربه ليسب أبا تراب رضى الله عنه - يقصد على بن أبى طالب - وكان قد شهد النهروان مع على بن أبى طالب رضى الله عنه.

ومن ضحاياه أيضاً قال ابن سعد: خرج عطية العوفى مع ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يعرضه على سب على فإن لم يفعل فاضربه مئة سوط واحلق لحيته فاستدعاه فأبى أن يسب فأمضى حكم الحجاج فيه.

وقال حمد بن أبى سليمان: بشرنا! إبراهيم (النخعى) بموت الحجاج فبكى وقال: ما كنت أرى أحداً يبكى من الفرح

ومن ضحايا الحجاج بن يوسف: ماهان الحنفى الكوفى روى عن ابن عباس وأم سلمة روى أبوداود عن أبن أبى حنيفة قال: رأيت ماهان الحنفى حيث صلبه الحجاج قال إبراهيم: كنا نؤمر بحرس خشبته فنرى عنده الضوء.

قال أبوداود: قطع الحجاج يديه ورجليه وصلبه سئل الثورى عن الرجل يقتل أيمد رقبته؟ قال: قال ماهان الحنفى: احملونى أى على الخشبة وقال البخارى: قتل الحجاج ماهان الحنفى، وقيل أنه آخر من قتل الحجاج وقيل إن سعيد بن جبير هو آخرهم.

ومن ضحاياه أيضا: مصدع أبويحيى الأعرج المعروف بالمعرقب الأنصارى

قال ابن حجر: قيل له المعرقب لأن الحجاج أو بشر بن مروان عرض عليه سب على بن أبى طالب فأبى فقطع عرقوبه وهو أحد رواة مسلم.

■ ■ ■

فتاوى العلماء فى الحجاج الثقفى ومسألة لعنه أو تكفيره

هل يلعن الحجاج بن يوسف الثقفى فإن البعض يلعنه صراحة والبعض الآخر يكفره فماذا قال الفقهاء فى هذا الأمر؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فلهذا كان أهل العلم يختارون فيمن عرف بالظلم ونحوه مع أنه مسلم له أعمال صالحة فى الظاهر أنهم لا يلعنون أحدا منهم بعينه؛ بل يقولون كما قال الله تعالى ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ فيلعنون من لعنه الله ورسوله عامة، كقوله ﷺ «لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها» ولا يلعنون المعين.

كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره: «أن رجلا كان يدعى حماراً وكان يشرب الخمر، وكان النبى ﷺ يجلده، فأتى به مرة فلعنه رجل فقال النبى ﷺ لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله».

وذلك لأن اللعنة من باب الوعيد والوعيد العام لا يقطع به للشخص المعين لأحد الأسباب المذكورة، من ثواب أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة وغير ذلك.

ومن الفتاوى للعلماء المعاصرين على موقع طريق الإسلام على الإنترنت كانت تلك الفتوى:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فأما لعن الحجاج بن يوسف فينبغى تركه بناء على أن الفاسق المعين لا يلعن بخصوصه إما تحريماً أو تنزيها، وإذا قال قائل ألم يك ظالماً؟ ألم يقتل الصحابة فلماذا لا نلعنه؟ نجيبه بما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قال: نحن إذا ذكر الظالمون

كالحجاج بن يوسف وأمثاله نقول كما قال الله فى القرآن ﴿ألا لعنة الله على الظالمين» ولا نحب أن نلعن أحداً بعينه وقد لعنه - أى يزيد بن معاوية - قوم من العلماء، وهذا مذهب يسوغ فيه الاجتهاد، لكن ذلك القول أحب إلينا وأحسن.. انتهى.

وأما ذكر مثالبه وظلمه وفجوره، فلا مانع من ذكر ذلك وإن كانت له حسنات وفتوحات، وقد ترجم له الذهبى فقال: الحجاج أهلكه الله فى رمضان سنة ٩٥هـ كهلاً، كان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء.. فنسبه ولا نحبه بل نبغضه فى الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه وأمره إلى الله.. انتهى.

والحجاج لم يك من الفئة الباغية، بل كان حاكماً على العراق والمشرق كله من قبل أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان، والله أعلم.(١)

أما مسألة تكفير الحجاج بن يوسف الثقفى فإنه لا يجوز تكفيره على الرأى الأرجح عند أهل العلم فقد جاءت أفعال الصحابة الذين عاصروه على النقيض من ذلك، فقد صلوا وراءه، وحجوا معه ومنهم ابن عمر، وأنس بن مالك، وعبدالله بن الزبير وكانوا يعرفون ما عند الرجل من ظلم وجور وسفك للدماء ومع هذا لم يقولوا بكفر الحجاج.

عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح فى أخمص قدمه؛ فلزقت قدمه بالركاب، فنزلت فنزعتها وذلك بمنى، فبلغ الحجاج، فجعل يعوده فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟

فقال ابن عمر: أنت أصبتنى.

قال: وكيف؟

قال: حملت السلاح فى يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم.

---

(١) المفتى: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه.

http://WWW.islamweb.net/web/fatwa.showsinglefatwa

عن إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، عن أبيه قال: دخل الحجاج على ابن عمر، وأنا عنده فقال: كيف هو؟

فقال: صالح فقال: من أصابك قال: أصابنى من أمر بحمل السلاح فى يوم لا يحل فيه حمله، يعنى الحجاج.

ولأن هذا فى أيام حصار الحجاج مكة وقتاله لابن الزبير.(١)

عن سالم قال: كتب عبدالملك إلى الحجاج أن لا يختلف على ابن عمر فى الحج فجاء ابن عمر رضى الله عنه وأنا معه يوم عرفة حين زالت الشمس فصاح عند سرادق الحجاج، فخرج وعليه ملحفة معصفرة فقال: ما لك ياأبا عبدالرحمن؟

فقال: الرواح إن كنت تريد السنة.

قال: هذه الساعة؟

قال: نعم؟

قال: فأنظرنى حتى أفيض على رأسى ثم أخرج، فنزل حتى خرج الحجاج فسار بينى وبين أبى فقلت: إن كنت تريد السنة فاقصر الخطبة، وعجل الوقوف؛ فجعل ينظر إلى عبدالله، فلما رأى ذلك عبدالله قال: صدق(٢)

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: فيه نسبة الفعل إلى الأمر بشىء يتسبب منه ذلك الفعل وإن لم يعن الأمر ذلك، لكن حكى الزبير فى الأنساب أن عبدالملك لما كتب إلى الحجاج أن لا يخالف ابن عمر شق عليه فأمر رجلاً معه حربة يقال إنها كانت مسمومة فلصق ذلك الرجل به فأمرَّ الحربة على قدمه فمرض منها أياماً ثم مات، وذلك فى سنة أربع وسبعين. اهـ.

عن عمير بن هانئ قال: «شهدت ابن عمر والحجاج محاصر ابن الزبير، فكان منزل ابن عمر بينهما فكان ربما حضر الصلاة مع هؤلاء وربما حضر الصلاة مع هؤلاء.

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى.

عن الزبير ابن عدى قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا الذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ.

عن أنس أن ناساً كان بهم سقم قالوا: يارسول الله: آونا وأطعمنا فلما صحوا قالوا: إن المدينة وخمة، فأنزلهم الحرة فى ذود له فقال: اشربوا ألبانها، فلما صحوا قتلوا راعى النبى ﷺ، واستاقوا ذودة، فبعث فى آثارهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم فرأيت الرجل منهم يكدم الأرض بلسانه حتى يموت.

قال سلام: فبلغنى أن الحجاج قال لأنس: حدثنى بأشد عقوبة عاقب النبى ﷺ فحدثه بهذا.

فبلغ الحسن: فقال وددت أنه لم يحدثه بهذا.[1]

قال الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى»: وساق الإسماعيلى من وجه آخر عن ثابت «حدثنى أنس قال: ما ندمت على شىء ما ندمت على حديث حدثت به الحجاج» فذكره، وإنما ندم أنس على ذلك لأن الحجاج كان مسرفاً فى العقوبة، وكان يتعلق بأدنى شبهة.

أما عن تأخير الحجاج للصلاة عن وقتها فقد دلت روايات بذلك منها:-

عن محمد بن عمرو بن الحسن بن على قال: قدم الحجاج فسألنا جابر بن عبدالله فقال: كان النبى ﷺ يصلى الظهر بالهاجرة، والعصر والشمس نقية، والمغرب إذا وجبت، والعشاء أحياناً وأحياناً إذا رآهم اجتمعوا عجل، وإذا رآهم أبطأوا، آخر، والصبح كانوا أو كان النبى ﷺ يصليها بغلس. (متفق عليه).

وجاء فى رواية مسلم: «كان الحجاج يؤخر الصلوات».

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: وقع فى رواية أبى عوانة فى صحيحه من طرق أبى النضر عن شعبة: سألنا جابر بن عبدالله فى زمن الحجاج وكان يؤخر الصلاة عن وقت الصلاة.

---

(١) رواه البخارى.

وسئل سفيان الثورى رحمه الله: أتشهد عن الحجاج وأبى مسلم الخراسانى أنهما فى النار؟

قال: لا، إذا أقرا بالتوحيد.

من أمثلة إسراف الحجاج فى القتل للمخالفين لحكم بنى أمية روى عن عاصم قال سمعت الحجاج، وهو على المنبر، يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبدالملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالا، وياعذيرى من عبد هذيل يزعم أن قراءته من عند الله، والله ما هى إلا رجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه عليه السلام، وعذيرى من هذه الحمراء يزعم أحدهم أنه يرمى بالحجر فيقول: إلى أن يقع الحجر قد حدث أمر فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر.

قال: فذكرته للأعمش فقال: أنا والله سمعته منه.(١)

قال ابن كثير فى «البداية والنهاية» عن استهانة الحجاج بالقتل: فإن الحجاج كان عثمانيا أمويا، يميل إليهم ميلاً عظيماً، ويرى أن خلافهم كفر، يستحل بذلك الدماء، ولا تأخذه فى ذلك لومة لائم.

وجعل مقام الخلافة فوق مقام النبوة وما روى عنه أنه جعل مقام الخلافة فوق مقام النبوة فلا يصح لضعف تلك الرواية التى رواها أبى داود عن الربيع بن خالد الضبى قال: سمعت الحجاج يخطب فقال فى خطبته: رسول أحدكم فى حاجته أكرم عليه أم خليفته فى أهله؟

فقلت فى نفسى: لله على ألا أصلى خلفك أبداً، وإن وجدت قوماً يجاهدونك لأجاهدنك معهم.

زاد إسحق فى حديثه قال: فقاتل فى الجماجم حتى قتل. (٢)

(١) رواه أبوداود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود.

(٢) رواه أبوداود فى سننه وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن أبى داود.

أى أنه قاتل الحجاج مع ابن الأشعث وقتل فى معركة دير الجماجم.

ولذلك احترز بن كثير فى «البداية والنهاية» عندما نقل عنه هذا الكلام فقال: فإن صح هذا عنه فظاهرة كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة، أو أراد الخليفة من بنى أمية أفضل من الرسل. اهـ.

ومن الروايات الضعيفة التى رويت عن الحجاج وهى لا تصح وهى فى حق الصحابى الجليل عبدالله بن مسعود رضى الله عنها أوردها الإمام ابن كثير فى «البداية والنهاية»:

عن عاصم بن أبى النجود والأعمش، أنهما سمعا الحجاج - يقول ذلك، وقال: والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب حلت لى دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم (عبدالله بن مسعود) إلا ضرب عنقه، ولأحكها من الصحف ولو بضلع خنزير.

وفى سند هذه الرواية أبوهشام الرفاعى محمد بن يزيد، قال البخارى: رأيتهم مجمعين على ضعفه، وقال النسائى: ضعيف، وقال الترمذى: رأيت محمداً اب هشام، وقال ابن حجر: ليس بالقوى.

عن الأعمش قال: والله لقد سمعت الحجاج بن يوسف يقول: عجبا من عبد هذيل، يزعم أنه يقرأ قرآنا من عند الله، والله ما هو إلا رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركت عبدهذيل لضربت عنقه.

رواه الحاكم فى «المستدرك» وأورده ابن كثير فى «البداية والنهاية» ولم يعزه ابن كثير إلى الحاكم وإنما قال؟ وفى بعض الروايات: والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه.

وفى سند هذه الرواية أحمد بن عبدالجبار العطاردى، قال أبوحاتم: ليس بالقوى، وقال مطين: كان يكذب، وقال ابن عدى: رأيت أهل العراق مجمعين على ضعفه، وقال الذهبى: ضعفه غير واحد.

وأما رواية مسلم بن إبراهيم عن الصلت بن دينار قالت سمعت الحجاج على منبر

واسط يقول: عبدالله بن مسعود رأس المنافقين لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه.

رواه الخلال فى «السنة» وأورده ابن كثير فى «البداية والنهاية» وفى سنده الصلت بن دينار الأزدى، قال الإمام أحمد بن حنبل: متروك الحديث، ترك الناس حديثه، وقال الحافظ بن حجر: متروك ناصبى.

وما ذكره ابن كثير رحمه الله قول الصلت بن دينار وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية: ﴿وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى» قال" والله إن كان سليمان لحسوداً. (نستغفر الله تعالى من قوله).

والصلت بن دينار الأزدى متروك الحديث.

وقد قال ابن كثير معلقاً على هذه الآثار: وهذه جراءة عظيمة تقضى به إلى الكفر قبحه الله وأخزاه وأبعده وأقصاه. ا. هـ.

وقال الذهبى فى «تاريخ الإسلام» قاتل الله الحجاج ما أجرأه على الله، كيف يقول هذا فى العبد الصالح عبدالله بن مسعود».

وهذا بالطبع إن صحت تلك الروايات وهذا لم يصح.

أما ذكر أن الحجاج قد غير فى مصحف عثمان أحد عشر حرفاً فقد ذكرت روايات عنه لا تصح.

وقال الشيخ عبدالله الجديع فى «المقدمات الأساسية فى علوم القرآن» (ص١٦١ حاشية) عن الخبر: هذا خبر كذب، فإن مصحف عثمان زمن الحجاج قد طبق ديار الإسلام، وما كان الحجاج ليغير حرفاً من كتاب الله والمصاحف العثمانية قد وقعت لكل الأمصار، وانتسخ الناس منها مصاحفهم، والقراء يومئذ من الذين يرجع إليهم الناس فى القراءة موجودون، فإن كان الحجاج غير حرفاً فى مصحف فوالله ما كان ليقدر أن يفعله فى جميع تلك المصاحف، وإن كان أرهب كثيراً من الناس يومئذ بظلمه وطغيانه، فما كان ليقدر أن يصمت جميع أمة محمد ﷺ فيحرف القرآن على مرأى من جميع المسلمين.

ثم هب أن ذلك قد وقع من الحجاج، فأين النقلة لم يجمعوا على نقله، ولماذا

لم يأت إلا من طريق عباد بن صهيب رجل من المتروكين الهلكى؟ كيف وقد ثبتت الأسانيد الدالة على بطلان هذه الحكاية بخصوص كتابة تلك الأحرف؟ ومثل هذا لا يستحق الإطالة بأكثر مما ذكرت لظهور فساده. ا. هـ.

وأما عن غلوه فى عثمان بن عفان رضي الله عنه وجعله مثل عيسى ابن مريم عليه السلام: عن عوف قال: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى ابن مريم، ثم قرأ هذه الآية يقرؤها ويفسرها: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ (آل عمران: ٥٥) يشير إلينا بيده وإلى أهل الشام.

فالخبر أخرجه أبوداود فى سننه، وقال عنه العلامة الألبانى فى «ضعيف سنن أبى داود» ضعيف مقطوع.

وقال صاحب «عون المعبود» على الحديث: ومقصود الحجاج من تمثيل عثمان رضي الله عنه بعيسى عليه السلام إظهار عظمة الشأن لعثمان ومن تبعه من أمراء بنى أمية ومن تبعهم الذين كانوا فى الشام والعراق وتنقيص غيرهم، يعنى مثل عثمان كمثل عيسى عليه السلام ومثل متبعيه كمثل متبعيه، فكما أن الله تعالى جعل متبعى عيسى عنيه السلام فوق الذين كفروا كذلك حمل متبعى عثمان رضي الله عنه من أهل الشام وأهل العراق فوق غيرهم، بحيث جعل فيهم الخلافة ورفعها عن غيرهم فصاروا غالبين على غيرهم.

قال السندى: لعله أشار بهذه الإشارة عند قوله تعالى «وجاعل الذين اتبعوك» وأراد بهذا أن أهل الشام تبعوا عثمان فرفعهم ووضع فيهم الخلافة، وغيرهم اتبعوا عليا فأذلهم الله ورفع عنهم الخلافة.

■ ■ ■

الحجاج وليلى الأخيلية

توبة بن الصمة وكان فى عصر الحجاج وقد ذكرت بعض المصادر أن الحجاج التقى بليلى الأخيلية وأنها أنشدته شعرا.

عن أبى عبدالله الحكيمى: قال، حدثنى يحيى بن يموت بن المزرع قال: حدثنا رفيع بن سلمة، قال: حدثنا رفيع بن سلمة، قال: حدثنى أبوعبيدة، قال: دخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته:

فنعم فتى الدنيا لئن كان فاجراً ... وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

فتى هو أحيا من فتاة حيية ... وأشجع من ليث بخفان خادر

فتى فيه فتيانية أريحية ... بقية أعرابية من مهاجر

فقال فتى من جلساء الحجاج: والله أيها الأمير ما كان فى توبة عشير ما تقول ليلى.

وأخبرنى عبدالله بن يحيى قال: حدثنى محمد بن جعفر، قال: حدثنا ابن أبى سعد، قال: حدثنى أبى الحسن الموصلى عن سلمه بن أيوب بن مسلمة الهمذانى فقال: كان جدى عند الحجاج فذكر أن امرأة قد دخلت عليه فسلمت فرد عليها، وقال: من أنت؟

قالت: أنا ليلى.

قال: صاحبة توبة بن حمير؟

قالت: نعم

قال: فماذا قلت فيه لله أبوك؟

قالت: قلت:

فإن تكن القتلى بواء فإنكم فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر

وذكر منها أبياتاً

فقال لها أسماء بن خارجة الفزارى: أيتها المرأة إنك لتصفين لهذا الرجل بشىء ما تعرفه به العرب.

قال: فقالت: أيها الرجل: هل رأيت توبة؟

قال: لا

قالت: أصلح الله الأمير، فوالله لو رأى توبة فود أن كل عاتق فى بيته حامل من توبة.

قال: فكأنما فقئ فى وجه أسماء حب الرمان.

فقال له الحجاج: وما كان لك ولها.

حدثنى محمد بن أحمد الكاتب، قال حدثنا أحمد بن يحيى النحوى عن عبدالله بن أحمد المكى عن عبدالله بن مشهور، قال: دخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فقال لها: أنشدينى ما قلت فى توبة فأنشدته:

كان فتى الفتيان توبة لم ينخ قلائص يفحصن الحصى بالكراكر

ولم يبن أبراداً رفاقا لفتية كرام ويرحل قبل فيء الهواجر

فقال لها الحجاج: هل كان بينك وبينه سوء؟

قالت لا والله إلا أنه أرسل رسولاً مرة، فقال: إذا أتيت حاضر بنى عبادة – يعنى ابن عقيل – فناد فيه:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فظننت أن جنح لبعض الأمر فناديت:

وعنه عفا ربى وأصلح باله فعز علينا حاجة لا ينالها

وروى عن محمد بن إبراهيم، قال: حدثنا أحمد بن أبى خثيمة قال: أخبرنا على بن المغيرة الأثرم عن أشياخه، قال أحمد: وأخبرنا عبدالله بن أبى كريم عن أبى عمرو الشيبانى أن ليلى الأخيلية قدمت على الحجاج بن يوسف وعنده وجوه أصحابه وأشرافهم إذا أقبلت جارية فأشارت إلى الحجاج وأشار إليها بيده، فذهبت فلم تلبث أن جاءت امرأة من أجل النساء وأكمله وأتمه خلقاً وأحسنه محاورة، فلما دنت منه سلمت عليه وقالت: أتأذن أيها الأمير؟

قال: نعم فأنشأت تقول:

أحجاج إن الله أعطاك غاية	**يقصر عنها من أراد مداها**
أحجاج لا يفلل سلاحك إنما	**المنايا بكف الله حيث يراها**

فقال الحجاج لمن عنده: أتدرون من هذه؟

قالوا: ما نعرفها ولكنا ما رأينا قط امرأة أطلق لساناً منها، ولا أجمل وجهاً، ولا أحسن لفظاً فمن هى أصلح الله الأمير؟؟

قال: هذه ليلي الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير العقيلي التي يقول فيها:

فلو أن ليلي الأخيلية سلمت	**على وفوقي تربة وصفائح**
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا	**إليها صدى من جانب القبر صائح**

ثم قال: ياليلى أنشدينا بعض ما قال توبة فيك، فأنشدته:

نَأَتْكَ بليلى دارها لا تزورها	**وشطت نواها واستمر مريرها**
وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت	**فقد رابنى منها الغداة سفورها**

حتى فرغت من القصيدة.

فقال لها: ياليلى وماذا رابه من سفورك؟

قالت: أصلح الله الأمير! لم يرنى قط إلا متبرقعة فأرسل إلى رسولاً أنه ملم بنا، وفطن الحى لرسوله، فأخذوا له واستعدوا وكمنوا، ففطنت لذلك من أمرهم،

فلما رأى ذلك أنكره، فلم يزد على أن سلم وانصرف.

فقال الحجاج لله درك ياليلى فهل كان بينكما ريبة قط؟ قالت: لا والذى «أسأله أن يصلحك» إلا أنه مرة قال قولا، فأظنه أنه خضع لبعض الأمر فقلت:

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

تخالك تهوى غيرها فكأنما ... لها من تظنيها عليك دليل

فما كلمنى بعد ذلك بشىء حتى فرق بينى وبينه الموت

قال: فما كان حديثكما بعد ذلك؟

قالت: لم يلبث أن قال لصاحب له: إذا أتيت الحاضر من بنى عبادة فقل بأعلى صوتك:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة ... من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فلما سمعت الصوت خرجت فقلت:

وعنه عفا ربى وأصلح حاله ... فعز علينا حاجة لا ينالها

ثم ما لبث أن قتل.

قال: فأنشدينا بعض مراثيك إياه. فأنشدته قصيداً كثيراً، فكان مما أنشدته قصيدتها التى تقول فيها:

كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ ... قلائص يفحصن الحصى بالكراكر

فلما أتمتها قال رجل من القوم: والله ما أظنه بلغ عُشر ما وصفتيه به فنظرت إليه ليلى. وقالت: أصلح الله الأمير، إن هذا المتكلم لو رأى توبة لسره - إلا يكون فى داره عذراء إلا وهى حبلى من توبة.

فقال الحجاج: هذا والله الجواب الحاضر، وقد كنت غنيا عنه، ثم قال: لها ما حاجتك؟

قالت: حاجتى أن تحملنى إلى قتيبة والى خراسان على البريد، فحملها فاستظرفها قتيبة ووصلها ثم رجعت فماتت بساوة فقبرها بها.

وروى عن محمد بن أبى الأزهر، قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوى قال: روى أن ليلى الأخيلية قدمت إلى الحجاج فأنشدته:

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها غــلام إذا هز القناة ثناها

قال: أتقولين غلام؟ قولى همام.

ثم قال لها: أى نسائى أحب إليك أن أنزلك عندها؟

قالت: ومَنْ نساؤك أيها الأمير؟

قال: أم الجلاس بنت سعيد بن المعاصر الأموية، وهند بنت أسماء بنت خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبى صفرة العتكية.

قالت: القيسية أحب إلى.

فلما كان الغد دخلت عليه فقال: ياغلام أعطها خمسمائة.

فقالت أيها الأمير اجعلها أدماً.

فقال قائل: إنما أمر لك بشاء

فقالت: الأمير أكرم من ذلك فجعلها لبنا إناثاً استحياء، وإنما كان أمر لها بشاء أولاً، الأدم: البيض من الإبل وهى أكرمها.

وروى عن على بن عبدالرحمن عن على بن يحيى الأطروش بن إسحاق عن أيوب بن عباءة. قال: حدثنى الهيثم بن عدى، قال: دخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فقال لأصحابه: ألا أخجلتها لكم؟

قالوا: بلى

قال: ياليلى.

قالت: لبيك أيها الأمير

قال: أكنت تحبين توبة بن الحُمِّير؟

قالت: نعم أيها الأمير وأنت لو رأيته لأحببته.

وروى عن أحمد بن محمد الجوهرى، قال: حدثنا العنزى، حدثنا أبوالسائب ابن سلم بن جنادة، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف بن معمر التيمى، قال: حدثنا خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد، قال: أخبرنى أبى، قال: جاءتنا ليلى الأخيلية فقالت: إنى أريد أن أمدح الحجاج فأدخلناها إليه، فقالت:

لقد وجد الحجاج أرضاً مريضة فطبق أعلى دائها فشفاها

تتبعها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها

ثم قال: على من أنزلك من نسائى؟

قالت: أذكر لى نساءك

قال: عندى بنت سعيد بن عبدالرحمن بن عتاب بن أسيد، وعندى أم سلمة بنت عبدالرحمن بن سهيل بن عمرو، وعندى بنت المهلب بن أبى صفرة، وعندى بنت أسماء بنت خارجة الفزارى.

فاختارت أسماء بنت خارجة، لقرابتها منها، فنزلت عليها.

عن عبدالملك بن عمير، قال: حدثنى محمد بن الحجاج بن يوسف، قال: بينا الأمير جالس - يعنى الحجاج - إذ استأذنت ليلى، فقال الحجاج: ومن ليلى؟

فقيل: الأخيلية.

قال: صاحبة توبة أدخلها.

فدخلت امرأة طوال، دعجاء العين، حسنة المشية، حسنة الثغر فسلمت فرحب بها الحجاج، فدنت فقال الحجاج: وراءك ضع لها وسادة ياغلام، فجلست، فقال: ما أعملك إلينا؟

قالت: السلام على الأمير، والقضاء لحقه، والتعرض لمعروفه.

قال: كيف خلفت أهلك؟

قالت: تركتهم فى حالة خصب وأمن ودعة.

أما الخصب ففى الأموال والكلأ، وأما الأمن فقد آمنهم الله بك، وأما الدعة فقد خامرهم من خوفهم ما أصلح بينهم.

ثم قالت: ألا أنشدك أيها الأمير؟

قال: إذا شئت فقالت:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما	**المنايا بكف الله حيث يراها**
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة	**تتبع أقصى دائها فشفاها**
شفاها من الداء العضال الذى بها	**غلام إذا هز القناة سقاها**
سقاها فرواها دماء غزيرة	**دماء رجال حيث قال حشاها**

ويروى:

وإن سمع الحجاج زحف كتيبة	**أعد لها قبل الصباح قراها**
أعد لها مصقولة فارسية	**بأيدى رجال يحلبون ضراها**
أحجاج لا تعط العداة مناهم	**ولا الله لا يعطى العداة مناها**
ولا كل خطاف تقلد بيعة	**بأعظم عهد الله ثم شراها**
فما ولد الأبكار والعون مثله	**ببحر ولا أرض يجف ثراها**

فقال الحجاج ليحيى بن منقذ: لله بلاؤها ما أشعرها.

قال: ما لى بشعرها علم.

قال: علىَّ بعبيد بن موهب.

وكان حاجبه قال: أنشديه، فأنشدته، فقال، هذه الشاعرة الكريمة «قد» وجب حقها.

قال: ما أغناها عن شفاعتك! ياغلام مر لها بخمسمائة درهم واكسها خمسة أثواب، أحدها كساء خز، وأدخلها على ابنة عمها هند بنت أسماء بن خارجة وقل لها: صليها.

فقالت: أصلح الله الأمير أضر بنا العريف فى الصدقة وقد جَرُبَتْ إبلنا وتكسرت قلوبنا، وأخذ خيار المال، قال: اكتبوا لها بن الحكم بن أيوب فليتبع لها إلى خمسة أجمال، وليجعل أحدها نجيباً، واكتبوا إلى صاحب اليمامة يعزل العريف.

قال: ابن موهب: أصلح الله الأمير أصلها؟

قال: نعم فوصلها بأربعمائة درهم، ووصلتها هذه بثلاثمائة درهم، ووصلها محمد بن الحجاج.

قال لما فرغت ليلى من شعرها أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟

قالوا: لا والله ما رأينا امرأة قط أفصح ولا أبلغ ولا أحسن إنشاداً منها، فمن هى؟

قال: ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن حمير

ثم أقبل عليها.

فقال: بالله ياليلى أرأيت من توبة أمراً تكرهينه أو سألك شيئا يعاب؟

قالت: لا، والذى أسأله المغفرة ما كان ذلك منه.

فقال: أما إذا لم يكن فيرحمنا الله وإياه.

وروى عن عبدالله بن يحيى عن رجل من بنى عامر يقال له: ورقا.

قال: كنت عند الحجاج بن يوسف فدخل الآذن فقال: أصلح الله الأمير، امرأة بالباب تهدر كما يهدر البعير الناد. قال: أدخلها فلما دخلت نسبها فانتسبت له.

فقال: ما أتانى بك ياليلى؟ قالت: إخلاف النجوم، وكلب البرد، وشدة الجهد فكنت لها بعد الله الرد.

قال: فأخبرينى عن الأرض؟

قالت: الأرض مقشعرة والفجاج مغبرة، وأصابتنا سنون مجحفة مظلمة لم تدع لنا متبعاً ولا ربعاً ولا عافطة أهلكت الرجال ومزقت العيال وأفسدت الأموال وأنشدته قولها: أحجاج لا تشلل يمينك إنما.. وذكر الأبيات.

فالتفت الحجاج إلى أصحابه فقال هل تعرفون هذه؟

قالوا: لا.

قال: هذه ليلى الأخيلية التى تقول:

نحن الأخايل لايزال غلامنا   حتى يدب على العصا مذكورا

تبكى الرماح إذا فقدن أكفنا   جزعاً وتلفينا الرفاق بحورا

ثم قال لها: ياليلى أنشدينى بعض شعر توبة

قالت: وأى شعره أحب إليك؟ قال لها:

نأتك بليلى دارها لا تزورها   وشطت نواها واستمر مريرها

يقول رجال: لا يضيرك نأيها   بلى كل ما شف النفوس يضيرها

أليس يضير العين أن تكثر البكا   ويمنع منها نومها وسرورها

وكنت إذا ما جئت ليل تبرفعت   فقد رابني منها الغداة سفورها

وقد رابنى منها صدود رأيته   وإعراضها عن حاجتى وبسورها

ما الذى رابه من صدودك ياليلى؟

قالت: أصلح الله الأمير إنه لم يرنى قط إلا مبرقعة فأرسل لى رسولا أنه ملم بنا وفطن الحى برسوله فلما رأيته سفرت

فلما رأى ذلك انصرف

فقال: قاتلك الله ياليلى فهل كان بينكما ريبه قط؟

فقالت: أصلح الله الأمير لا إنه قد قال مرة قولا عرفت أنه قد خضع لبعض الأمر فقلت له:

وذي حاجة قلنا له: لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا نبتغي أن نخونه ... وأنت لأخرى فارع ذاك خليل

قال: فما كان بعد ذلك؟ قالت: قال لصاحب له: إذا أتيت الحاضر من بنى عبادة بن عقيل فاهتف به:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة ... من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فناديت: وعنه عفا ربى وأصلح باله ... فعز علينا حاجة لا ينالها

قال: فأنشدينا بعض شعرك فيه فأنشدته:

لعمرك ما بالموت عار على الفتى ... إذا لم تصبه فى الحياة المعاير

وما أحد حي وإن كان سالماً ... بأخلد ممن غيبته المقابر

فلا الحى مما استحدث الدهر معتب ... ولا الميت إن لم يصبر الحى ناشر

وكل جديد أو شباب إلى بِلَى ... وكل امرئ يوماً إلى الموت صائر

قتيل بنى عوف فيالهفتى له ... وما كنت إياهم عليه أحاذر

ولكننى أخشى عليه قبيلة ... لها بدروب الشام باد وحاضر

قال : فقال الحجاج لحاجبه: أذهب بها اقطع عنى لسانها

قال: فدعا لها الحجام ليقطع لسانها فقالت: ويلك إنما قال لك الأمير اقطع لسانى بالعطاء والصلة، فأرجع إليه فأسأله قال: فرجع إليه فاستشاط عليه وهم بقطع لسانه.

ثم أمر بها فأدخلت عليه فقالت: كاد العلج أيها الأمير يقطع مقولى وأنشدته:

حجاج أنت الذى ما فوقه أحد ... إلا الخليفة والمستغفر الصمد

حجاج أنت شهاب الحرب إذا ... لقحت وأنت للناس نور ضوؤه يقد

عن عبدالله بن شبيب، قال: دخلت ليلى الأخيلية على الحجاج بن يوسف وهو فى السفينة يريد البصرة فقال لها: ما جاء بك ياليلى؟

قالت: كلب البرد وشدة الجهد وكان إليك بعد المفر.

قال: ياليلى كيف تركت الناس؟

قالت: الفجاج مغبرة والأرض مقشعرة والناس مسنتون ورحمة الله يرجون، ثم أنشدته:

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع منها داءها فشفاها

فنظر الحجاج إلى مولى له قائد البخارية فقال: اذهب بهذه العجوز إلى يزيد فقل له: أعطها ألف دينار، واقطع عنى لسانها، فلم يفهم البخارى إلا قطع اللسان، فقال ذلك ليزيد، فدعا بالحجام فقالت: وما تريد؟

قال: أقطع لسانك.

قالت: ويلك أمر لى بالعطاء.

قال: ومر بها عتبة بن سعيد فنادته فقال: ويلك لا تعجل أنا رسوله إليك ثم دخل على الحجاج فأخبره، فقال: على بها فلما دخلت قالت: كاد العلج - أماته الله - أن يقضب مقولى، وأنشدته: حجاج أنت الذى ما فوقه أحد.. وذكر البيتين.

فقال لها الحجاج: أين تريدين أترجعين إلى بلدك وأجهزك؟ قالت: لا، أريد الباهلى تعنى قتيبة، فخرجت إلى قتيبة فماتت بالرى أو بدون الرى.

وروى على بن المغيرة الأثرم أنه سمع الأصمعى يقول: إن الحجاج أمر لليلى عشرة آلاف درهم وقال لها: هل من حاجة؟

قالت: نعم - أصلح الله الأمير - تحملنى إلى ابن عمى قتيبة بن مسلم، وهو على خراسان يومئذ، فحملها إليه فأجازها وأقبلت راجعة تريد البادية، فلما كانت بالرى ماتت فقبرها هناك.

وروى أبو عبد الله الحكيمى قال: حدثنا أحمد بن أبى خيثمة عن نصر بن

الجهضمى عن بعض البصريين، قال: لما أتت ليلى ابن قتيبة جفاها.

فقالت: ردنى إلى ابن عمى، فردها، فلما صارت بساوة ماتت.

وإنما قالت للحجاج ابن عمى لأنها من هوازن من بنى عقيل، والحجاج من بنى قيس بن منبه بن بكر بن هوازن.

قال أحمد: أخبرنا عبدالله بن أبى كريم عن أبى عمرو الشيبانى: أن ليلى لما حملها الحجاج إلى قتيبة بخراسان على البريد استظرفها قتيبة ووصلها ثم رجعت ثم ماتت بساوة.

■■■



نساء فى حياة الحجاج

- زوجات الحجاج الأربع:

١ـ هند بنت المهلب

٢ـ هند بنت أسماء بن خارجة

٣ـ أم الجلاس بنت عبد الرحمن

٤ـ أمة الله بنت عبد الرحمن بن جرير

زوجات الحجاج الأربع وأحواله معهن

ذكر ابن عبدربه فى العقد الفريد الجزء الخامس أنه ذكرت النساء عند الحجاج فقال: عندى أربع نسوة: هند بنت المهلب وهند بنت أسماء بن خارجة وأم الجلاس بنت عبدالرحمن بن أسيد، وأمة الله بنت عبدالرحمن بن جرير.

فأما ليلتى عند هند بنت المهلب فليلة فتى بين الفتيان يلعب ويلعبون، وأما ليلتى عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك، وأما ليلتى عند أم جلاس فليلة أعرابى مع أعراب فى حديثهم وأشعارهم، وأما ليلتى عند أمة بنت عبدالرحمن بن جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء.

أما الزوجتان المشهورتان فى حياة الحجاج فقد طلقهما وهما هند بنت المهلب وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارى، وقد قيل إنه طلق بنت المهلب بعد أن عزل أخاه يزيد عن ولاية خراسان وسجنه فحزنت عليه فطلقها.

وأما هند بنت أسماء فطلقها لحبها لزوجها الأول عبيد الله بن زياد الذى قتل عام ٦٧هـ وقيل إنها أحبته - أى عبيد الله بن زياد - ولم يتزوجها وأنها تزوجت من بشر بن مروان أخو الخليفة عبدالملك وكان والياً للعراق قبل الحجاج.

والحقيقة أن هناك اختلافا حول ما حدث بين الحجاج وزوجاته حتى قيل أيضاً إنه طلق هند بنت المهلب وهند بنت أسماء لسبب واحد وهو أنه رأى فى المنام أن عينيه قلقتان فأول الرؤيا بطلاق زوجته فطلقها.

فلم يلبث أن جاءه نعى أخيه محمد بن يوسف والى اليمن فى اليوم الذى مات فيه ابنه محمد بن الحجاج، فقال: محمدان فى يوم واحد، إنا لله وإنا له راجعون.(١)

وسبب عدم ذكر المؤرخين لزوجات ونساء الحجاج أنه كان رجل حكم وحرب، فأما عن زوجته الثانية هند بنت أسماء بن خارجة الفزارى فإنها تزوجت عبيد الله لا

(١) انظر الكامل - للمبرد، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

ابن زياد وقيل أحبته ولم تتزوجه.[1] وأنها تزوجت ببشر بن مروان كما ذكرنا فلما مات عنها زوجها تزوجت الحجاج الثقفى وهو والى العراق وأرسل إليها مهراً عظيماً.

وكان الحجاج بن يوسف يحب أن يتزوج من بيوتات العرب، وكان الناس يتقربون إلى الحجاج بذلك، فدله محمد بن عمير الدارمى على هند بنت أسماء ووصفها له وقال: تزوجها أيها الأمير فإنها فى بيت قيس.

فأرسل الحجاج أيوب بن القرية - وكان من فصحاء العرب - وقال له: اخطب علىَّ هند بنت أسماء، ولا تزد على ثلاث كلمات.

فأتاهم فقال: أتيتكم من عند من تعلمون، والأمير معطيكم ما تسألون، أفتنكحون أم تردون؟

قالوا: بل أنكحنا وأنعمنا.

فرجع ابن القربة إلى الحجاج فقال: أقر الله عينك، وجمع شملك، وأنبت ريعك؛ على الثبات والنبات، والغنى حتى الممات، جعلها الله ودوداً ولوداً، وجمع بينكما على البركة والخير.

وبنى الحجاج قصراً فى البصرة، عرف بقصر الحجاج، ونزل به، فقال لها - أي هند - يوما: هل رأيت أحسن من هذا القصر؟

فقالت: ما أحسنه.

قال: أصدقينى.

فقالت: أما إذا أبيت، فوالله ما رأيت أحسن من القصر الأحمر! وكان دار الإمارة بالبصرة، بناه زوجها الأول عبدالله بن زياد.

فغضب الحجاج وأمر ابن القرية أن يأتى هند بنت أسماء فيطلقها بكلمتين، ويمتعها بعشرة آلاف درهم.

---

(١) وقيل إنها كانت معه حين قتل عام ٦٧هـ على نهر الخازر قرب الموصل فركبت فرسه ودخلت الكوفة وظلت حزينة عليه تتمنى أن تقوم الساعة حتى تلتقى به فى الآخرة وكانت تقول: إنى لاشتاق إلى القيامة لأرى فيها عبيدالله بن زياد، ولهذا فمن الأرجح أنها تزوجته.

فأتاها فقال لها: إن الحجاج يقول لك: كُنْتِ فَبِنْتِ[١]، وهذه عشرة آلاف متعة لك فقالت: قل له: كنا فما حمدنا، وبِنَّا فما ندمنا؛ وهذه العشرة الآلاف لك ببشارتك إياى بطلاقى.

وخطبها عمران بن موسى بن طلحة فردته، وأرسلت إليه: إنى والله ما بى عنك رغبة، ولكن ليس زوجى إلا من لا يودى قتلاه ولا يرد قضاؤه، وليس ذلك عندك.

وقيل لهند: أى أزواجك كان أحب إليك؟

فقالت: ما أكرم النساء إكرام بشر بن مروان، ولا هاب النساء هيبة الحجاج، ووددت أن القيامة قد قامت فأرى عبيد الله بن زياد، واشتفى من حديثه، والنظر إليه.

ولما مات الحجاج قالت هند:

ألا أيها الجسد المسجى ... لقد قرت بمصرعك العيون

وكنت قرين شيطان رجيم ... فلما مت سلمك القرين

وقد قيل إن التى أنشدت هذا الشعر هى هند بنت المهلب وقيل أيضاً إن قول هند بنت النعمان فى حق زوجها الوزير روح بن زنباع بينما يروى الأبشيهى أن الحجاج هو المقصود وأن هند بنت النعمان كانت زوجته بعد الوزير روح بن زنباع.

ولكن الأصفهانى فى الأغانى ذكر أن هند بنت النعمان تزوجت بعد الوزير روح ابن زنباع هو الفيض بن محمد الثقفى وقد قالت فيه هذا الشعر لأنه كان يسكر ويقىء فى حجرها وأن الحجاج تزوج من ابنتها وليس منها.[٢]

وقد ذكروا قصة هند بنت المهلب وزواجها من الحجاج ثم طلاقها منه ثم زواجها من الخليفة عبدالملك وقيل الخليفة الوليد بن عبدالملك وكيف أنها أذلت الحجاج الذى طلقها حين تزوجت بالخليفة ولا نعرف لهذه القصة أصلاً إلا أنها شاعت ولهذا سنذكرها دون التأكيد على صحتها.

ولنتعرف عن هند بنت المهلب أولاً:

(١) بنت كلمة تعنى الطلاق البائن الذى لا رجعة فيه.

(٢) أنظر المستطرف من كل فن مستظرف - للأبشيهى.

الحجاج الثقفى وهند بنت المهلب:

هى هند بنت المهلب بن أبى صفرة الأزدية البصرية، أبوها قائد الكتائب، الأمير المهلب بن أبى صفرة حاكم خراسان والذى حارب الخوارج وله العديد من الفتوحات كما ذكرنا من قبل.

أما هند فعرفت برجاحة العقل وبعد الهمة كما اشتهرت بفصاحة نادرة وبلاغة واضحة وحكمة هادفة وكمال أدب وحسن خصال ومروءة فقد كانت هند أشهر نساء عصرها ذات ذكاء حاد، شاعرة، ذات حضور، بنت حسب ونسب، وطلعة بهية، وجمال أخاذ، بالإضافة إلى ما حباها الله من ذوق وفهم بليغ تتذوق الشعر.

حين ولى الحجاج أمر العراق بتكليف من الخليفة عبدالملك وبعد شهور قليلة، استتب له الأمر، وذاع صيته بأنه شديد المراس، وأصبح تهابه العامة والخاصة، وجاء من نصحه قائلاً، لماذا لا تتزوج من أهل العراق ولتقوى صلة الرحم بينك وبينهم عسى أن تكون لك مودة ومحبة، ورشح له هند بنت المهلب من سادة البصرة لذكائها وعلمها، فأرسل يخطبها فترددت لعدم معرفتها به، قدم لها مهرا لم تسمع به العرب من قبل، وعندما تأخرت عرض عليها ٢٠٠ ألف دينار عربى مؤخراً لصداقها، فوافقت.

وبعد الزواج شعرت بأنها لم تحسن الاختيار، حيث تزوجت رجلا شديد المراس، ولما لم تحمل منه بعد مرور عام على الزواج أخذها سراً إلى إحدى طبيبات العرب ذات خبرة ودراية.. ولما دخلت عليها سألتها العجوز من تكون التى تريد أن تحمل؟

أجابتها هند:

وما هند إلا مهرة عربية ... سليلة أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فحلاً فلله درها ... وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

---

(١) أنظر المستظرف كل من مستظرف - للأبشيهى.

وسمع الحجاج ذلك، وساءه ما سمع وانصرف راجعاً وأرسل لها مع أحد أعوانه مائتى ألف دينار، وقال له طلقها بكلمتين فقال: كُنْتِ فَبِنْتِ.. وهذا مالك.

فردت عليه شاكرة وقالت: كنا فما حمدنا وبنَّا فما ندمنا.

فيابشير الخير.. هذه المائتا ألف بشارة لك ومن معك على خلاصى من كل بنى ثقيف.(١)

وقيل إن الخليفة عبدالملك بن مروان أعجب بذكائها وفتنه شوقاً جمالها، فبعث لها برسالة يخطبها لنفسه، وردت عليه: وقالت

لقد نقض وضوئى فلست بطاهرة.

ففهم الخليفة قصدها، وعرف مرادها.. فأجابها: توضئى واغسلى سبع مرات إحداها بالتراب فسيكون الإناء طاهرا بإذن الله.

فاشترطت هند بنت المهلب عليه أن يقود هودجها الحجاج بنفسه إلى عاصمة الشام بعد أن قالت له: لقد اغتسلت فطهرت.

وهكذا أمر الخليفة عبدالملك عاملة الحجاج أن يقود هودج بنت المهلب بنفسه إلى دمشق، وكان له السمع والطاعة بعد أن كظم غيظه وبعد أن دخل الهودج دمشق جاء الحجاج ليقول لها لم يبق على قصر الخليفة إلا ساعة، وإذا كانت تريد أن تستريح قبل الوصول إلى القصر أم يكمل السير؟

وفى هذه الأثناء كانت تضحك مع جاريتها، ورمت ديناراً على الأرض وعندما جاء الحجاج قالت له: لقد سقط منى درهم ابحثوا عنه، فلم يجد الدرهم ولكنه وجد الدينار.

وكانت تقصد أن الله أبدلها بالدرهم أى الحجاج بالدينار وهو الخليفة!!

وقال لها: يابنت المهلب لم نجد الدرهم ولكن وجدنا دينارا فقالت: الحمد لله

---

(١) ومعنى قولها بنا أى طُلقت طلاقا بائنا غير رجعى، وقيل أيضاً إن الحجاج دخل عليها الدار وقالت تلك الأبيات وهو خلفها وهى تمشط شعرها ولم تشعر به، فطلقها طلقة بائنة.

أضعنا درهما وأنعم الله علينا دينارا.

فقال:

فإن تضحكى منى فيا طول ليلة تركتك فيها كالقبا تبكين

فختمت بقولها

فمال يكتسب والعز مرتجع إذا النفوس وقاها الله من عطب

وكان لهند موقف مع عمر بن عبدالعزيز، رحمه الله، يدل على وفرة عقلها وتمكنها من البلاغة المقرونة بالحجة اللطيفة.

حدث ابن عساكر فقال: قدمت هند بنت المهلب على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله بخناصرة، وكان قد حبس أخاها يزيد فقالت له: ياأمير المؤمنين علام حبست أخى؟

قال: تخوفت أن يشق عصا المسلمين.

فقالت له: فالعقوبة بعد الذنب أو قبل الذنب؟

قال التابعى الفقيه أيوب السختيانى - رحمه الله - ما رأيت امرأة أعقل من هند بنت المهلب، حدثت هند عن أبيها - وكان أحد رواة الحديث - كما حدثت عن الحسن البصرى وغيرهما.

ودخل زياد القرشى عليها، فرأى فى يدها مغزلاً فقال لها: أتغزلين وأنت امرأة أمير؟

فقالت: سمعت أبى يقول: قال رسول ﷺ: «أطولكن طاقة أعظمكن أجراً وهو يطرد الشيطان ويذهب بحديث النفس». (طاقة الصوف مثلا)

وقيل إن مسلمة بن عبدالملك أرسل إلى هند يخطبها على نفسه، فقالت لرسوله: «والله لو أحيا من قتل من أهل بيتى وموالى، ما طابت نفسى بتزويجه، بل كيف يأمننى على نفسه، وأنا أذكر منه، ثأرى عنده.

وحدثت أم عبدالله فقالت: كنت أدخل على هند، وهى تسبح بحبات اللؤلؤ، فإذا فرغت من تسبيحها ألقته إلينا فقالت: اقتسمنه بينكن.

ومن أقوالها: ما رأيت لصالحى النساء وشرارهن خيراً من إلحاقهن بمن يسكن من الرجال، ولرب مسكون إليه غير طائل «والسكن على كل حال أوفق».

ومن إبداع أقوالها وأجملها عن المرأة قولها: شيئان لا تؤمن المرأة عليهما: الرجال والطيب، وهذه القاعدة المبنية على الحكمة، لا تخرج عن محور الدين، فالدين حرم الاختلاط، كما حرم الطيب على المرأة إن أرادت الخروج.

وتقول أيضا: رأيت صلاح الحرة إلفها، وفسادها بحدتها، وإنما يجمع ذلك ويفرقه التوفيق.

وقولها حين ذكرت امرأة بجمال فقالت: ما تحلين النساء بحلية عليهن من لب ظاهر، تحته أدب كامل.

ذكر ابن عبدربه فى كتابه العقد الفريد، بعضاً من أخبارها، ومن ذلك قوله: قال السجستانى: ما رأيت إمرأة أعقل من هند بنت المهلب، وكانت تقول: النساء ما زين بشىء كأدب بارع، تحته لب طاهر.

وبعد ذكر ذلك من سيرتها وأقوالها يتضح لنا شخصيتها وقوتها ولا عجب فيما فعلته مع الحجاج الثقفى فالحديد لا يفله إلا الحديد!!

وقصتها مع الحجاج وطلاقها منه كما ذكرنا أمر مختلف فيه وكذلك زوجها من الخليفة بحيث قيل إنها تزوجت من عبدالملك بن مروان وقيل من ابنه الوليد والله أعلم.

وأما عن أولاد الحجاج فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه أنجب محمد بن الحجاج ومات فى حياته كما ذكرنا حين جاءه خبر وفاة ابنه محمد وأخيه محمد ابن يوسف، وذكر ابن جرير أن الحجاج كان له ابن آخر اسمه عبدالله بن الحجاج وأنه عاش من بعده وأنه عهد إليه أن يصلى بالناس حين مرض مرض الموت.

وذكر قتيبة أن لمحمد بن الحجاج ذرية فى الشام وأن له ابناً آخر ثالث هو عبدالملك وله ذرية فى البصرة.[1]

(١) أنظر عيون الأخبار لابن قتيبة.



نهاية الحجاج وآل الحجاج

- وفاة الحجاج بعد قتله سعيد بن جبير.
- انتقام الخليفة سليمان من آل الحجاج بعد توليه الخلافة.

وفـاة الحجـاج
وهلاكه بعد قتله سعيد بن جبير

ولد الحـجـاج كـمـا ذكـرنا سنة ٤٠هـ وقـيل سنة ٣٩هـ وقـيل سنة ٤١ هـ فى الطائف، نشأ شابا فصيحا بليغا حافظا للقرآن، وقد قال بعض السلف إنه كان يقرأ القرآن كل ليلة[١].

عام ٩٥هـ ظفر الحجاج الثقفى بسعيد بن جبير ودارت بينهما مناقشة وحوار انتهى بقتل ابن جبير وذكر ابن جرير الطبرى انه قتل عام ٩٤هـ وقد ذكرنا ماحدث بين ابن جبير والحجاج.

وكان آخر كلمات ابن جبير حين قال الحجاج لجنوده؟ اضربوا عنقه.

فقال: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، استحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة، فأنا خصمك عند الله.

فذبح ابن جبير رحمه الله من قفاه، فبلغ ذلك الحسن البصرى فقال: اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج.

فما بقى الحجاج بعدها ثلاثة أيام حتى وقع من جوفه دود فأنتن منه فمات.

وقال ابن جبير للحجاج لما أمر بقتله وضحك

فقال له الحجاج: ما أضحكك؟

فقال سعيد: أضحك من غيرتك على وحلم الله عنك[٢].

وقد ذكرت روايات كثيرة فى هذا الأمر كلها اتفقت على شىء واحد ان هلاك

---

(١) البداية والنهاية - مصدر سابق.

(٢) المصدر السابق.

الحجاج جاء بعد مقتله سعيد بن جبير بأيام أو فترة وجيزة، وذلك فى شهر رمضان سنة ٩٥هـ قبل خمس وقيل لثلاث بقين من رمضان وقيل مات فى شوال عام ٩٥هـ.

وذكر أن سعيد بن جبير قد دعا ربه قبل موته ألا يسلط الله الحجاج على أحد بعده فقيل إنه أى الحجاج لم يقتل أحدا بعد ابن جبير وقيل قتل رجلا واحدا.

وقد ذكر الأصفهانى فى كتابه الأغانى ان الحجاج كتب الى عامله قتيبة بن مسلم بأنه فكر فى سنه فوجد أنه قد بلغ الثالثة والخمسين، وإن من وصل إلى الخمسين أوشك من النهاية.

وكان سبب قول الحجاج أن المرض قد بدأ يدب فى جسده بقوة وأصبح يخرج الدود من معدته وهو مايعرف بسرطان المعدة وقد أشرف على علاجه طبيبه «تياذوق» وكان طبيبا ماهرا فى الطب يداوى ويعالج الأكاسرة وله مؤلفات كثيرة فى الطب لكنه لم يجد له علاجا حتى أشرف الحجاج على الموت، وفرح أهل العراق بمرضه وقرب موته.

حتى إن أبا المنذر يعلى بن مخلد المجاشعى دخل عليه وهو فى هذا المرض وقال له: كيف ترى مابك ياحجاج من غمرات الموت وسكراته؟

فقال الحجاج له: يا يعلى غما شديداً وجهداً حميداً وألماً مضيضاً ونزعاً جريضاً وسفراً طويلاً وزاداً قليلاً فويلى ويلى إن لم يرحمنى الجبار.

فقال له يعلى: ياحجاج، إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء أولى الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقه، أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك وتنكبك قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين.

قتلت صالحى الناس فأفنيتهم وأبدت عترة التابعين فبترتهم وأطعت المخلوق فى معصية الخالق.

وهرقت الدماء وضربت الأبشار وهتكت الأستار وسست سياسة لا الدين أبقيت ولا الدنيا أدركت.

أعززت بنى مروان وأذللت نفسك وعمرت دورهم وأخربت دارك، فاليوم

لاينجونك ولايغيثونك إذ لم يكن لك فى هذا اليوم ولا لما بعده نظر.

لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما وعناء وبلاء، فالحملد لله الذى أراحها بموتك وأعطاها مناها بخزيك.

كانت كلماته قاسية موجهة صاعقة نزلت على الحجاج، فسكت وتنفس الصعداء حتى خنقته العبرة ثم رفع رأسه فنظر إليه وانشأ يقول:

رب إن العباد قد آياسونى

ورجائى لك الغداة عظيم[1]

ودعا ربه فقال: اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون انك لا تفعل، وظل يردد هذين البيتين:

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا

أيمانهم أننى من ساكنى النار

أيحلفون على كل عمياء ويحهم

ماظنهم بعظيم العفو غفار[2]

وروى الطبرى فى تاريخه وغيره عن سالم الأفطس، قال: أُتِىَ الحجاج بسعيد ابن جبير وهو يريد الركوب وقد وضع إحدى رجليه فى الغرز - أو الركاب - فقال: والله لا أركب حتى تتبوأ مقعدك من النار، اضربوا عنقه.

فضربت عنقه: فالتبس مكانه - أى الحجاج - فجعل يقول: قُيودُنا قُيودُنا.

فظنوا أنه قال: القيود التى على سعيد بن جبير، فقطعوا رجليه من انصاف ساقيه وأخذوا القيود.

وعن هلال بن خباب قال: جىء بسعيد بن جبير الى الحجاج فقال: اكتتبت

(١) انظر ذيل الأمالى والنوادر لأبى على القالى.

(٢) انظر التاريخ الكبير لابن عساكر وتاريخ الذهبى وسير أعلام النبلاء للذهبى ووفيات الأعيان.

الى مصعب بن الزبير؟

قال: بل كتب إلىَّ مصعب.

قال الحجاج: والله لأقتلنك.

قال سعيد: إذا لسعيد كما سمتنى أمى.

قال: فقتله، فلم يلبث - أى الحجاج - بعده الا نحوا من أربعين يوما، فكان إذا نام يراه أى سعيد فى منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول: يا عدو الله لِمَ قتلتنى.

فيقول الحجاج: مالى ولسعيد بن جبير، مالى ولسعيد بن جبير!!

وقد أجمع المؤرخون أن موت الحجاج جاء بعد قتله لسعيد بن جبير التابعى الفقيه بأيام وقد لزمه المرض، وأن سعيد بن جبير دعا ربه قبل قتله ألا يسلط الله الحجاج على أحد من خلقه.

ولما مات فرح الناس لموته وخر عمر بن عبدالعزيز على الأرض ساجدا شاكرا، وكذلك الحسن البصرى وبكى إبراهيم النخعى من شدة الفرح.

ودفن بمدينة واسط التى بناها وعفى قبره وأجرى عليه الماء.

إلا أن الحجاج كما ذكر ابن عساكر وغيره لم يترك لورثته إلا ثلاثمائة درهم ومصحفا وسرجا ورحلا ومائة درع موقوفة وهذا من عجائب الحجاج ونوادره.

وذكر الطبرى فى تاريخه أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلف ابنه عبدالله ابن الحجاج على الصلاة أى أن يصلى بالناس إماما، وان مدة ولايته على العراق نحو عشرين سنة.

وقيل إنه استخلف يزيد بن أبى كبشة على البلاد للصلاة والحرب وعلى الخراج يزيد بن أبى مسلم وان الوليد بن عبدالملك آقرهم بعد موت الحجاج على ما استخلفهما الحجاج عليه وكذلك فعل بعمال الحجاج على الولايات.

وحزن الخليفة الوليد بن عبدالملك على الحجاج وتوفى بعده بتسعة أشهر أو تزيد أو تقل قليلا، ولكن الوليد قد أصابه المرض قبل موت الحجاج حتى شاع أنه مات

وذلك قبل موت الحجاج فلما أفاق الوليد وأحس بالعافية فرح الحجاج فرحا شديدا حتى قال الوليد لعمر بن عبدالعزيز: ما أحد أسر بعافيه أمير المؤمنين من الحجاج.

فقال عمر له: ما أعظم نعمة الله علينا بعافيتك وكأنى بكتاب الحجاج قد أتاك يذكر فيه أنه لما بلغه برؤك - شفاؤك - خر لله ساجدا وأعتق كل مملوك له.

وبالفعل جاءت الأخبار إلى الخليفة أن الحجاج فعل ذلك.

وكانت خطبة الحجاج الأخيرة قبل موته لأهل العراق حين فرحوا بمرضه وقرب موته، فقال فى خطبته:

ان طائفة من آهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج، ومات الحجاج، فمه، وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت.

والله مايسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا ومافيها، وما رأيت الله رضا التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس قال الله له: إنك من المنظرين؟!

فأنظره إلى يوم الدين ولقد دعا الله العبد الصالح فقال:

﴿وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى﴾ فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، فما عسى أن يكون أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأنى والله بكل حى منكم ميتا وبكل رطب يابسا. ثم نقل فى ثياب أكفانه إلى ثلاث أذرع طولا فى ذراع عرضا»، فأكلت الأرض لحمه ومصت صديده وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله، إن الذين يعقلون ما أقول.

ثم نزل من على المنبر.

وحزن عليه الخليفة الوليد وجلس يتقبل فيه العزاء ثم مات أيضا كما ذكرنا بشهور قليلة وذلك عام سنة ٩٦ هـ.

وتولى سليمان بن عبدالملك الخلافة بعده وكان شديد الكراهية للحجاج، إضافة إلى أن يزيد بن المهلب عدو الحجاج كان من أخلص أصدقاء الخليفة الجديد ومن جلسائه.

نهاية آل الحجاج على يد الخليفة سليمان بن عبدالملك

كان الوليد قبل وفاته قد عزم الأمر على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد فقد كان الوليد وسليمان وليَّيْ عهد أبيهما عبدالملك بن مروان فلما أفضى الأمر إلى الوليد أراد ان يبايع لابنه عبدالعزيز ويخلع سليمان فأبى سليمان فأرسل الوليد يأخذ البيعة لابنه من عماله فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس حتى قال له عباد بن زياد:

- إن الناس لايجيبونك إلى هذا، ولو أجابوك لم آمنهم على الغدر بابنك، فاكتب إلى سليمان فليقدم عليك، فإن لك عليه طاعة فأرده على البيعة لعبد العزيز بعدك فإنه لايقدر على الامتناع وهوعندك فإن أبى كان الناس عليه.

كتب الوليد إلى سليمان يأمره القدوم عليه فأبطأ المجيء فاعتزم الوليد المسير اليه وأن يخلعه ولكنه مرض ذلك المرض الذى مات فيه، ومات قبل خلع سليمان.

ولهذا كله انتقم سيلمان بعد توليه الخلافة من الذين ناصروا وأيدوا أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد وعلى رأسهم الحجاج الثقفى وقائده قتيبة بن مسلم.

إضافة الى ذلك أن يزيد بن المهلب كان من أصدقائه المخلصين وجلسائه المحببين إليه حتى إنه كان يقسم أى هدايا تأتى إليه بينه وبين يزيد بن المهلب فلما تولى الخلافة كان يشاوره فى كل الأمور وأعاده الى حكم خراسان والعراق.

وكان يزيد بن المهلب يكره الحجاج لأنه خلعه من حكم خراسان التى كان يحكمها أبوه المهلب بل ووضعه فى السجن رغم أن الحجاج كان زوج أخته «هند» كما ذكرنا وكان ذلك أحد أسباب طلاقها من الحجاج فلما تولى سليمان أمر الخلافة كان يزيد ذا حظوة لديه فكان الانتقام من أسرة الحجاج أمرا طبيعيا فى

عهد سليمان.

فقد كانت معيشة وأمر أسرة الحجاج بعد وفاته على خير حال خلال الأشهر القليلة التى عاشها الخليفة الوليد بعد موت الحجاج حيث لم تطل مدة حياة الوليد بعد الحجاج أكثر من ثمانية او تسعة أشهر حيث مات الوليد سنة ٩٦هـ.

وقد ولى سليمان أمر العراق ليزيد بن المهلب وخلع قتيبة الذى خشى على نفسه فأعلن خلعه لسليمان ثم كان مقتله كما ذكرنا.

واصدر سليمان أوامره بتعيين صالح بن عبدالرحمن على خراج إقليم العراق وكلفه بالانتقام من أسرة الحجاج بل وقتلهم، فقام صالح يساعده أخو يزيد وهو عبدالملك بن المهلب بتعذيب آل الحجاج فقام بسجن الحكم بن أيوب بن أبى عقيل وعذبه حتى مات تحت التعذيب.

وقام سليمان بالإفراج عن كل الذين سجنهم الحجاج فى سجون الدولة فكانوا آلافا كثيرة.

وقام ابن المهلب بالقبض على عيال الحجاج فنقلهم وما معهم من الشام إلى العراق وكان فيهم أخت الحجاج وهى زوجة يزيد بن عبدالملك وتعذيبها، وأمر سليمان الولاة بلعن الحجاج على المنابر ففعلوا حتى إن خالد القسرى والى مكة جاء الأمر بلعن الحجاج على المنبر يوم الجمعة فلعنه[١].

وهكذا انتهى آل الحجاج بعد موته وموت الوليد بن عبدالملك أى بعد عام تقريبا من وفاة الحجاج نفسه وترك أمر سيرته للمؤرخين والكتاب عبر العصور والذين أوسعوه بالنقد واللعن إلا القلة القليلة التى رأت أن مافعله الحجاج كان له مبررات سياسية فى عصره وأنه كان مثل رجالات أى دولة فى أى عصر فكان الرجل المناسب فى المكان والزمان المناسب.

■ ■ ■

(١) انظر تاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ، ومرآة الجنان - لليافعى.

كلمة أخيرة
الحجاج فى ذمة التاريخ

انبرى المؤرخون قديما وحديثا بالحديث عن الحجاج والهجوم على سيرته المليئة بالدماء والأشلاء والرؤوس المذبوحة على يديه فكان مما قاله الذهبى إنه كان ظلوما غشوما جبارا خبيثا سفاكا للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن، وقد ذكرنا ذلك من خلال عرض سيرته بموضوعية.

وقد اعتبره البعض مثل الحسن البصرى أنه كان عذاب الله لعباده.

ويعتبر البعض ان الحجاج قد حير الناس بما يحمله فى طيات شخصيته من متناقضات، فقد كانت له أعمال عظيمة مثل ماحدث فى أيامه من فتوحات عظيمة فى المشرق وتبنيه لمشروع تنقيط حروف القرآن وكلماته ليسهل على الناس قراءته، وكذلك قيامه ببناء مدينة مثالية هى مدينة واسط وغير ذلك من الأعمال خلال سنوات حكمه للعراق العربى والعراق الفارسى وهى عشرون سنة فى عهد الخليفة عبدالملك وابنه الوليد.

لكن تلك الحسنات ضاعت وغاصت كماقال المؤرخون فى جبال وبحور الدماء التى أجراها الحجاج[1].

ونحن نرى أن شخصية الحجاج بما يراه فيها الكثير من المتناقضات ليست إلا شخصية واحدة وهى شخصية رجل الدولة أو الحاكم المستبد القوى الشديد البطش، فهو يرى أن الخروج على الحاكم كفر يستوجب

(١)لخص الذهبى هذا الأمر بقوله عن حسنات الحجاج: «وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه وأمره إلى الله».

القتل، فكان يقتل كل خارج ومعترض على الحاكم فهذا ديدنه.

فلم يكن الحجاج فى ذلك بدعة، وإنما كان ولاؤه لأسياده زيادة عن كل الحدود حتى إه بالغ فى ذلك فكان يقتل على الظنة وهذا ما جعل تعداد الذين قتلهم الحجاج من أجل عيون بنى أمية يزيدون على المائة ألف وعشرين ألف نفس وأن يكون فى سجونه أكثر من خمسين ألفا من الرجال والنساء.

وكان عمر بن عبدالعزيز الخليفة الراشد الأموى يكره أفعال الحجاج وحكمه وظلمه وقد روى عنه أنه قال:

لو تخابثت الأمم وجئنا بالحجاج لغلبناهم وماكان يصلح لدنيا ولا لآخرة.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أحد عماله على الولايات عدى بنى أرطأة فقال له: بلغنى أنك تستن بسنن الحجاج، فلا تستن بسننه، فإنه كان يصلى الصلاة لغير وقتها ويأخذ الزكاة من غير حقها وكان لما سوى ذلك أضيع.

ورغم ذلك لم يظلم عمر بن عبدالعزيز آل الحجاج فى فترة حكمه فقد روى عن الريان بن مسلم انه قال:

بعث عمر بن عبدالعزيز بآل ابى عقيل - وهم أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن - والى اليمن - وكتب اليه: أما بعد، فإنى قد بعثت بآل أبى عقيل وهم شر بيت فى العرب، ففرقهم فى العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا، وعليك السلام.

أى أن عمر بن عبدالعزيز لم يعذبهم ويقتلهم كما فعل سيلمان بن عبدالملك وإنما نفاهم.

والسؤال الذى قد يتبادر إلى الذهن هل انتهى أسلوب الحجاج فى الحكم؟

بالطبع لا، فالحجاج كما ذكرنا ليس بدعة من الحكام والوزراء ورجالات الدولة الطغاة وإنما سبق الحجاج مثله الكثير وخلفه مابعده كثير، فالصراع

على السلطة والحكم مستمر إلى يوم القيامة حتى ظن البعض أن أمثال الحجاج يجب أن يتواجدوا كى تستقر الأمور الساسية والأمنية فى أى بلد وخاصة بلاد العالم الثالث.

وحتى إن البعض قد انبرى ليدافع عن الحجاج وعن أفعاله ويبررها ويزين حسناته ويضخمها والاختلاف فى الرأى كما يقولون لايفسد للود قضية.

ولاشك أن الحجاج له حسناته ولكنها كما قال الذهبى انغمرت تلك الحسنات فى بحور ظلمه وسيئاته، فقد أصبح الحجاج فى ذمة التاريخ وأمره إلى خالقه إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

وهذا قول محمد بن سيرين حين ذُكر أمر الحجاج عنده فقال: مسكين أبومحمد - أى الحجاج - إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه، وان يغفر له فهنيئا له، وإن يلق الله بقلب سليم، فقد أصاب الذنوب من هو خير منه.

فقيل له: ما القلب السليم؟

قال: أن تعلم أن الله حق وأن الساعة حق قائمة، وأن الله يبعث من فى القبور.

وحين قال رجل لسفيان الثورى رحمه الله: اشهد على الحجاج وعلى أبى مسلم أنهما فى النار.

قال: لا، إذا أقرا بالتوحيد.

فنحن هنا فى هذا الإصدار لا نتكلم عن كون الحجاج من أهل النار أو أهل الجنة وإنما نستعرض سيرته وتاريخه لنأخذ منها العبرة ونرد على الذين يسلكون مسلك الحجاج فى حكمهم.

وأيضا للذين يعتقدون ان مسلك الحجاج فى حكمه كان مسلكا عاديا وأنه يجب البطش كى يستقر أمر الحكام والحكم فقد شهد التاريخ فى بعض فترات حكام عادلين جاءوا فى نفس الظروف السياسية التى ظهر

فيها الحجاج فحكموا العباد والبلاد بالعدل فاستقرت الأحوال ومنهم عمر ابن عبدالعزيز رحمه الله.

لقد ذهب الحجاج وأمثاله الذين يظنون أن كل من يخرج على السلطان والحكام كافر يقتل تقربا لله يرجَى به الأجر وهذا ما يفسر التناقض فى شخصية الحجاج وغيره من أمثاله وقد أوضح فى وصيته ولاءه الشديد للوليد بن عبدالملك بوصفه الحاكم الشرعى للبلاد.

وماكان يؤمن به الحجاج كان أيضا مذهب الخوارج الأزارقة الذين حاربهم الحجاج، فمذهب الخوارج عموما هو تكفير الحاكم ومذهب الحجاج تكفير من يخالف الحكام!!

وهذا الاعتقاد من الحجاج يوافق هوى بنى أمية وأمثالهم.

وقد شاع من مذهب الحجاج تكفير كل من يخرج على الحكام من بعده شيوعا كبيرا حتى شاع بين العامة من الناس حتى يومنا هذا أن الحكام والخلفاء هى أصفياء الله ولايجوز الخروج عليهم ومن خرج عليهم فدمه حلال وسمى كافرا وخارجيا، فقد بالغ الحجاج ومن جاء بعده فى تعظيم السلاطين والحكام.

نسأل الله العظيم أن يميت سنة الحجاج كما أهلكه إنه ولى ذلك والقادر عليه.

ونسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا هذا العمل وسائر أعمالنا الأخرى الصالحة وأن يغفر لنا ويعفو عنا إنه ولى ذلك القادر عليه وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

■ ■ ■

أهم المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- العقد الفريد - ابن عبد رَبِّهِ.

٣- صحيح البخارى.

٤- صحيح مسلم.

٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٦- دائرة المعارف الإسلامية.

٧- تاريخ دمشق - ابن عساكر.

٨- البداية والنهاية لابن كثير.

٩- تاريخ الطبرى.

١٠- طبقات ابن سعد.

١١- عيون الأخبار لابن قتيبة.

١٢- الكامل - أبوالعباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد.

١٣- فتوح البلدان لأحمد البلاذرى.

١٤- صفة الصفوة - لابن الجوزى.

١٥- معجم البلدان - ياقوت الحموى.

١٦- سير أعلام النبلاء - للذهبى.

١٧- تاريخ الإسلام - للذهبى.

١٨- وفيات الأعيان - ابن خلكان.

١٩- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال - للذهبى.

٢٠- عيون التواريخ - ابن شاكر الكتبى.

٢١- مقدمة ابن خلدون.

٢٢- المستطرف فى كل فن مستظرف - الأبشيهى.

٢٣- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - بدر الدين العينى.

٢٤- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - جمال الدين الأتابكى.

٢٥- الأغانى - الأصفهانى.

٢٦- أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة - ابن الأثير.

٢٧- الكامل فى التاريخ - ابن الأثير.

٢٨- ١٥٠ قصة لرجال ونساء مبشرين بالنار - منصور عبدالحكيم.

٢٩- أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية - د/ عبدالله عبدالرحمن.

٣٠- أخبار مكة - الفاكهى.

٣١- ١٥٠ قصة لرجال ونساء حول الرسول ﷺ - منصور عبدالحكيم.

٣٢- بنات الصحابة - منصور عبدالحكيم.

٣٣- التاريخ الإسلامى - عبدالعزيز بن عبدالله الحميرى.

٣٤- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب - لابن عبدالبر.

٣٥- الاخبار الطوال - لأبى حنيفة أحمد الدينورى.

٣٦- حلية الأولياء - أبونعيم الأصفهانى.

٣٨- تاريخ القضاعى.
٣٩- المعارف لابن قتيبة.
٤٠- العراق فى العصر الأموى - ثابت الراوى.
٤١- السيرة النبوية لابن هشام.
٤٢- الحجاج بن يوسف الثقفى المفترَى عليه - د.محمود زيادة.
٤٣- شذرات الذهب - لأبى الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلى.
٤٤- أنساب الأشراف - البلاذرى.
٤٥- الفتاوى لابن تيمية.
٤٦- عبدالملك بن مروان والدولة الأموية - د.محمد ضياء الريس.
٤٧- منهاج السنة - لابن تيمية.
٤٨- يزيد بن معاوية - عمر سليمان العقيلى.
٤٩- سير السلف - لأبى القاسم الأصفهانى.
٥٠- فتح البارى - ابن حجر العسقلانى.
٥١- نظام الحكم فى الإسلام بين النظرية والتطبيق - د. أحمد عبدالفتاح.
٥٢- الفصِل فى الملل والأهواء والنِّحَل - لابن حزم.
٥٣- مع المسلمين الأوائل - د.مصطفى حلمى.
٥٤- الأعلام - خير الدين الزركلى.
٥٥- عبدالله بن الزبير - محمود شاكر.
٥٦- شرح صحيح مسلم - للنووى.
٥٧- المحَلَّى - لابن حزم.

٥٨- الكامل فى التاريخ - ابن الأثير.

٥٩- المنتظم فى تاريخ الملوك - ابن الجوزى.

٦٠- الفَرْق بين الفِرَق - البغدادى.

٦١- الفقهاء والخلفاء - سلطان حثلين.

٦٢- سنن الترمذى.

٦٣- مرآة الجنان - اليافعى.

٦٤- سيكولوجية الجماهير - جوستاف لوبون.

٦٥- مراجع الشخصية - ترجمة وجيه أسعد.

٦٦- الخوف من الحرية - أريك فروحة - ترجمة مجاهد عبدالمنعم.

٦٧- الفكر الإسلامى - قراءة علمية - محمد أركون - ترجمة هشام صالح.

٦٨- الحضارة العربية الإسلامية - شوقى أبوخليل.

٦٩- تفسير ابن كثير.

٧٠- الحرية وأمر الطوفان د.حاكم المطيرى.

٧١- من دولة عمر إلى دولة عبدالملك -إبراهيم بيضون.

٧٢- الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام - إسماعيل الجبورنى.

٧٣- الدولة الأموية المفترى عليها - حمدى شاهين.

٧٤- الشيعة العربية والزيدية - محمد إبراهيم الفيومى.

٧٥- المعجم الكبير للطبرانى.

٧٦- تاريخ خلافة بنى أمية - نبيه عقل.

٧٧- المعارف لابن قتيبة.

٧٨- سنن ابن ماجه.

٧٩- موقف المعارضة فى خلافة يزيد - محمد بن عبدالهادى الشيبانى.

٨٠- تفسير الطبرى.

٨١- مروج الذهب - للمسعودى.

٨٢- المعارف - لابن قتيبة.

■■■

الكاتب فى سطور

- منصور عبدالحكيم محمد عبدالجليل.

- من مواليد القاهرة عام ١٩٥٥م.

- حاصل على ليسانس فى الحقوق - جامعة عين شمس ١٩٧٨م.

- يعمل بالكتابة والمحاماة.

- له العديد من الإصدارات المتنوعة التى تجاوزت ١١٠ مجلدات وكتب فى مختلف الموضوعات أثرت المكتبة العربية والإسلامية وله العديد من الأبحاث والمقالات واللقاءات فى البرامج الحوارية على الفضائيات العربية وترجمة بعض كتبه للإنجليزية والفارسية.

من إصدارات الكاتب

أولاً: سلسلة أحداث آخر الزمان وصدر منها تسعة أجزاء:

١ - السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.

٢ - نهاية العالم وأشراط الساعة.

٣ - عشرة ينتظرها العالم.

٤ - تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود.

٥ - يأجوج ومأجوج من البدء حتى الفناء.

٦ - البداية فتن والنهاية ملاحم.

٧ - واقتربت الساعة.

٨ - هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية.

٩ ـ أصحاب البروج فى مواجهة أصحاب الكهوف.

ثانياً: سلسلة حكومة العالم الخفية وصدر منها:

١٠ ـ أقدم تنظيم سرى فى العالم.

١١ ـ العالم رقعة شطرنج.

١٢ ـ من يحكم العالم سرّاً؟

١٣ ـ أوراق ماسونية سرية للغاية.

١٤ ـ أسرار الماسونية الكبرى.

١٥ ـ حكومة الدجال الماسونية الخفية.

١٦ ـ مؤامرات وحروب صنعتها الماسونية.

١٧ ـ دولة فرسان مالطا وغزو العراق.

١٨ ـ سلالات ومنظمات تحكم العالم.

ثالثاً: سلسلة شخصيات لها تاريخ وصدر منها:

١٩ ـ هولاكو مارد من الشرق.

٢٠ ـ جنكيز خان إمبراطور الشر.

٢١ ـ صلاح الدين المنقذ المنتظر.

٢٢ ـ تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواد.

٢٣ ـ مصطفى كمال أتاتورك ذئب الأناضول.

٢٤ ـ السلطان عبدالحميد الثانى آخر السلاطين المحترمين.

٢٥ ـ عمرو بن العاص داهية العرب.

٢٦ ـ خالد بن الوليد قاهر الفرس والروم.

رابعاً: سلسلة عالم الملائكة الأبرار:

٢٧ ـ إسرافيل وأهوال القيامة.

٢٨ ـ ملك الموت.

٢٩ ـ جبريل أمين الوحى الإلهى.

٣٠ ـ رضوان حارس الجنة ووصف الجنة وأهلها.

٣١ ـ مالك خازن النار وأحوال أهل النار.

خامساً: سلسلة كتب عن مدن وبلاد هزت العالم:

٣٢ ـ بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.

٣٣ ـ بلاد الشام أرض الأنبياء وأشراط الساعة.

٣٤ ـ نيويورك وسلطان الخوف.

٣٥ ـ العراق أرض النبوءات والفتن.

وكتب أخرى متنوعة منها:

٣٦ ـ المهدى فى مواجهة الدجال.

٣٧ ـ الحرب السابعة وزوال اليهود.

٣٨ ـ هرمجدون ونهاية أمريكا وإسرائيل ـ مشترك.

٣٩ ـ السفيانى صدام آخر على وشك الظهور.

٤٠ ـ الفراسة فى معرفة الآخرين.

٤١ ـ نهاية العالم قريباً.

٤٢ ـ نهاية دولة إسرائيل عام ٢٠٢٢م.

٤٣ ـ ازدراء وإيذاء الأنبياء.

٤٤ ـ بنات الصحابة.

٤٥ ـ النساء المبشرات بالنار ـ مترجم للإنجليزية

٤٦ ـ النساء المبشرات بالجنة.

٤٧ ـ الثالوث الغامض ـ أطلنتس ـ برمودا ـ الأطباق الطائرة.

٤٨ ـ نساء أهل البيت النبوى.

٤٩ ـ زوجات الأنبياء والرسل.

٥٠ ـ بيوت الرسول والصحابة حول المسجد النبوى ـ مترجم.

٥١ ـ مناسك الحج.

٥٢ ـ الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان.

٥٣ ـ القرين العدو الحقيقى للإنسان.

٥٤ ـ الحياة الأخرى.

٥٥ ـ الحرب العالمية الأخيرة قادمة.

٥٦ ـ عالم السحر والسحرة والمسحورين.

٥٧ ـ دمار ونهاية أمريكا وإسرائيل.

٥٨ ـ شهداء الصحابة فى عصر النبوة.

٥٩ ـ الحرب العالمية الثالثة قادمة وتدق الأبواب.

٦٠ ـ دعوة للزواج.

٦١ ـ الإمبراطورية الأمريكية ـ البداية والنهاية.

وكتب أخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربى ـ دمشق ـ القاهرة.

فهرس المحتويات

آيات الذكر الحكيم 5

المقدمة 7

«ثقيف» بين الكذاب والمبير 9

قبيلة ثقيف وقبيلة هوازن هم أهل مدينة الطائف 11

قبيلة ثقيف وتحالفها مع هوازن فى قتال المسلمين بعد فتح مكة «غزوة حُنَيْن» 18

دخول قبيلة ثقيف وهوازن فى الإسلام 22

إعادة تأسيس الدولة الأموية 27

الدولة الأموية صعوداً وهبوطاً 29

إعادة تأسيس الدولة الأموية بعد وفاة يزيد بن معاوية وابنه معاوية وأحوال العالم الإسلامى 35

عبدالملك بن مروان وإعادة تأسيس الدولة الأموية 44

ابن الزبير ثائراً وخليفة 57

عبدالله بن الزبير بن العوام ثائراً وخليفة للمسلمين 59

عبدالله بن الزبير ثائراً على حكم بنى أمية الوراثى 63

عبدالله بن الزبير خليفة للمسلمين بعد أخذ البيعة له من غالبية بلاد المسلمين 74

الحجاج بن يوسف الثقفى والخليفة ابن الزبير 83

بداية ظهور أمر الحجاج بن يوسف الثقفى 85

الحجاج وحصار ابن الزبير فى الكعبة 90

موقف ابن عمر رضي الله عنه من الفتن ومن الحجاج 107

الحجاج والياً 113

الحجاج والياً على مكة والمدينة المنورة 115

الحجاج والياً وحاكماً على العراق 117

أول ثورة للناس على الحجاج فى البصرة 124

مواقف وأيام للحجاج فى ولايته وحكمه 129

خادم رسول الله ﷺ والحجاج الثقفى 143

تهديد الحجاج الثقفى للصحابى أنس بن مالك وإيذاؤه له 145

شكوى أنس رضي الله عنه لعبدالملك من إيذاء وتهديد الحجاج له 149

الحجاج وقتال الخوارج 155
الخوارج.. ظهورهم وإثارتهم الفتن على مر العصور 157
قتال الحجاج فرق الخوارج التى ظهرت بثورات فى عهده 168
قتال الحجاج الخوارج الصفرية 179
ثورات ضد الطغيان 199
بداية الثورة على طغيان الحجاج بدأت ولم تنته 201
ثورة الزنج على إثر ثورة ابن الجارود 207
ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج 212
الحجاج وثورة ابن الأشعث 217
ثورة ابن الأشعث على الحجاج الثقفى والخليفة 219
مسألة خلع عبد الملك بن مروان من ابن الأشعث وأنصاره 230
انتهاء ثورة ابن الأشعث فى «دير الجماجم» 235
مصرع ابن الأشعث 241
الحجاج وسعيد بن جبير 253
التابعى سعيد بن جبير وفتنةعبد الرحمن بن الأشعث 255
قتل الحجاج سعيد بن جبير رحمه الله 259
الحجاج خطيباً 263
الخطابة من أسس الشخصية العربية والقيادة المتميزة 265

الخطابة عند العرب القدماء 280

الخطابة فى القرآن والسنة النبوية 282

من خطب الحجاج بن يوسف الثقفى 286

ملامح وسمات الشخصية القيادية عند الحجاج 299

ملامح وسمات شخصية الزعيم والقائد عند الحجاج الثقفى 301

أهم نظريات الإدارة الحديثة 304

اجتماع القيادة والإدارة فى شخص واحد 308

أهم نظريات القيادة وتطبيقها على شخصية الحجاج القيادية 323

شخصيات وفتوحات فى حياة الحجاج الثقفى 327

الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان والفرصة الحقيقية لظهور الحجاج الثقفى 329

الحجاج فى خلافة الوليد بن عبد الملك 336

الفتوحات الإسلامية فى عهد عبد الملك والوليد فى بلاد الروم 340

محاولات فتح سجستان فى عهد عبد الملك 345

آل المهلب ابن أبى صفرة الدوسرى والحجاج 348

قتيبة بن مسلم الباهلى القائد الذى قتله ولاؤه للحجاج 3555

مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله 359

ذكر فتوحات قتيبة بن مسلم فى بلاد ما وراء النهر 363

قتيبة بن مسلم على أبواب الصين 368
نهاية قتيبة ومقتله 370
مصير قاتل قتيبة 376
القائد محمد بن القاسم الثقفى فاتح السند (باكستان) والهند ونهايته بعد مقتل الحجاج 377
نهاية محمد بن القاسم المأساوية 383
مواقف فى حياة الحجاج 387
مواقف وكلمات فى حياة الحجاج 389
فتاوى العلماء فى الحجاج الثقفى ومسألة لعنه أو تكفيره 410
الحجاج وليلى الأخيلية 418
نساء فى حياة الحجاج 431
زوجات الحجاج الأربع وأحواله معهن 433
نساء فى حياة الحجاج 441
زوجات الحجاج الأربع وأحواله معهن 443
نهاية الحجاج وآل الحجاج 441
وفاة الحجاج وهلاكه بعد قتله سعيد بن جبير 443
نهاية آل الحجاج على يد الخليفة سليمان بن عبدالملك 448
كلمة أخيرة 450

الحجاج فى ذمة التاريخ 450

أهم المراجع 455

الكاتب فى سطور 461

من إصدارات الكاتب 461

فهرس المحتويات 465